

عصر الخلافة الراشدة

محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين

تأليف

الدكتور الكريم ضياء العمري

العبيكان
Obekan

مكتبة العبيكان، ١٤٣٤هـ

ح

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمري، أكرم ضياء

عصر الخلافة الراشدة: محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين. / أكرم

ضياء العمري. - ط. ٨. - الرياض، ١٤٣٤هـ

٤٨٠ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٩-٤٦٠-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- الخلفاء الراشدون ٢- التاريخ الإسلامي - عصر صدر الإسلام أ. العنوان

١٤٣٤/٢٣٨٠

ديوي ٩٥٣,٠٢

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الطبعة الثامنة

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

www.obeikanpublishing.com

<http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store>

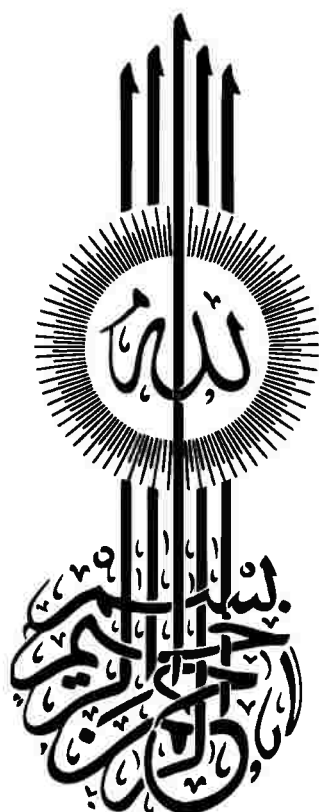
امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 هاتف مجاني: 920020207 فاكس: 4889023 ص.ب: 62807 الرياض 11595

www.obeikanretail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي» أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.



المحتويات

الصفحة →

الموضوع ←

المقدمة	٩
تحليل المصادر	١٣
• الباب الأول: السياسة (الخلافة والخلفاء)	٤١
■ الفصل الأول: الخلافة	٤٣
المبحث الأول: نظام الخلافة	٤٥
المبحث الثاني: خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه	٥٠
المبحث الثالث: خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٥٣
المبحث الرابع: خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه	٥٥
المبحث الخامس: خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٥٧
المبحث السادس: أزمة الخلافة وانتقال مركز الخلافة إلى العراق	٥٩
■ الفصل الثاني: الخلفاء	٦٥
المبحث الأول: أبو بكر الصديق رضي الله عنه	٦٧
المبحث الثاني: عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٧٠
المبحث الثالث: عثمان بن عفان رضي الله عنه	٧٣
المبحث الرابع: علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٧٧

المبحث الخامس: حجية عمل الخلفاء الراشدين	٨٣
المبحث السادس: الشورى	٨٧
• الباب الثاني: الإدارة. القضاء	٩٥
□ الفصل الأول: الإدارة (الولاية. الموظفون)	٩٧
المبحث الأول: الولاية على البلدان	٩٩
المبحث الثاني: الموظفون	١٣٢
□ الفصل الثاني: القضاء	١٤١
• الباب الثالث: الاقتصاد	١٥٩
□ الفصل الأول: الموارد المالية	١٦١
المبحث الأول: الجزية	١٦٣
المبحث الثاني: الخراج	١٧٥
المبحث الثالث: الغنائم	١٨٠
المبحث الرابع: الزكاة	١٨٧
المبحث الخامس: عشور التجارة	١٩٣
□ الفصل الثاني: النفقات العامة	١٩٥
المبحث الأول: مصارف الزكاة	١٩٧
المبحث الثاني: مصارف الغنائم والفيء	١٩٨
المبحث الثالث: العطاء	٢٠٢
المبحث الرابع: الإصلاحات	٢١٣
• الباب الرابع: الثقافة والتعليم	٢٢٩

٢٣١	الفصل الأول: السمات والنظرية والتقاليد
٢٣٣	تمهيد: التراث الثقافي قبل الإسلام
٢٣٨	المبحث الأول: السمات العامة للتعليم
٢٤٣	المبحث الثاني: نظرة الإسلام إلى العلم والتعليم
٢٤٦	المبحث الثالث: آداب التعليم وتقاليد
٢٥٥	الفصل الثاني: التطبيقات والمراكز والموضوعات
٢٥٧	المبحث الأول: النشاط التعليمي
٢٦٦	المبحث الثاني: مراكز الحركة الفكرية
٢٧٠	المبحث الثالث: موضوعات التعليم
٢٨٩	• الباب الخامس: أحوال العالم. الدعوة الإسلامية ومنطلقاتها الفكرية. الفتوحات ...
٢٩١	الفصل الأول: أحوال العالم - الدعوة الإسلامية ومنطلقاتها الفكرية
٢٩٣	المبحث الأول: نظرة إلى أحوال العالم قبل الفتح الإسلامي
٣٠٤	المبحث الثاني: الدعوة الإسلامية ومنطلقاتها الفكرية
٣١٣	الفصل الثاني: الفتوحات
٣١٥	المبحث الأول: فتوح العراق والمشرق
٣٣٠	المبحث الثاني: فتوح الشام ومصر والمغرب
٣٤٣	• الباب السادس: الفتن الداخلية
٣٤٥	الفصل الأول: الردة
٣٤٧	تمهيد: انتشار الإسلام خارج المدينة
٣٥٠	المبحث الأول: حركات الردة

- المبحث الثاني: القضاء على الردة ٣٦٣
- الفصل الثاني: فتنة مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه ٣٧٣
- الفصل الثالث: موقعة الجمل ٤٠٥
- الفصل الرابع: معركة صفين ٤١٩
- الفصل الخامس: موقعة النهروان ٤٣٥
- المصادر والمراجع ٤٤٥
- المصادر ٤٤٥
- المراجع الحديثة ٤٦٧
- المؤلف: السيرة الذاتية ٤٧٧



المقدمة

الحمد لله الولي المنعم، والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه وسلم.

أما بعد.. فإن عصر الخلافة الراشدة امتداد لعصر السيرة النبوية، حيث تؤثر القيم الإسلامية على الناس في نشاطهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وتنعكس على الحكم في علاقته بالأمة من ناحية وبالقوى الخارجية من ناحية أخرى، وتؤثر في اختيار الحاكم وقيم التعامل معه من حيث الطاعة المشروطة بإنفاد أحكام الشريعة، والحفاظ على وحدة الأمة، والشورى، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والاجتهاد الفردي والجماعي لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنة؛ فيما يتعلق بالوقائع الجديدة المتنوعة، وخاصة بعد الانسحاق في الهلال الخصيب وبلاد إيران ومصر، حيث التماس مع حضارات قديمة ونظم اجتماعية واقتصادية عريقة. فلولا الاجتهاد لما أمكن إنزال الأحكام الشرعية على الوقائع القائمة. ولولا الانفتاح العقلي والروح الملهم لما تمكن الفاتحون من التعامل مع المجتمعات الجديدة، وإكسابها الطابع الإسلامي، مع الاحتفاظ بتقدمها في المدنية والعمران.

إن المؤلف في التأريخ هو ذوبان الأمم البدوية في الحضارات القوية، حتى لو اكتسحها البدو عسكرياً، إذ سرعان ما تنحل عصبيتهم، وتذوب روح المقاومة فيهم، ويتطبعون بطابع الحياة الجديدة، ولكن ما حدث في التقاء الفاتحين المسلمين مع الأمم الأخرى هو تلاقح وتبادل عميقان، وكان للإسلام بقيمه الروحية والثقافية المتفتحة الأثر الكبير في أحداثهما، وقد مكنت العقيدة الإسلامية والقيم الثقافية المنبثقة عنها المسلمين من الحفاظ على شخصيتهم وقيمهم ولغتهم وأدبهم وطابع حياتهم، وتحويل المجتمعات الجديدة التي حكموها وإكسابها الصبغة الإسلامية واللسان العربي، الذي صار اللغة الأدبية

العامة، فضلاً عن كونها لغة الدولة والسياسة والإدارة، بحيث طغت بعد برهة وجيزة على اللغات واللهجات المحلية.

وينظر المسلمون إلى عصر الخلافة الراشدة بوصفه أميز العصور في تأريخهم بعد عصر النبوة، حيث تولى الحكم كبار الصحابة المقربين من النبي ﷺ، ممن شهد لهم بالسابقة والفضل والبشارة بدخول الجنة، تعاونهم أعداد من الصحابة الذين نزل القرآن بتعديلهم، وهم الذين مثلوا النخبة القيادية في الفكر والسياسة والإدارة والاقتصاد والفتوح، كما أنهم نقلوا القرآن والسنة إلى الأجيال اللاحقة، لذلك كان لا بد من تمحيص الأخبار المتعلقة بهم خاصة.

ولا شك أن أساليب الحكم والإدارة والتوجيه التي اتبعوها وضحت جوانب النظام الإسلامي، وصارت مثلاً يتطلع له المؤمنون في كل الأجيال المتعاقبة، وهم يقيسون أحوال زمانهم به، ويصفونه لبيان الانحراف والظلم وانهيار القيم الخلقية والاجتماعية والسياسية، ويدعون إلى العودة إلى «المثال» الذي تحقق في الخلافة الراشدة.

وكان الحكم في العهد النبوي تخالطه النبوة، لكنه لم يعد كذلك في الخلافة الراشدة، فلم يكن توليهم السلطة بأمر من الله أو بوصية من نبيه، بل تم اختيارهم وبيعتهم من قبل المسلمين، بما في ذلك خلافة عمر رضي الله عنه الذي رشحه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد مشورة الكبار من الصحابة، فلم تكن الخلافة لتتعدد له لولا بيعة الناس له في المدينة، ثم أخذ البيعة له من قبل الولاة على أرجاء الدولة الإسلامية..

وقد طبق الخلفاء الأربعة التعاليم الإسلامية في الحكم، فاهتموا بالشورى الفردية والجماعية، لكنهم لم يؤسسوا مجلساً دائماً لها، بل كانت في الغالب تنحصر

في المقدمين من الصحابة من ذوي السابقة والخبرة، وكان الجمهور يعترف لهم بهذه المكانة. لكن البيعة للخليفة لم تقتصر عليهم، بل تمتد إلى الجمهور الذي يبايع البيعة العامة في المسجد بعد البيعة الخاصة، التي يعقدها كبار الصحابة للخليفة.

إن أهم المظاهر التي برزت في عصر الخلافة الراشدة تتمثل في تنظيم الإدارة والجيش والعطاء وتنظيم المناطق المفتوحة، وخاصة في خلافة عمر رضي الله عنه. أما أهم الأحداث التي شهدتها ذلك العصر فتتمثل في القضاء على حركات الانشقاق وإعادة توحيد الدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، مما مهد للحدث البارز الثاني المتمثل في حركة الفتوح الإسلامية، التي شغلت العصر، وامتازت بالانسياس السريع في الهلال الخصيب وإيران ومصر، حيث تغلب الفاتحون على الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية، وهما أعظم القوى في الأرض في ذلك الزمان، وكانت الغلبة الحضارية المتمثلة في سيادة الإسلام واللغة العربية تزيد على أهمية الانتصار العسكري السريع، لأنها مكنت للإسلام ولغته العربية في الأرض المفتوحة حتى الوقت الحاضر، خلافاً للفتوحات الأخرى التي قادها هانيبال والإسكندر وهولاكو قديماً، والتي قامت بها بريطانيا وأسبانيا والبرتغال وهولندا في العصر الحديث، فبرغم الانتصار العسكري لهذه القوى إلا أنها لم تتمكن من صهر المناطق المفتوحة في بوتقتها الحضارية وإن تركت فيها آثاراً متباينة العمق.

ويعود الأثر العميق الذي أحدثته الفتوح الإسلامية إلى تحول السكان إلى الإسلام عقيدة وشرعية وأخلاقاً، تمتد تعاليمه إلى جوانب الحياة المختلفة، وتؤثر في البنية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.. وكان لقيم التسامح والعدل والمساواة أثر كبير في اجتذاب سكان المناطق المفتوحة وتوحيدهم مع الفاتحين.

وقد كان الحدث الداخلي المهم يتمثل في أحداث الفتنة التي أودت بحياة الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وطغت نتائجها على أحداث خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي واجه المعارضة المتنوعة في الجمل والنهروان وصفين، واستشهد قبل أن تستقر الدولة الإسلامية على حال.

ولاشك أن التجربة السياسية التي لم يمض عليها سوى أربعة عقود تمكنت من الصمود أمام العواصف العاتية، وخرجت منها مثقلة بتجاربها وخبراتها متطلعة إلى الاستقرار والامتداد والتفاعل مع التطورات الجديدة في العصر الأموي.

وقد التزمت بتطبيق مناهج المحدثين في نقد الروايات التاريخية إذا تعلقَت بالعقيدة والشريعة، أما الأخبار التي تتناول الفتوحات، وتعيين الولاة والقضاة والموظفين فإنها لا تقتضي إعمال المنهج النقدي الحديثي فيها، بل يكفي اتفاق الإخباريين واختلافهم عليها وسلامتها من التناقض والشذوذ، وسلامة القصد عند الرواة لئلا يميلوا بالأخبار نحو خدمة اتجاهاتهم العقدية والسياسية، وهكذا تعامل علماء السلف مع هذه الأخبار، ولو اشترطوا فيها ما اشترطوه في الأحاديث النبوية لما صفا لهم منها إلا القليل، وبذلك يبقى التأريخ علماً مستقلاً له أدواته الخاصة ومناهجه النقدية المتميزة.

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المؤلف

المدينة المنورة

١٧ ذو الحجة ١٤١٤ هـ



تحليل المصادر

١ - كتب التأريخ:

محمد بن إسحاق:

وكتابه (المبتدأ والمبعث والمغازي) أجود ما كتب في السيرة النبوية، وعقد آخره فصولاً تتعلق بالسقيفة وخلافة أبي بكر والردة، وجملة من أخبار عصر الخلافة الراشدة. وقد سرد ابن إسحاق في كتابه الآخر (تأريخ الخلفاء) روايات مفصلة عن ذلك العصر، لكن كتابه مفقود، ونجد مقتطفات منه في (تأريخ الطبري) وغيره.

خليفة بن خياط^(١):

يُعدُّ تأريخ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) أقدم تأريخ حولي وصل إلينا، حيث فقدت كتب الحوليات التي ألّفت قبله، وتظهر أهميته في دقة معلوماته، وحسن انتقاء رواياته، وانتماء مؤلفه إلى مدرسة المحدثين، حيث يهتم بذكر الأسانيد، وقد أعطى اهتماماً خاصاً لجداول الولاية والقضاة، كما اهتم بأحداث الفتنة في خلافة عثمان حيث أثرت رواياته على رؤية أهل السنة والجماعة لتلك الأحداث لما يتمتع به خليفة من توثيق، ولكثرة إيرادهِ لمرويات أهل الحديث، مما جعله مصدراً تطمئن إليه نفوس الباحثين في تأريخ صدر الإسلام، حيث تؤثر الأهواء المتنوعة في توجيه الروايات وانتقائها.

محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ):

إن كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد يترجم لرواة الحديث من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى طبقة شيوخ المؤلف، ويطيل ذكر أخبارهم

(١) راجع أكرم العمري: مقدمته لتأريخ خليفة بن خياط ٣.

ومكانتهم وصفاتهم الخلقية والخلقية وملا بسهم وعاداتهم، ومنهم خلفاء وأمرأ وقادة، فيقدم معلومات غنية عن التاريخ السياسي والحضاري والثقافي، وطول التراجم في الصحابة والتابعين أكثر من المتأخرين.

وتزداد أهمية الكتاب لكون ابن سعد حظي بتوثيق المحدثين، لكنهم عابوا عليه أخذه عن الضعفاء: كهشام بن الكلبي، ومحمد بن عمر الواقدي. وقد صنف الواقدي كتاباً في الطبقات نقل عنه ابن سعد ما لا يقل عن ربع كتابه^(١). ولكن من الإجحاف لابن سعد أن نفتن بقل ابن النديم عنه: إنه صنف كتبه من تصنيفات الواقدي^(٢)، لأن ابن سعد استقى من مصادر أخرى كثيرة، حتى بلغ عدد شيوخه في الطبقات الكبرى أكثر من ستين شيخاً، معظمهم من المحدثين، ويزيد ما نقله عن أبي نعيم الفضل بن دكين وعفان بن مسلم وعبيد الله بن موسى العباسي ومعن بن عيسى الأشجعي، مجتمعين على ما نقله عن الواقدي، فكيف وقد نقل عن غيرهم أيضاً!! وبذلك يتضح ما في اتهام ابن النديم له من مجازفة وبعد عن الحق^(٣).

لقد أورد ابن سعد ١٦٨ رواية عن خلافة الصديق رضي الله عنه، منها ٣٦ رواية فقط من طريق الواقدي، أى أقل من ربعها، ويقدم معلومات مفصلة ينفرد بكثير منها^(٤). وغالب رجال أسانيده معروفون، لهم تراجم في الكتب ماعدا شيوخ شيخه الواقدي^(٥). ويلاحظ أنه في أحداث الفتنة زمن عثمان رضي الله عنه لم يرو عن سيف بن عمر إطلاقاً^(٦).

(١) أكرم العمري: بحوث في تأريخ السنة المشرفة ص ٨٠.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ١٥١.

(٣) أكرم العمري: بحوث في تأريخ السنة المشرفة ص ٨٠.

(٤) عبدالعزيز بن سليمان المقبل: خلافة أبي بكر الصديق ص ١٧ (رسالة ماجستير مقدمة للجامعة الإسلامية مكتوبة بالآلة).

(٥) محمد عبدالله الغبان: فتنة مقتل عثمان بن عفان ١: ١٦ (رسالة ماجستير مقدمة للجامعة الإسلامية مكتوبة بالآلة الطباعة).

(٦) المصدر نفسه ١: ١٦.

البلاذري:

أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ - ٨٩٢م)، نشأ في بغداد من عائلة مارس بعض رجاها صنعة الكتابة، وورث البلاذري عنهم هذه الصناعة، ورحل في الأمصار الإسلامية لطلب العلم، وصار أحد النقلة عن اللسان الفارسي، وقد ترجم كتاب (عهد أردشير، ونظمه شعراً)^(١).

ويعد البلاذري أبرز المؤرخين المسلمين بعد الطبري، من حيث سعة المعلومات التي دونها، والأحقاب التاريخية التي غطاها، لكن كتابه (أنساب الأشراف) أحسن انتقاء للروايات، وأنقى أسانيد، وأكثر اتفاقاً مع روايات أهل الثقة والصدق من تأريخ الطبري.

وأنساب الأشراف يتناول التأريخ الإسلامي في إطار الأنساب «ابتداء بالأسر والعشائر والقبائل القرشية، وانتهاء بغيرها من القبائل العربية»^(٢).

وباستقراء مشايخ البلاذري نجد أغلبهم توفي قبل وفاة البلاذري بأكثر من عشرين عاماً تقريباً، مما يدل على أنه صنف كتابه قديماً قبل مرضه، وبمقارنة رواياته بروايات غيره كابن سعد وخليفة نجدها متفقة مع الروايات الحسنة والصحيحة التي أوردتها كتب السنة والتأريخ، لذلك فإذا حدث في رواياته ضعف أو شذوذ، فهو من قبل الرواة الذين نقل عنهم، لا منه هو^(٣).

وقد استقى رواياته في أحداث الفتن من ثقات المحدثين من شيوخ البخاري ومسلم في الصحيحين، مثل عفان بن مسلم، وأحمد بن إبراهيم الدورقي، وعلي

(١) شاكر مصطفى: التأريخ العربي والمؤرخون ١: ٢٤٣، ومحمد صامل السلمي: منهج كتابة التأريخ الإسلامي ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٢) إحسان صدقي العمدة: مقدمته للقسم الخاص بأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب من أنساب الأشراف للبلاذري ص ١٠. الكويت.

(٣) عبد الحميد علي ناصر محمد: خلافة علي بن أبي طالب ص ١٣.

ابن المديني، وعمرو بن محمد الناقد، وأبي بكر بن أبي شيبة، وأبي خيثمة^(١). كما أفاد من مؤلفات شيوخه البغداديين مثل القاسم بن سلام، وعلي بن محمد المدائني، ومحمد بن سعد، وابن الأعرابي، وعلي بن عبدالله المديني، ومصعب الزبيري، ومحمد بن حبيب البغدادي، وعمر بن شبة^(٢).

وقدم البلاذري كتاباً آخر للمكتبة التاريخية وصل إلينا، وهو (فتوح البلدان)، تناول فيه قصة فتح كل مصر على حدة، وذكر معلومات مهمة تخص الحياة الاقتصادية والإدارية والثقافية، مما يغني دراسة معاملة الفاتحين لسكان المناطق المفتوحة. وتتجلى أهميته لاعتماده على مصادر محلية في كل مصر^(٣).

ابن عبدالحكم:

أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم المصري (١٨٧-٢٥٧هـ)، وهو ينتمي إلى أسرة علمية، فأبوه فقيه مالكي كبير، له مؤلفات فقهية، وكتاب (سيرة عمر بن عبدالعزيز)، وأخوته الثلاثة فقهاء محدثون.

ألف ابن عبدالحكم كتباً أشهرها (فتوح مصر وأفريقية)، وقد تناول أخبار الفتح الإسلامي لمصر في خلافة عمر رضي الله عنه، وتحدث عن خطط الفسطاط، والخراج ومقداره وكيفية جبايته، وحفر خليج أمير المؤمنين، وإدارة مصر في ولاية عمرو بن العاص، ثم ولاية عبدالله بن أبي السرح، وجهود الواليين في الفتح. ويعتمد عادة على رواية أساسية، ثم يبين ما في الروايات الأخرى من زيادات أو مخالفات. وأحياناً يجمع الأسانيد، وغالب أسانيد مستقيمة ورجالها معروفون، ولم يكثر من الرواية عن الإخباريين المعروفين^(٤).

(١) عبد الحميد علي ناصر محمد: خلافة علي بن أبي طالب ص ١٤.

(٢) إحسان صدقي العمدة: مقدمته ص ١٠.

(٣) شاعر مصطفى: التأريخ العربي والمؤرخون ١: ٢٤٣.

(٤) محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التأريخ الإسلامي ص ٣٨٣-٣٨٧.

الأزدي:

أبو إسماعيل محمد بن عبدالله الأزدي البصري، (عاش في القرن الثاني الهجري)، ألّف كتاب (فتوح الشام)، وهو أقدم ما وصل إلينا في موضوعه، حيث فقد كتابا محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ) وأبي مخنف لوط بن يحيى^(١).

ويقدم الكتاب تفاصيل عن فتوح الشام، تبدأ بوصف مشاورة الصديق عليه السلام لكبار الصحابة في عزمه على فتح الشام، ويسجل آراء عدد منهم، ثم يعرض لاستنفار الناس وقدمهم إلى المدينة وخاصة أهل اليمن، ويصف الحملات المتعاقبة ووصايا الصديق لقاداتها وردودهم عليه، ثم يعرض للمعارك دون ترتيبها على السنين، مكتفياً بتسجيل التواريخ في ثنايا الروايات. وقد حفظ عدداً كبيراً من الرسائل المتبادلة بين الصديق وقادته والفراروق وقادته، مما لم يرد في المصادر التاريخية الأخرى، وأحياناً يرد ولكن من طريق أخرى أو مقتضباً^(٢).

وقد أورد الأزدي ٩٣ إسناداً، وهي تكشف عن بعض مصادره، ومعظمها رواة من قبيلة الأزد، التي ينتمي إليها، وقد أشاد بمواقفها في الفتح^(٣).

ابن شبة:

عمر بن شبة النميري (ت ٢٦٧هـ)، «كان ثقة عالماً بالسير وأيام الناس، وله تصانيف كثيرة»^(٤).

وقد وصل إلينا كتابه (تأريخ المدينة)، ويقدم معلومات غزيرة عن عصر الخلافة الراشدة، وخطط المدينة المنورة - عاصمة الخلافة - وهو ينتقي الروايات، فترفع نسبة الروايات الصحيحة والحسنة عما في المصادر الأخرى، وينفرد بعدد كبير من الروايات، ولم تفد الدراسات الحديثة منه لتأخر نشره.

(١) ابن النديم: الفهرست ٩٣، وابن حجر: الإصابة ٤: ٤.

(٢) أكرم العمري: دراسات تاريخية ٦٩ - ٧٩.

(٣) المصدر السابق ٦٩ - ٧٩.

(٤) الخطيب: تأريخ بغداد ١١: ٢٠٨.

وإذا كان ابن شبة في تأريخ المدينة قد فصل أخبار الخلفاء الراشدين في المدينة، فإنه قد تابع أخبارهم في كتابه الآخر (تأريخ البصرة)، وهو مفقود، لكن الحافظ ابن حجر في (فتح الباري شرح صحيح البخاري) أورد قطعة منه، تتناول وقعة الجمل^(١)، ولكن ابن حجر انتقى الروايات الصحيحة والحسنة، وأهمل الروايات الأخرى.

اليقوي:

أحمد بن أبي يعقوب إسحاق (ت ٢٨٤ هـ)، مؤرخ شيعي إمامي، عمل في كتابة الدواوين في الدولة العباسية، وهو رحالة جغرافي، أفاد من الدواوين الرسمية والملاحظة المباشرة في رحلاته في تأليف كتاب (التأريخ) وكتاب (البلدان)، وبدأ تأريخه ببدء الخليقة، ثم أخبار الأنبياء وتواريخ الأمم قبل الإسلام، وذلك في القسم الأول من كتابه. أما القسم الثاني فتناول السيرة وعصر الخلافة الراشدة والدولة الأموية والعباسية حتى سنة ٢٥٩ هـ، وقد سمى مصادره في هذا القسم وهم أحد عشر إخبارياً، ومنجماً أخذ عنهما الطوالع والنجوم^(٢). ويتسم بالاعتصاب من ناحية^(٣)، وبالانحياز العقدي من ناحية أخرى. ويحتاج إلى دراسة نقدية تعيد الروايات إلى مصادرها الأولية، وتنظر في أسانيدھا ومتونها ومدى سلامتها من العلل، وما وافق روايات الثقات والصدوقين من أهل الأخبار أو خالفھا.

(١) ابن حجر: فتح الباري ١٣: ٥٤ - ٥٦.

(٢) شاكر مصطفى: التأريخ العربي والمؤرخون ١: ٢٤٩ - ٢٥٣، ومحمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التأريخ الإسلامي ٤٢٦ - ٤٣٢.

(٣) يتناول تأريخه المطبوع عصر الراشدين في ٩٢ صفحة من ص ١٢٣ إلى ص ٢١٥.

ابن قتيبة الدينوري:

عبدالله بن مسلم (٢١٣ - ٢٧٠ هـ)، وهو عالم كبير في القرآن والحديث واللغة وثقة النقاد^(١). وله عناية بالأخبار، حيث صنف كتاب (المعارف) و(عيون الأخبار). فأما كتاب المعارف «فلعل ابن قتيبة وضعه لسد حاجة الكتاب والناس إلى تأريخ موجز يحوي المعلومات الأساسية، أو لعله وضعه مشروعاً لكتابة تأريخ عالمي، ببدء الخليقة وينتهي في عهد المعتصم، شاملاً تأريخ الأنبياء وأنساب العرب والسيرة والصحابة والتابعين، والخلفاء، وأصحاب الرأي والنسب والأخبار والحديث والشعر، والولادة، وصناعات الأشراف، وأخبار الملوك العرب والعجم.. ومصادره تعتمد على الكتب والروايات الشفهية، فهو ينقل عن ابن إسحاق والواقدي والكلبي»^(٢). أما عيون الأخبار «فهو يتناول التأريخ الحضاري لا ظل للسياسة والأحداث والزمن المتسلسل فيه»^(٣). وينسب له خطأ كتاب (الإمامة والسياسة).

الطبري:

محمد بن جرير (٢٢٤ - ٣١٠ هـ)، إمام في التفسير والفقه والتأريخ، اشتهر بكتابه في التفسير والتأريخ، وكلاهما موسوعة كبيرة في فنه، ويهمننا معرفة أهمية تأريخه في دراسة عصر الخلافة الراشدة، فهو أوسع المصادر في ذكر أخبار ذلك العصر، فقد اعتمد على كتب الإخباريين، الذين صنفوا كتباً في الأحداث المتنوعة التي شهدتها عصر الخلافة الراشدة. فقد اعتمد في الردة على كتاب (الردة) لسيف

(١) منهم الخطيب البغدادي وابن تيمية والذهبي (تأريخ بغداد ١٠: ١٧٠ - ١٧١، وتذكرة الحفاظ ٢: ٦٣٣، وسير أعلام النبلاء ١٣: ٢٩٦ - ٣٠٢).

(٢) شاكر مصطفى: التأريخ العربي والمؤرخون ١: ٢٤٠، والدوري: نشأة علم التأريخ عند العرب ١٣٦.

(٣) شاكر مصطفى: التأريخ العربي والمؤرخون ١: ٢٤٠.

ابن عمر التميمي (ت ١٧٠ هـ)، الذي عرف بميوله القبلية (تميم) والعرقية، ولم يحظ بتوثيق أحد من المحدثين، فهو متروك الرواية عندهم، ولكنه احتفظ بتقدير المؤرخين لقدرته على رسم صور الأحداث ببراعة واتساق، ولتقديمه تفصيلات واسعة ينفرد بها أحياناً كثيرة. واعتمد في الفتوح على كتاب (الفتوح) لسيف ابن عمر التميمي أيضاً، إلى جانب كتابين في فتوح الشام والعراق لأبي مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧ هـ) - وهو كوفي ميوله الشيعية قوية - بالإضافة إلى كتب علي بن محمد المدائني وسيف بن عمر وعمر بن شبة، وأما في فتنه مقتل عثمان رضي الله عنه فاعتمد على كتب الواقدي، وأكملها برواية سيف بن عمر، وعمر بن شبة، وابن إسحاق ^(١). وأما موقعة الجمل وصفين فاعتمد فيهما على كتب علي ابن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ) الذي عرف بشيخ الإخباريين، وألف كتباً كثيرة في موضوعات عصر الراشدين وغيرها. ورواياته معتدلة وأقرب إلى الاستقامة - على الأغلب -، وكذلك اعتمد على كتاب (صفين) لأبي مخنف لوط بن يحيى، وبدرجة يسيرة على كتاب (صفين) لنصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هـ)، وهو كوفي شيعي الميول، انتقده علماء الحديث بشدة، إما بسبب معتقده، أو بسبب ضعف ضبطه، أو للسببين معاً ^(٢). واعتمد في قوائم أمراء الحج وولاية الأقاليم وأخبار المرابطين والغزاة على أبي معشر السندي والواقدي ^(٣). وأفاد من كتاب (تأريخ الخلفاء) لمحمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ)، وتأريخ بن أبي خيثمة (ت ٢٧٩ هـ)، والتأريخ على السنين للهيثم بن عدي (ت ٢٠٦ هـ) وكتب محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، وابن سعد (ت ٢٣٠ هـ)، صاحب الطبقات الكبرى في أخبار عصر الخلافة الراشدة.

(١) السلمي: منهج كتابة التأريخ الإسلامي ٤٤٤.

(٢) الذهبي: ميزان الاعتدال ٤: ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٣) السلمي: منهج كتابة التأريخ الإسلامي ٤٤٥.

ولم يصرح الطبري بأسماء الكتب التي ينقل عنها، مكتفياً بذكر أسماء المؤلفين لها، ولكن يعرف ذلك من خلال تراجمهم وطبيعة محتويات رواياتهم. ويذكر الطبري روايات تأريخه بالأسانيد، وبرغم أنه ينتقيها من كتب الإخباريين لكنه لم يحاول استخلاص الروايات الموثقة، بل ترك للقارئ حرية النقد والترجيح، مكتفياً بالعزو إلى مصادره التي فقد معظمها، وبذلك حفظ لنا مادة تأريخية واسعة، تحتاج دراستها إلى موازين نقدية واضحة قبل اعتمادها في التحليل والتعليل، لأنها تمثل مدارس فكرية وسياسية متنوعة، فلا غرابة إذا تضاربت آراؤها ورواياتها في الأحداث. وقد أطل في تراجم الخلفاء الراشدين وبسط أحداث الردة والفتوح والفتن، مما جعله أوسع المصادر لعصر الخلافة الراشدة، وخاصة في جوانب الحياة السياسية والنشاط العسكري.

المسعودي:

علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ)، ولد ونشأ ببغداد، ثم رحل منذ صباه لجمع المعلومات التاريخية والجغرافية، فتنقل في أرجاء العالم الإسلامي وخارجه، وألف كتبه العديدة التي تكشف عن تنوع ثقافته وسعة اطلاعه، وقد تناول عصر الخلافة الراشدة في كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) في ١٥٦ صفحة من (ص ٣٢٥ - ٤٨١)، ويرى الحافظ الذهبي أنه كان معتزلياً^(١)، ويرى الحافظ ابن حجر أن «كتبه طافحة بأنه كان شيعياً معتزلياً»^(٢). وخلص أحد دارسيه إلى أنه «ذو ميول شيعية قوية»، وساق أدلة قوية تؤكد رأيه^(٣).

ولم يذكر المسعودي أسانيد الروايات ولا أسماء المصنفات التي ينقل عنها كل خبر، مكتفياً بقائمة الكتب التاريخية التي ساقها في مقدمة كتابه، ويبرز بينها

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥: ٥٦٩.

(٢) ابن حجر: لسان الميزان ٤: ٢٢٥.

(٣) سليمان بن عبدالله السويكت: منهج المسعودي في كتابة التاريخ ٧٤.

مما يعرض لتأريخ عصر الراشدين كتب أبي مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧ هـ) والهيثم بن عدي الطائي (ت ٢٠٧ هـ)، ومحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، وأبى الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ)، وأحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) ويلاحظ أحد دارسيه أنه يفضل علياً على سائر الصحابة، وأنه يوحى بأن له الأفضلية في تولي الخلافة، ويصف مخالفه من الصحابة بالعثمانية، ويتهمهم بالطمع، ويظهر إنجازاً واضحاً في أحداث صنفين. وبتعبير دارس آخر للمسعودي «كان يحاول تقديم رأي شيعي في التأريخ الإسلامي المبكر»^(١).

ابن أعثم الكوفي:

أبو محمد أحمد بن أعثم الأزدي توفي بعد سنة (٣٢٠ هـ)، وهو مؤرخ شيعي، وكتابه من أوسع ما كتب في الفتوح، كما فصل أخبار حركة الردة، وقد اعتمد مصادر مفقودة، وترقى أسانيده - التي حفظتها نسخة خدا بخش - إلى عروة بن الزبير (ت ٩٣ هـ)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ)، ويزيد بن رومان الأسدي (ت ١٣٠ هـ)، ومحمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ)، ومحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، ويبدو أنه يجعل رواية الواقدي هي الأساس في أخبار الردة، ثم يضيف إليها من مصادر أخرى، وخاصة في المواعظ والأشعار^(٢). كما أفاد من روايات أبي مخنف لوط بن يحيى، وهشام بن الكلبي، وعلي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ).

وتبدو عناية ابن أعثم بالشعر من كثرة إيراده في كتابه، وقد ساعد على هذا المنحى أن ابن أعثم كان شاعراً، وكذلك عني بسرد الخطب والرسائل المتبادلة، حيث ينفرد بمادة أدبية واسعة.

(١) السويكت: منهج المسعودي ٣٥٨ - ٣٦٢.

(٢) عبدالعزيز البيتي: ابن أعثم الكوفي، منهجه وموارده عن خلافة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ص ١٣٩.

وقد ساعد منهجه في حذف الأسانيد، وسوق الأراجيز والخطب على لسان الأبطال مباشرة على رسم الصور الملحمية الكاملة، واعتماد الأسلوب القصصي المتسلسل.

ابن حبيش:

أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد الأنصاري (٥٠٤ - ٥٨٤ هـ)، ولد بالمرية، وقرأ القرآن، وتعلم الفقه والأدب والعربية، وفي سنة ٥٣٠ هـ انتقل إلى قرطبة، حيث أفاد من علمائها، وعاد سنة ٥٣٤ هـ إلى المرية ومكث فيها حتى أسره الروم في استيلائهم عليها ثم أطلقوه، فخرج منها عام ٥٤٢ هـ إلى مرسية، ثم منها إلى جزيرة شقر متولياً قضاءها حتى سنة ٥٥٤ هـ، ثم وكل إليه الخطبة بجامع مرسية، ثم تولى سنة ٥٧٥ هـ قضاء مرسية لأبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ)، وفي هذه السنة شرع بتأليف كتابه (الغزوات الضامنة الكافلة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأئمة الأول الثلاثة أبي بكر الصديق وأبي حفص الفاروق وأبي عمرو ذي النورين)، وهو في السبعين من عمره، وقد توفي وهو على قضاء مرسية عام ٥٨٤ هـ.

وقد وصف ابن حبيش بالنزاهة والإنصاف، وضيق الخلق وصرامة الأحكام، ولم يكن التأريخ بين العلوم التي درسها، وهي القراءات والحديث واللغة والغريب، ولم يؤلف (الغزوات) إلا بناء على أمر يوسف بن عبدالمؤمن أمير الموحدين الذي عينه قاضياً برغم مالكيته التي حاربها الموحدون! ولعل كبر سنه وضعف عزمه وتعيينه قاضياً عوامل تكمن خلف ثنائه على الموحدين، حيث وصف ابن تومرت بالإمام المعصوم والمهدي المعلوم! ولكن تأخره في تصنيف كتابه المغازي لا يعني عدم اهتمامه بفن التأريخ، فقد نسخ عدداً من تواريخ

الأندلسيين، ابن حيان والخشني وعياض، ورواها وعلق عليها^(١). وقد انفرد ابن قاضي شعبة بالتصريح ببراءة ابن حبيش بالتأريخ، فلعله يقصد علم رجال الحديث، حتى يتفق كلامه مع آراء أهل العلم الآخرين^(٢). وتظهر أهمية كتاب (الغزوات الضامنة) في اقتباسه من مصادر مفقودة في الردة والفتوح، أهمها كتاب الردة للواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، وكتاب يعقوب بن محمد الزهري (ت ٢١٣ هـ)، وفتوح الشام لسعيد ابن الفضل (توفي أواخر القرن الثاني الهجري) والردة والفتوح لسيف بن عمر التميمي (ت ١٧٠ هـ)، وكذلك تبدو إضافاته في نطاق الوثائق والمكاتبات والرسائل، وفي نطاق الشعر الذي انفرد ببعضه، فهو مصدر بديل عن المصادر الأصلية المفقودة في الردة والفتوح، لكنه ينزل إلى مستوى المصادر الثانوية في بقية الموضوعات.

الكلاعي:

أبو الربيع سليمان بن موسى (٥٦٥ - ٦٣٤ هـ)، محدث حافظ ثقة، أندلسي، عاش في عصر الموحدين (٥١٥ - ٦٦٨ هـ) في مدينة بلنسية، حيث أثر ازدهار العلم فيها على توجهه نحو الطلب ثم التأليف، ودفعه الصراع بين المسلمين والنصارى في الأندلس إلى المشاركة في أحداث الجهاد. وقد استشهد في معركة قريب بلنسية، وهو في السبعين من العمر حاملاً لرأية المسلمين.

وقد تولى الكلاعي القضاء في بلنسية، وهو فقيه مالكي، وعرف سجله القضائي بالعدل والفضل والسيرة الحميدة، كما تولى الإمامة والخطابة في جامع بلنسية. وتدل عناوين مؤلفاته، وهي تسعة كتب في الحديث، وستة في علم الرجال والتراجم، وعشرة في الأدب (الرسائل والخطب والشعر). وكتاب (المغازي) على طبيعة ثقافته، فهو يجمع بين الحديث والتأريخ والأدب، وبرغم توليه القضاء فإنه لم يؤلف في الفقه والفتاوى وأدب القضاء.

(١) طلال بن سعود الدعجاني: مقدمته للغزوات الضامنة ص ٣١٠٣.

(٢) المصدر السابق ٣١٠٥.

إن الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا هو المغازي، الذي تناول فيه السيرة وعصر الخلافة الراشدة إلى نهاية خلافة عثمان رضي الله عنه. وقد أفاد في كتابه من تهذيب ابن هشام لمغازي محمد بن إسحاق المطلبي (ت ١٥١ هـ)^(١)، وأهمل كتاب المغازي للواقدي مع اطلاعه عليه^(٢)، «ولكني رأيته كثيراً ما يجري مع ابن إسحاق، فاستغنيت عنه به لفضل فصاحة ابن إسحاق». وقد عمد إلى تلخيص رواية ابن إسحاق وتخليصها من اللغات وكثير من الأنساب والأشعار^(٣). وأفاد في الفتوح من كتاب الردة والفتوح لسيف بن عمر التميمي (ت ١٨٠ هـ)، ومن كتاب لأبي عثمان سعيد بن الفضل (توفي أواخر القرن الثاني)، وكتاب فتوح الشام لأبي إسماعيل محمد بن عبدالله الأزدي البصري (توفي في القرن الثاني الهجري) وكتاب محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، وعلي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ)، والتأريخ الكبير لابن أبي خيثمة (ت ٢٧٩ هـ)، وكتاب أخبار المدينة للزبير ابن بكار (ت ٢٥٦ هـ) وتأريخ الطبري (ت ٣١٠ هـ)^(٤). وصرح بأنه يتتبع من كتاب شيخه أبي القاسم بن حبيش المسمى بـ (الغزوات الضامنة)^(٥).

وليس من منهجه النقل الحرفي من المصادر، بل كثيراً ما يتصرف في الروايات، من حذف وربط وتهذيب وتلخيص وتقريب، وقد وضع منهجه في التأليف بما يوفر على الباحث الاستقراء للوصول إليه. وكتابه أسهم بشكل كبير في حفظ روايات متعددة، ونقول مهمة، ورسائل عظيمة من الخليفة إلى أمراء الأجناد، ومنهم إلى الخليفة قد لا نجدها في مصدر آخر^(٦).

(١) الكلاعي: مقدمة الاكتفا لوحة ١.

(٢) المصدر السابق لوحة ٢.

(٣) الكلاعي: الاكتفا لوحة ٤.

(٤) جمال محمد صادق القاضي: فتوح الشام من كتاب الاكتفا ١٤٢، ١٥٠، ١٥٣.

(٥) الكلاعي: مقدمة الاكتفا لوحة ٤.

(٦) خورشيد أحمد: تأريخ الردة ١١.

المحب الطبري (ت ٦٩٤هـ):

وكتابه (الرياض النضرة في مناقب العشرة) اعتمد فيه على بعض المصادر المفقودة: كالسيرة للملائني، وحذف أسانيد الروايات، وقدم قائمة جيدة بمصادر في بداية كتابه، ولا تقدم روايات كتابه إضافة علمية على المصادر الأولية التي بين أيدينا^(١).

محمد بن يحيى الأشعري المالكي - ابن بكر - (ت ٧٤١هـ):

وكتابه (التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان)، وهذا الكتاب يكاد أن يكون ملخصاً لروايات سيف بن عمر التميمي ومعظمها في تأريخ الطبري، ولكن المؤلف يُشعر بأنه يستقي من كتاب سيف مباشرة، فلعله اطلع عليه^(٢).

ابن كثير (ت ٧٧٨هـ):

يُعدُّ كتاب البداية والنهاية لابن كثير موسوعة تاريخية شاملة، أرَّخ فيها لبدء الخليقة وتاريخ الأنبياء وتاريخ العرب قبل الإسلام، كما أرَّخ للسيرة النبوية بتفصيل كبير، معتمداً على سيرة ابن هشام عن البكائي وعدد آخر من رواة السيرة عن ابن إسحاق، مثل يونس بن بكير (بواسطة البيهقي وابن عساكر)، الذي له زيادات على سيرة ابن إسحاق التي يرويها، ويحيى بن سعيد الأموي (بواسطة مغازي ابنه سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي)، وسلمة بن الفضل (بواسطة الطبري)^(٣).

(١) محمد بن عبد الله الغبان: فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ص ٢٠ (رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بإشراف أكرم العمري).

(٢) المصدر السابق ص ٢١.

(٣) شمس الله محمد صديق: منهج ابن كثير وموارده. ٣٩٨.

وبذلك تمكن ابن كثير من رسم صورة لأحداث السيرة النبوية أوسع نطاقاً من سيرة ابن هشام، بالإضافة إلى ملحوظاته النقدية المهمة على أسانيد ومتون الروايات، مما يجعله في طليعة الآخذين بالمنهج النقدي التاريخي..

وأما في عصر الراشدين فقد اعتمد في الأساس على تأريخ الطبري، وأضاف إليه في مادة التراجم من تأريخ الإسلام للحافظ الذهبي وخاصة في الوفيات.

إن الأهمية الحقيقية لهذا المصدر التاريخي في تأريخ صدر الإسلام ترجع إلى سعة نطاقه وظهور بدايات النقد التاريخي فيه أكثر من حفظه لنصوص تاريخية أولية، فمصادر ابن كثير في هذه الحقبة وما سبقها محدودة جداً، وهي مطبوعة حيث اعتمد على تأريخ ابن عساكر ودلائل النبوة للبيهقي والطبري وابن هشام في نقل روايات قدامى الإخباريين والمحدثين، مثل عروة بن الزبير والزهري وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وأبي معشر السندي والواقدي وسليمان بن طرخان وعلي بن محمد المدائني وأبي مخنف وعوانة بن الحكم وخليفة بن خياط ومحمد بن سعد ويعقوب بن سفيان، وبذلك ينبغي أن يعد مصدراً ثانوياً في دراسة بدء الخليقة وتأريخ الأنبياء وعصر السيرة والراشدين، حيث إن مصادره التي اعتمدها مطبوعة، ولكنه يبقى مصدراً بديلاً لما فقد، وهو كتاب صفين لابن ديزيل، وكتاب مغازي سعيد بن يحيى الأموي، حيث يحتفظ ابن كثير بعدد من الروايات عن هذين الكتائين (٦٦ نصاً من مغازي سعيد الأموي).

أما في علم الرجال ونقد الأسانيد فقد اعتمد على كتاب له سماه (التكميل في الثقات والضعفاء والمجاهيل)، وهو يعتمد فيه أساساً على تهذيب الكمال لشيخه المزي، وميزان الاعتدال لشيخه الحافظ الذهبي، مع زيادات التقطها من مصادر أخرى.

ويحتمل أن الأحاديث التي أوردها في كتابه (البداية والنهاية) مقدماً فيها مسند أحمد فالصحيحين، ثم بقية مصادر الحديث، اعتمد فيها على كتابه الضخم

(جامع المسانيد)، كما أحال على كتابه (الأحكام الكبرى)، حيث فصل فيه النقد الحديثي.

ويبدو أن ابن كثير كان يصنف عدة كتب في وقت واحد، يساعده على ذلك القدر الكبير المشترك بينها من الروايات. ولا شك أن مصادره المحدودة التي اطلع عليها زوّدته بمادة المصادر الأولية الوفيرة، التي تربو على مئتي مصنف.

الذهبي:

وكتابه (تأريخ الإسلام - عصر الخلفاء الراشدين -)، وهو يُعدُّ مصدراً ثانوياً بالنسبة للعديد من المؤلفات التي وصلت إلينا، والتي اقتبس منها مثل سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وموطأ مالك، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، ومسند أحمد، وتأريخ خليفة بن خياط وطبقاته، ومغازي الواقدي، وتأريخ الطبري، في حين يرتقي إلى مصدر بديل عندما ينقل من مؤلفات مفقودة، مثل مغازي عروة، ومغازي ابن شهاب الزهري (راويه الموقري)، ومغازي موسى بن عقبة، وكتب علي بن محمد المدائني، والردة والفتوح لسيف بن عمر التميمي، وكتب هشام ابن الكلبي، وتأريخ نيسابور للحاكم، وهو يسوق الروايات من المصنفات التي تملك حق روايتها بالسمع أو بالإجازة، ويذكر أسانيد مؤلفيها إلى أعلى الرواية (شاهد العيان من الصحابة والتابعين)، وأحياناً يختصر أسانيدهم، فيحذف أولها ويذكر أعلاها فقط، أما سند الذهبي إلى مصنف الكتاب فهو يحذفه للاختصار.. وقد رتب الذهبي كتابه على السنين، فيسوق أحداث السنة، ثم يترجم لعدد من الصحابة الذين توفوا في تلك السنة.

٢ - كتب الحديث:

توجد مجموعتان مهمتان من كتب الحديث، الأولى مرتبة على الموضوعات، والثانية مرتبة على مسانيد الصحابة.

وتضم المجموعتان أحاديث بأسانيد المصنفين إلى النبي ﷺ، وتتناول العقيدة والشريعة والآداب والفضائل والرقائق، وموضوعات أخرى، منها أخبار تاريخية متناثرة، لكنها تتركز عادة في كتاب المغازي في العديد من المصنفات الحديثية المرتبة على الموضوعات، في حين أن روايات عصر الخلافة الراشدة تكون متفرقة في كتب وأبواب عديدة، منها فضائل الصحابة والفتن والجهاد وقصة الشورى... وبرغم الاقتضاب الذي تتسم به معظم الروايات الحديثية، لكنها أحيانا تقدم تفصيلات دقيقة، كما أنها حظيت بمجهودات نقدية رائعة، وخاصة في صحيح البخاري ومسلم، وبدرجة أدنى في صحيح ابن خزيمة وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم وبقية الكتب الستة، التي حظيت بانتقاء وتدقيق دون الاقتصار على الصحيح، وهي سنن أبي داود والنسائي والترمذي وابن ماجه، ثم سنن الدارمي والدارقطني وسعيد بن منصور والبيهقي، وكذلك مستخرج أبي عوانة وأبي نعيم والإسماعيلي والبرقاني. وأما مجموعة المسانيد الحديثية فيتقدمها مسند الإمام أحمد بن حنبل في قدمه وسعته وعنايته بأخبار عصر الخلافة الراشدة، ثم مسانيد إسحاق بن راهويه والبخاري والطحاوي. ولا بد من الإشارة هنا إلى أهمية معجم الطبراني الكبير ومصنفي عبدالرزاق بن همام الصنعاني وابن أبي شيبة. فأما «المصنف» لعبدالرزاق بن همام الصنعاني (١٢٦ هـ - ٢١١ هـ) فهو جامع كبير، أسانيده عالية، وتتركز الأخبار التاريخية في «كتاب المغازي» منه^(١)، وأما أخبار عصر الراشدين فهي متوفرة. وأما «كتاب المصنف

(١) انظر: المجلد الخامس ٣١٣ - ٤٩٢.

في الأحاديث والآثار» لابن أبي شيبه: أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبه الكوفي العباسي (ت ٢٣٥ هـ)، وهو محدث حافظ ثقة^(١)، فيضم ٣٧٩٤٣ حديثاً وأثراً، وهو مرتب على الأبواب الفقهية، ويضم الصحيح والحسن والضعيف والواهي، وقد بلغت نسبة الصحيح من الروايات التي تتعرض للحياة المالية في خلافة عمر رضي الله عنه ٢٣٪ من مجموع الروايات البالغ عددها ١٥٠ رواية^(٢). ورواياته مسندة، وأكثر رجاله من رجال الكتب الستة^(٣)، وتركز مادة المصنف التاريخية في كتاب التاريخ، والجمل، وصفين، والخوارج، والمغازي.

ومن الحق ذكر كتاب (فتح الباري شرح صحيح البخاري) لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، وهو مؤلف كبير يقع في ثمانية آلاف ومئة وست وخمسين صفحة (٨١٥٦ صفحة)، رتب ابن حجر - وفق ترتيب صحيح البخاري - على أبواب الفقه، ولذلك فإن مادته التاريخية متناثرة، لا يمكن تقويمها ومعرفة أهميتها إلا بجمعها وترتيبها على أساس تاريخي، وقد نهض بهذه المهمة اثنان من الباحثين^(٤). وتظهر الدراستان النطاق الواسع للمادة التاريخية في فتح الباري، وتدلل المراجعة بالفهارس المفصلة، وتكشف عن المكتبة التراثية الهائلة التي استقى منها ابن حجر معلوماته^(٥)، وهي كتب حديث وتفسير وفقه وتاريخ ورجال ونسب وأخبار وأدب، وغالباً ما يحيل على أسماء المؤلفين

(١) ابن حجر: تقريب التهذيب ١: ٤٤٥.

(٢) عبدالسلام محسن آل عيسى: النواحي المالية في خلافة عمر ص ٣١.

(٣) عبدالحميد علي ناصر: خلافة علي بن أبي طالب ص ١١ (رسالة ماجستير بإشراف أكرم العمري).

(٤) يحيى بن إبراهيم اليحيى: الروايات التاريخية في فتح الباري - الخلافة الراشدة والدولة الأموية - جمع ودراسة (أطروحة دكتوراه من الجامعة الإسلامية سنة ١٤١١ هـ بإشراف أكرم العمري). ومحمد الأمين الشنقيطي: السيرة النبوية في فتح الباري (أطروحة دكتوراه من الجامعة الإسلامية بالمدينة سنة ١٤١٣ هـ بإشراف أكرم العمري).

(٥) يحيى بن إبراهيم اليحيى: الروايات التاريخية في فتح الباري ص ٣٤ - ١٠٦.

دون ذكر عناوين كتبهم، ونادراً ما يحيل على المؤلفين وكتبهم^(١). وقد يقتبس من المصادر اقتباساً حرفياً، وقد ينقل بالمعنى، وقد يختصر الروايات. وأهميته كبيرة في حل إشكالات النصوص بمحاولة الجمع بينها، فإن تعذر فإنه يقوم بالترجيح، وكذلك تتجلى أهميته في حكم ابن حجر على الروايات تصحيحاً وتحسيناً وتضعيفاً، وفي تعقيباته المتنوعة على المصنفين الذين ينقل عن مصنفاتهم.

ولاشك أن بعض المؤلفات التي تسوق روايات ذات طبيعة فقهية تقدم معلومات مهمة عن النظم الإسلامية المالية والإدارية في عصر الخلافة الراشدة، ويتقدمها كتاب (الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ)، وهو أهم مصدر يتناول النظام المالي في تأريخ صدر الإسلام، حيث تناول أصناف المال من الغنائم والصفايا والفبيء ومعاملة المناطق المفتوحة والمصالحة والعطاء والأقطاع والخمس والزكاة، وقد ذكر أسانيد الروايات.

ويرى عبدالله بن جعفر بن درستويه أن كتاب الأموال «من أحسن ما صنف في الفقه وأجوده»، كما يرى أن أبا عبيد «عمد إلى مذهب مالك والشافعي فتقلد أكثر ذلك»^(٢). ولكن للطبري وابن سريج رأياً آخر، فقد سئلا عن كتب الفقه لأبي عبيد، فقالا: «ليس بشيء»، أما ترى كتابه في الأموال - وهو أحسن كتبه - كيف بني على غير أصل، واحتج بغير صحيح»، ثم قالوا: «ليس هؤلاء لهذا، بالحرى أن تصح لهما اللغة، فإذا أردت الفقه، فكتب الشافعي وداود ونظرائهما»^(٣).

وقد بلغت نسبة الروايات الصحيحة والحسنة إلى مجموع الروايات المتعلقة بالحياة الاقتصادية في خلافة عمر رضي الله عنه ٣٥٪^(٤).

(١) المصدر السابق ص ١٨.

(٢) الخطيب: تأريخ بغداد ١٢: ٤٠٥.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣: ١٠٢، ١٠٣.

(٤) عبدالسلام محسن آل عيسى: النواحي المالية في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ص ٢٦ (أطروحة ماجستير بإشراف أكرم العمري).

والكتاب الآخر الذي تجدر الإشارة إليه هو (شرح معاني الآثار) لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحنفي (ت ٣٢١ هـ)، حيث يوضح بعض السوابق الفقهية في الخلافة الراشدة.

إن هذه المصادر الأولية تقدم الروايات الأصيلة عن عصر الخلافة الراشدة، ولا شك أن ثمة مصادر ثانوية تردد صدق المصادر الأولية، ولا تكاد تقدم معلومات إضافية عن ذلك العصر، وإن بدت غنية بمعلومات عن عصور أخرى، مثل (الكامل في التاريخ) لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)، و(البداية والنهاية) لابن كثير.

لكن ثمة مصدر متأخر هو (تأريخ الإسلام) للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) يستحق التنويه بسبب نقله عن عدد من المصادر الأولية المفقودة، فصار مصدراً بديلاً عنها، كما أنه يعنى بالحكم على عدد كبير من الروايات تصحيحاً وتضعيفاً، والذهبي ناقد كبير، ولرأيه أهمية فائقة، فإنه - كما قيل - من أهل الاستقرار التام. وقد أثر الذهبي أن يسوق الأسانيد المعلقة، مكتفياً بأسانيد تتألف من راوٍ واحد إلى خمسة من الرواة، وتبدأ عادة بمصنف أو عالم معروف مثل عروة والزهري والوليد بن مسلم الدمشقي وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وهشام بن عروة بن الزبير ومحمد بن عمر الواقدي وخليفة بن خياط ومحمد بن جرير الطبري. ولم يقتصر في نقله عن كتب التاريخ والأخبار والسير، بل نقل عن الكتب الستة وغيرها من مدونات الحديث.

ويبدو للوهلة الأولى أن الذهبي ينقل من المصنفات الأولية وجادة، ولكن المدقق يتوقع أن يكون الذهبي قد ملك حق رواية الكثير من تلك المصنفات بالسمع، أو الإجازة.

٣ - كتب علم الرجال:

إن كتب علم الرجال تقدم تراجم لرواة الحديث، ومنهم الصحابة رضوان الله عليهم، الذين يمثلون جيل عصر السيرة والخلافة الراشدة، فهم الذين صنعوا البطولات التاريخية، وحققوا الأعجاز التي تمثلت في وحدة الأمة وتربيتها وفق مفاهيم واضحة، وتنظيمها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً. ولا شك أن كتب معرفة الصحابة - أحد فروع علم الرجال - من أهم المصادر التي ترفدنا بمعلومات عن الصحابة.

ويقف كتاب (فضائل الصحابة) لأحمد بن حنبل، (ومعرفة الصحابة) لأبي نعيم، وكتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) للحافظ ابن حجر العسقلاني في مقدمة هذا النمط من المصنفات. فأما (فضائل الصحابة) لأحمد بن حنبل (ت ٢٤٠ هـ) ففيه تراجم حافلة للخلفاء الراشدين «فقد بلغ مجموع الروايات المتعلقة بأبي بكر الصديق رضي الله عنه نحو خمس مئة رواية، شملت معلومات متفرقة عنه من الجاهلية إلى الوفاة، وأكثر من نصفها حول فضائله ومناقبه»^(١). ومعظم روايات الكتاب صحيحة وفق مقاييس المحدثين، وتقل نسبة الصحيح في زيادات عبدالله بن أحمد بن حنبل، ويغلب الضعف على زيادات القطيعي^(٢).

وأما (معرفة الصحابة) لأبي نعيم الأصبهاني (٣٣٦ - ٤٣٠ هـ) فهو من أهم كتب معرفة الصحابة، فقد «تهياً لأبي نعيم من لقي الكبار ما لم يقع لحافظ»^(٣)، وكان حافظاً ضابطاً عالي الأسانيد، عالماً بالحديث وطرقه، واسع

(١) عبدالعزيز سليمان المقبل: خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه - دراسة نقدية للروايات باستثناء حروب الردة - ص ١٦ (رسالة ماجستير بإشراف أكرم العمري).

(٢) وصي الله محمد عباس: مقدمة فضائل الصحابة ١: ٤١.

(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٣: ١٠٩٣.

الرواية، كثير المشايخ، كثير المصنفات^(١)، أحصى له باحث معاصر ١٠٢ شيخ و ٥٨ تلميذاً ومئة كتاب ورسالة^(٢).

ومن مزايا الكتاب أن أبا نعيم ساق الروايات بأسانيداً كاملة، مما يهيئ للنقاد العارفين فرصة الحكم عليها سنداً ومتناً.

ومن مزاياه الحديثية أيضاً إكثاره ذكر الأحاديث وعللها، وقد انتقده ابن كثير لهذا السبب، ولأنه لا يطيل نسب الشخص وأخباره وأحواله^(٣). فابن كثير ينظر إليه من زاوية المؤرخ وليس المحدث، برغم أن أبا نعيم صرح بأنه اقتصر على حديث أو حديثين أو أكثر من جملة مرويات الصحابة، ولم يسق كل ما عنده عنهم، وقد أحرّ تراجم من لم يقع له حديث عنده^(٤).

أما بقية المصنفات في علم الرجال، وخاصة كتب الجرح والتعديل فإنها تمدنا بمعلومات دقيقة عن أحوال الرواة الذين وصلت إلينا أخبار عصر الخلافة الراشدة عن طريقهم، فتميزهم بذكر أسمائهم ونسبهم ونسبتهم، وتكشف عن التشابه من الأسماء، وتوضح مكانتهم في العلم وحالهم من التوثيق والتضعيف، وعلاقاتهم العلمية بشيوخهم وتلاميذهم، مما يوضح الاتصال أو الانقطاع في أسانيد الروايات، وكل هذه المعلومات تخدم نقد أسانيد الروايات، كما أنها تبين اتجاهاتهم العقيدية والسياسية، مما يتيح الفرصة للنقاد المعاصر، ليعرف مدى تأثير اتجاهات الراوي على وجهة الرواية صياغة ومحتوى.

(١) محمد راضي عثمان: مقدمته لمعرفة الصحابة لأبي نعيم ١: ١٧، وابن كثير: البداية والنهاية ٤٥: ١٢.

(٢) محمد راضي عثمان: مقدمته لمعرفة الصحابة لأبي نعيم ١: ٣٠ - ٥٥ ولم يبين أهمية الكتاب وموارد أبي نعيم فيه.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة ١: ٥.

(٤) انظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم، وأكرم العمري: بحوث في تاريخ السنة المشرفة ٧١ - ٧٢.

ومن هنا يتبين مدى فائدة هذه المكتبة الرجالية في نقد المادة التاريخية، فضلاً عن إمدادنا بمعلومات تاريخية جديدة.

ويصعب الكلام عن هذه المؤلفات بالتفصيل لكثرتها، ولكن من المهم الإلماح إلى كتاب (تقريب التهذيب) لابن حجر، ففيه خلاصة الأحكام على الرواة، وإلى أصله (تهذيب التهذيب) لابن حجر ففيه تفاصيل كثيرة، وإلى أصله (تهذيب الكمال) للحافظ المزي، حيث يمتاز بطول قوائم الشيوخ والتلاميذ وحسن ترتيبهم، وحرفية النقل عن المصادر الأولية.

وتقترب التراجم من الكمال أكثر عندما نضيف كتاب (إكمال تهذيب الكمال) للحافظ مغلطي، فإنه يكمل الروايات التي أهملها المزي أو لم يقف عليها، ومغلطي واسع الاطلاع على المصادر الأولية، ومما يكمل المعلومات عن الرواة، ومن أراد الوقوف على المصادر الأولية في علم الرجال، فربما وجد ضالته في الدراسات المعاصرة المتخصصة^(١). ولا بد لمن أراد أن يمارس نقد الروايات على طريقة المحدثين من دراسة كتب مصطلح الحديث، وخاصة علم الجرح والتعديل، وقواعد الجمع والترجيح عند التعارض.

كتاب (ميزان الاعتدال) للحافظ الذهبي، و(لسان الميزان) للحافظ ابن حجر، وهما كتابان متخصصان بالضعفاء من الرواة، ولكن لا ينبغي أن نحكم بالضعف على جميع أصحاب التراجم فيهما، لوجود رواية تكلم فيهم النقاد بالتضعيف، فأوردتهم الذهبي في الميزان ثم دافع عنهم، وانتهى إلى توثيقهم.

وثمة رواية لا نجدهم في هذه المصنفات، فلا بد من التفتيش عنهم في كتب أخرى، مثل (الجرح والتعديل) لابن أبي حاتم، و(الثقات) لابن حبان،

(١) راجع أكرم العمري: بحوث في تأريخ السنة المشرفة.

و(تعجيل المنفعة) لابن حجر. وثمة رواية في القرن الرابع الهجري نحتاج إلى مراجعة تراجمهم في (تأريخ بغداد) للخطيب.

وأما المتأخرون من رواية القرن الخامس والسادس فقد لا تشتد الحاجة إلى معرفة أحوالهم من الجرح والتعديل بالنسبة لمروياتهم عن عصر الخلافة الراشدة، إذ غالباً ما يتحملون من مصنفات معروفة، وتحقيق الرواية يتم اعتباراً من مؤلف الكتاب إلى أعلى السند، إذا تم التحقق من صحة الأصول الخطية.

ومن أجمع كتب معرفة الصحابة التي ألفت في القرون اللاحقة واشتهرت واعتمدها الناس كتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ)، وكتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ). فأما كتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثير الجزري فيقع في خمس مجلدات، وقد جمع فيه مؤلفه بين كتب معرفة الصحابة لابن منده وأبي نعيم الأصبهاني وأبي موسى محمد بن أبي بكر الأصفهاني وابن عبد البر، ويذكر عادة من خرّج الترجمة من أصحاب الكتب الأربعة المذكورة بمرور شرحها في مقدمة كتابه، وقد ذكر أنه اختار من كلام كل واحد منهم أجوده وماتدعو الحاجة إليه، ولم يقتصر على مادة هذه الكتب الأربعة، بل أضاف إليها مواداً من كتب أخرى، عدّد بعضها في مقدمة كتابه، كما استدرك عليهم بعض الأغلاط. ومع ذلك فقد انتقد ابن حجر كتابه، فقال: «إنه تبع من قبله، فخلط من ليس صحابياً بهم، وأغفل كثيراً من التنبيه على كثير من الأوهام الواقعة في كتبهم»^(١). واهتم ابن الأثير بذكر الأنساب والأخبار وما يعرف بالصحابي أكثر من ذكر الأحاديث وعللها وطرقها، لأنه يرى أن ذلك يكتب الحديث أشبه، وقد رتب

(١) ابن حجر: الإصابة ١: ٤.

التراجم على حروف المعجم بصورة دقيقة مما ييسر الكشف عن الأسماء، ويبدأ بذكر الأسماء ثم الكنى ثم النساء^(١).

وأما كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) لابن حجر فهو من أجمع كتب معرفة الصحابة، استخلص مؤلفه مادته من كتب معرفة الصحابة التي ألفت قبله وعددها كبير جداً، كما أفاد من كتب الجرح والتعديل وتواريخ المدن المحلية وكتب ضبط الأسماء وكتب الحديث والتفسير والرقائق، وأفاد من كتب الأنساب والأخبار واللغة والأدب. ومعظم اقتباساته عن هذه الكتب مباشرة، مما يدل على اطلاعه عليها وإفادته منها.

ويقع الكتاب في أربع مجلدات، منها المجلدات الثلاثة الأولى في تراجم من عرفوا بأسمائهم، ويبلغ عدد التراجم ٩٤٧٧ ترجمة، أما المجلدة الرابعة فتناول فيها من عرفوا بكنائهم، وبلغ عددهم ١٢٦٨ علماً، كما تناول فيه تراجم النساء وبلغ عددهن ١٥٢٢ امرأة، بدأ بمن عرفن بالأسماء، ثم بمن عرفن بالكنى. فيكون عدد تراجم الكتاب ١٢٢٦٧ ترجمة، وليس كل من ذكرهم ممن ثبتت صحبتهم، حيث بين في مقدمة كتابه أنه ذكر فيه أربعة أقسام، القسم الأول من وردت صحبتته بطريق الرواية عنه أو عن غيره، سواء كانت الطريق صحيحة أو حسنة أو ضعيفة، أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان. والقسم الثاني فيمن ذكر في الصحابة من الأطفال الذين ولدوا في عهد النبي ﷺ ومات وهم دون سن التمييز... لغلبة الظن على أنه ﷺ رآهم. والقسم الثالث فيمن ذكر في الكتب المتقدمة عليه من المخضرمين، الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبي ﷺ ولا رأوه، سواء أسلموا في حياته أم لا، وهؤلاء ليسوا صحابة باتفاق. والقسم الرابع فيمن ذكر في الكتب المتقدمة

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ١: ٦٠٤.

أنه صحابي على سبيل الوهم والغلط وبيان ذلك. وقد رتب ابن حجر تراجمه على حروف المعجم مبتدئاً في كل حرف بالقسم الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع. ويذكر في الترجمة عادة من خرج حديث الصحابي (صاحب الترجمة) من أصحاب السنن وغيرهم من المصنفين في الحديث. ويهتم بالتعريف بنسب الصحابي، ويذكر نموذجاً أو أكثر من حديثه، وربما ساق بعض أخبار الصحابي في الغزوات أو الحوادث المهمة، ويسجل وقت وفاته إذا عرفت.

ولاشك أن ابن حجر بإفادته من ملاحظات واستدراكات سابقيه من المصنفين وبإضافاته المهمة وتنبيهاته الدقيقة ضمّن كتابه فوائد جلية، لا تتوافر في كتب معرفة الصحابة الأخرى، وإن كان لها فضل سبق والتمهيد له.

المراجع الحديثة:

إن أهم المراجع الحديثة التي أفدت منها في أبواب الكتاب المتعلقة بشخصية الخلفاء والفتن الداخلية والاقتصاد هي الأطروحات والرسائل الجامعية، التي أشرفت عليها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والتي التزمت منهج النقد عند المحدثين في نقد الروايات التاريخية، وهي تمثل عملاً رائعاً ورائداً في هذا الميدان المهم، وآمل أن يخرج إلى النور في أقرب وقت. وهذه الرسائل هي (خلافة أبي بكر الصديق) لعبد العزيز المقبل، و(النواحي المالية في خلافة عمر ابن الخطاب) لعبد السلام محسن آل عيسى، و(خلافة عثمان بن عفان) لمحمد ابن محمد علي العواجي، و(فتنة مقتل عثمان بن عفان) لمحمد عبدالله الغبان، و(خلافة علي بن أبي طالب) لعبد الحميد بن علي ناصر فقيهي، وجميعهم محاضرون في الجامعة الإسلامية بالمدينة، و(الروايات التاريخية في فتح الباري - عصر الخلافة الراشدة) للدكتور يحيى إبراهيم اليحيى، وقد أنجزت هذه الرسائل والأطروحات خلال ١٤٠٨ - ١٤١٢ هـ.

أما في بقية أبواب الكتاب فقد اعتمدت على محاضراتي التي كنت قد ألقيتها على طلبة كلية الآداب بجامعة بغداد ما بين سنة ١٩٦٧ - ١٩٧٦ م، وذلك بعد أن نقحتها وأضفت إليها من المصادر القديمة والمراجع الحديثة التي نشرت بعد كتابتها الأولى.



البَّابُ الْأَوَّلُ
السياسة
(الخلافة والخلفاء)

إِلْفَضِكُ الْأَوَّلُ

الْخِلَافَةُ

المبحث الأول

نظام الخلافة

كانت فكرة الأمة الواحدة، والدولة الواحدة التي تسودها أحكام الشريعة في داخلها، والرغبة القوية في تبليغ رسالة الإسلام خارج حدودها قد تمكنت من النخبة المسلمة، عندما واجهت الحادثة الأليمة التي تمثلت بوفاة الرسول ﷺ، وقد عبر أنس بن مالك عن أثر الحادث في النفوس: «لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضواء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء.. ومانفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا»^(١). ولفرط الذهول كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «والله ما مات رسول الله ﷺ، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم»^(٢).. ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فلبث عن قومه أربعين ليلة^(٣).. وأخذ بقائم سيفه، وقال: لا أسمع أحداً يقول: مات رسول الله. إلا ضربته بسيفي هذا»، وطلب الناس لسالم بن عبيد الأشجعي أن يدعو أبا بكر رضي الله عنه فراه في المسجد فأخبره خبر الوفاة^(٤)، فدخل أبو بكر على عائشة، وكشف عن وجه النبي ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة، ثم قبّله وبكى، وقال: «بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً»، ثم خطب الناس معلناً الوفاة: «ألا من كان يعبد

(١) أحمد: المسند ٣: ٢٢١، والترمذي: سنن ٥: ٥٨٨ وقال: حديث غريب صحيح، وابن ماجه: السنن ١: ٥٢٢، وقال ابن كثير: إسناده على شرط الصحيحين، البداية والنهاية ٥: ٣٠٨.

(٢) البخاري: الصحيح ٥: ٨.

(٣) عبد الرزاق: المصنف ٥: ٤٣٣ بإسناد صحيح، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٢: ٢٦٦، ٢٦٩ بإسناد رجاله ثقات.

(٤) الترمذي: الشئائل المحمدية ٣٠٨، والنسائي: كتاب الوفاة ٧٣، وصححه الألباني (مختصر الشئائل المحمدية ١٩٨)، والطبراني: المعجم الكبير ٧: ٥٦ وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٥: ١٨٢).

محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، واستشهد بالقرآن، فنشج الناس بيبكون^(١).

وقد ظهر في الموقف رجحان علم الصديق، ورباطة جأشه، وشجاعته وجرأته، وقوة رأيه^(٢).

وعلى الرغم من الذهول الذي أصاب النخبة وعامة المسلمين، فإن أهمية إقامة السلطة في الإسلام جعلتهم يتحركون في اتجاه اختيار الحاكم قبل أن يتتھوا من تشييع الجسد الشريف إلى مثواه. وقد يقف خلف هذا التحرك السريع إدراك النخبة بخطورة الأوضاع المحيطة بالكيان الإسلامي، الذي مضى عليه عقد واحد من السنين، تأسست فيه الدولة، واتسعت رقعتها، وكسبت أنصاراً لها داخل المدن الحجازية الثلاث خاصة، في حين بقيت القبائل الكبيرة في أعدادها والمنتشرة في البوادي والصحراء تحيط بالمراكز الإسلامية من كل مكان..

وكانت الضوابط الشرعية لاختيار المسؤول الأول للدولة تنحصر في قرشيته ومكانته، التي يحددها قدمه في الإسلام، وخدمته للدعوة وللدولة، ومنزلته لدى النبي ﷺ وإمكان إجماع الأمة أو أكثرها على شرعية توليه لرئاسة الدولة وخلافة النبوة.

وكانت النخبة تتمثل في المهاجرين الذين تطلعوا إلى أبي بكر رضي الله عنه، وبعضهم كان منشغلاً مع علي رضي الله عنه بتشيع النبي ﷺ، وفي الأنصار الذين التفوا حول زعيم الخزرج سعد بن عباد، وعقدوا اجتماعاً في سقيفة بني ساعدة لمناقشة الموقف الجديد.. فالأنصار هم السكان الأصليون للمدينة، وقد آووا المهاجرين، ونصروا الإسلام بأرواحهم وأمواهم، وهياًوا له فرص الاستقرار

(١) البخاري: الصحيح ٢: ٩٠ و ٨: ٥ و ١٧: ١٧.

(٢) ابن حجر: (فتح الباري ٧: ٣٠ و ٨: ١٤٦).

والانتشار، وعرفوا بإيثارهم وصبرهم وجهادهم وتضحياتهم، أفلا يكون لهم الحق في رئاسة الدولة ورعاية الإسلام؟.

وقد بلغ خبر اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة إلى المهاجرين، وهم مجتمعون مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه لترشيح من يتولى الخلافة^(١). فقال المهاجرون لبعضهم: «انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار، فإن لهم في هذا الحق نصيباً»^(٢). قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلاً صالحاً، فذكر ما تمالأ عليه القوم. فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. فقالا: لا عليكم أن لا تقرّبوهم، اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتيهم. فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة فقلت: ما له؟ قالوا: يوعك»^(٣).

وقد كشفت روايات صحيحة عن اسمي الرجلين من الأنصار، وهما عويم بن ساعدة، ومعن بن عدي^(٤)، وموقفهما يدل على عدم وجود موقف موحد للأنصار^(٥). ويبدو أن عدد المهاجرين الذين دخلوا السقيفة كان محدوداً، وربما دخل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة أولاً، ثم تلاحق المهاجرون^(٦).

(١) البخاري: الصحيح ٨: ٢١٠، وعبدالرزاق: المصنف ٥: ٤٣٩، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٦١٥، والترمذي: الشئائل المحمدية ٣٠٨، والنسائي: كتاب الوفاة ٧٥، والطبراني: المعجم الكبير ٧: ٥٦، وابن أبي شيبه: المصنف ١٤: ٥٦٥، وصرح ابن إسحاق بالسماع كما في (فتح الباري لابن حجر ١٢: ١٥٣).

(٢) الترمذي: الشئائل المحمدية ٣٠٨، والنسائي: كتاب الوفاة ٧٥، والطبراني: المعجم الكبير ٧: ٥٦، وصححه الألباني في مختصر الشئائل ١٩٨.

(٣) البخاري: الصحيح ٨: ٢١٠.

(٤) عبدالرزاق: المصنف ٥: ٤٤٥، وابن أبي شيبه: المصنف ١٤: ٥٦٣، وأحمد: المسند ١: ٥٦،

وبالبحاري: الصحيح ٥: ١١٠.

(٥) ابن حجر: (فتح الباري ١٢: ١٥١).

(٦) ابن حجر: (فتح الباري ١٢: ١٥٣).

وقد حدث نقاش طويل بين المهاجرين والأنصار حول أحقية كل طرف بتولي الخلافة. وقد بين أحد الأنصار أحقيتهم بقوله: «أما بعد، فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دَفَّتْ دافَّةٌ من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر»^(١).

أما المهاجرون فتكلم عنهم أبو بكر الصديق بحلم ووقار وبديهة - كما وصفه ابن عمر - فقال: «ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبا وداراً... يا معشر الأنصار إنا والله ما ننكر فضلكم، ولا بلاءكم في الإسلام، ولا حقكم الواجب علينا، ولكنكم عرفتم أن هذا الحي من قريش بمنزلة من العرب ليس بها غيرهم، وأن العرب لن تجتمع إلا على رجل منهم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، فاتقوا الله ولا تصدعوا الإسلام، ولا تكونوا أول من أحدث في الإسلام»^(٢).

وقد وردت روايات ضعيفة تفيد أن المهاجرين احتجوا على الأنصار بحديث «قريش ولادة هذا الأمر»^(٣)، ولكن يبدو أن الحديث لم يخطر على بالهم، أو أن الصديق اكتفى بتضمينه في كلامه، والأول أقوى، لأن الحديث كان سيقطع الأمر لصالح المهاجرين دون استمرار الحوار.

لقد نظر الأنصار إلى الخلافة من زاوية محدودة بظروف المجتمع المدني والعلاقة التاريخية بين المهاجرين والأنصار، أما المهاجرون فنظروا نظرة واسعة

(١) البخاري: الصحيح ٨: ٢١٠. والدافَّة: العدد القليل، (ابن حجر: فتح الباري ١٢: ١٥١). ويختزلونا: يقتطعوننا وينفردوا بالأمر. ويحضنونا: يخرجونا (النهاية في غريب الحديث ٢: ١٢٤ و ٢٩: ٢ و ٤٠١: ١ على التوالي).

(٢) ابن أبي شبة: المصنف ١٤: ٥٦٣ وصرح ابن إسحاق بالسماع كما في (فتح الباري ١٢: ١٥٣).

(٣) أحمد: المسند ١: ٥ بإسناد رجاله ثقات، لكنه من مرسل حميد بن عبد الرحمن الحميري، وهو ثقة فقيه، وحسنه البزار وابن تيمية في منهاج السنة النبوية ١: ٥٣٦، والمتقي الهندي: كنز العمال ٥: ٦٣٨ عن ابن المنذر).

على مستوى الدولة كلها، وما يترتب على خروج السلطة من قريش من عواقب كبيرة، لأن العرب يمكن أن ترضى بقيادتها لمكانتها فيهم، أما لو تولاها الأنصار فقد تقع انشقاقات خطيرة، تؤدي إلى تفكك الدولة الإسلامية.

وقد طرح عدد من الأنصار فكرة تعيين أميرين: أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار^(١)، ولكن أبا بكر رضي الله عنه قال: «لا، ولكننا الأمراء وأنتم الوزراء»^(٢). وقال عمر: «سيفان في غمد واحد!! إذاً لا يصلحان»^(٣).

وهنا تدخل كاتب الوحي زيد بن ثابت وهو من الخزرج، فقال: «إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، ونحن أنصارهم كما كنا أنصار رسول الله ﷺ». فقال أبو بكر: «جزاكم الله خيراً من حي يامعشر الأنصار، وثبت قائلكم، والله لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم»^(٤). وهكذا فإن الخزرج هم الذين قاموا بالتنازل اتباعاً للحق ومراعاة للمصلحة الإسلامية، ولم يكن التنازل بسبب عدم رغبة الأوس في تولي الخزرج الخلافة - كما يزعم أبو مخنف -^(٥).

(١) أحمد: المسند ٥: ١٨٥ بإسناد صحيح، وابن سعد: الطبقات ٣: ٢١٢، وابن أبي شيبه: المصنف ١٤: ٥٦١، والبلاذري: أنساب الأشراف (الشيخان) ٦٥، والطبراني: المعجم الكبير ٥: ١١٤. وصححه ابن كثير (البداية والنهاية ٥: ٢٨١).

(٢) البخاري: الصحيح ٥: ٨.

(٣) الترمذي: الشئائل الحمديّة ٣٠٨. وصححه الألباني (مختصر الشئائل ١٩٨). والنسائي: كتاب الوفاء ٧٥، والطبراني: المعجم الكبير ٧: ٥٦.

(٤) أحمد: المسند ٥: ١٨٥ بإسناد صحيح، وابن أبي شيبه: المصنف ٤: ٥٦١، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٢١٢، والبلاذري: أنساب الأشراف ٦٥، والطبراني: المعجم الكبير ٥: ١١٤. وصححه ابن كثير (البداية والنهاية ٥: ٢٨١).

(٥) الطبري: تاريخ ٣: ٢٢١ - ٢٢٢ عن أبي مخنف.

المبحث الثاني

خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

لقد جرى الترشيح بعد أن استقر الرأي على استخلاف أحد المهاجرين، فرشح أبو بكر أحد اثنين، عمر وأبي عبيدة. فقال عمر: «بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ»^(١). وذكر بفضل أبي بكر قائلا: «ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، فأياكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ قالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر»^(٢). وذكرهم بموقفه في حادثة الهجرة، ثم بايعه عمر وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار^(٣).

ومن استعراض الروايات الصحيحة لاجتماع السقيفة ومبايعة أبي بكر خليفة يتبين أن الاجتماع لم يدم طويلاً، ولم تجر فيه مناقشات طويلة بين المهاجرين والأنصار، أو تنافس وصراع على تولي الخلافة، أو حدة في الكلام أو تهديدات أو عراك بالأيدي بين المجتمعين. وهذا كله مما صورته بعض الروايات الضعيفة التي وردت عن اجتماع السقيفة، والتي تناقلها المؤلفون المعاصرون^(٤)، فشوّها الصورة الوضّاء لذلك الاجتماع التاريخي الرفيع، الذي قرر مصير الخلافة والدولة الإسلامية بحزم وترفع وإحساس كبير بالمسؤولية، يستعلي على التفاهات والأهواء.

(١) البخاري: الصحيح ٨: ٢١١ و ٨: ٥.

(٢) النسائي: السنن ٢: ٧٤-٧٥ وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي ١: ١٦٨)، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٢: ٢٢٤ و ٣: ١٧٨، وابن أبي شيبة: المصنف ١٤: ٥٦٧، وأحمد: المسند ١: ٢١٣ (طبعة شاكر) وصحح إسناده أحمد شاكر، وله شاهد ١: ١٧٢ وصححه أحمد شاكر. وأحمد: فضائل الصحابة ١: ١٨٢ بإسناد حسن.

(٣) البخاري: الصحيح ٨: ٢١١، والترمذي: الشمائل المحمدية ٣٠٨، والنسائي: فضائل الصحابة ٥، وكتاب الوفاة ٧٦.

(٤) عبدالعزيز بن سليمان المقبل: خلافة أبي بكر الصديق ٤٢.

ولم يكن أبو بكر رضي الله عنه حريصاً على الإمارة، بل كان كارهاً لتوليها لما يعلمه من عظم المسؤولية أمام الله تعالى وخوفه من التقصير فيها، برغم أن الصحابة كانوا يعلمون أنه أحقهم بها، وأقواهم عليها، وقد صرح أبو بكر المسلمين بمشاعره مراراً: «والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط، ولا كنت راعباً فيها، ولا سألتها الله ﷻ في سر ولا علانية، ولكنني أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، ولكن قُلْدْتُ أمراً عظيماً مالي به من طاقة، ولا يد إلا بتقوية الله ﷻ، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم»^(١).

فما أعظمها من مشاعر، وما أرفع صاحبها وأوعاه بحق الله تعالى وحقوق الرعية، وما أعمق تدينه وأحسن توكله، وأجل تواضعه وأصدق أمانيه. إنه لم يجد أمامه إلا أن يقبل تولي الخلافة، ليقود الأمة في طريق الوحدة والإيمان ورفع راية الرسالة الإسلامية برغم أن نفسه لا تطاوعه في تحمل المسؤولية الجسيمة، خوفاً من التقصير والتفريط.. وهكذا كان توليه الخلافة تضحية منه لصالح الإسلام وأمة الإسلام، وليس مغناً يسعى إليه، وقد أعانه الله لصدق نيته وحسن وجهته.

وقد عرفت بيعة أبي بكر في السقيفة بالبيعة الخاصة، وكانت يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ، وفي اليوم اللاحق (الثلاثاء)^(٢) خرج إلى المسجد فبايعه الناس فيما عرف بالبيعة العامة بعد خطبة ألقاها عمر بن الخطاب اعتذر فيها عن موقفه من حادثة الوفاة النبوية وإنكارها، وبين مكانة

(١) أخرجه موسى بن عقبة في مغازيه (الذهبي: تأريخ الإسلام ٣: ٨، وابن كثير: البداية والنهاية ٣٤١: ٦ وقال ابن كثير: إسناده جيد، البداية والنهاية ٥: ٢٨١، والحاكم: المستدرک ٣: ٦٦ وصححه ووافقه الذهبي).

(٢) عبدالعزيز المقبل: خلافة أبي بكر ٥٧ - ٥٨، والطبري: تأريخ ٣: ١٩٩، والسهيلي: الروض الأنف ٤: ٢٧٠، وابن كثير: البداية والنهاية ٥: ٢٨٦، والخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ٣٦، وابن حجر: فتح الباري ٨: ١٢٩.

أبي بكر في الصحبة والهجرة، وأبو بكر صامت لا يتكلم، حتى انتهى عمر من خطبته، وطلب من أبي بكر الصعود إلى المنبر لتلقي البيعة من الناس^(١). ويحكي شاهد عيان طريقة البيعة لأبي بكر، يجتمع عليه الصحابة فيقول لهم: «بايعوني على السمع والطاعة لله ولكتابه ثم للأمر»^(٢).

وبعد البيعة العامة هذه، خطب أبو بكر في الناس قائلاً: «إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه - إن شاء الله -، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه - إن شاء الله - . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»^(٣).

وقد تضمنت الخطبة الوجيزة هذه علاقة الحاكم بالمحكومين، فبين أن مجيئه للخلافة بإرادة الأمة وبتعاقد واضح، الطاعة من الناس مقابل التزام الحاكم بالشريعة، ورقابة الأمة على سياسته، وإعانتة في الخير، وتصحيح سياسته إذا انحرف، كما فيها بيان الالتزام بإقامة العدل والجهاد وتنظيف المجتمع من الانحراف الخلقي، بالإضافة إلى ما تكشف عنه مقدمة الخطبة من تواضع الصديق الجم.

والحق أن انتخاب أبي بكر للخلافة يوضح استعلاء قيم الإيمان وخضوع مقاييس الشخصية لها، لأن أبا بكر من تيم، وتيم من أضعف عشائر قريش.

(١) البخاري: الصحيح ٩: ١٠٠، وعبدالرزاق: المصنف ٥: ٤٣٧.

(٢) الحارث بن أبي أسامة: المسند بإسناد حسن، (الهيثمي: بغية الباحث ٣: ٧٥٣).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٤: ٦٦ وصحح إسناده ابن كثير (البداية والنهاية ٥: ٢٨٠ و ٦: ٣٤٠). وعبدالرزاق: المصنف ١١: ٣٣٦ من طريق معمر قال: حدثني بعض أهل المدينة (بعض أصحابي).

وتدل الروايات الصحيحة على غضب علي بن أبي طالب لعدم استشارته في أمر الخلافة، بل تشير رواية الصحيحين على أن بيعته تأخرت ستة أشهر، وتربط بين عدم استجابة الصديق لطلب فاطمة بنت الرسول ﷺ أن ترث «ما أفاء الله على رسوله بالمدينة وفدك، وما بقي من خمس خيبر»، واحتج أبو بكر بحديث «لأنورث، ما تركنا صدقة». وقد غضبت فاطمة وقاطعته حتى توفيت، فبايع علي أبا بكر بعد وفاتها في المسجد بعد صلاة الظهر^(١). فهذا أقوى ما ورد فيبيعة علي لأبي بكر رضي الله عنه، ولكن صحت روايات أخرى تفيد بأنه بايع في اليوم الذي جرت فيه البيعة العامة، وأنه وضح سبب غضبه بقوله: «ماغضبنا إلا لأننا أخرنا عن المشاورة، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله، إنه لصاحب الغار، وثاني اثنين، وإنا لنعلم بشرفه، وكبره، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي»^(٢).

وجمع ابن كثير وابن حجر بين الأحاديث الصحيحة بأن علياً بايع أول الأمر مع الناس، ثم بايعه بعد وفاة فاطمة، تأكيداً للأولى، وإزالة لما حدث من جفوة بسبب الاختلاف حول الميراث^(٣).

المبحث الثالث

خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

مرض أبو بكر رضي الله عنه، وأحس بدنو أجله، فاستشار الصحابة في أمر الخلافة بعده: «إني قد نزل بي ماترون، ولا أظني إلا لما تي.. فأمرؤا عليكم من أحببتم،

(١) البخاري. الصحيح ٥: ١٧٧، ومسلم: الصحيح ٣: ١٣٨٠.

(٢) موسى بن عقبة: المغازي، (الذهبي: تاريخ الإسلام ٣: ٨، وابن كثير: البداية والنهاية ٦: ٣٤١) بإسناد صحيح، وانظر حولبيعة علي راضياً كتاب السنة لعبدالله ابن الامام أحمد ٢: ٥٦٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٥: ٢٨١، ٣٢١ و ٦: ٣٤١، وابن حجر: (فتح الباري ٧: ٤٩٥).

فإنكم إن أمرتم عليكم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي»، فتشاوروا بينهم ثم جاءوه طالبين منه أن يرشح لهم واحداً، فسألهم: فلعلكم تختلفون؟ قالوا: لا. قال: فعليكم عهد الله على الرضا؟ قالوا: نعم. قال: فأمهلوني أنظر لله ولدينه ولعباده. ثم أرسل إلى عثمان بن عفان فاستشاره، فأشار عليه بعمر بن الخطاب، فأمره أن يكتب له عهداً^(١). وقد أجمعت الأمة على بيعته والرضا به^(٢).

وقد سمت روايات ضعيفة الصحابة الذين استشارهم، وهم: عثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وأسيد بن الحضير، وغيرهم من المهاجرين والأنصار، وقد أدت مشاوراته إلى نصيحة الأمة باستخلاف عمر ابن الخطاب، فأمر عثمان بن عفان بكتابة عهد بذلك^(٣). والشيء المشتهر تاريخياً

(١) ابن الجوزي: مناقب عمر بن الخطاب ٥٢ من مرسل الحسن البصري. وأما ما ذكره الطبري: تأريخ ٣: ٤٢٩ حولبيعة عمر ففي إسناده علوان بن داود منكر الحديث (الذهبي: ميزان الاعتدال ٣: ١٠٨) وهو علوان بن صالح نفسه في رواية الطبري ٣: ٤٣١.

(٢) تشير رواية إلى أن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال لأبي بكر رضي الله عنه: استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم! وأنت لاق ربك فسألك عن رعيته... فقال أبو بكر: أبالله تخوفني! إذا لقيت الله ربي فسألني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك (الطبري: تأريخ ٣: ٤٣٣) وفي إسناده علتان عنعن ابن إسحاق وهو مدلس ومحمد ابن حميد الرازي ضَعَف. وقد وردت من طريق آخر دون النص على اسم طلحة، بل تجعل بدله «الناس» (ابن أبي شيبة: المصنف ١٢: ٣٥-٣٦ حديث رقم ١٢٠٦٢ من مرسل زبيد اليامي، وهو علوي لم يدرك أبا بكر ولا أحداً من الصحابة المتقدمين، والرواية تتفق مع هواه. أبو نعيم: الإمامة ٢٧٥). وكذلك ورد خبر مرسل وآخر منقطع في قول الصديق للصحابة: «أترضون بمن استخلف عليكم؟.. وإني قد استخلفت عمر فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا» (ابن أبي شيبة: المصنف ١٢: ٣٨) وفي إسناده الصلت بن بهرام عزيز الحديث، وثقه ابن حبان وسكت عنه البخاري وابن أبي حاتم، ثم إن الخبر منقطع، رواه سيار أبو الحكم ١٠٢ هـ. والطبري: تأريخ ٣: ٤٢٨ وفي إسناده محمد بن حميد الرازي ضَعَف، ثم هو مرسل، لأن روايه أبا السفر لم يلق أبا بكر وعمر).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ١٩٩ - ٢٠٠ عن الواقدي، وعنه نقلت المصادر الأخرى أيضاً، والبلاذري: أنساب الأشراف (الشيخان) ٧٠، والطبري: تأريخ ٣: ٤٢٨ - ٤٢٩ باختصار وابن الجوزي: مناقب عمر بن الخطاب ٥٤ باختصار.

أن أبا بكر عهد بالخلافة لعمر^(١)، وهو مجرد ترشيح يهدف إلى نصيحة الأمة وترشيده أهل الحل والعقد، ولا تنعقد به الخلافة، وإنما تنعقد إذا وافقت الأمة على الترشيح، وبايعت للمرشح، وهذا ما تم لعمر بن الخطاب حيث بايعه المسلمون في المدينة، وأُخذت له البيعة من أهل البلدان.

المبحث الرابع

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

تمت بيعة عثمان رضي الله عنه بعد اجتماع مجلس الشورى، الذي عينه عمر رضي الله عنه حين طعن، وأعضاؤه الستة هم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، ويحضر عبدالله بن عمر اجتماعات المجلس لإبداء المشورة، دون أن يكون له حق الترشيح للخلافة أو التصويت لصالح أحد المرشحين، وفي أول اجتماع للمجلس جرى الحوار الآتي:

قال عبدالرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم.

فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي.

فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان.

وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبدالرحمن بن عوف.

فقال عبدالرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه. والله عليه والإسلام

لينظرنَّ أفضلهم في نفسه؟

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٤٢٩ بإسناد من رواية عبدالرحمن بن عوف - وهو شاهد عيان - .

فسكت الشيخان - عثمان وعلي - فقال عبدالرحمن: أفتجعلونه إليّ، والله عليّ أن لا آلوا عن أفضلكم؟
قالا: نعم^(١).

وقام عبدالرحمن بن عوف بمشاورة الصحابة من أعضاء مجلس الشورى وغيرهم ليلاً ونهاراً، ثلاثة أيام، ثم في صبيحة اليوم الرابع دعا من كان حاضراً بالمدينة من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد - «وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر» - فلما اجتمعوا فقال عبدالرحمن بن عوف: «يا علي، إني قد نظرتُ في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل على نفسك سبيلاً» ثم بايع لعثمان قائلاً: «أبايعك على سنة الله وسنة رسوله والخليفين من بعده»، فبايعه عبدالرحمن بن عوف، وبايعه المهاجرون والأنصار، وأمراء الأجناد، والمسلمون^(٢).

وتؤكد روايات صحيحة توجه الرأي العام في خلافة عمر إلى بيعة عثمان من بعده، ولما سأل عمر في الحج بعرفات حذيفة بن اليمان: من ترى قومك مؤمرين بعدي؟ قال حذيفة: رأيت الناس قد أسندوا أمرهم إلى عثمان بن عفان^(٣).
وقال خارجة بن مضر: حججتُ مع عمر فلم يكونوا يشكُّون أن الخلافة من بعده لعثمان^(٤).

وسمعت الحادي يحدو: إن الأمير بعده ابن عفان، وسمعت الحادي في إمارة عثمان يحدو: إن الأمير بعده علي^(٥).

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٦٠ - ٦٢).

(٢) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٣: ١٩٣ - ١٩٤).

(٣) ابن شبة: تاريخ المدينة ٣: ٩٣٢ بسند صحيح.

(٤) ابن أبي شبة: المصنف ١٤: ٥٨٨ بسند صحيح.

(٥) ابن شبة: تاريخ المدينة ٣: ٩٣٢ - ٩٣٣ بسند حسن.

وقد قصد عمر من جعلها شورى بين الستة أن لا يتقلد العهد في ذلك، وأن يمارس المسلمون الشورى في أعلى المستويات، وهو اختيار المسؤول الأول في الدولة، قال الطبري: «ولم يكن في أهل الإسلام أحد له من المنزلة في الدين والهجرة والسابقة والعقل والعلم والمعرفة بالسياسة ما للسته، الذين جعل عمر الأمر شورى بينهم...»^(١).

الْبَحْثُ الْخَامِسُ

خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

تولى علي الخلافة إثر مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه في ظروف خطيرة، حيث سيطر الناقمون على عثمان على المدينة، وأفلت الأمر من يد كبار الصحابة، ولم تعد ثمة سلطة عليا تحكم الدولة الإسلامية، وقد سعى الناقمون إلى تولية عبدالله بن عمر، وهددوه بالقتل إن لم يرض، ولكن لم يجدوا منه إلا صدوداً^(٢). «فأدركوا أن أمر الخلافة بيد أهل المدينة من المهاجرين والأنصار من أهل بدر، وأن الناس تبع لهم في ذلك»^(٣).

وقد بادر الناس إلى علي ليبايعوه، فأظهر رغبته عن الخلافة في تلك الظروف «والله إني لأستحي أن أباع قوماً قتلوا رجلاً قال فيه رسول الله ﷺ: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة»، وإني لأستحي من الله

(١) ابن حجر: (فتح الباري ١٣: ١٩٨).

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة ٢: ٨٩٥، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٤: ١٥١، وأبو نعيم: حلية الأولياء ١: ٢٩٣ جميعهم عن الحسن البصري بإسناد صحيح.

(٣) عبد الحميد علي ناصر فقيه: خلافة علي بن أبي طالب ص ٩٢ (رساله ماجستير من الجامعة الإسلامية بإشرافي). وراجع البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٢: ١٤٤ - ١٤٥)، وأحمد: المسند ١: ٣٢٣ بإسناد صحيح طبعة أحمد شاكر، والبلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٣٥ ب.

أن أبياع وعثمان قتيل على الأرض لم يُدفن بعد» فانصرفوا. فلما دُفن عثمان رضي الله عنه أتوه مرة أخرى وسألوه البيعة، وقالوا: لا بد للناس من خليفة، ولانعلم أحداً أحق بها منك. فقال لهم علي: لا تريدوني. فإني لكم وزير خير مني لكم أمير. فقالوا: لا والله مانعلم أحداً أحق بها منك.

وهنا تفتق ذهن علي رضي الله عنه عن وسيلة تجعله يتلقى البيعة علناً من المسلمين عامة دون أن يبايعه الناقمون بيعة خاصة، فقال لنفسه - كما صرح فيما بعد - : اللهم إني مشفق مما أقدم عليه. وقال لهم: «إذا أبيتم عليّ، فإن بيعتي لا تكون سرّاً، ولكن أخرج إلى المسجد فمن شاء أن يبايعني يبايعني». فخرج إلى المسجد وبايعه الناس ^(١) عن رضا واختيار، سوى طلحة والزبير، فإنهما بايعاه مكرهين، ولم يكونا راضيين عن الطريقة التي تمت بها البيعة، حيث لم يتم التداول بين أهل الحل والعقد بشأنها، ولم يعقد مجلس للشورى ^(٢). «ولأن الثوار أتوا بهما بأسلوب جاف عنيف، ولا شك أن هذه الطريقة فرضتها طبيعة الأحداث لسيطرة هؤلاء الأعراب الجلف على المدينة» ^(٣).

واعتزل بعض الصحابة فلم يبايعوا علناً، ومنهم محمد بن مسلمة وأهبان ابن صيفي وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر، فقد كانوا يرون الناس في فرقة واختلاف وفتنة، فكانوا ينتظرون أن يستقر الأمر فيبايعوا. كما أن معاوية ابن أبي سفيان وأهل الشام وكثير من أهل البصرة ومصر واليمن لم يبايعوه بسبب، ويرى ابن حزم أن عدد من امتنع عن بيعته مثل عدد من بايعه، وقدر عددهم

(١) أحمد بن حنبل فضائل الصحابة ٢: ٥٧٣ بإسناد حسن، والبلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٣٦، والحاكم: المستدرک ٣: ١٠٣، وأبو نعيم: الإمامة والرد على الرافضة ٣٢٩، والمحب الطبري: الرياض النضرة ٣: ٧٨.

(٢) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٢: ١٤٤ - ١٤٥)، وأحمد: المسند ١: ٣٢٣ - ٣٢٧ (طبعة أحمد شاكر)، وابن أبي خيثمة: التاريخ الكبير، الجزء الخمسون ق ١٨ وروايته عن ابن عمر منقطعة لا تقوم بها الحجة (نسخة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة رقم ٢٨٦ - ٢٣١).

(٣) عبد الحميد علي ناصر فقيه: خلافة علي ١: ٩٧.

بمئة ألف مسلم^(١). ولكن معظم أهل الحل والعقد من أهل بدر والمهاجرين والأنصار بالمدينة بايعوا علي رضي الله عنه، وبذلك انعقدت له البيعة، وصار خليفة للمسلمين. وهو آخر خلفاء النبوة، التي ورد بها حديث «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء»^(٢).

الْبَحْثُ السَّالِسُ

أزمة الخلافة وانتقال مركز الخلافة إلى العراق

كانت خلافة عثمان رضي الله عنه نتيجة لاجتماعات مجلس شورى عمر رضي الله عنه، حيث أجمع عليه المسلمون دون خلاف، وقد اتسمت سياسته بالتسامح والتوسع على الناس في العطاء والاستمرار في حركة الفتوح، فظهرت آثار الغنى والازدهار الاقتصادي بتدفق الأموال على الدولة، حيث توسع الناس في معاشهم ومأكلاتهم وملبسهم^(٣)، وحظى المهاجرون والأنصار وأصحاب السابقة والجهاد بها لم يحظ

(١) ابن حزم. الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤: ١٦٧.

(٢) أبو داود: السنن ٥: ٣٦-٣٧، والترمذي: السنن (تحفة الأحوذى) ٦: ٤٧٦-٤٧٨ وحسنه الترمذي، وابن حجر: (فتح الباري ١٣: ١٨٢) ونقل تصحيح ابن حبان له. والألباني: السلسلة الصحيحة ١: ٧٤٢-٧٤٩.

(٣) عمر بن شبة: تاريخ المدينة ٣: ١٠٢٣-١٠٢٤ بسند صحيح، حيث يصف الحسن البصري - وهو شاهد عيان - كثرة الخيرات من الحلل والأرزاق. وورد في (الأوائل) لأبي هلال العسكري ١: ٢٤٦ من طريق المدائني أن جباية السواد في خلافة عثمان بلغت مئة وعشرين ألف ألف درهم، وذكر اليعقوبي في تأريخه ٢: ١٥٢ أنها بلغت مئة وعشرين ألف ألف درهم، بينما ذكر ابن خرداذبة: (المسالك والممالك ١٤) أنها بلغت مئة وثمانية وعشرين ألف ألف درهم. ولعل اختلاف المبالغ يرجع إلى أن كلاً منها يخص جباية عام بعينه، والزيادة والنقصان ترجع إلى حالة المحاصيل وزيادة السكان. وزادت جباية مصر من الجزية والخراج إلى الضعف، حيث كانت تجبى في خلافة عمر رضي الله عنه ألفي ألف دينار، فصارت تجبى في خلافة عثمان رضي الله عنه أربعة آلاف ألف دينار في ولاية عبدالله بن سعد بن أبي سرح عليها (البلاذري: =

به الروادف الذين التحقوا بالجهاد في مرحلة متأخرة^(١)، وكثير منهم من القبائل التي استقرت في الأمصار الجديدة (الكوفة والبصرة والفسطاط)، وأسهمت في الفتوح لاحقاً.

وقد ظهرت نواة المعارضة في الكوفة والبصرة ومصر وفي الوسط القبلي^(٢)، وقام بالتحريض عبدالله بن سبأ وهو يهودي من صنعاء أسلم في خلافة عثمان، وتبنى نشر دعاية واسعة تنتقد شرعية الخليفة وسياسته، وتؤكد على أحقية علي ابن أبي طالب عليه السلام بالخلافة، وأن من سبقه إليها اغتصبها منه، وتنسب إليه صفات إلهية^٥ وقد دار جدل طويل حول شخصية ابن سبأ التاريخية، ولكن تنوع مصادر الأخبار من سنية وشيعية يجعل من الصعب القبول بنفي الوجود التاريخي له^(٣).

إن المعارضة تلمست حججها من أعمال الخليفة عثمان، ولم تقتصر على الاحتجاج على سياسته المالية في السماح بمبادلة ملكية الأراضي بين العراق والحجاز، مما أتاح لأغنياء الحجاز تملك مساحات واسعة في السواد، ولا على

= فتوح البلدان ٢١٧، وقدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة ١٧٩، ١٨٤). ولكن ابن عبدالحكم ذكر رقماً مغايراً، فذكر أن جباية مصر بلغت اثني عشر ألف ألف دينار في خلافة عمر، وأربعة عشر ألف ألف دينار في خلافة عثمان: (فتوح مصر والمغرب ٦٤ - ٧٠ عن الليث ابن سعد، وبه أخذ المقرئزي: خطط ١: ٧٩). ولعل ما ذكره البلاذري يخص الخراج، وما ذكره ابن عبدالحكم يخص الجزية.

(١) الروادف هم الأعراب الذين وفدوا على الكوفة والبصرة، وليس لهم سابقة في الجهاد، ويبدو أنهم قسموا إلى أربع مجموعات تبعا لتواريخ التحاقهم بالجهاد، فثمة رادفة أولى وثانية وثالثة ورابعة. (تأريخ الطبري ٤: ٤٩، ٢٧٩) وكانت أعلى مرتباتهم تبلغ خمس مئة درهم، وأدناها يبلغ مئتي درهم. (تأريخ الطبري ٣: ٦١٤) في حين يبلغ راتب البدرين من المهاجرين من قریش والعرب والموالي خمسة آلاف درهم، ومن الأنصار ومواليهم أربعة آلاف درهم. (ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٣٠٤ بسند حسن).

(٢) بلغ عددهم ١٨٠٠ رجل، ٦٠٠ لكل مصر حسب الطبري: (تأريخ ٤: ٣٤٨ - ٣٤٩، ٣٦٩)، وأقل من هذا العدد حسب البلاذري: (أنساب الأشراف ٥: ٥٩، ٦١).

(٣) سعدي مهدي الهاشمي: ابن سبأ حقيقة لاخيال.

الاحتجاج على إدارة الدولة بالاعتماد على أقرباء عثمان الأكفاء، وعزله بعض الولاة من الصحابة، بل امتدت إلى النواحي الإيجابية الواضحة مثل جمع القرآن الكريم، الذي وحد مصحف الأمة وحفظه، حيث احتجت المعارضة على إحراق المصاحف الأخرى.

وقد قدم المعارضون من الأمصار إلى المدينة فمكثوا فيها أربعين يوماً، واستعتبوا عثمان رضي الله عنه فأعتبهم وأرضاهم، ثم رحلوا إلى أمصارهم، لكنهم لم يصلوها، إذ عادوا إلى المدينة وحاصروا دار عثمان أربعين يوماً^(١) لإجباره على تلبية مطالبهم، ثم تطور الأمر إلى المطالبة بخلع، فلما رفض قتلوه - وكان قد منع أنصاره من القتال دفاعاً عنه - مما أثار أزمة كبرى في الضمير المسلم، وأدى إلى انشقاق المجتمع على أسس مبدئية، تدل على الاستعداد للانتصار للحق والتضحية من أجل القيم.

وهكذا لم يحظ علي رضي الله عنه بالإجماع على خلافته، حيث خرج عليه أصحاب الجمل (عائشة، الزبير، طلحة رضي الله عنه) مطالبين بالاقتصاص من قتلة عثمان، ورفض معاوية مبايعته للسبب نفسه. ورأى الخليفة الجديد علي رضي الله عنه أن إنفاذ القصاص يولد فتنة كبيرة في أوساط القبائل التي تؤيده، وأن على معارضيه مبايعته تحقيقاً لوحدة الأمة وطاعة للخليفة الشرعي.

وحول هذين المبدئين، إنفاذ الحكم الشرعي، وطاعة الحاكم الشرعي انقسم عشرات الألوف من المقاتلة في البصرة والكوفة والشام، حيث ثقل القوات الإسلامية التي تكون أعظم جيوش العالم آنذاك^(٢).

(١) البلاذري: أنساب ٥: ٦٣ والطبري: تأريخ ٤: ٣٣٥.

(٢) يقارب ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل، فقد كان بوسع الكوفة وحدها أن تجند ٦٠,٠٠٠ مقاتل فضلاً عن رجال الخدمات (الطبري: تأريخ ٥: ٧٩ والبلاذري: أنساب ج ٢، ١ ص ٣٨٤ - ٣٨٥). وكان بوسع البصرة أن تجند ٦٠,٠٠٠ مقاتل، وبوسع مصر أن تجند ٣٠,٠٠٠ مقاتل. وبوسع الشام أن تجند ٨٠,٠٠٠ مقاتل.

وكان خروج علي رضي الله عنه من المدينة مع سبع مئة رجل^(١) إلى البصرة لقتال المعارضين أصحاب الجمل - الذين غادروا مكة قبله، وهم في حدود ألف مقاتل، ثم انضم إليهم معظم مقاتلة البصرة -^(٢) بالاعتماد على مقاتلة الكوفة^(٣)، الذين تلاحموا مع قضيته، وحافظوا على ولائهم بعد ذلك عقودا كثيرة، كانوا خلالها نواة المعارضة الصلبة للحكم الأموي، وكانت ملحمة الجمل^(٤) تجلي عقائدية المجتمع بشقيه (الحكومة والمعارضة)، ومدى فاعلية القيم الإسلامية في توجيهه... وتجلت من خلالها أحكام شرعية تتصل بقتال البغاة (الفتن الداخلية)، وانقسمت القبائل على نفسها بين الطرفين^(٥).

وانتهت المعركة لصالح علي رضي الله عنه، وأمر بعدم مطاردة الفارين وعدم الإجهاز على الجرحى، وعدم استحلال أموال المعارضة وأعراضها، معلنا العفو العام. ولم تنته المواجهة العسكرية مع المعارضة،

-
- (١) الطبري: تاريخ ٤: ٤٥٥ من طريق سيف، والبلاذري: أنساب الأشراف ج ٢، ١ ص ٢٣٣.
 (٢) كان مقاتلة البصرة في حدود ٦٠,٠٠٠ مقاتل بقي كثير منهم معتزلا للقتال، وانضم معظمهم إلى أصحاب الجمل، في حين انضم ٦٠٠٠ رجل من قبيلة عبد القيس البصرية إلى علي رضي الله عنه (الطبري: تاريخ ٤: ٤٨٩)، كما انضم إليه مقاتلون من قبيلة بكر بن ربيعة عددهم ٣٠٠٠ مقاتل (البلاذري: أنساب الأشراف ج ٢، ١ ص ٢٣٧).
 (٣) كان عدد مقاتلة الكوفة أكثر من ٤٠,٠٠٠ مقاتل (الطبري: تاريخ ٥: ٧٩ من طريق أبي مخنف) التحق منهم بعلي تسعة آلاف مقاتل حسب رواية سيف (الطبري: تاريخ ٤: ٤٨٥، ٤٨٨) لكن عمر بن شبة ذكر أنهم ١٢٠٠٠ رجل (ابن حجر: فتح الباري ١٣: ٥٨ نقلا عن تأريخ البصرة لابن شبة). وقد بلغ عدد جيش علي رضي الله عنه في معركة الجمل عشرين ألفا. في حين بلغ جيش أصحاب الجمل ثلاثين ألفا.. مما يوحي بقعود الأكثرية الساحقة من الجيش الإسلامي عن المشاركة، حيث تقدر القوات الإسلامية آنذاك بأكثر من مائتي ألف مقاتل.
 (٤) بلغ عدد قتلى الطرفين في التقدير المتوسط ٦٥٠٠ قيل (راجع الأرقام في تأريخ الطبري ٤: ٥٢٩، ٥٤٥ وأنساب الأشراف ج ٢، ١ ص ٢٦٤ وخليفة بن خياط ١: ١٦٦، ١٧١).
 (٥) انقسام القبائل يوضح ضعف العصية القبلية، حيث يوجد رجال القبيلة الواحدة في المعسكرين دون مبالاة بالأواصر القبلية.

فقد كان معاوية والي الشام منذ خلافة عمر رضي الله عنه يقود معارضة أقوى، يدعمها جيش قوي بعدده وتدريبه، الذي اكتسبه من مجابهة الجيوش البيزنطية.. وهكذا انتقل علي رضي الله عنه إلى الكوفة ليعد قواته أمام المعارضة الشامية، وكانت المواجهة في صفين رهيبة كادت أن تفني رجالات القبائل وشجعانها، لولا جنوح القوتين إلى التحكيم^(١)، بعد رفع الشاميين للمصاحف الخمس مئة^(٢).

وقد جر قبول الخليفة علي للتحكيم إلى خروج بضعة ألوف من جيشه^(٣)، معلنين رفضهم للتحكيم، لما فيه من شك بالشرعية^(٤)، كانوا اقراء حفظة لكتاب الله، لكن فهمهم لأحكام الشريعة كان محدوداً، فقد كفّروا علياً رضي الله عنه ومن معه، وقاموا باستعراض الناس وقتل من ليس على رأيهم^(٥)، فاستحل علي قتالهم في

(١) واجهه (١٠٠,٠٠٠ مقاتل) مئة ألف مقاتل (من الكوفة ٤٠,٠٠٠ ومن البصرة ٦٠,٠٠٠ مقاتل) مثلهم من أهل الشام (وهذا بني على ما ذكره الإخباريون من تقديرات للجيوش بعد صفين. راجع البلاذري: أنساب الأشراف ٥: ١٣٦). أما قوات مصر فكانت دون هذه الأرقام، ولم تشارك في الجمل وصفين. وبالطبع تختلف الأرقام بين المصادر، بل في المصدر الواحد حسب الإخباريين، فالبلاذري: (أنساب الأشراف ج ٢، ١ ص ٣٢٢) يذكر أن جيش علي ٥٠,٠٠٠ رجل، ٧٠,٠٠٠ رجل، ١٠٠,٠٠٠ رجل.
(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ١٨٩، وانظر الطبري: تاريخ ٥: ٤٨ والبلاذري: أنساب الأشراف ج ٣، ١ ص ٣٢٢.

(٣) سموا أولاً بالمحكمة - لرفضهم التحكيم وقولهم ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ - ثم بالحرورية نسبة إلى قرية حروراء، ثم بالخوارج لخروجهم على الخليفة الشرعي. وطالبوا علياً بالتوبة علناً، وقد ناقشهم عبدالله بن عباس، وأرجع معظمهم إلى الكوفة تاركين حروراء التي بقي فيها ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف خارجي من مجموع اثني عشر ألفاً (الطبري: تاريخ ٥: ٦٥ - ٦٦) منهم خمس مئة من البصرة (الطبري: تاريخ ٥: ٧٦).

(٤) إن حكم الله يتمثل بقتال البغاة وفق الآية ﴿وَلِإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ومعاوية خارج على الخليفة الشرعي فلا بد من قتاله.

(٥) الطبري: تاريخ ٥: ٨١ - ٨٢، والبلاذري: أنساب الأشراف ج ٢، ١ ص ٣٦٨.

النهروان وكاد أن يبيدهم، ولكن الجراح التي أصاب قبائلهم لم تندمل، حيث واصلوا إمداد الحركة الخارجية المعارضة عدة قرون...

أما التحكيم الذي انتهى إلى عزل علي ومعاوية والعودة إلى الشورى فلم يكتب له التنفيذ^(١)، ومضى الطرفان في حشد القوات وعمليات الاختراق للأطراف، لكنهما لم يتواجهتا بكل ثقلهما بعد صفين.. وانتهت الملاحم عندما انقض خارجي بسيف مسموم على علي عليه السلام عند صلاة الفجر في رمضان ٤٠ هـ وباع الكوفيون للحسن بن علي الذي رأى أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية حقناً للدماء وحفاظاً على وحدة الأمة فكان عام ٤١ هـ هو عام الجماعة. وبذلك طويت الفتنة.



(١) عقد في أذربق قرب البتراء محرم سنة ٣٨ هـ (البلاذري: أنساب الأشراف ج ٢، ١ ص ٣٤١) قبل معركة النهروان التي جرت في ٩ صفر ٣٨ هـ (البلاذري: أنساب الأشراف ج ٢، ١ ص ٣٦٢).

إِفْطِيءُ الثَّانِي

الخلفاء

المبحث الأول

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة^(١)، ولد بمكة بعد عام الفيل بعامين وأشهر^(٢). وصفه رسول الله ﷺ بأنه «عتيق من النار» فغلب عليه اسم «العتيق»^(٣)، وقيل: إنما سمي بذلك لجمال وجهه^(٤)، وقيل أيضاً: إنه ما كان يعيش لأمه ولد، فاستقبلت البيت العتيق، وقالت: إن هذا عتيق من الموت فهبه لي^(٥). ووصفه بالصديق عقب حادثة الإسراء والمعراج، إذ صدقه حين كذبه المشركون^(٦).

وكان أبيض البشرة، نحيف الجسم، معروق الوجه، قليل الشعر في صفحتي خديه، غائر العينين، بارز الجبهة^(٧)، جعد الشعر^(٨)، وكان يخضب شيبه بالحناء والكتم^(٩). وقد اشتهر في الجاهلية بحميد الأخلاق، وحسن المعاشرة، وامتناعه عن شرب الخمر، وعلمه بأنساب العرب وأخبارها.

-
- (١) أبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ١٤٩، وابن حجر: الإصابة ٤: ١٦٩.
 - (٢) أبو نعيم: معرفة الصحابة حديث رقم ٨٩.
 - (٣) أبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ١٥٢ حديث رقم ٦١، وأخرجه ابن حبان في صحيحه بإسناد صحيح (موارد الظمان ٥٣٢)، (الطبراني: المعجم الكبير ١: ٥).
 - (٤) الطبراني: المعجم الكبير ١: ٥، وقال الهيثمي: رجاله ثقات مجمع الزوائد ٩: ٤١ وأبو نعيم: معرفة الصحابة حديث رقم ٦٣ بإسناد حسن.
 - (٥) أبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ١٥٣ - ١٥٤، والسيوطي: تاريخ الخلفاء ٢٩.
 - (٦) الحاكم: المستدرک ٣: ٦٢، ٦٣ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي.
 - (٧) الطبراني: المعجم الكبير ١: ٩، وأبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ١٦٥ وفيه راو مجهول وبقية رجال السند ثقات.
 - (٨) الذهبي: تاريخ الإسلام - عهد الخلفاء الراشدين - ١٠٦.
 - (٩) أبو داود: السنن ٤: ٤١٧، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ١٩١ وإسناده صحيح، وهذا الوصف له في غزوة ذات السلاسل.

واشتهر في الإسلام بسابقتها إلى الدين، وجهوده الكبيرة في الدعوة إليه، حيث أسلم على يده عدد من كبار الصحابة، هم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله.

وقد صحب النبي ﷺ في هجرته إلى المدينة فنزلت الآية الكريمة: ﴿ثَآئِفَ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾^(١). وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ^(٢). وكان يتاجر بالثياب وبلغ رأس ماله حين أسلم أربعين ألف درهم، أنفقها على مصالح الدعوة الإسلامية، وخاصة في عتق رقاب المستضعفين الأرقاء من المسلمين، وحمل بقيتها وهي خمسة آلاف درهم معه حين الهجرة ووضعها تحت تصرف النبي ﷺ^(٣).

وكان النبي ﷺ يقضي في مال أبي بكر، كما يقضي الرجل في مال نفسه^(٤). وقد بين النبي ﷺ مدى إفادة الإسلام من ذلك: «ما نفعتني مال قط ما نفعتني مال أبي بكر»^(٥). وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة^(٦)، وترك خوخة^(٧) داره مشرعة على المسجد دون بقية الصحابة^(٨)، وولاه الصلاة خلال مرضه^(٩). وكان موضع مشورة النبي ﷺ، وقد صاهره؛ بأن تزوج ابنته عائشة رضي الله عنها. وروى عن النبي ﷺ مئة حديث واثنين وأربعين

(١) التوبة ٤٠.

(٢) ابن حجر: الإصابة ٤: ١٦٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٧٢، وأبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ١٨٠، والذهبي: تاريخ الإسلام - عهد الخلفاء الراشدين - ١٠٧، وابن حجر: الإصابة ٤: ١٧١ - ١٧٢، والسيوطي: تاريخ الخلفاء ٣٩.

(٤) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٧٢ من مراسيل سعيد بن المسيب وهي قوية.

(٥) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٦٥ بإسناد صحيح.

(٦) البخاري: الصحيح ٧: ٢٢.

(٧) الخوخة: باب صغير ينفذ منه إلى المسجد.

(٨) البخاري: الصحيح ٥: ٥٥٨.

(٩) البخاري: الصحيح ٢: ١٦٦، ومسلم: الصحيح ١: ٣١٦.

حديثاً^(١). وقد ظهرت حكمته ورباطة جأشه في مواجهة مصاب الأمة بوفاة النبي ﷺ، كما ظهرت شخصيته القوية وحنكته السياسية في اجتماع السقيفة، وقد عبّر عن تواضع جم وزهد في الخلافة حين رشح لها، مبيناً أن سالم مولى أبي حذيفة أتقى منه، وأن عمر بن الخطاب أقوى منه^(٢). ولما تولى الخلافة أظهر قدرة فائقة على إدارة شؤون الدولة، التي تعرضت للانقسام الخطير بسبب ظهور المرتدين، فأعاد للدولة وحدتها وأمنها، ووجه طاقتها للجهاد وفتح بلاد العراق والشام.

وتوضح خطبه ورسائله إلى قادته في العراق والشام تقواه وورعه، وحرصه على نشر الإسلام، وترفعه عن الدنيا، كما تبين سلاسة أسلوبه وبلاغة تعبيره وبعده عن الإطناب في الكلام والمبالغة في التعبير، فكان من خطباء الصحابة المقدمين^(٣). وقد أنجز مشروعاً عظيماً بجمع القرآن للمرة الأولى، مما منع وقوع الاختلاف فيه، وحقق الوحدة الدينية والثقافية للمسلمين^(٤).

ومع سعة علمه بالقرآن والسنة، وفهمه الثاقب لمقاصد الشرع وأحكامه وتصدره للفتوى^(٥)، فإنه كان كثير الاستشارة للصحابة^(٦)، وكانت الرحمة تغلب على آرائه، فقد أشار بقبول المفاداة من أسرى بدر، والسكينة تملأ نفسه فقد ثبتت الناس في حادثة وفاة النبي ﷺ، والحزم ومضاء العزيمة عنوان سياسته، كما في موقفه من حركة الردة، ورعاية الآخرين منهج حياته وخاصة الفقراء والمرضى^(٧).

(١) بقي بن مخلد ٨٢. وقد ذكر السيوطي مئة وأربعة أحاديث منها (تأريخ الخلفاء ٨٧ - ٩٤).

(٢) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٨٥، وأحمد: فضائل الصحابة ١: ١٦٢ بإسناد حسن.

(٣) السيوطي: تأريخ الخلفاء ٦٠.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٩٣، وانظر صحيح البخاري (فتح الباري ٩: ١٠).

(٥) راجع فتاويه في تأريخ الخلفاء للسيوطي ٩٥ - ١٠٥.

(٦) السيوطي: تأريخ الخلفاء ٤٣، ٥٢.

(٧) مسلم: الصحيح ٤: ٧١٣، ١٨٥٧.

توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعمره ثلاث وستون سنة^(١) في جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وكانت مدة ولايته سنتين ونصف^(٢).

المبحث الثاني

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح، من بني عدي بن كعب إحدى عشائر قريش. وأمه حنتمة بنت هاشم المخزومية^(٣) ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة^(٤).

كان طويل القامة، ضخم الجسم، كثير شعر البدن، وقد انحسر شعره عن جانبي رأسه، أبيض البشرة، شديد الحمرة، يخضب شيبه بالحناء، له شارب كثيف، أعسر يسر - وهو الذي يعمل بيديه جميعاً -^(٥).

(١) مسلم: الصحيح ٤: ١٨٢٦، والترمذي: السنن (تحفة الأحوزي ١٠: ١٣٦).
(٢) الطبراني: المعجم الكبير ١: ١٤، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٩: ٦٠)، وأبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ١٦٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤: ٢٦٥، وأبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ١٩٠ - ١٩١ مع الحاشية رقم ٣، وابن حجر: الإصابة ٤: ٥٨٨.
(٤) ابن حجر: الإصابة ٤: ٥٨٨، وانظر ما ذكره الواقدي من أن مولده - كما ذكر عمر عن نفسه - قبل الفجار الآخر بأربع سنين (ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٩٦، وابن شبة: تاريخ المدينة ٢: ٦٦١).

(٥) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٢٦٠ - ٢٦١ بأسانيد ترقى بمجموعها إلى الحسن، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٣٢٤، والطبراني: المعجم الكبير ١: ١٩، ومسلم: الصحيح ٤: ١٨٢١، والحاكم: المستدرک ٣: ٨١ بإسناد حسن إلى زر بن حبیش، وابن حجر: الإصابة ٤: ٥٨٩، وأبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ٢٠٣، ٢٠٦.

وكان قد بلغ الثلاثين من عمره وقت المبعث النبوي^(١). فكان شديداً على المسلمين^(٢)، ودعا له النبي ﷺ بالهداية فأسلم^(٣) في السنة السادسة من البعثة^(٤)، فاعتز به الإسلام. وجهر بإسلامه فتعرض له المشركون وقتلهم وقتلوه^(٥). وقد عرف في الجاهلية بالفصاحة والشجاعة، وعرف في الإسلام بالقوة والهيبة، والزهد والتقشف^(٦)، والعدل والرحمة، والعلم والفقه^(٧) وكان مسدد القول والفعل^(٨). وقد روى عن النبي ﷺ خمس مئة حديث وسبعة وثلاثين حديثاً^(٩). وقد وافقه القرآن في عدة آراء اقترحها على رسول الله ﷺ، منها اتخاذ مقام إبراهيم مصلًى، وحجاب أمهات المؤمنين، ونصحه لأمهات المؤمنين قبل نزول آية التخيير^(١٠)، وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة^(١١)، وبشره بالشهادة^(١٢)، وبما سيكون على يده من خير، ووصفه بالعقري «لم أر عقرياً يفري فريه»^(١٣). وبين

(١) ابن حجر: الإصابة ٤: ٥٨٨.

(٢) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٢٧٨، ٢٧٩.

(٣) الترمذي: السنن ٥: ٦١٧، وابن حبان: الإحسان ٩: ١٧.

(٤) ابن حجر: (فتح الباري ٧: ٢١٦ - ٢١٧).

(٥) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٢٨٢.

(٦) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٣٣٠ الرواية رقم ٤٧١، وابن سعد: الطبقات ٣: ٣٢٧، ٣٢٨، وأبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ٢٢٣.

(٧) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٢: ٤١٠)، وأحمد: فضائل الصحابة ١: ٣٣٠ الرواية رقم ٤٧٢ بإسناد صحيح و ١: ٣٤٤ الرواية رقم ٤٩٦ بإسناد صحيح و ١: ٣٦٢ الرواية رقم ٥٣٠ وأبو داود: السنن ٣: ١٢٧، والهيثمي: مجمع الزوائد ٩: ٦٩، ٧٧.

(٨) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٩٨، ٢٤٨، ٢٤٩ بأسانيد صحيحة وحسنة.

(٩) بقي بن مخلد ص ٨١.

(١٠) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١: ٤٠٥ و ٨: ١٦٨)، ومسلم: الصحيح ٤: ١٨٦٥. وآية التخيير هي الخامسة من سورة التحريم.

(١١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٢٢، ٤٠).

(١٢) مسلم: الصحيح ٤: ١٨٨، وأحمد: فضائل الصحابة ١: ٢٥٥ بسند صحيح.

(١٣) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٢٥٥، ٢٥٧، والبخاري: الصحيح ٧: ١٩، ٤١، ومسلم: الصحيح ٤: ١٨٦٢.

أنه إن كان في الأمة محدث - بمعنى ملهم - فهو عمر^(١). وأمر النبي ﷺ أصحابه بالافتداء بأبي بكر وعمر^(٢).

وكان مقرباً إلى رسول الله ﷺ يستشير في المهمات، شهد معه المشاهد كلها، وقد صاهره بالزواج من ابنته حفصة أم المؤمنين، وكان أبو بكر يستشير كثيراً، وهو الذي أشار عليه بجمع القرآن^(٣)، وقد عهد إليه بالخلافة بعد مشاورة كبار الصحابة ورضاهم^(٤). ولقب بأمر المؤمنين^(٥).

وقد أظهر عمر في خلافته حسن السياسة، والحزم والتدبير، والتنظيم للإدارة والمالية، ورسم خطط الفتح وسياسة المناطق المفتوحة، والسهر على مصالح الرعية، وإقامة العدل في البلاد، والتوسع في الشورى، «وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أم شباناً»^(٦)، ومحاسبة الولاة^(٧) وفق مبدأ «من أين لك هذا؟!»، ومنعهم من أذى الرعية، وفتح بابه أمام شكاوي الناس^(٨). وتدوين الدواوين^(٩)، وتعيين العرفاء على العشائر والقبائل^(١٠). وابتدأ التأريخ الهجري، وكان لا يستحل الأخذ من بيت مال المسلمين إلا حلة للشتاء وأخرى للصيف وناقة لركوبه وقوته كقوت رجل متوسط الحال من المهاجرين^(١١).

(١) البخاري: الصحيح ٧: ٤٢.

(٢) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٣٣٢، وابن ماجة: السنن ١: ٣٧ كلاهما بإسناد صحيح.

(٣) البخاري: الصحيح ٨: ٣٤٤، ومسلم: الصحيح ٤: ١٩١٣.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٩٩، والبلاذري: أنساب (الشيخان) ٧٠ - ٧٣.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٤: ٢٨١، والطبراني: المعجم الكبير ١: ١٨، وأبو نعيم: معرفة الصحابة ٢٢٧: ١، والحاكم: المستدرک ٣: ٨١.

(٦) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٣٥١ بإسناد صحيح.

(٧) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٢٩٣.

(٨) ابن سعد: الطبقات ٤: ٢٨١.

(٩) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٣٢٨، وابن سعد: الطبقات ٣: ٣٠٠ بإسناد صحيح، ويعقوب ابن سفيان: المعرفة والتأريخ ٢: ٥٨.

(١٠) المصادر السابقة.

(١١) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٤٠٥، وابن سعد: الطبقات ٣: ٢٧٥ وإسنادهما صحيح.

وتدل خطبه ورسائله إلى الولاة والقادة على بلاغته العالية وبيانه الواضح مع الإيجاز المفيد والبعد عن الإطناب والإغراب والمبالغة، وتعبر بدقة عن شعوره العميق بالمسؤولية تجاه الدين والرعية، مع حسن التوكل على الله والثقة بالنفس^(١). وقد غلبت الدولة الإسلامية في عهده الفرس والروم، وحررت الهلال الخصيب ومصر، ومصرت الكوفة والبصرة والفسطاط، وما زالت في صعود وامتداد. حتى اغتاله أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة وهو يؤم المسلمين في صلاة الفجر ليلة الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة، بعد خلافة دامت عشر سنين وستة أشهر^(٢)، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة^(٣).

وأرجح أن سبب اغتياله يعود إلى الدافع الشخصي لدى قاتله المجوسي، وكان عجمياً ماهراً بالصناعة، وكان عمر قد نهى عن جلب الأعاجم البالغين من غير المسلمين إلى المدينة، ولكن مصالح الناس أدت إلى جلبهم^(٤).

المبحث الثالث

عثمان بن عفان رضي الله عنه

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه أروى بنت كرز من بني عبد شمس أيضاً^(٥).

(١) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ٤٠٦ - ٥٢٨.

(٢) مسلم: الصحيح ١ - ٣٩٦ رقم ٥٦٧، وابن سعد: الطبقات ٣: ٥٦٣، وأبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ٣٩١.

(٣) أبو نعيم معرفة الصحابة ١: ٥٩١.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٣ - ٣٤٩ بإسناد صحيح.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٣: ٥٣، وخليفة: الطبقات ١٠، وابن عبد البر: الاستيعاب ٣: ٦٩.

ولد بعد عام الفيل بست سنوات بالطائف^(١). وصف بأنه متوسط الطول، حسن الوجه، فيه نكتات من جدري، رقيق البشرة، عظيم اللحية، أسمر، كثير شعر الجسم^(٢). وعرف بالحياء الشديد، ورجاحة العقل^(٣)، والعفة، وصلة الرحم^(٤) والتقوى^(٥)، وإطالة التهجد في صلاة الليل^(٦)، والبكاء عند ذكر الآخرة^(٧)، والتواضع^(٨)، والكرم والسخاء، فقد عمل تاجراً فأصاب ثروة كبيرة قبل الإسلام، وقد أنفق منها الكثير على المصالح الإسلامية في مرحلة الدعوة والدولة. فقد اشترى بماله بئر رومة - ولم يكن بالمدينة ماء يستعذب غيرها - فجعلها سبيلاً للمسلمين استجابة لندب النبي ﷺ الصحابة لشرائها، ووعدهم بخير منها في الجنة^(٩). واشترى أرضاً لزيادة مساحة المسجد النبوي بالمدينة استجابة لندب النبي ﷺ للصحابة^(١٠). وقد دعا النبي ﷺ إلى تجهيز جيش العسرة المتجه إلى تبوك وعدده ثلاثون ألف رجل^(١١)، فبادر عثمان رضي الله عنه إلى تجهيزه بالنفقة العظيمة^(١٢).

(١) الديار بكرى: تأريخ الخميس ٢: ٢٥٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات ٣: ٥٨ بسندين ضعيفين، وأبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ٢٣٦، وابن عبد البر: الاستيعاب ٣: ٧٤.

(٣) مسلم: الصحيح (شرح النووي) ١٥: ١٦٨، ١٦٩، وأحمد: فضائل الصحابة ١: ٤٦٥ بسند صحيح.

(٤) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٤٥٢ بسند صحيح.

(٥) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٤٥٥ بسند صحيح.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٣: ٧٥-٧٦ بإسناد حسن.

(٧) أحمد: الزهد ٤٢، والترمذي: السنن ٤: ٥٥٣ بإسناد حسن.

(٨) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٤٥٩ بسند صحيح، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٥٩ بسند صحيح.

(٩) أحمد: المسند ١: ٧٤-٧٥ وصححه أحمد شاكر، والترمذي: السنن ٥: ٦٢٥-٦٢٧ بسند حسن، والنسائي: السنن ٦: ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦ بسند صحيح، والدارقطني: السنن

١٩٩: ٤ بسند صحيح.

(١٠) الترمذي: السنن ٥: ٦٢٧، والنسائي: السنن ٦: ٢٣٤ بسند صحيح.

(١١) الواقدي: المغازي ٣: ٩٩٦، وابن سعد: الطبقات ٢: ١٦٦ دون إسناد، وابن حجر: (فتح

الباري ٨: ١١٧).

(١٢) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٥: ٤٠٦-٤٠٧) مستخدماً صيغة التعليق «قال» عن

شيخه مما اعتبره ابن حجر تحملاً بالإجازة أو المناولة أو العرض (الفتح ٢: ١٥٨).

وقد دفع في تجهيز الجيش ألف دينار فقال النبي ﷺ: «ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم - يرددها مراراً»^(١).

أسلم عثمان مبكراً بدعوة من أبي بكر الصديق^(٢)، وهاجر إلى الحبشة^(٣) مع زوجه رقية بنت الرسول ﷺ، وعاد إلى مكة، ثم هاجر منها إلى المدينة^(٤).

وتغيب عن موقعة بدر بأمر النبي ﷺ ليعنى بزوجه رقية، وكانت مريضة، ووعدته أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه^(٥). وشهد المشاهد الأخرى مع النبي ﷺ، وأرسله في الحديبية إلى قريش، فغاب عن بيعة الرضوان، فصفق النبي ﷺ يمينه بشماله، وقال: «هذه عن عثمان»^(٦). وكان عثمان رضي الله عنه من كبار الصحابة المقربين إلى النبي ﷺ، وقد تزوج من ابنته رقية فلما ماتت تزوج ابنته الثانية أم كلثوم، لذلك لقب بذي النورين^(٧).

وقد بشره النبي ﷺ بالجنة في عدة مناسبات^(٨)، وبشره بالشهادة^(٩).

(١) أحمد: المسند ٤: ٧٥ و ٥: ٦٣، والحاكم: المستدرک ٣: ١٠٢، وقال الذهبي: صحيح.
(٢) ابن إسحاق: السير والمغازي ١٤٠ دون إسناد، ويخالفه الواقدي والبلاذري حيث يقررا أنها أسلما بدعوة النبي ﷺ لها مباشرة (ابن سعد: الطبقات ٣: ٥٥ عن الواقدي، والبلاذري: أنساب الأشراف ٥: ٢)، وبذلك لا توجد رواية صحيحة في كيفية إسلامه، لكن الثابت أنه أسلم مبكراً جداً.

(٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٥٣، ٥٦، ١٦٣، ١٨٧).

(٤) ابن إسحاق: السير والمغازي ١٧٤، ١٧٦، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١: ٢٣٧-٢٣٨ بسند منقطع فهو ضعيف، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ٣: ٢٦٨ بسند موصول إلى أنس رضي الله عنه، والحاكم: المستدرک ٢: ٦٢٣ بإسناد صحيح إلى الزهري، ومراسيل الزهري ضعيفة ٤: ٧٧.

(٥) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٦: ٢٧١ و ٧: ٦٦-٦٧، ٤٢١).

(٦) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٥٤).

(٧) أبو نعيم: معرفة الصحابة ١: ٢٤٥ بإسناد حسن إلى الحسن البصري، لكنه مرسل ضعيف، وله شاهد بإسناد ضعيف في تاريخ بغداد للخطيب ٢: ٢٣١.

(٨) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٢٢، ٤٢، ٥٣ و ١٠: ٥٩٧ و ١٣: ٢٤٠)، وأبو داود: السنن حديث رقم ٤٦٥١، والترمذي: السنن ٥: ٦٢٤.

(٩) مسلم: الصحيح (بشرح النووي) ١٥: ١٩٠-١٩١، والترمذي: السنن ٥: ٦٢٧ وقال: حديث حسن. وانظر حول تعدد القصة (فتح الباري لابن حجر ٧: ٣٨).

وقد عرف الصحابة له مكانته، فهم يعدونه في الفضل بعد أبي بكر وعمر^(١).

وروى عن النبي ﷺ مئة حديث وستة وأربعين حديثاً^(٢).

وكان عثمان رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ قريباً من الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومن بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشاورانه ويقدمانه، فلما طعن عمر رضي الله عنه عين مجلس الشورى من ستة من الصحابة المشهود لهم بالجنة، ليختاروا الخليفة من بينهم، فاختاروا عثمان رضي الله عنه بعد مشاورة أهل الرأي والمشورة في المدينة^(٣)، وذلك في أول محرم سنة أربع وعشرين للهجرة^(٤).

وقد أنجز في خلافته الجمع الثاني للقرآن^(٥)، وبذلك حفظه ومنع وقوع الاختلافات في القراءات، مقتصرأ على لغة قريش، ورتب سورته، وقد أجمعت الأمة على مصحف عثمان في سائر العصور^(٦).

كما وسّع الحرمين بمكة والمدينة، وكان بناء المسجد النبوي بالمدينة باللبن والجريد وأعمدة الخشب، فزاد فيه عثمان سنة ٣٠ هـ زيادة كبيرة، وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة والحصى، وجعل عمدته من الحجارة المنقوشة أيضاً، وسقفه

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ١٦، ٥٤).

(٢) بقي بن مخلد: مقدمة المسند ٨٢.

(٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٥٩-٦٢ و ٣: ٢٥٦ و ١٣: ١٩٣-١٩٤)، ومسلم: الصحيح ١: ٣٩٦، وابن تيمية: منهاج السنة ٣: ١٦٦.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ٦٤، وخليفة: التأريخ ١٥٦، والطبري: تأريخ ٤: ٢٤٢.

(٥) نزل القرآن منجماً، فإذا نزلت آية أو آيات أمر النبي ﷺ كتاب الوحي بكتابتها، وأرشدهم بموضعها من سورتها، وكانوا يكتبون في الرقاع - الحرق - واللحف - حجارة بيض رقاق - والعسب - سعف النخل - فلما كانت خلافة الصديق رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت بجمعه في المصحف من العسب واللحف وصدور الرجال فأنجزه، وفي خلافة عثمان رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت بإعادة العمل معتمداً على المصحف الذي جمعه في خلافة أبي بكر، حيث تم تدقيق المصحف وترتيب سورته، وعملت منه عدة نسخ وزعت على الأمصار منعا لوقوع الاختلاف في القراءات.

(٦) ابن حجر: (فتح الباري ٩: ٢١).

بالساج، وترك أبوابه الستة كما كانت في خلافة عمر رضي الله عنه^(١). ومن إصلاحات عهده حفر نهر الأبله وطوله أربعة وعشرين كيلاً (كيلو متراً) ونهر الأسورة، وكلاهما بالبصرة^(٢).

واستعاد المسلمون في خلافته البلدان التي انتقضت عليهم في خلافة عمر رضي الله عنه وبداية خلافة عثمان رضي الله عنه، وتوسعت الفتوحات فأضافت بلداناً جديدة لم يسبق فتحها من قبل مثل أذربيجان وأرمينية وأفريقية (تونس) والنوبة وجزيرة قبرص وكابل وخراسان وشيراز واصطخر وسابور ودراجرد وأرجان. وازدهرت الحياة الاجتماعية والاقتصادية في خلافته لكثرة موارد الدولة والمجتمع، فتوسع عثمان في العطاء، وتوسع الناس في الإنفاق^(٣).

وقد تدمر بعض أهل الأمصار من ولاته بتحريض من ابن سبأ، فاجتمع المنافقون وحاصروا دار الخليفة، وبعد مناقشات معه تجرأوا عليه واقتحموا داره وقتلوه، وهو شيخ في الثمانين، وكان صائماً يقرأ القرآن حين مقتله، وذلك سنة ٣٦ هـ مما عرف بالفتنة، وجر مقتله إلى سلسلة أخرى من الفتن التي عصفت بوحدة المسلمين.

المبحث الرابع

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، ابن عم رسول الله ﷺ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم^(٤).

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١: ٥٤٠)، والطبري: تاريخ ٤: ٢٦٧، وابن حجر: (فتح الباري ١: ٥٤٥).

(٢) خليفة: التأريخ ١٦٥ - ١٦٦.

(٣) عمر بن شبة: تأريخ المدينة ٣: ١٠٢٣ - ١٠٢٤ بسند صحيح.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ١: ١٦١، ١٨٩، ومصعب الزبيري: نسب قريش ٤٠، وهشام الكلبي: جمهرة النسب ١: ٣٠.

ولد علي عليه السلام قبل البعثة النبوية، وأسلم وهو في الخامسة من عمره^(١) أو الثامنة^(٢) أو العاشرة^(٣)، تبعاً لاختلاف أقوى الروايات، وقيل: إنه كان في الخامسة عشر أو السادسة عشر^(٤).

وعرف علي عليه السلام بالشجاعة والخطابة والبلاغة، كما عرف ببراعته في القضاء، فكان عمر بن الخطاب يقول: «أفضانا علي»^(٥). كما تميز بإيمانه العميق وفقهه الدقيق وقدرته على التأثير والإقناع، كما يلاحظ في إسلام همدان كلها على يديه في يوم واحد^(٦). وقد أرسله النبي ﷺ إلى بني جذيمة بعد غزو خالد لهم لإصلاح ما وقع من خطأ في حقهم فأصلح الأمر^(٧). وأرسله في موسم الحج سنة ٩ هـ إلى مكة لتبليغ صدر سورة براءة^(٨). وقد اشتهرت فضائله ومناقبه، وبين النبي ﷺ مكانته منه في عدة مواقف، حتى قال الإمام أحمد وإسما عيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري: «لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي»^(٩). ومنها حديث: «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(١٠)،

(١) الطبراني: المعجم الكبير ١: ٥٣ بإسناد حسن إلى محمد الباقر ثم هو مرسل، لأن الباقر لم يدرك الحادثة، ولعلها رواية متوارثة من الوسط العائلي فترجح ما سواها، وهي تتفق مع سنه في غزوة بدر، حيث كان في العشرين من عمره (الطبراني: المعجم الكبير ١: ٦٤، والحاكم: المستدرک ٣: ١١١ وصححه ووافقه الذهبي).

(٢) الطبراني: المعجم الكبير ١: ٥٣.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ١: ٢٦٢ دون إسناد، واختاره ابن حجر في الإصابة ٢: ٥٠١.

(٤) الطبراني: المعجم الكبير ١: ٥٤ من مراسيل الحسن البصري.

(٥) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٨: ١٦٧).

(٦) الطبري: تاريخ ٣: ١٣١ - ١٣٢ بإسناد حسن.

(٧) ابن هشام: السيرة ٤: ٧٢ - ٧٣ مرسل أبي جعفر الباقر.

(٨) أحمد: المسند ١: ١٥٦ و ٢: ٣٢ وصححه أحمد شاكر، والنسائي: خصائص علي ٩٣ - ٩٥ بإسناد صحيح.

(٩) ابن حجر: (فتح الباري ٧: ٧١).

(١٠) أحمد: فضائل الصحابة ٧٠٥ بإسناد صحيح، والترمذي: السنن (تحفة الأحوذى) ١٠:

٢١٤ - ٢١٥ وقال: حسن غريب، والنسائي: خصائص علي ٩٦.

ومنها قوله ﷺ له: «أنت مني وأنا منك»^(١) - أي في النسب والصهر والسابقة والمحبة -^(٢).

وشهد له النبي ﷺ بالجنة^(٣)، وبأن الله قد امتحن قلبه على الإيمان^(٤)، وبأنه رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله^(٥). وبأنه لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق^(٦).

وقد نشأ علي في بيت النبي ﷺ حيث أعان بتربيته عمه أبا طالب^(٧)، وقد بات في فراش رسول الله ﷺ مرتدياً ثوبه في ليلة الهجرة، لئلا يفتن المشركون لغيابه^(٨)، لذلك تأخرت هجرته عن النبي ﷺ ثلاثة أيام^(٩).

وشارك في جميع الغزوات مع النبي ﷺ سوى تبوك، وحمل الراية يوم بدر وهو ابن عشرين سنة^(١٠). وأظهر شجاعة فائقة في أحد^(١١)، وتصدى لعمر بن عبد ود العامري، وهو يحاول اقتحام الخندق في غزوة الأحزاب فقتله، وكان

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٤٩٩).

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٧: ٥٠٧.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند ١: ١٨٨ وفضائل الصحابة ١١٦ بإسناد صحيح وأبو داود: السنن ٤: ٢١١ والترمذي: السنن ٥: ٦٥٢ وقال: حديث حسن.

(٤) الترمذي: السنن (تحفة الأحوذى) ١٠: ٢١٧-٢١٨ وقال: حسن صحيح غريب، وأبو داود: السنن مع (شرح الخطابي) ٣: ٤٨، وأحمد: المسند ٣: ٣٣، ٨٢، ١٠٦، ١٢١، والبزار: المسند ٣: ١١٨ والحديث صحيح بمجموع طرقه.

(٥) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٧٠)، ومسلم: الصحيح ٤: ١٨٧٢-١٨٧٣.

(٦) مسلم: الصحيح ١: ٨٦.

(٧) ابن إسحاق: السيرة ١١٨ دون إسناد.

(٨) أحمد: المسند ٥: ٢٥-٢٧ وقال محققه أحمد شاکر: إسناده صحيح، وابن هشام: السيرة النبوية ٢: ١٢٤، ١٢٦-١٢٧، والحاكم: المستدرک ٣: ٤ وقال الذهبي: صحيح.

(٩) ابن هشام: السيرة النبوية ٢: ١٢٩ دون إسناد.

(١٠) الحاكم: المستدرک ٣: ١١١ وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(١١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٣٧٢)، ومسلم: الصحيح (شرح النووي) ١٢: ١٤٨.

من فرسان العرب المشهورين^(١). وحمل الراية في فتح خيبر سنة ٧ هـ ففتح الله على يديه^(٢). وثبت في غزوة حنين مع من ثبت من المهاجرين والأنصار عندما فرّ الناس^(٣). واستخلفه النبي ﷺ على المدينة في غزوة تبوك^(٤)، وكان يرغب علي في الخروج معه للجهاد، فقال له: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»^(٥). وأرسله إلى اليمن مرتين: مرة داعياً وغازياً سنة ٩ هـ، ومرة قاضياً^(٦).

ولما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولم يعين خليفة يتولى إمرة المسلمين^(٧)، عقد الأنصار اجتماع السقيفة لتعيين الخليفة، وحضر الاجتماع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة.. وبعد مناقشات تم اختيار أبي بكر خليفة للمسلمين، وغاب علي عن الاجتماع، وقد أجمع المسلمون على بيعه أبي بكر، ولم ينازعه أحد، حيث بايعوه البيعة العامة في اليوم الثاني في المسجد النبوي، وقد بايع علي بن أبي طالب مع الناس - في رواية -^(٨) وتأخرت بيعته ستة أشهر احتجاجاً على عدم مشاورته في أمر الخلافة، حيث لم يحضر اجتماع السقيفة، ثم حدث الخلاف بين فاطمة رضي الله عنها وأبي بكر الصديق رضي الله عنه حول ميراثها من رسول الله ﷺ، حيث التزم أبو بكر

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣: ٣٢٥ - ٣٢٦ دون إسناد، والواقدي: المغازي ٢: ٤٩٦.

(٢) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٧٠)، ومسلم: الصحيح ٤: ١٨٧٢ - ١٨٧٣.

(٣) أحمد: المسند ٣: ٣٧٦ ورجاله رجال الصحيح، وابن هشام: السيرة ٤: ٨٧ - ٨٨ بسند صحيح.

(٤) مسلم: الصحيح ١: ٨٦.

(٥) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٧١ و ٨: ١١٢)، ومسلم: الصحيح ٤: ١٨٧٠.

(٦) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٨: ٦٥، ٦٩)، و(فتح الباري ١٢: ٢٩١، ٢٩٣) وأبو داود: السنن ٤: ١١ - ١٢، والنسائي: السنن ٥: ١١٥ والحديث حسن بمجموع طرقه.

(٧) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٨: ١٤٢، ١٤٨ و ١٣: ٢٠٥ - ٢٠٦)، ومسلم: الصحيح ٣: ١٤٥٤ - ١٤٥٥، وأحمد: المسند ١: ١٢٨ بإسناد حسن.

(٨) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٤٩٣)، ومسلم: الصحيح (شرح النووي) ١٢: ٧٦.

بحديث: «نحن معاشر الأنبياء لانورث، ماتركناه صدقة»^(١). فلما توفيت فاطمة بايع عليُّ أبا بكر^(٢). وقد تواتر عن علي قوله: «خير هذه الأمة بعد نبينا أبو بكر ثم عمر»^(٣) وصار علي أحد رجال الشورى المقربين في خلافة عمر، فكان «يشد من أزره، ولا يخل عليه برأيه، ويجهده معه في إيجاد حلول للقضايا التي لم يرد فيها نص، وفي تنظيم أمور الدولة الفتية»^(٤).

ومن أهم مشوراته موافقته لرأي عمر في عدم توزيع الأرض المفتوحة^(٥)، واقتراحه البدء بكتابة التاريخ الإسلامي ابتداء من الهجرة النبوية إلى المدينة^(٦). ولما استشهد عمر رضي الله عنه جعل علياً أحد الستة الذين يتألف منهم مجلس الشورى لاختيار أحدهم خليفة، وقد تمت البيعة لعثمان بن عفان، وبايعه علي، فكان ثاني من بايعه بعد عبدالرحمن بن عوف^(٧). وكان قريباً من الخليفة عثمان يستشار في الأمور المهمة، ومن أجل مشوراته موافقته لعثمان في جمع الناس على قراءة واحدة لمنع اختلاف الناس في القرآن^(٨).

-
- (١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٦: ١٩٧، ٧: ٤٩٣) ومسلم: الصحيح ٣: ١٣٨٠.
 (٢) الحاكم: المستدرک ٣: ٧٦ وقال: صحيح على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي وإسناده صحيح، والبيهقي: السنن الكبرى ٨: ١١٣ بإسناد صحيح.
 (٣) ابن تيمية: منهاج السنة ١: ٣٠٨ و ٦: ١٣٧ و ٧: ٥١١-٥١٢ وقال: إن طرقة تبلغ ثمانين طريقاً. وانظر البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٢٠).
 (٤) عبدالحميد علي ناصر: خلافة علي بن أبي طالب - دراسة نقدية للروايات - ص ٧٠. وانظر عن أمثلة ذلك: أحمد: فضائل الصحابة ٢: ٧٠٧ بإسناد صحيح، وأبو داود: السنن (شرح الخطابي) ٤: ٥٨٨ بإسناد صحيح.
 (٥) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٦: ٢٢٤)، وابن زنجويه: الأموال ١: ١٥٨، ٢٢٣، ٢٢٦.
 (٦) البخاري: التاريخ الكبير ١: ٩، والطبري: التاريخ ٤: ٣٨-٣٩ وصححه الحاكم والذهبي كما في المستدرک ٣: ١٤.
 (٧) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٥٩ و ١٣: ١٩٣).
 (٨) ابن أبي داود: كتاب المصاحف ٢٩-٣٠ بإسناد صحيح، وابن حجر: (فتح الباري ٩: ١٨)، والبيهقي: السنن الكبرى ٢: ٤٢.

وكان علي رضي الله عنه حريصاً على إسداء النصيحة لعثمان، والإصلاح بين الناس عندما هاجت الفتنة، وحاول الدفع عن عثمان، وأرسل الحسن والحسين للمشاركة في حراسة داره^(١)، وأرسل إليه قرب الماء حين منع الثوار الماء عن داره^(٢)، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه حين طلبه وقت الحصار بسبب خطورة الثوار المحاصرين^(٣). وكان الثوار يغلب عليهم إظهار القول الحسن، والقراءة الجيدة للقرآن، والصلاة الحسنة، فلم يتصور أحد أنهم يجرون على قتل الخليفة. وكانوا تمهيداً لظهور حركة الخوارج التي كانوا نواتها. وقد ظهرت جلافتهم عندما قتلوا الخليفة، ولم يراعوا حرمة ولا حرمة المدينة ولا الشهر الحرام^(٤).

ولما استشهد عثمان عبّر علي عن تألمه بقوله: «ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان وأنكرت نفسي»^(٥). وقد اجتمع أهل المدينة على بيعته برغم أنه أظهر عدم رغبته في ذلك، ثم وافق منعاً للفتن^(٦). مع أنه يعلم أنه أصبح أولى الناس بالخلافة وأحقهم بها^(٧).

وقد انشغل بعد استخلافه بمواجهة المعارضين له، فخاض غمار المعارك الطاحنة ضدهم في الجمل وصفين والنهروان، وأظهر قدرة فائقة على تعبئة الجيوش وقيادة الناس وتوضيح أحكام الشرع في الحروب الداخلية بين المسلمين، ومنها الكف عن المدبر والإحسان إلى الأسير وإطلاقه بعد انتهاء المعركة أو أخذ

(١) خليفة: التأريخ ١٧٤، وابن سعد: الطبقات ٨: ١٢٨ بسند صحيح.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٥: ٦٧.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ٦٨ بسند صحيح، وسعيد بن منصور: السنن ٢: ٣٣٦ بسند صحيح، والخلال: السنة ٣٢٨ بإسناد صحيح.

(٤) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٢: ١٤٤ - ١٤٥) وأحمد: السند ١: ٣٢٣ بإسناد صحيح.

(٥) الحاكم: المستدرک ٣: ٩٥ بسند حسن.

(٦) أحمد: فضائل الصحابة ٢: ٧٥٣ بإسناد حسن، والحاكم: المستدرک ٣: ٩٥ بإسناد حسن.

(٧) أحمد: المسند ٢: ٢٨٧ - ٢٨٨ وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

العهد عليه أن لا يعود للقتال، وعدم قسمة أموالهم بوصفها غنيمة سوى السلاح والكراع الذي حملوه في الحرب، وعدم سبي النساء والذراري، وعدم حرمان المخالفين من حقهم في الفياء أو الصلاة في المساجد، وعدم بدئهم بالقتال^(١).

وكان يعد العدة لمواجهة أخرى مع معاوية، وهو يلاحظ تقاعس جنده وضعف طاعتهم حين استشهد على يد عبدالرحمن بن ملجم الخارجي في الكوفة في فجر اليوم الحادي والعشرين من رمضان سنة أربعين للهجرة^(٢) وعمره ثمان وخمسون سنة^(٣).

البحث الخاتمة

حجية عمل الخلفاء الراشدين

إن عمل الخلفاء الراشدين منه ما اتفق عليه الصحابة، فهو إجماع ملزم لمن بعدهم من الأجيال، ومنه ما لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، فحكمه حكم السنة المرفوعة، ومنه ما مجاله الاجتهاد وخالفهم فيه آخرون من الصحابة، لكنهم أذعنوا لاجتهاد الخلفاء، لأنهم «أولوا أمر» تجب طاعتهم، وهذا القسم اختلف الأصوليون في حجيته، فمنهم من رآه حجة على الأجيال اللاحقة، فيعمل به ما لم يخالف كتاباً ولا سنة، وكلام الإمام أحمد في إحدى الروايتين يدل على أن قولهم حجة^(٤)، فهو لا يخرج عن قولهم إلى قول غيرهم.

ويقدم الشافعي قول الخلفاء الراشدين على قول غيرهم من الصحابة، فإذا

(١) عبدالحميد علي ناصر محمد: خلافة علي بن أبي طالب - دراسة نقدية للروايات - ٤٤٦ - ٤٤٨.

(٢) البخاري: التاريخ الكبير ١: ٩٩ - ١٠٠ بسند صحيح.

(٣) البخاري: التاريخ الصغير: ١٠٠، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ٣: ٣١٦، والطبري: تاريخ ٥: ١٥١.

(٤) الموفق: روضة الناظر ١: ٣٦٦، والعلائي: إجمال الإصابة في أقوال الصحابة ٤٧.

اختلف الصحابة على قولين، وكان الخلفاء الراشدون مع أحد الفريقين، يصار إلى قول الخلفاء الأربعة، ولكن نقل عن الشافعي أيضاً أن الفريقين من الصحابة سواء. ويحتاج الترجيح بينهما إلى مرجح^(١).

قال الشافعي: «ما كان الكتاب أو السنة موجودين، فالعذر على من سمعها مقطوع إلا باتباعهما، فإن لم يكن ذلك صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله ﷺ أو واحد منهم، ثم كان قول الأئمة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أحب إلينا إذا صرنا إلى التقليد، وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة، فتتبع القول الذي معه الدلالة، لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزم الناس»^(٢).

وذكر القاضي في «التقريب» أن القائلين بترجيح قول الخلفاء الراشدين على قول غيرهم لفضل سبقهم وتعددتهم وطول صحبتهم، وقال: «وعندنا أن الترجيح إنما يطلب به غلبة الظن لا العلم»^(٣).

«وقد أجمعت الصحابة على جواز مخالفة بعضهم بعضاً، حتى لم ينكر أحد من الخلفاء الراشدين على من خالفه»، وأما حديث «إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر وعمر»^(٤) فالمراد به الاقتداء بهما في سيرتهما وعدلهما ونحو ذلك، لا على أن قولهما حجة يلزم اتباعها، لأن مذهب الصحابي ليس حجة على صحابي آخر اتفاقاً، لا سيما في الخلفاء الأربعة بعضهم مع بعض»^(٥).

(١) الزركشي: البحر المحيط ٤: ٤٩٠ - ٤٩٢.

(٢) الشافعي: الأم ٧: ٢٦٥، والعلائي: إجمال الإصابة في أقوال الصحابة ٣٨.

(٣) الزركشي: البحر المحيط ٤: ٤٩٠ - ٤٩٢.

(٤) الترمذي: سنن ٣٦٦٣ وصححه الألباني: (السلسلة الصحيحة ٣: ٢٣٥).

(٥) نقله العلائي (إجمال الإصابة ٦٣).

وقد علق الخطابي على حديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»^(١) بقوله فيه: «دليل على أن الواحد من الخلفاء الراشدين إذا قال قولاً وخالفه فيه غيره من الصحابة، كان المصير إلى قول الخليفة أولى»^(٢).

وقال ابن القيم معقّباً على الحديث: «فقرن سنة خلفائه بسنته، وأمر باتباعها كما أمر باتباع سنته، وبالغ في الأمر بها، حتى أمر بأن يعض عليها بالنواجذ، وهذا يتناول ما أفتى به جميعهم أو أكثرهم أو بعضهم، لأنه علق ذلك بما سنّه الخلفاء الراشدون، ومعلوم أنهم لم يسنوا ذلك وهم خلفاء في آن واحد، فعلم أن ما سنّه كل واحد منهم في وقته، فهو من سنة الخلفاء الراشدين»^(٣).

وذكر محمد الأمين الشنقيطي قول طائفة من أهل العلم بأن المراد بالأمر بالاعتداء بهم هو المقلد، وأما المجتهد العارف بالدليل فليس بمأمور بترك الدليل الظاهر له إلى قول غيره. ثم قال الشنقيطي: «واعلم أن التحقيق أنه لا يخص النص بقول الصحابي إلا إذا كان له حكم الرفع، لأن النصوص لا تخصص باجتهد أحد، لأنها حجة على كل من خالفها»^(٤).

ولاشك أن ما أجمع عليه الصحابة أولى بالاعتبار من إجماع من بعدهم، لأن مرتبتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم المداينة تقتضي بأن يكون سكوتهم دليلاً على الموافقة، فإن لم يعد إجماعاً، فالظاهر أنه حجة^(٥). فإذا سنّ

(١) أخرجه الترمذي: السنن، كتاب العلم، حديث رقم ٢٦٧٦ واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني: صحيح سنن الترمذي ٢: ٣٤٢، وأخرجه أبو داود: السنن ٥: ١٣ حديث رقم ٤٦٠٧، وأحمد: المسند ٤: ١٢٦ - ١٢٧، والحاكم: المستدرک ١: ٩٦ - ٩٧ وقال: صحيح على شرط الشيخين، وصححه أيضاً الحافظ أبو نعيم الأصبهاني وأبو العباس الدغولي وغيرهما، كما نقله العلائي في إجمال الإصابة ٤٩.

(٢) الخطابي: شرح سنن أبي داود ٧: ١٢.

(٣) ابن القيم: إعلام الموقعين ٤: ١٤٠.

(٤) محمد الأمين الشنقيطي: مذكرة أصول الفقه ١٦٦.

(٥) العلائي: إجمال الإصابة في أقوال الصحابة ٣٢.

أحد الخلفاء الراشدين سنة وسكتوا فلم يعترضوا عليه، فستته حجة على رعيته وإن لم تكن إجماعاً لأن طاعته لازمة، وحرصه على الشورى كبير، ولا يمتنع تبديل هذه السنة بعده من قبل إمام هدى يعمل بالشورى وتجب له الطاعة، فقد خالف عمر سنة الصديق في كيفية قسمة العطاء، وهكذا فعل عثمان مع سنة عمر، وجمع أبي بكر القرآن، وجمع عمر الناس في التراويح، وحظي الإجراء أن بإجماع الصحابة، ووحد عثمان المصاحف عندما قام بالجمع الثاني، وكانت أعمالهم هذه لازمة لرعيته وإن لم تكن ملزمة لمن بعدهم من الخلفاء ورعيته إلا أن تكون إجماعاً..

قال الدكتور عبد الكريم زيدان عند كلامه عن قول الصحابي الصادر عن رأي واجتهاد: «ذهب بعض العلماء إلى أن قوله - قول الصحابي - حجة شرعية، وعلى المجتهد أن يأخذ بقول الصحابي إذا لم يجد الحكم في الكتاب ولا في السنة ولا في الإجماع، وإذا اختلف الصحابة، فعليه أن يتخير من أقوالهم. وذهب البعض الآخر من العلماء إلى أنه ليس بحجة شرعية، ولا يلزم المجتهد أن يأخذ بقول الصحابي، بل عليه أن يأخذ بمقتضى الدليل الشرعي... والذي نرجحه أن قول الصحابي ليس حجة ملزمة، ولكن نميل إلى الأخذ به حيث لا نص في الكتاب ولا في السنة ولا في الإجماع، ولا يوجد في المسألة دليل آخر معتبر، ففي هذه الحالة نرى أن الأخذ بقول الصحابي أولى»^(١).

وأما من رأى أن سنة الخلفاء الراشدين حجة معتمدة فإنه لم يسو بينها وبين سنة النبي ﷺ في الحجية، بحيث يقع التعارض بينهما، ويعدل إلى الترجيح، قال العلائي: «لا يلزم من كون سنتهم حجة معتمدة أن يكون لها هذه المساواة، بل يجوز أن تكون مأموراً باتباعها والعمل بها بشرط عدم وجود سنة للنبي ﷺ قدمت على سنتهم، كما أن القياس حجة شرعية، وهو متأخر في الرتبة عن الكتاب والسنة»^(٢).

(١) عبد الكريم زيدان: الوجيز في أصول الفقه ٢٦١ - ٢٦٢.

(٢) العلائي: إجمال الإصابة ص ٤٩.

الْبَحْثُ السَّالِسُ

الشورى

إن الروايات التي صَحَّتْ في استشارة النبي ﷺ للصحابه، ثم في تطبيق الخلفاء الراشدين لنصوص الشورى هي التي ترسم معالم الشورى في الإسلام، لأن القرآن نصَّ على «الشورى» دون تفصيل لحدودها وكيفية تطبيقها ومدى إلزاميتها، وبسبب الإجمال في الآيتين اللتين تناولتا قضية الشورى، وهما: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾^(١) و﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(٢)، وقد وقعت الأولى بين وصفهم بالصلاة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ ووصفهم بأداء الزكاة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، أي بين فريضتين، والخبر إذا أُريد به الإنشاء الطلبي فهو أقوى من الأمر. وأما الآية الثانية فهي بصيغة الأمر، وليس في القرآن قرينة تصرف الأمر عن الوجوب إلى الندب، فلم يبق إلا أن نفتش في السنة، ولم أجد - حسب جهدي - في أحداث السيرة النبوية نصّاً صحيحاً يدل على صرف الأمر بالشورى عن الوجوب إلى الندب، بل لم أقف على ما يدل على عدم إلزامية الشورى، فقد أخذ النبي ﷺ برأي الأكثرية في أحد، وشاور زعماء المدينة من الأنصار (سعد بن معاذ وسعد ابن عباد وسعد بن الربيع وسعد بن خيثمة وسعد بن مسعود) في إعطاء شطر تمر المدينة لغطفان مقابل انسحابها من الأحزاب، فلما اتفقت آراؤهم على احتمال الحصار دون بذل التمر أخذ برأيهم برغم الخطر الكبير المهدق بالمدينة وبال دعوة الإسلامية. وأخذ برأي الأكثرية في حصار الطائف إذ أراد فك الحصار، فرأى المسلمون يميلون لفتحها، فعدل عن ذلك إلى اليوم اللاحق، حيث رضوا بفك

(١) الشورى ٣٨.

(٢) آل عمران ١٥٩.

الحصار. وأما رده لرأي الأكثرية في غزوة الحديبية فيرجع إلى أمر الله له، ولا اجتهد في موضع النص، ولا تقدم على أمر الله^(١).

وكان أبو هريرة يقول: «ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»^(٢).

وما دام لم يرد ما يمنع من الأخذ برأي الأكثرية في الكتاب والسنة فهو أمر مباح، إذاً يتحول الأمر إلى واجب إذا تعلقت مصالح الأمة به، أو إذا أفضى تركه إلى حدوث مفسد عامة كالاستبداد أو اضطراب الأمن بسبب تفرق آراء الناس، وعدم مراعاتها، هذا إذا لم ير أهل الحل والعقد بالأدلة التي تفيد وجوب الشورى وإلزاميتها...

ومن الصعب قبول القول: إن الشورى واجبة على النبي ﷺ وندوبة بالنسبة للمسلمين، إذ ليس ثمة نص يفيد هذه الخصوصية، فضلاً عن أن النظر يقتضي العكس، لأن حاجة النبي المعصوم إلى الشورى أقل - وهي مخصصة في المصالح الدنيوية - من المسلمين غير المعصومين، بل الأكثر على أنه إنما يستشير تعليمًا للأمة، دون حاجة حقيقية إلى الشورى، لأن الوحي يسدده، ولا يقره على خطأ..

وأما عمل الخلفاء الراشدين فقد أثبت التاريخ أن خلافتهم كانت عن بيعة الناس ورضاهم، ويعد انتخاب أبي بكر رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة نموذجاً للحوار الحر الصريح بين المجتمعين، وغالبيتهم من الأنصار، ومع ذلك فقد أفضى الحوار إلى بيعة الصديق وهو من المهاجرين، وهي بيعة حرة لم تفرض عليهم من أقلية المهاجرين الحاضرة في ذلك الاجتماع.

(١) د. همام سعيد: عرض الأحاديث النبوية المتعلقة بالشورى ودراستها (بحث ضمن كتاب: الشورى في الإسلام ص ٨٥ - ٩٨).

(٢) عبدالرزاق: المصنف. حديث رقم ٢٧٩، وصحيح البخاري مع الفتح، رقم ٢٧٣١ ٢٧٣٢.

وكانت خلافة عمر رضي الله عنه عن ترشيح من الصديق بعد مشاورة كبار الصحابة، ولو لم يحظ ذلك الترشيح بتأييد أهل الحل والعقد وجمهور المسلمين من ورائهم لما انعقدت له الخلافة.

وجاءت خلافة عثمان عن مشاورات بين أعضاء مجلس شورى عمر، وأعقت اختيارهم بيعة الجمهور.

وأما خلافة علي فإن الصحابة بايعوه إثر غلبة المعارضين لعثمان على المدينة، ولم يحظ بالإجماع بسبب معارضة أصحاب الجمل في البصرة ومعاوية في الشام، لكن أكثرية المسلمين بايعوه، ولم ينكر أحد حين بيعته أحقيته بالخلافة، ولكنهم خالفوه في مسألة القصاص من قتلة عثمان.

وقد تم في مجلس الشورى الذي كونه عمر بن الخطاب اقرار مبدأ الالتزام برأي الأكثرية بوضوح تام، حتى أدخل ابنه عبدالله بن عمر ليكون له حق الانتخاب دون الترشيح، وذلك عند تساوي الأصوات بين المقترعين وهم ستة، فكان السابع مرجحاً لأحد الطرفين، وبذلك ظهرت فكرة الانتخاب والأغلبية في تنظيم مجلس الشورى في ذلك الوقت المبكر..

وفيما عدا هذا المجلس، فلم يؤسس مجلس شورى يتعين أعضاؤه في عصر الراشدين لا بصورة دائمة ولا مؤقتة، ولكن الخلفاء الأربعة كانوا إذا أعضلهم أمر جمعوا فقهاء الصحابة فاستشاروهم، وبالطبع فهم لا يستشيرون فيما ورد فيه نص محكم من كتاب أو سنة، بل فيما يحتاج إلى مشورة من مصالح الناس وقضايا الأمة ومواقف الدولة من السلم والحرب وتوزيع الغنائم ومعاملة المناطق المفتوحة، ولا تدخل في هذا الباب المشورة الخاصة في القضايا الخاصة بالأفراد، وهي كثيرة، ولا بد من التمييز بين الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين في مسألة الاستشارة فيما ورد فيه نص يحتمل أكثر من وجه، فإن الرسول ﷺ هو الذي

يبين القرآن، عامه وخاصه ومطلقه ومقيده وناسخه ومنسوخه، ولا يحتاج إلى الاستشارة في هذا المجال، أما الخلفاء الراشدون فقد يخفى عليهم وجود النص من السنة أو دلالة نص من الكتاب والسنة، فيحتاجون إلى المشورة للوصول إلى حكم الشرع. فإذا تأملنا في مواقف الخلفاء الراشدين من قضايا الشورى في المسائل العامة فإننا نجدهم يكثرون من استشارة فقهاء الصحابة، وقد ذكرت المصادر أسماء رجال الشورى في خلافة أبي بكر رضي الله عنه وهم: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت. وهم فقهاء الصحابة في عهده^(١).

وقد بين ميمون بن مهران (ت ١١٧ هـ) أن أبا بكر رضي الله عنه كان يدعو رؤوس المسلمين وعلماءهم فيستشيرهم، فإذا اجتمع رأيهم على الأمر قضى به - وذلك إذا لم يجد في الكتاب والسنة ما يقضي به - وأحياناً يخرج إلى المسجد، فيسأل المسلمين عامة إن كانوا يعرفون ورود السنة في قضية ما^(٢).

وقد توسع نطاق الشورى في خلافة عمر رضي الله عنه لكثرة المستجدات والأحداث وامتداد رقعة الإسلام إلى بلاد ذات حضارات وتقاليد ونظم متباينة، فولدت مشكلات جديدة احتاجت إلى الاجتهاد الواسع مثل معاملة الأرض المفتوحة، وتنظيم العطاء وفق قواعد جديدة، لتدفق أموال الفتوح على الدولة. فكان عمر يجمع للشورى أكبر قدر من الصحابة الكبار^(٣)، وهم: عثمان وعلي وعبدالرحمن

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢: ٣٥٠ من طريق الواقدي وهو متروك في الحديث، وأما الأخبار التاريخية فله فيها باع طويل. والمتقي الهندي: كنز العمال ٥: ٦٢٧.

(٢) الدارمي: سنن ١: (ط. البغا)، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٩: ٣٥٠ - ب، والبيهقي: السنن الكبرى ١٠: ١٢٤ بإسناد حسن لكنه مرسل وصحح إسناده ابن حجر (فتح الباري ١٣: ٣٤٢)، وتعضده أخبار أخرى تؤكد هذا المنحى عند الصحابة: عمر بن الخطاب، عبدالله بن مسعود، زيد بن ثابت، عبدالله بن عباس...

(٣) ابن القيم: أعلام الموقعين ١: ٩٧.

ابن عوف ومعاذ بن جيل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت^(١)، كما كان يجمع معهم عدداً من شباب الصحابة منهم عبدالله بن عباس^(٢)، وقد قال الزهري لغلman أحداث: «لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتیان فاستشارهم، يتبغى حدة عقولهم»^(٣). وقال محمد بن سيرين: «إن كان عمر رضي الله عنه ليستشير في الأمر حتى إن كان ليستشير المرأة، فربما أبصر في قولها الشيء يستحسنه فيأخذ به»^(٤). وقد ثبت أنه استشار مرة أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها^(٥).

وكان المستشارون يبدون آراءهم بحرية تامة وصرحة كاملة، ولم يتهم عمر رضي الله عنه أحداً منهم في عدالته وأمانته^(٦).

وكان عمر يستشير في الأمور التي لا نص فيها من كتاب وسنة، وهو يهدف إلى معرفة إن كان بعض الصحابة يحفظ فيها نصاً من السنة، إذ لم تكن قد قيدت بعد، وكان بعض الصحابة يحفظ منها ما لا يحفظه الآخرون، وكذلك كان يستشير في فهم النصوص المحتملة لأكثر من معنى لمعرفة المعاني والأوجه المختلفة. وفي هذين الأمرين قد يكفي باستشارة الواحد أو العدد القليل، وأما في النوازل العامة فيجمع لها الصحابة، ويوسع النطاق ما استطاع، كما فعل عند

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٧: ٣٥، ٥٥، ٧٧.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٣: ٣٧، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣: ٣٤٥ - ٣٤٨.

(٣) البيهقي: السنن ١٠: ١١٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) عبدالرزاق: المصنف ٧: ١٥٢، وابن شبة: تاريخ المدينة ٢: ٧٥٩، والبيهقي: السنن الكبرى ٩: ٢٩.

(٦) محمد سعيد رمضان البوطي: الشوري في عهد الخلفاء الراشدين (ضمن كتاب الشوري في الإسلام) ص ١٣٤. وقد ذكر حالتين استثناهما من ذلك اتهم عمر في إحداها كعب الأحبار في رأيه، واتهم في الأخرى رجلاً في رأيه، والرواية الأولى من طريق سيف بن عمر وهو متروك، والثانية فيها تدليس الأعمش والانقطاع بين النخعي وعمر، فإنه لم يرو عنه (راجع تاريخ الطبري ٣: ٦١١، وطبقات ابن سعد ٣: ٣٤٣).

وقوع الطاعون بأرض الشام وهو متوجه إليها، حتى إذا كان بسرخ علم بوقوع الطاعون، فدعا المهاجرين الأولين فاستشارهم فاختلفوا، ثم دعا الأنصار فاختلفوا، ثم دعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فأشاروا عليه بالعودة إلى المدينة فأخذ برأيهم. ثم أخبره عبدالرحمن بن عوف بحديث نبوي يدعم قراره^(١).

ومن ذلك استشارته للصحابه في معاملة الأرض المفتوحة، حيث عدل عن قسمتها بين المقاتلين، نظراً منه لحق الأجيال اللاحقة، وقد خاطب الصحابة قائلاً: «اجتمعوا لهذا المال، فانظروا لمن ترونه»، ثم قرأ آيات الفياء عليهم، مبيناً فهمه وتوجيهه للآيات، قائلاً: «والله ما من أحد من المسلمين إلا وله حق من هذا المال، أُعطي منه أم مُنع»^(٢).

وكان يكثر الاستشارة في صرف الأموال العامة^(٣). ولما كثرت الأموال استشار الناس في وضع الديوان^(٤).

وقد ختم عمر رضي الله عنه حياته حين طعن بتكوين مجلس الشورى من ستة من كبار الصحابة، لاختيار الخليفة من بعده، وهم: عثمان وعلي وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام، ويحضر عبدالله بن عمر دون أن يحق له الترشيح. وبعد المداولة الأولى في المجلس انحصرت الخلافة في عثمان وعلي، وعهد إلى عبدالرحمن بن عوف باستشارة الناس، فسهر ليله وأمضى

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٠: ١٧٩) رقم ٥٧٢٩، ومسلم: الصحيح حديث رقم ٢٢١٩.

(٢) عبدالرزاق: المصنف ٤: ١٥٢، ١٥١: ١١ و ١٠١: ١٠٢، وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٧١، وابن زنجويه: الأموال ١: ١٠٨-١٠٩ و ٢: ٤٨٠ وإسناده صحيح.

(٣) ابن كثير: مسند الفاروق حديث رقم ٦٧٨ (أطروحة دكتوراه، تحقيق مطر أحمد الزهراني، جامعة أم القرى بمكة - ١٤٠٩ هـ). والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢: ١٩٠.

(٤) يعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٤٦٥ وفي إسناده عبدالله بن موهب مقبول، وانظر طريقاً أخرى منقطعة عند ابن أبي شيبة: المصنف ١٢: ٣١٧ عن محمد الباقر.

نهاره ثلاثة أيام في استشارة الصحابة، ثم بايع لعثمان في المسجد الجامع بحضور المهاجرين والأنصار وأمرء الأمصار، الذين كانوا قد شهدوا الحج ذلك العام مع عمر رضي الله عنه^(١). فبايع الحضور لعثمان وبيعتهم انعقدت له الخلافة، وكان عمل مجلس الشورى مجرد ترشيح له.

ولا شك أن الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان اتبع نهج من قبله في الأخذ بالشورى، ولكن المصادر لم تسق روايات صحيحة عن ذلك، بل وردت أخبار واهية وضعيفة تفيد أنه استشار علياً والصحابة رضوان الله عليهم وولاته على الأمصار في أحداث الفتنة التي انتهت باستشهاده^(٢)، ولا يعني عدم ثبوت الخبر في ذلك أنها لم تقع تأريخياً، كما هو معلوم، فإن الأخبار الصحيحة الأسانيد لا تغطي إلا مساحة محدودة من التأريخ.

وقد تمت بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في أعقاب الفتنة، التي أودت بحياة الخليفة عثمان رضي الله عنه، حيث بايعه معظم أهل الحل والعقد، وتخلف بعضهم عنه، ثم بايعه الناس عامة، وكانت البيعة الخاصة والعامة في المسجد النبوي. وقد سجلت المصادر صوراً للشورى في خلافة علي رضي الله عنه تتعلق بسياسته تجاه ولاية

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٥٩ - ٦٢ و ٣: ٢٥٦ و ١٣: ١٩٣)، ومسلم: الصحيح ٣٩٦: ١. وتدل رواية مسلم على أن عمر حدد الشورى في هؤلاء الستة قبل طعنه، وأنه ذكرهم علناً في خطبة بالمسجد.

(٢) البيهقي: السنن ٨: ٦١ في استشارة الصحابة حول قتل عبيد الله بن عمر للمهمزان، وفي إسناده مالك بن يحيى أبو غسان ضعفه البخاري وابن حبان (ميزان الاعتدال) - وإن كان ابن حبان أورده أيضاً في كتابه الثقات - وعلي بن عاصم صدوق يخطئ ويصر ورمي بالتشيع، هذا فضلاً عن علة الإرسال، لأن الراوي عبدالله بن عبيد بن عمير استشهد سنة ١١٣ هـ فلم يدرك الحادثة (ابن حجر: تهذيب التهذيب ٥: ٣٠٨). وأما استشارته لعلي وطلحة والزبير ونفر من الصحابة في القضاء مما رواه البيهقي في (السنن ١٠: ١١٢) فالخبر في إسناده مجاهيل، منهم الليث بن هارون العكلي (ابن سعد ٦: ٤١٤)، وأما استشارته ولاية الأمصار في أحداث الفتنة، فمن طريق واهية عللها كثيرة (الطبري: تأريخ ٤: ٣٣٣)، وأما استشارته نائلة زوجته فمن طريق الواقدي وهو متروك في الحديث (الطبري: تأريخ ٤: ٣٦١).

الأمصار، ووقف القتال في صفين بعد أن رفع أهل الشام المصاحف، وكذلك استشارته الناس في حكم بعض المشركين المتظاهرين بالإسلام^(١). وهذه الأخبار لم تثبت من طرق صحيحة، ولا يعني ذلك نفي وقوعها، ولكن لا يمكن الاستناد عليها في تقرير طبيعة الشورى في خلافة علي رضي الله عنه.

ولا شك أن علياً رضي الله عنه اقتفى سنة من قبله في إنفاذ حكم الشورى الواجب على الإمام والقاضي. وأن الخلفاء الراشدين الأربعة تداولوا السلطة على أساس الشورى، وانهقدت له الخلافة بالبيعة الخاصة والعامة.

ولم يؤسس مجلس دائم للشورى في عصر الخلافة الراشدة، لكن أهل الشورى كانوا من كبار الصحابة المعروفين بفقههم وإخلاصهم. وقد استمر الحال كذلك خلال العصور الأموية والعباسية دون أن تتطور للشورى مؤسسات واضحة الصلاحيات، سوى جماعة أهل الحل والعقد، الذين يختارهم الخليفة، فيكونون أهل مشورته ومناصحته.



(١) الطبري: تاريخ ٤: ٤٤١ و ٥: ٤٩، وابن أبي شيبة: المصنف ١٠: ١٤٢ ورجال إسناده ثقات، لكن عبيد بن نسطاس لم يرو عن علي، بل أدرك المغيرة بن شعبة، وشریحاً قاضي علي.

البَّابُ الثَّانِي

الإدارة. القضاء

إِلْفَضْلِكُ الْإَهْوَلْ

الإدارة

(الولاية. الموظفون)

الملحق الأول

الولاية على البلدان

كانت الدولة الإسلامية في عصر النبوة مقتصرة على المدينة خلال السنوات الأولى، ثم توسعت لتمتد إلى معظم جزيرة العرب في نهاية ذلك العهد، مما اقتضى تنظيم المناطق إدارياً، فعين النبي ﷺ ولاية على الوحدات الإدارية، التي تتكون عادة من مدينة رئيسية وما حولها، وكانت الدولة في خلافة الصديق رضي الله عنه مقسمة إلى سبع ولايات، هي: الحجاز، والبحرين، وعمان، ونجد، واليمن وحضر موت، والعراق، والشام. وأما المدينة فهي عاصمة الدولة، يتولى إدارتها الخليفة مباشرة، فإذا غادرها للحج أو لسبب آخر، فإنه ينيب عنه رجلاً لإدارتها^(١).

فكان على مكة وال هو عتاب بن أسيد^(٢)، وكانت جدة من أعمال مكة فكان عليها الحارث بن نوفل^(٣)، في حين كانت الطائف تمثل وحدة إدارية عليها عثمان ابن أبي العاص الثقفي^(٤). وكان على صنعاء باليمن وال هو باذام من الأبناء، حيث أسلم سنة ١٠ هـ، فأبقاه النبي ﷺ على ولاية صنعاء، ولما مات في السنة نفسها بعد حجة الوداع جعل ابنه شهراً على صنعاء، وقسم اليمن إلى أقسام، فكان عامر بن شهر على همدان، والطاهر بن أبي هالة على عك، وأبو موسى الأشعري على مأرب، ويعلى بن أمية على الجند.

(١) خليفة: التأريخ ١٠١.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٤: ٥٠٠، وخليفة: التأريخ ٩٧، ١٢٣، والبلاذري: أنساب الأشراف ١: ٥٢٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٤: ٥٧، وابن عبد البر: الاستيعاب ١: ٢٩٧، وابن حجر: الإصابة ١: ٢٩٢.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٥: ٥٠٩، وخليفة: التأريخ ١٢٣، والبلاذري: أنساب الأشراف ١:

٥٢٩، والطبري: تأريخ ٣: ٤٢٧.

وقد تغير الولاية على اليمن مراراً، حيث تشير المصادر التاريخية إلى أن خالد ابن سعيد بن العاص تولى صنعاء ثم تولاهما المهاجر بن أبي أمية، وأن معاذ بن جبل تولى الجند، وأن أبا موسى ولي زبيد ورمع والسواحل، كما تولى فروة بن مسيك المرادي على مراد وزبيد ومذحج، وهذه التغيرات ربما حدثت في عهد النبوة أو خلافة أبي بكر.

ويلاحظ أن معظم الولاية كانوا من أهل اليمن، وهو إجراء يراعي التركيبة السكانية وقوة الكيانات القبلية في تلك المرحلة، وكان الاهتمام بنشر الإسلام وتعميق مفاهيمه بين السكان أهم أهداف الدولة، وقد عينت معاذ بن جبل معلماً ينتقل في اليمن وحضر موت^(١). وكان سليط بن قيس والياً على اليمامة^(٢). «وكانت البحرين مكونة من قسمين إداريين، هما هجر والياً على عند القطيف»، فكان العلاء بن الحضرمي والياً على هجر، وأبان بن سعيد والياً على الخط^(٣). وأما عمان فكان عليها جيفر وعباد ابنا الجلندي، وإن أرسل إليها عمرو بن العاص ربما بالتنسيق معها.

وقد استمرت ولاية العلاء على البحرين حتى سنة ١٥ هـ، حيث عين عمر ابن الخطاب عثمان بن أبي العاص الثقفي على البحرين وعمان، فكان يقيم بعمان، ويجعل أخاه الحكم ابن أبي العاص نائباً عنه بالبحرين، واستمرت ولايته إلى خلافة عثمان، حيث صارت البحرين تابعة لولاية البصرة^(٤). ولكن يبدو أن ولاية آل الجلندي على عمان تجددت، حيث كانوا ولايتها حتى خلافة يزيد بن معاوية^(٥).

(١) صالح العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ ٤٦٢.

(٢) خليفة: التأريخ ١٢٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤: ٣٦٠، وابن حبيب: المحبر ١٢٦، والبكري: معجم ما استعجم ١٢١١، والبلاذري: أنساب الأشراف ١: ٣٩، وصالح العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ ص ٥٧٠.

(٤) صالح العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ ٥٨٢.

(٥) الطبري: التأريخ ٢: ١٩٤٩، وصالح العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ ٥٨٨.

أما مناطق الحجاز خارج المدن الرئيسية، وهضبة نجد فكان فيها عدد من القبائل الكبيرة والصغيرة، يتولاها رؤساء منها، ولما دخلت في الإسلام أبقى النبي ﷺ رؤساءها القدامى ولم يعزلهم، وكان ذلك يرضي الرؤساء وقبائلهم، ويعزز سيادة الدولة على البقاع النائية عن العاصمة.

وأما المناطق التي حافظت على أديانها السماوية القديمة، فقد خضعت للدولة الإسلامية بعقد الذمة، مثل نصارى نجران ونصارى إيلة ويهود تيماء.

ومن الواضح أن عصر الخلافة الراشدة ورث هذه الأوضاع الإدارية عن عهد النبوة، ولكن حركة الفتح أضافت مساحات جديدة واسعة، هي الهلال الخصيب وإيران ومصر، مما اقتضى تنظيم المناطق المفتوحة وربطها بالدولة.

وكان لسير الفتوح أثر رئيسي في تحديد الأقسام الإدارية، فمع أن التنظيم الإداري إلى أمصار (أو ولايات) تأثر بأوصاف جغرافية وإستراتيجية وبالتراث الإداري فيها، وأحياناً بانتشار القبائل، إلا أن الأراضي التي كانت تفتح من قبل المقاتلة المرسلين بقيادة أمير من المدينة تكون وحدة إدارية، ويرجع جُلُّ وادها إليهم.

أما الفتوحات التي تمت على يد مقاتلة مصر من الأمصار بعدئذ، فإنها تكون تابعة لذلك المصر. فبلاد الشام فتحت على أيدي أمراء بقوات موجهة من المدينة، فُقُسمت إلى أربعة أجناد وحدات إدارية ابتداءً، هي جند دمشق وجند فلسطين وجند الأردن وجند حمص وقنسرين. وحُصص وارد كل جند للمقاتلة الذين فتحوه.

وفُتحت الجزيرة الفراتية من قبل المقاتلة في جند قنسرين وحمص، فاعتُبرت تابعة لهذا الجند حتى فصلت منطقة قنسرين عن منطقة حمص (أيام يزيد بن معاوية)، فصارت تابعة لجند قنسرين.

وفي العراق، ونتيجة فشل محاولة غزو منطقة فارس من جهة البحرين، ولضرورات إستراتيجية (الحرب مع الفرس اقتضت الالتفات إلى اتجاه إقليم فارس إضافة لاتجاه المدائن) أحدث مركز للمقاتلة جهة الأبله إضافة إلى المركز في منطقة الكوفة، وكان جُل السواد تابعاً لمقاتلة الكوفة أصحاب القادسية، ولم يتبع البصرة ابتداءً إلا سوادها، ولكن الأهواز وفارس ثم خراسان عبر سجستان، فُتحت على يد مقاتلة البصرة (في ولاية عبدالله بن عامر)، فصارت تابعة لهم إدارياً.

أما منطقة الجبال (غرب إيران) فُتحت من قبل مقاتلة الكوفة بالدرجة الأولى، وصار جُلها تابعاً إدارياً للكوفة. ومع أن مصر بدأ غزوها على يد مقاتلة أرسلوا من الشام، إلا أن ثلثي المقاتلة الذين فتحوا مصر أرسلوا من المدينة، فصارت مصر لذلك - إضافة للتراث الإداري - ولاية قائمة بذاتها، ولما فتح مقاتلتها برقة (وغيرها بعدئذ) صارت برقة (وما وراءها) تابعة لولاية مصر.

بدأت الفتوح زمن أبي بكر، وبلغت أوجها زمن عمر، وحدها (في الموجة الأولى) زمن عثمان. وكان لعمر الدور الرئيسي في تنظيم معاملة البلاد المفتوحة»^(١).

وتقتضي السياسة الشرعية المستمدة من السيرة النبوية استعمال الأصلح في الولايات، وإن كان في الرعية من هو أفضل منه في العلم والإيمان^(٢)، وقد وضح

(١) الدوري: الجزيرة العربية في عصر الخلفاء الراشدين ص ١٩٢ (بحث ضمن بحوث ندوة الجزيرة العربية بجامعة الملك سعود).

(٢) ابن تيمية: السياسة الشرعية ٦، فقد عين النبي ﷺ عثمان بن أبي العاص والياً على ثقيف، لأنه وجدته حريصاً على التفقه في الدين وتعلم القرآن، وعين أسامة بن زيد قائداً لجيش كبير فيه أبو بكر وعمر وصحابة كبار آخرون، وعين خالد بن الوليد قائداً لجيش فيه قدامى الصحابة عند فتح مكة... وكل ذلك يدل على تقديم الأصلح للعمل والأقدر عليه وإن كان في الرعية من هو أفضل منه ورعاً وعلماً وإيماناً.

القرآن أهم صفتين لتولي الأعمال ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^(١). والقوة تختلف بحسب تنوع الولاية، فحاجة الولاية العسكرية إلى الشجاعة والخبرة بالحرب، وحاجة الولاية السياسية إلى العلم بالعدل ومعرفة أحكام الشرع والقدرة على تنفيذها^(٢). واجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، لذلك يحتاج الخليفة إلى الاستقصاء عنهم، وهو مكلف بتعيين الأمثل فالأفضل إن لم يجد من تتوافر فيه الصفتان^(٣).

ويلاحظ أن معظم الولاة في عصر الخلافة الراشدة كانوا من الصحابة، وذلك لتحليلهم بصفات ومؤهلات من ناحية، ولثقة الخليفة بهم، واحترام الناس لهم، مما يجعلهم يطيعونهم ويؤازرونهم. وقد اشتهر ولاة العصر الراشدي بزهدهم وورعهم، مثل سعيد بن عامر بن حذيم، وعمير بن سعد، وسلمان الفارسي، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وأبي موسى الأشعري. وقد اضطر بعضهم للاستدانة لسد عوزهم إلى الطعام^(٤)، ولم يطلبوا الولاية لأنفسهم لورود النهي الشرعي عن طلبها، بل كانوا يعتذرون عنها، ويرغبون في التخلص من مسؤولياتها، ويعتذرون عن الاستمرار فيها^(٥).

ولم يدع الخلفاء الراشدون أثراً لعواطفهم في تعيين الولاة، بل راعوا المصلحة العامة، حتى إن عمر بن الخطاب عين أبا مريم الحنفي على قضاء البصرة وهو قاتل أخيه زيد بن الخطاب في موقعة اليمامة^(٦)!!

(١) القصص: ٢٦.

(٢) ابن تيمية: السياسة الشرعية ١٤، ١٥.

(٣) ابن تيمية: السياسة الشرعية ١٨.

(٤) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاة على البلدان ٢: ٥٢ - ٥٣، والأزدي: فتوح الشام ١٢٢ - ١٢٣.

(٥) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاة على البلدان ٢: ٥٤، والبلاذري: فتوح البلدان ٢١٤، والطبري: تاريخ ٢/ ٥٨٧.

(٦) وكيع: أخبار القضاة ١: ٢٦٩.

ولم تتحدد مدة الولاية على الإقليم، بل كانت تخضع لنجاح الوالي وظروف الولاية، لذلك فإن بعض الولاة تطول ولايتهم مثل معاوية بن أبي سفيان إلى عشرين سنة، وبعضهم تقصر إلى سنة واحدة.

ولم يلتزم الخليفة بإبقاء ولاية الخليفة السابق، فكان يبقى بعضهم ويعزل الآخرين، وكانت وصية عمر لمن بعده: «ألا يقر لي عامل أكثر من سنة، وأقروا الأشعري أربع سنين»^(١)، وقد تولى الأشعري ولاية الكوفة عدة مرات حتى نهاية خلافة عثمان.

وكان الولاة عند عزلهم يستمرون في أعمالهم حتى يصل الوالي الجديد. وكانت «الدواوين الإقليمية المتفرعة من ديوان الجند تحت إشراف مباشر من والي الإقليم.. وربما أشارت المصادر إليه تحت اسم أمير الحرب»^(٢).

وكان من واجبات الوالي حماية الولاية من الأعداء المتآخين لولايته، دون انتظار الإذن من الخليفة، خلافاً لحالة قيامه بمبادرتهم بالهجوم، إذ لا بد له من استئذان الخليفة^(٣).

وكذلك كان من واجبات الوالي تحصين الثغور وشحنها بالجنود ومتابعة أخبار الأعداء، وتدريب الصبيان على الفروسية والسباحة والرمي^(٤).

كما كان الولاة مسؤولين عن تعيين العمال والموظفين في أقاليمهم ومحاسبتهم، وقد اهتموا بمشاورة أهل الرأي في شؤون أقاليمهم، بناء على أوامر الخلفاء^(٥)، وأشرفوا على عمران الأقاليم من حفر الأنهار والعيون، وعقد الجسور، وتخطيط

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٣٢٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢: ٣٩١.

(٢) السلومي: ديوان الجند ٢٤٥.

(٣) راجع حادثة عزل العلاء بن الحضرمي عن البحرين لقيامه بمهاجمة إقليم فارس دون استئذان الخليفة عمر.

(٤) محمد حميد الله: الوثائق السياسية ٤٨٦.

(٥) محمد عبد القادر خريسات: عمر بن الخطاب والولاية، العدد ٢٥ مجلة المؤرخ العربي.

المدن، وتعبيد الطرق، وبناء المساجد والأسواق، وتأمين المياه، وإقطاع الأراضي لبناء الدور للسكان، وإحياء الأراضي الموات لتوسيع الأراضي الزراعية^(١).

وكان الوالي مسؤولاً عن الشؤون المالية في ولايته، حيث ظهرت بيوت الأموال في المدينة والأمصار في خلافة عمر رضي الله عنه، ولكن عمر عدل عن ذلك في بعض الولايات بتعيين موظف خاص لبيت المال، فكان أنس بن مالك على بيت المال في ولاية أبي موسى الأشعري على البصرة^(٢)، وكان عبدالله ابن مسعود على بيت المال، وعثمان بن حنيف على الخراج في ولاية عمار بن ياسر على الكوفة^(٣)، وكذلك كان ابن مسعود على بيت المال في ولاية سعد بن أبي وقاص على الكوفة^(٤). في حين استمر عدد من الولاة مسؤولاً عن بيت المال والخراج في عدة أقاليم، مثل شرحبيل بن حسنة في الأردن، ومعاوية بن أبي سفيان في الشام، وعمر بن العاص في مصر^(٥).

وكان الخلفاء ينصحون ولائهم ويوجهونهم ويذكرونهم بالقيم الإسلامية الرفيعة، وأن لا يتخذوا الولاية مغنماً، وأن ينصرفوا إلى الحفاظ على مصالح الناس الدينية والدنيوية، فالولاية أمانة خطيرة والتفريط بواجباتها خيانة للأمة، وفي الحديث: «ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة»^(٦).

ولم يكن لعمل الوالي في الولاية وقت محدد، بل كان بابه مفتوحاً للناس.

(١) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان ٢: ٨٠ - ٨١، والبلاذري: فتوح البلدان ٣٥٢، ٣٥١، ٢٧٣، ١٥٥.

(٢) القاسم بن سلام: الأموال ٥١٦.

(٣) أبو يوسف: الخراج ٤٠.

(٤) خليفة: التأريخ ١٤٩.

(٥) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان ٢: ٩٥.

(٦) البخاري: الصحيح ٨: ١٠٧.

وقد غضب عمر رضي الله عنه على والي الكوفة سعد بن أبي وقاص حين وضع لداره باباً، وأرسل محمد بن مسلمة الأنصاري فأحرق الباب، لأنه خشي أن يكون ذلك سبباً لاحتجابه عن حوائج الناس^(١).

وكان الولاية خاضعين لمراقبة الخلفاء ومحاسبتهم، فعمر كان يرسل محمد ابن مسلمة الأنصاري مفتشاً عليهم، وكذلك فعل عثمان، كما كانت المراسلات متصلة بين الخلفاء والولاية في شؤون الإدارة والقضاء والخطط العسكرية، وكانت الاجتماعات السنوية بين الخلفاء والولاية تتم في موسم الحج، كما قام الخلفاء بزيارات لعدة ولايات، فزار عمر الشام عدة مرات، وكان يباغت ولاته عند الزيارة دون إعلامهم، كما أنه كان ينوي زيارة جميع الولايات لتفقد أحوالها والتعرف على حاجات الناس فيها^(٢).

وكان عمر يحاسب ولاته إذا ظلموا أحداً من الرعية، وأعلن أنه يقتص للمظلومين من ولاتهم مما ساعد على تحقيق أمن الرعية من الظلم^(٣)، كما أعلن أن من الهين عليه تبديل أمير بأمر آخر إذا كان في ذلك صلاح الإقليم^(٤). وقد عزل بعض ولاته لجهلهم ببعض الأحكام الشرعية أو لاعتدائهم على أحد الناس^(٥). وكذلك عزل عثمان بعض الولاية لخصومة أهل المصر لهم^(٦)، أو لإصابتهم ذنباً يستوجب الحد الشرعي^(٧). لأنهم ينبغي أن يكونوا قدوة صالحة لأهل إقليمهم.

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٢٧٧، والطبري: تأريخ ٤٨٠ / ٢.

(٢) عمر بن شبة: تأريخ المدينة ٣: ٨٢١.

(٣) المصدر السابق ٣: ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٣.

(٤) نفسه ٣: ٨٠٥.

(٥) القاسم بن سلام: الأموال ٦٣، ٦٤، وعمر بن شبة: تأريخ المدينة ٣: ٨١٨، وابن تيمية:

السياسة الشرعية ١٠٥.

(٦) كما فعل مع سعد بن أبي وقاص.

(٧) كما فعل مع الوليد بن عقبة.

وخضع الولاية للرقابة على أموالهم عند الولاية والعزل، حيث شاطر عمر كلاً من سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وعمرو بن العاص أموالهم، لأنه يرى أنهم استفادوا في تنميتها من مراكزهم في الولاية^(١).

الولاية في خلافة أبي بكر:

لقد أقرَّ أبو بكر ولاية النبي ﷺ على المدن والمناطق في شبه الجزيرة العربية، لكنه قام ببعض التعديلات بعد استقرار الأوضاع في اليمن والقضاء على المرتدين، حيث عين عبدة بن سعد على كندة في حضرموت والسكاسك^(٢)، كما عين جرير بن عبدالله البجلي على نجران^(٣)، وعبدالله بن ثور على جُرش^(٤)، وبعد القضاء على ردة عمان عين عليها عكرمة بن أبي جهل، ثم وجهه إلى حرب المرتدين باليمن، وعين عليها حذيفة بن محسن العلقاني^(٥)، ونظراً لفتح دومة الجندل فقد عين عليها عياض بن غنم الفهري^(٦). وكذلك أبقى أبو بكر عمال الصدقات الذين كانوا يجيئون صدقات الولايات والقبائل في عهد النبوة^(٧)، كما أن قادة جيوشه كانوا جميعاً من الصحابة رضوان الله عليهم^(٨). وكان يقول: «ما أحد أحق بالعمل من عمال الرسول ﷺ»^(٩)، بل «كانوا لا يؤمرون في ذلك الزمان إلا الصحابة»^(١٠).

(١) القاسم بن سلام: الأموال ٣٤٢، وابن عبدالحكم: فتوح مصر ١٤٩، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٢١.

(٢) الطبري: تأريخ ٣: ٣٤١، وابن حجر: الإصابة ٢: ٤٥٠.

(٣) الطبري: تأريخ ٣: ٤٢٧.

(٤) المصدر السابق.

(٥) خليفة: التأريخ ١٢٣، والطبري: تأريخ ٣: ٣١٤، ٣١٥، وابن عبد البر: الاستيعاب ١: ٢٧٨ و ٣: ١٤٩.

(٦) الطبري: تأريخ ٣: ٤٢٧.

(٧) عبدالعزيز بن سليمان المقبل: خلافة أبي بكر الصديق ٩٤ - ٩٥.

(٨) المرجع السابق ٩٦ - ٩٧، ١٠٣.

(٩) ابن عبد البر: الاستيعاب ١: ٤١٠.

(١٠) ابن حجر: الإصابة ٢: ٢٢٣، ٢٨٦.

قائمة بأسماء ولاية أبي بكر على البلدان^(١) :

- ١ - عتاب بن أسد (مكة).
- ٢ - عثمان بن أبي العاص الثقفي (الطائف).
- ٣ - العلاء بن الحضرمي (البحرين) *
- ٤ - حذيفة بن محصن العلقاني (عمان).
- ٥ - سمرة بن عمرو العنبري (اليبامة).
- ٦ - معاذ بن جبل (اليمن - مشرف عام على الولاية بالإضافة إلى إدارة ولاية الجند).
- ٧ - المهاجر بن أبي أمية (صنعاء وأعمالها، وأحيانا الصدف وكندة).
- ٨ - زياد بن لبيد البياضي (كندة وحضر موت).
- ٩ - جرير بن عبدالله البجلي (نجران).
- ١٠ - فروة بن مسيك المرادي (مراد ومذحج).
- ١١ - عكاشة بن محصن الأسدي (السكاسك والسكون).
- ١٢ - خالد بن الوليد (العراق).
- ١٣ - المثني بن حارثة الشيباني (العراق).
- ١٤ - الزبرقان بن بدر (الأنبار).
- ١٥ - عياض بن غنم (دومة الجندل).
- ١٦ - أبو عبيدة عامر بن الجراح أمير (أمراء الشام مع ولاية حمص خاصة).
- ١٧ - أبو موسى الأشعري (زبيد ورمع وعدن وساحل اليمن).
- ١٨ - يعلى بن أمية (خولان).

(١) خليفة: التأريخ ١٢٢ - ١٢٣، والطبري: تأريخ ٣: ٤٢٧.

- ١٩ - سليط بن قيس (اليامة).
 ٢٠ - عبدالله بن ثور (جرش)^(١).
 ٢١ - خالد بن الوليد المخزومي (أمير أمراء الشام).
 ٢٢ - عمرو بن العاص (فلسطين).
 ٢٣ - شرحبيل بن حسنة (الأردن).
 ٢٤ - يزيد بن أبي سفيان (دمشق).

ويلاحظ على هذه القائمة أن ولاية مدن العراق والشام كانوا في الحقيقة قادة عسكريين يقومون بإدارة المناطق المفتوحة، ويخضعون لقائد كبير واحد في العراق وآخر في الشام.

الولاية في خلافة عمر:

وكانت مهمة الولاية تتمثل في سياسة الولاية وفق تعاليم الإسلام، ونشر الثقافة الإسلامية بتعليم الناس، وإقامة العدل، وجباية الفيء، وإمداد الجيش بالمقاتلين سواء في حروب الردة أو الفتوحات^(٢)، وتنظيم الولاية والإشراف على القضاة والموظفين الآخرين. وقد ذكر عمر بن الخطاب في خطبة جمعة مهام الولاية، فقال: «اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار: أني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم، وأن يقسموا فيهم فيئهم، وأن يعدلوا، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إليَّ»^(٣).

(١) جرش: بلدة شمال نجران في أعلى وادي يشة قرب خيس مشيط (الأكوع: البلدان اليمانية ٧٥، والبلادي: بين مكة وحضرموت ٥٢، ٥٣).

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١١٥.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٩٣-٢٩٤، وأحمد: المسند ١: ٤٨-٤٩، وابن شبة: تأريخ المدينة ٣: ٨٠٦-٨٠٧، والطبري: تأريخ ٢: ٥٦٧ والأثر صحيح. وقارن بكتابه إلى أهل البصرة عندما ولي أبا موسى الأشعري عليهم (الطبري: تأريخ ٤: ٢٠٧).

وخطب الناس مرة أخرى، فقال: «أيها الناس إني بعثت عمالي هؤلاء ولاة بالحق عليكم، ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من دمائكم ولا من أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم أمر دينكم وستتكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إليّ، ومن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم أقيده منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه»^(١).

وعندما اجتمع ولاته على الأمصار في موسم الحج خطب الناس بحضورهم قائلاً: «أيها الرعية، إن لنا عليكم حقاً، النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير. أيها الرعاة: إن للرعية عليكم حقاً، اعلّموا أنه لا حلم إلى الله أحب ولا أعم نفعاً من حلم إمام ورفقه، وإنه ليس جهل أبغض إلى الله ولا أعم من جهل إمام وخرقه، اعلّموا أنه من يطلب العافية فيمن بين ظهرانيه ينزل الله عليه العافية من فوقه»^(٢). وكان عمر يعرف أنه مسؤول عن سياسة ولاته فكان يبين ذلك: «أيها عامل لي ظلم أحداً، وبلغتني مظلمته ولم أغيرها فأنا ظلمته»^(٣).

وبناء على هذه الخطب، فإن الوالي ينبغي أن يجمع بين المهام الدينية والدنيوية، كما أنه يتمتع بصلاحيات واسعة داخل ولايته، ولا يرجع إلى الخليفة إلا في المشكلات المستعصية. ولا شك أن قيام الولاية بإمامة الناس في الصلاة، وخطبتهم فيهم بأنفسهم في صلاة الجمعة يعزز مكانتهم ويوحد القيادة الدينية والسياسية في أشخاصهم، كما أن توليهم بأنفسهم لجيوش الفتح تكسبهم احترام الناس وطاعتهم، وعندما يتولى الحكم خليفة جديد فإن الولاية يأخذون له البيعة من سكان الولايات. ومن مهامهم أخذ الزكاة من الأغنياء وإنفاقها

(١) الطبري: تاريخ ٤: ٢٠٤، وابن الجوزي: مناقب عمر ٩٤، وابن تيمية: السياسة الشرعية ١٥٠، ومحمد حميد الله: الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ٤٠٦.

(٢) ابن الجوزي: مناقب عمر ٧٩.

(٣) المصدر السابق ١١٦.

على الفقراء، وتحقيق الأمن للرعية، وإقامة الحدود الشرعية، وكان الوالي ينيب من يقوم مقامه عند غيابه عن الولاية^(١).

وكانت العلاقة بين الخليفة في المدينة وولاية الأمصار تتم عن طريق الرسائل المتبادلة، كما يستدعي الخليفة بعض ولاته إلى المدينة أحياناً، وأحياناً كان يرسل ممثلاً عنه إلى الولاية للاطلاع على أحوال الولايات بصورة مباشرة، وكان محمد بن مسلمة الأنصاري يقوم بمهام التفتيش على الولاية في خلافة عمر^(٢). واهتم عمر بجمع الولاية بمكة في موسم الحج للتداول معهم في أحوال الأمة^(٣). بل قام عمر بتفقد أحوال الولاية والقادة في الشام عندما زار بيت المقدس لتسليم مفاتيحها وأصر على زيارتهم في بيوتهم، ليتعرف على أحوالهم وتعاملهم مع الدنيا والأموال ومدى تعلقهم بها، وقد عانق أبا عبيدة عامر بن الجراح عندما رأى زهده في الدنيا ريشاً وطعاماً، وقال له: «ما من أحدٍ من أصحابي إلا وقد نال من الدنيا ونالت منه، غيرك»^(٤).

مراقبة العمال والولاية:

كان الولاية على الأمصار يخضعون لمحاسبة إذا زادت ثروتهم زيادة كبيرة، خوفاً من استغلالهم لنفوذهم في تنمية الثروة حتى لو لم يقصدوا ذلك، بل حاباهم الناس بسبب موقعهم في السلطة.

وقد سأل عمر رضي الله عنه أبا هريرة واليه على البحرين: من أين اجتمعت له عشرة آلاف درهم؟ فأجاب أبو هريرة: خيلي تناسلت، وعطائي تلاحق، وسهامي تلاحقت. فأمر بها عمر فقبضت^(٥).

(١) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين ٦٠.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢٢١، وابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١٤٦.

(٣) أبو يوسف: الخراج ١١٦ وقارن بالطبري: تأريخ ٤: ٢٠٤.

(٤) الأزدي: فتوح الشام ٢٥٥، ٢٥٦.

(٥) أبو عبيد: الأموال ٢٨٢ - ٢٨٣، وابن سعد: الطبقات ٤: ٣٣٥، وابن زنجويه: الأموال ٢:

٦٠٥ - ٦٠٦، والبلاذري: فتوح البلدان ٩٣ - ٩٤ والأثر صحيح. وانظر روايات ضعيفة في

محاسبة سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة (ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٣٠٧، وابن زنجويه:

الأموال ٢: ٦٠٤ - ٦٠٥). ومحاسبة عمرو بن العاص (البلاذري: فتوح البلدان ٢٢٠ -

٢٢١) من كلام ابن المبارك (ت ١٨١ هـ) دون إسناد.

إن عمر يحسب حساباً للهدايا التي يحصل عليها الولاة من الناس، وكذلك محابة الناس للولاة في المعاملات المالية من مضاربة ومؤاجرة ومساواة ومزارعة وبيع، ولهذا أخذ عمر رضي الله عنه نصف أموال عدد من الولاة من أصحاب الفضل والدين والأمانة، لأجل هذه المحابة دون أن يتهمهم بالخيانة^(١).

وهكذا حاسب خالد بن الوليد - قائد جبهة الشام - على تصرفاته في المال العام: «إني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد، إني أمرته أن يجبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطاه ذا البأس، وذا الشرف، وذا اللسان، فنزعت، وأثبت أبا عبيدة...»^(٢).

وهكذا أدت الرقابة المالية إلى عزل أعظم القادة العسكريين المسلمين، برغم أنه اجتهد في التصرف المالي حسب ما يرى فيه المصلحة.

وثبت أن عمر رضي الله عنه عاقب الصحابي أنس بن مالك لأنه فرط في حفظ ستة آلاف درهم من الأموال العامة استودعها عند أنس، فضمنه إياها، ويبدو من السياق أن عمر شعر بوجود إهمال في حفظها، ولم يتهم أنساً^(٣).

وكان عمر يحاسب ولاته على ثروتهم، فإذا زادت زيادة كبيرة عما كانت عليه عند تعيينهم قاسمهم ثروتهم^(٤)، دون اتهامهم بالخيانة، بل لأنه يعتقد أن ولايتهم على الإقليم تيسر لهم تنمية أموالهم. وكان الولاة في خلافته يتخرجون من الولاية على الناس، وبعضهم طالب عمر بإعفائه من الولاية^(٥).

(١) ابن تيمية: السياسة الشرعية ٦٨ - ٧٠ بتصرف.

(٢) أحمد: المسند ٣: ٤٧٦، والبخاري: التأريخ الكبير ٨: ٥٤، والتأريخ الصغير ١: ٨٢، والطبراني: المعجم الكبير ٢٢: ٢٩٨ - ٢٩٩، وأبو نعيم: معرفة الصحابة ٢: ١٦١ - ١٦٢ والأثر صحيح.

(٣) عبد الرزاق: المصنف ٨: ١٨٢، وابن أبي شيبة: المصنف ٤: ٣٩٨، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٢٨٩ - ٢٩٠ والأثر صحيح.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ١٢١. ابن تيمية: السياسة الشرعية ٤٦.

(٥) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين ٥٤.

وكان لا يرى أن من حق الولاة أن يتنعموا من المال العام دون الرعية فقد غضب على والي أذربيجان عتبة بن فرقد، لأنه أهدى إليه خبيصاً (نوع من الحلوى) لم يكن الجند ينالونه، فكتب إليه عمر: «إنه ليس من كدّك، ولا من كدّ أبيك ولا من كد أمك، فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك، وإياكم والتنعم»^(١).

كما كان يحقق في شكاوى الرعية ضدهم، ولما ضرب ابنٌ لعمر بن العاص أحد الأقباط وبلغ عمر شكواه، أراد أن يقتص للقبطي، وخاطب عمرًا بعبارة المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»^(٢).

كما حقق في شكوى أحد الجند ضد والي عمرو بن العاص لأنه رماه بالنفاق، وأدان القضاء والي وأصدر أمراً بجلده حد القذف، لولا أن الجندي عفا عنه^(٣).

كما غضب عمر على عمرو بن العاص لأنه أنفذ حد شرب الخمر على عبدالرحمن بن عمر بن الخطاب في بيته^(٤)، والحق أن ينفذه علناً أمام الناس ليعتبروا، وتحقيقاً لمبدأ المساواة أمام الشريعة.

ومن الحوادث الشهيرة تحقيقه في اتهام المغيرة بن شعبة بالزنا خلال ولايته على البصرة، حيث استدعاه إلى المدينة مع الشهود الأربعة، وبعد التحقيق مع الشهود تراجع الشاهد الرابع، فجلد الثلاثة حد القذف، ولكنه عزل المغيرة عن ولاية البصرة^(٥)، وولى مكانه أبا موسى الأشعري الذي قام بإدارة الولاية خير

(١) مسلم: الصحيح ٣: ١٦٤٢ البيهقي: السنن الكبرى ١٠: ١٢٨.

(٢) ابن أعثم الكوفي: الفتوح ٢: ٨٢، وابن الجوزي: مناقب عمر بن الخطاب ٩٩.

(٣) عمر بن شعبة: تاريخ المدينة ٣: ٨٠٨.

(٤) عمر بن شعبة: تاريخ المدينة ٣: ٨٤١.

(٥) عبدالرزاق: التفسير ٢: ٥٢ - ٥٣، وعبد بن حميد: التفسير، وابن المنذر: التفسير، السيوطي:

الدر المنثور ١٨: ١٣١، والبلاذري: فتوح البلدان ٣٤١، والطبري: تاريخ ٤: ٢٠٦ - ٢٠٧،

والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣: ٢٧، وابن كثير: البداية والنهاية ٧: ٨٢.

قيام، وعرف بقيادته العسكرية لجيوش البصرة في الحرب ضد الفرس، كما عرف بمهارته في قراءة القرآن وتعليمه لأهل البصرة، وبمراسلاته الكثيرة مع الخليفة عمر، لكن ذلك لم يمنعه من تقبل شكاوى الرعية ضده والعمل على إنصافهم^(١). ولم يسلم من الشكوى سعد بن أبي وقاص والي الكوفة لعمر: «أنه اتخذ قصرًا، وجعل له باباً يحجبه عن الناس»، فأرسل عمر محمد بن مسلمة الأنصاري، وأمره أن يحرق الباب ففعل، وعاد برسالة من سعد توضح حقيقة الأمر، فقبل عمر قول سعد وصدقه^(٢). وتجددت الشكوى بأنه «لا يحسن الصلاة!!» ولما تحرى عمر حقيقة مواقف سعد في ولايته بإرسال رجال إلى الكوفة وجد الناس يشنون عليه، إلا أن رجلاً عبسياً قال: «كان لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، ولا يغزو بالسرية»، ولم يقتنع عمر بهذه الشكاوى، لكنه أدرك أن ثمة شغباً يحيط بواليه فعزله، معلناً استمرار ثقته به: «إني لم أعزله لعجز ولا خيانة»^(٣). وهكذا خسر الكوفيون بسبب شغب بعضهم.

وكان اختيار الولاية يتم بعد مشاورة الخليفة لكبار الصحابة، وكذلك بعد رضى المرشح للولاية^(٤)، وكان عمر لا يولي أحداً من أقاربه في حين كان عثمان وعلي لا يرون بأساً بتولية الأقارب، وكثيراً ما كان عمر يختبر من يريد توليته، ويدرس شخصيته عن كثب، كما أنه كان لا يولي أهل البادية على أهل الحاضرة لاختلاف الطبائع والعادات والأعراف، وقد عين سلمان الفارسي والياً على المدائن ربما ليلفت الانتباه إلى مبدأ المساواة في الإسلام^(٥).

(١) ابن الجوزي: مناقب عمر ٩٥، ١٣١.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢٧٦، والطبري: تأريخ ٤: ١٢١.

(٣) خليفة: التأريخ ١٤٩.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٤: ٣٦٠، والمتقي الهندي: كنز العمال ٥: ٦٢٠، وابن كثير: البداية والنهاية ٧: ٣٥، ١٠٧.

(٥) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين ١٤٣، وظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتأريخ الإسلامي ٤٧٣.

وكان الوالي يزود بكتاب من الخليفة يتضمن أمر التعيين له والياً على المنطقة وشروطه عليه، ويشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار^(١). وقد جرى نقل بعض الولاة من ولاية إلى أخرى حسب ما تقتضيه مصلحة الدولة^(٢). كما جرى عزل بعض الولاة لأسباب متنوعة، فقد عزل عمر بن الخطاب العلاء بن الحضرمي، لأنه عبر بجنده البحر من البحرين إلى فارس دون استئذان الخليفة، مما أدى إلى وقوع أضرار بالجيش، وعزل عمر خالد بن الوليد عن الشام، لأنه خشي افتتاح الناس به بتصورهم أنه سبب النصر لبراغته القيادية، بينما ينبغي أن يعزوا النصر إلى الله تعالى (حتى يعلم أن الله إنما ينصر دينه)^(٣).

ويستعين الوالي في بعض الولايات الكبيرة بولاة آخرين على المدن التابعة للولاية يتبعونه، كما حدث في ولاية الشام، حيث كانت ولايات حمص والجزيرة والأردن وفلسطين تتبع أبا عبيدة والي دمشق. وكان سلطان الولاة على المدن يزداد وينقص، حيث قد تضم ولاية صغيرة إلى أخرى أو تفصل ولاية مستقلة من تبعيتها الإدارية. وقد راعى عمر رضي الله عنه في اختيار الولاة عدة مبادئ منها:

عدم حرص المرشح على الإمارة، وهو اتباع للسنة النبوية^(٤)، وكان يقول: «لا يحب الإمارة أحد فيعدل»^(٥).

كما كان ينظر إلى تمتع المرشح بصفات تؤهله للولاية بأن يكون من أهل القوة والأمانة، والهيبة والتواضع، والرحمة بالناس، والحلم والرفق بالرعية^(٦)، والزهد في الدنيا طعاماً ولباساً ودوراً ورياشاً^(٧).

(١) الطبري: تأريخ ٤: ٢٠٧.

(٢) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين ٥٥.

(٣) خليفة: التأريخ ١٢٢.

(٤) في الحديث «إنا لا نولي على هذا العمل من سأل» (البخاري: أحكام ٧، ومسلم: إمارة ١٤).

(٥) عمر بن شبة: تأريخ المدينة ٣: ٨٥٦.

(٦) مصطفى محمد مسعد: التنظيم الإداري في الجزيرة العربية في عصر الخلفاء الراشدين ١: ٢٦٩.

(ضمن بحوث ندوة الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين).

(٧) عمر بن شبة: تأريخ المدينة ٣: ٨١٨، ٨٣٢، ٨٥٤.

وكانت رواتب الولاة جيدة تكفيهم، فكان راتب عمرو بن العاص والي مصر مائتي دينار^(١)، وراتب عياض بن غنم الفهري - والي حمص - ديناراً وشاةً ومدّاً كل يوم^(٢).

وكان البريد الذي يحمل الرسائل من الخليفة عمر إلى الولاة يفسح المجال أمام أهل الأمصار أن يرسلوا رسائلهم إلى الخليفة مباشرة دون اطلاع أحد سواه عليها، مما يتيح أمامهم رفع شكاويهم بحرية^(٣).

قائمة بأسماء ولاة عمر على الأقاليم^(٤):

- ١ - زيد بن ثابت (المدينة) - عند خروج عمر منها للحج ولزيارة الشام.
- ٢ - مُحَرِّز بن حارثة بن ربيعة بن عبد شمس (مكة) *
- ٣ - قُتَيْب بن عمير بن جدعان التميمي (مكة).
- ٤ - نافع بن عبد الحارث الخزاعي (مكة).
- ٥ - خالد بن العاص بن هشام المخزومي (مكة) *
- ٦ - عثمان بن أبي العاص - ت ٥١ هـ - (الطائف ثم عُمان والبحرين وأحياناً اليمامة والبحرين).
- ٧ - عتبة بن أبي سفيان بن حرب الأموي - ت ٤٤ هـ - (الطائف)^(٥).
- ٨ - سفيان بن عبد الله الثقفي (الطائف).
- ٩ - يعلى بن أمية - مُنية - التميمي - ت ٣٨ هـ - (اليمن).
- ١٠ - عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي (الجند).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤: ٢٦١.

(٢) ابن سعد: الطبقات ٧: ٣٩٨، وابن الأثير: أسد الغابة ٤: ١٦٦.

(٣) عمر بن شبة: تأريخ المدينة ٢: ٧٦١.

(٤) خليفة: التأريخ ١٥٣ - ١٥٤، والطبري: تأريخ ٤: ٢٤١.

(٥) ابن عبد البر: الاستيعاب ٣: ١٢١، وابن الأثير: أسد الغابة ٣: ٣٦١. وقال ابن حجر: وإنما ولاه الطائف أخوه معاوية (الإصابة ٣: ٧٨).

- ١١ - العلاء بن الحضرمي - ت ١٤ هـ - (البحرين).
- ١٢ - عثمان بن أبي ثور (البحرين).
- ١٣ - قدامة بن مظعون الجمحي - ٣٦ هـ - (البحرين)^(١).
- ١٤ - أبو هريرة (البحرين) - بعد وفاة العلاء بن الحضرمي -.
- ١٥ - عمرو بن العاص - ت ٤٣ هـ - (فلسطين ثم مصر).
- ١٦ - عبدالله بن سعد بن أبي السرح (الصعيد).
- ١٧ - أبو عبيدة عامر بن الجراح (الشام).
- ١٨ - يزيد بن أبي سفيان (الشام).
- ١٩ - معاوية بن أبي سفيان - ت ٦٠ هـ - (الشام).
- ٢٠ - شرحبيل بن حسنة (الأردن).
- ٢١ - معاذ بن جبل - ت ١٨ هـ - (الأردن) من قبل أبي عبيدة.
- ٢٢ - علقمة بن علاثة العامري - ت نحو ٢٠ هـ - (حوران)^(٢).
- ٢٣ - علقمة بن حكيم (الرملة).
- ٢٤ - علقمة بن مجزز المدلجي - ت ٢٠ هـ - (إيليا - بيت المقدس).
- ٢٥ - عبادة بن الصامت (حمص) تولاها من قبل أبي عبيدة.
- ٢٦ - عياض بن غنم الفهري - ت ٢٠ هـ - (حمص والجزيرة) تولاها من قبل أبي عبيدة.
- ٢٧ - سعيد بن عامر بن حذيم (حمص والجزيرة).
- ٢٨ - عمير بن سعد الأنصاري (حمص والجزيرة).
- ٢٩ - حبيب بن مسلمة الفهري (الجزيرة).
- ٣٠ - الوليد بن عقبة (الجزيرة).

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب ٣: ٢٥٩، وابن حجر: الإصابة ٣: ٢٢٨.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة ٤: ١٣، وابن حجر: (فتح الباري ٨: ٦٨)، والإصابة ٢: ٥٠٤.

- ٣١ - المثنى بن حارثة الشيباني (العراق).
- ٣٢ - أبو عبيد بن مسعود الثقفي (العراق).
- ٣٣ - قطبة بن قتادة (البصرة).
- ٣٤ - شريح بن عامر (البصرة).
- ٣٥ - عتبة بن غزوان (البصرة).
- ٣٦ - سعد بن أبي وقاص (العراق).
- ٣٧ - المغيرة بن شعبة الثقفي (البصرة سنة ١٨ هـ ثم الكوفة).
- ٣٨ - أبو موسى الأشعري (البصرة).
- ٣٩ - عمار بن ياسر - ت ٣٧ هـ - (الكوفة).
- ٤٠ - جبير بن مطعم (الكوفة).
- ٤١ - سلمان الفارسي (المدائن).
- ٤٢ - حذيفة بن اليمان (أذربيجان ثم المدائن).
- ٤٣ - عتبة بن فرقد السلمي (الموصل ثم أذربيجان).
- ٤٤ - النعمان بن مقرن المزي (كسكر).
- ٤٥ - بلال الأنصاري (عُمان).

الولاية في خلافة عثمان:

استمرت الوحدات الإدارية السابقة، وهي مكة والمدينة، والبحرين واليامة، واليمن وحضرموت، والشام، والكوفة والبصرة، ومصر. وأضيفت إليها في خلافة عثمان أرمينية التي فتحت لأول مرة في عهده^(١). وحدث تطور آخر عندما ضم عثمان ولاية البحرين، وعمان إلى ولاية البصرة، عندما عين عبدالله ابن عامر بن كريز والياً عليها، مما كان له أثر بالغ على زيادة الطاقة

(١) خليفة: التاريخ ١٦٣، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٠١، وابن أعثم الكوفي: الفتوح ٢: ١٠٨.

البشرية لهذه الولاية، مما مكنها من القيام بأعباء الفتوح الكبيرة في إقليم فارس وخراسان وسجستان^(١). وقد قام هذا الوالي الشاب بإصلاحات كثيرة في نظم الري والزراعة بشق الترع والأنهار وتنظيم مدينة البصرة وتوسعة مسجدها وسوقها وتوفير المياه في طريق الحج لأهلها، ازدهرت البصرة اقتصادياً، وامتد نفوذ واليها إلى عمان والبحرين وسجستان وخراسان وفارس والأهواز، حيث عين عبدالله بن عامر الولاية على هذه البلدان، وقد حافظ عبدالله بن عامر على مكانته عند أهل البصرة حتى نهاية ولايته، مما يدل على مقدرة عالية في القيادة والسياسة، برغم أنه تولى البصرة وهو في الخامسة والعشرين من عمره^(٢).

وليس كل ولاية عثمان شاباً، بل بعضهم من شيوخ الصحابة، مثل عمير ابن سعد الأنصاري والي حمص وقنسرين، الذي استعفى عثمان لكبر سنه، فضم عثمان ولايته إلى معاوية^(٣)، ومثل سعد بن أبي وقاص واليه على الكوفة، وهو مؤسس هذه المدينة في خلافة عمر، فمعرفته بالكوفة وسكانها وظروفها تؤهله لولايتها من جديد.

اختار عثمان ولاية الأمصار من أهل الكفاءة الإدارية والدربة العسكرية، وقد أثنى المؤرخون على عدد من ولايته، فقال المقرئ عن والي عثمان على مصر عبدالله بن سعد ابن أبي سرح: «ومكث أميراً مدة ولاية عثمان رضي الله عنه كلها محموداً في ولايته»^(٤). وقد وصف بالشجاعة والجود والرفق والحلم^(٥).

(١) خليفة: التاريخ ١٦٢، ١٦٣، ١٦٧، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٩٦، ٣٨١، وصالح العلي:

التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ١٤١.

(٢) خليفة: التاريخ ١٧٨، والطبري: تاريخ ٥: ٥٤، وابن الأثير: الكامل ٣: ٩٩، وعبد العزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان ١: ١٨٩ - ١٩١.

(٣) الطبري: تاريخ ٤: ١٨٩.

(٤) المقرئ: الخطوط ١: ٢٩٩ وقارن بعبارة الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣: ٣٤.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣: ٢١.

ووصف الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري - إثر عزله عن ولاية البصرة وتعيين عبدالله بن عامر بن كريز - الوالي الجديد بقوله على المنبر أمام الناس: «قد جاءكم غلام كريم العمات والخالات والجدات في قريش، يفيض عليكم المال فيضاً»^(١). مما يوضح شخصية أبي موسى في حرصه على الطاعة وتوطيد الأمر لمن بعده.

وكان عثمان يجمع ولاته لتقويم الوضع العام في البلاد، وخاصة في بداية الفتنة^(٢).

وكان عثمان يقبل شكاوى الرعية ضد ولاته، فلما اشتكى أهل البصرة واليههم أبا موسى الأشعري عزله وعيّن عليهم عبدالله بن عامر بن كريز^(٣)، وهكذا فعل مع والي الكوفة الوليد بن عقبة، وهي سياسة سبقه إليها عمر رضي الله عنه. وكان عثمان وثيق الصلة بولاته، يتبادل معهم الرسائل، ويتدارس شؤون الولايات، ويقدم الإرشاد والرأي للولاة، ويأمرهم بموافاته في موسم الحج لمحاسبتهم والنظر في شكاوى الرعية ضدهم^(٤).

ويلاحظ أن سعد بن أبي وقاص كان يتولى شؤون الكوفة سوى بيت المال الذي عيّن عليه عثمان عبدالله بن مسعود، ولما اختلف الاثنان حول مبلغ اقترضه سعد من بيت المال، ولم يتمكن من سداذه في وقت محدد، قام عثمان بعزله، وإبقاء عبدالله بن مسعود على بيت المال، مع تعيين والٍ جديد هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط، الذي كان قد تولى عدة أعمال في عهد النبوة وخلافة أبي بكر وعمر.

(١) خليفة: التأريخ ١٦١، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣: ١٩٠.

(٢) عمر بن شبة: تأريخ المدينة ٣: ١١٢٠، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٢٩، والكندي: ولاية مصر ٣٨.

(٣) الطبري: تأريخ ٥: ٥٥، وابن الأثير: الكامل ٣: ٩٩.

(٤) الطبري: تأريخ ٤: ٣٩٧ - ٣٩٨ عن سيف بن عمر.

وقد أثبت الوليد مقدرة إدارية وعسكرية، وخبرة بالتعامل مع أهل الكوفة الذين أحبوه لنظره في مصالحهم وعدم احتجابه عنهم، ولكن تجدد الخلاف بينه وبين ابن مسعود، كما حدث مع سلفه سعد بن أبي وقاص، وهنا عزل عثمان ابن مسعود وأبقى الوليد، ثم وقعت مشكلات عديدة بين الوليد ورجال من أهل الكوفة - كان قد أقام حد القتل على أقاربهم - سعوا به عند الناس ثم عند الخليفة عثمان، حيث رفض عثمان الاستجابة لطلبهم عزل الوليد عن الكوفة «تعملون بالظنون، وتخطئون في الإسلام، وتخرجون بغير إذن، ارجعوا»، فلما رجعوا إلى الكوفة لم يبق موتور في نفسه إلا أتاهم، فاجتمعوا على رأي فأصدروه^(١)، فكان أن اتهموا الوليد بشرب الخمر، وشهدوا ضده، فأقام الخليفة الحد عليه أربعين جلدة - وإقامة الحد ثابت من روايتي البخاري ومسلم - وعزله عن ولاية الكوفة^(٢). وعين والياً بدله سعيد بن العاص بن أمية، وقد وصفه الحافظ الذهبي بقوله: «كان أميراً شريفاً جواداً ممدحاً حليماً وقوراً ذا حزم وعقل يصلح للخلافة»^(٣).

وقد قرّب سعيد فقهاء الكوفة وقراءها، وأبعد أصحاب الشر من زعماء القبائل مما أغضبهم عليه، وبرغم ظروف الكوفة المضطربة، فإنه تمكن من تنظيم الولاية، ومد الفتحة باتجاه طبرستان والخزر، كما قضى على التمرد في أذربيجان، ولكن نشاطه الإداري والعسكري لم يعفه من شغب زعماء الأعراب، الذين تجرأوا عليه في مجلسه العام، وضربوا بعض أعوانه، فشاور عثمان في أمرهم، فأمر بنفيهم إلى الشام، ومكثوا في الشام حتى وجدوا الفرصة مواتية للعودة إلى

(١) الطبري: تاريخ ٤: ٢٧٥ عن سيف.

(٢) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٥٣)، ومسلم: الصحيح ٣: ١٣٣١ رقم ١٧٠٧، وابن حجر: (فتح الباري ٧: ٥٦).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٤٤-٤٤٥.

الكوفة، عندما غادرها سعيد بن العاص إلى المدينة، فقاموا بتحريض السكان ضده زاعماً (زاعمين) أنه يريد إنقاص العطاء، ونجح الأشر في جمع المعارضين للوالي، حيث منعه عند عودته من دخول الكوفة - وكانوا ألفاً من المسلمين - فرجع إلى عثمان ونصحه بتعيين والي جديد لتهدة المعارضة، وعلم عثمان بأنهم يرغبون في ولاية أبي موسى الأشعري عليهم، فولاه ولايته الثانية التي دامت حتى مقتل عثمان^(١).

والحق أن ولاية الكوفة لم تنهأ بالاستقرار، وكانت مصدر شغب وشكاوى على الولاة الذين تعاقبوا على إدارتها، فلم ينج أحد من الشغب والشكاوى، وكان الخليفة عثمان يحرص على تهدة الأحوال، ويغير الولاة إذا اشتد الشغب عليهم.

وتتمثل سياسة عثمان في مراقبة العمال والاستماع إلى رأي الناس فيهم، والاجتماع بهم في موسم الحج لمدارسة أحوال الولايات جرياً على السياسة العمرية، كما أرسل الكتب إلى ولاته للمشاركة في حل مشكلات الأقاليم، وأرسل المفتشين إلى الولاة للتعرف على أحوال الولايات عن كثب، كما أنه أرسل كتباً إلى أهل الأمصار، توضح سياسته تجاه الرعية، وحرصه على حقوقهم، واستعداده لقبول شكاويهم ضد ولاتهم إذا أصابهم منهم ظلم، داعياً المظلومين إلى رفع ظلامتهم إليه مباشرة في موسم الحج.

واستمرت صلاحيات الولاة في الإشراف على الولاية، وإنفاذ الأحكام الشرعية، وحفظ الأمن فيها، وتنظيمها إدارياً وقيادة جيوشها اذ كانت حركات الفتح مستمرة في خلافة عثمان. ويلاحظ أن عثمان قلل عدد الولايات بضم بعضها إلى بعض تحت إدارة والٍ واحد، فكان معاوية يلي الشام والجزيرة

(١) الطبري: تاريخ ٤: ٣٣٠ - ٣٣١، ٢٦٩ - ٢٧١.

وفلسطين، وكان عبدالله بن عامر يلي البصرة والبحرين وعمان واليامة بالإضافة إلى المناطق التي فتحها من إقليم فارس وخراسان. ولكن هؤلاء الولاة على مناطق واسعة كانوا يعينون ولاة آخرين على المدن والمقاطعات التي لا يقيمون فيها، وكان تنفيذ المشاريع العمرانية من بناء الجسور وشق القنوات وتحسين طرق المواصلات وتنظيم الأسواق منوطاً بالولاة •

قائمة بأسماء الولاة في خلافة عثمان:^(١)

- ١ - أبو الأعور بن سفيان (الأردن).
- ٢ - عبدالرحمن بن خالد بن الوليد (حمص).
- ٣ - علقمة بن حكيم الكناني (فلسطين).
- ٤ - جرير بن عبدالله البجلي (قرقيساء).
- ٥ - حبيب بن مسلمة (قنسرين) •
- ٦ - معاوية بن أبي سفيان (الشام).
- ٧ - خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي (مكة).
- ٨ - عبدالله بن الحضرمي (مكة).
- ٩ - القاسم بن ربيعة الثقفي (الطائف)
- ١٠ - يعلى بن مئنة (صنعاء).
- ١١ - عبدالله بن أبي ربيعة (الجند).
- ١٢ - علي بن ربيعة بن عبدالعزيز العبشمي (مكة).
- ١٣ - عثمان بن أبي العاص الثقفي (البحرين واليامة).
- ١٤ - مروان بن الحكم بن العاص الأموي (البحرين).
- ١٥ - عبدالله بن سوار العبدي (البحرين).

(١) خليفة: التأريخ ١٧٨، ١٧٩ - ١٨٠، والطبري: تأريخ ٤: ٢٢٦، ٣٣٠، ٤٢١ - ٤٢٢.

- ١٦ - سُبْرَة بن عمرو العنبري (اليامة).
- ١٧ - التُّسَيْر (همذان).
- ١٨ - سعيد بن قيس (الري).
- ١٩ - السائب بن الأقرع (أصبهان).
- ٢٠ - سلمان بن ربيعة الباهلي (أرمينية) *
- ٢١ - حذيفة بن اليمان (أذربيجان وأرمينية) *
- ٢٢ - الأشعث بن قيس (أذربيجان).
- ٢٣ - المغيرة بن شعبة الثقفي (أذربيجان وأرمينية).
- ٢٤ - عتيبة بن النھاس (حلوان).
- ٢٥ - عمرو بن العاص السهمي (مصر ثم الأسكندرية وحدها).
- ٢٦ - عبدالله بن سعد بن أبي السرح (مصر).
- ٢٧ - أبو موسى الأشعري (البصرة ثم الكوفة).
- ٢٨ - عبدالله بن عامر بن كريز (البصرة).
- ٢٩ - المغيرة بن شعبة الثقفي (الكوفة).
- ٣٠ - سعد بن أبي وقاص (الكوفة).
- ٣١ - الوليد بن عقبة الأموي (الكوفة ٢٥ - ٣٠هـ).
- ٣٢ - سعيد بن العاص الأموي (الكوفة).
- ٣٣ - مالك بن حبيب (ماه).
- ٣٤ - حبيش (ماسبذان).

إن سبعة من هؤلاء الولاة فقط تربطهم روابط القربى بالخليفة عثمان، وهم من قريش وبقيتهم من قريش وثقيف وقبائل أخرى، وهم جميعاً من الصحابة، واعتماد الإدارة في عصر الخلافة الراشدة كان على رجال من الصحابة، وخاصة من قريش وثقيف والأنصار، وقد قويت مشاركة الأنصار في خلافة علي.

الولاية في ولاية علي:

كان علي عليه السلام واعياً بظروف الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان ، وأن الدعاية الواسعة ضد الخليفة عثمان وولاته كانت وراء النقمة عليه، لذلك سارع علي عليه السلام إلى إقالة كبار عمال عثمان عليه السلام، ولم يكن معظم ولاية عثمان في ولاياتهم، بل تركوها في ظروف الفتنة، وقد غلب محمد بن أبي حذيفة على مصر طيلة عام كامل، حتى قتل من قبل العثمانية في نهاية عام ٣٦ هـ وكان واليها عبدالله بن سعد بن أبي سرح قد تركها في أثناء الفتنة^(١). وترك عبدالله بن أمية اليمن عندما سمع بمقتل عثمان، وكذلك ترك عبدالله بن عامر البصرة عندما سمع بمقتل عثمان^(٢).

ولا شك أن أهم التطورات التي جرت في خلافة علي خروجها من المدينة إلى الكوفة، وبذلك صارت المدينة ولاية من الولايات عُيِّن عليها والياً هو سهل ابن حنيف الأنصاري، في حين صارت الكوفة مقر الخلافة ومحور الأحداث. ومن التطورات الأخرى استقلال ولاية البحرين عن البصرة، وأحياناً كانت ترتبط بوالي اليمن عبيد الله بن عباس.

ولم تخضع الشام لعلي طيلة خلافته، بل كان يحكمها واليها القديم معاوية ابن أبي سفيان، الذي لم ينفذ أمر عزله الذي أصدره علي، وطالب بدم عثمان أولاً. أما ولاية الجزيرة بين العراق والشام، فكانت تخضع لسلطان علي حيناً ولسلطة معاوية حيناً آخر.

وأما مصر فكانت تابعة لعلي عليه السلام حتى سنة ٣٨ هـ، وقد تولاها عدد من الولاة، كان من أقدمهم قيس بن سعد بن عباد، الذي تمكن من ضبط أمورها

(١) ابن سعد: الطبقات ٧: ٥٠٤، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٢٥٤، وعبدالرزاق:

المصنف ٥: ٤٥٨ بسند صحيح إلى الزهري مرسلًا، والبخاري: التاريخ الكبير ٥: ٢٩،

والكندي: ولاية مصر ٢١، والمقرئ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ١: ٣٠٠.

(٢) عبد الحميد علي ناصر فقيه: خلافة علي ١٠٤، وخليفة: التاريخ ١٧٨، ٢٠١، ٢٠٢.

بتنظيم الخراج والشرطة، وسلك مع المعارضة مسلك الترضية دون ضعف، فلم يصطدم بالمطالبين بدم عثمان والمماليين لمعاوية ماداموا مسلمين لا يرفعون السيف عليه ولا يثيرون الشغب ضده، وصرف لهم أعطياتهم مثل جنده. ولكن هذا الموقف الحكيم أثار عليه خصومه في الكوفة فزعموا أنه يوالي معاوية مما أدى إلى عزله.

وقد سلك الوالي الجديد محمد بن أبي بكر مسلك الشدة مع المعارضة بمصر - التي قدرت بعشرة آلاف مقاتل - مما أدى إلى وقوع القتال بين الطرفين، وخروج المعارضين إلى الشام، ليعودوا مع القوات الشامية لإخضاع مصر بعد معارك شديدة مع واليها محمد بن أبي بكر انتهت بمقتله، ودخول مصر في طاعة معاوية سنة ٣٨هـ.

وأما البصرة فولّى عليّ عليها عبدالله بن عباس، وهو صحابي عُرف بعلمه الواسع في الفقه والتفسير، وقد أثبت مهارة إدارية بتوطيد الأمن في سجستان وهي تابعة لولاية البصرة، وفي إقليم فارس، حيث عين زياد بن أبي سفيان والياً عليه، كما أنابه حين خرج من البصرة عليها، فتمكن من ضبط الأمن فيها.

ويُعَدُّ عبدالله بن عباس من أهم رجالات الإمام علي، وكان يرافقه في الأحداث الخطيرة، وينصح له، ويجادل عنه. وكان علي يعتمد عليه ويستشيره، وقد استمرت ولاية ابن عباس على البصرة حتى سنة ٣٩هـ، وكان يعاونه صاحب الشرطة وصاحب الخراج.

وأما الكوفة فقد أقرَّ علي عليها واليها أبا موسى الأشعري عندما علم بميل أهلها إليه، حيث أخذ له البيعة من أهلها^(١)، وقد اتخذ أبو موسى موقفاً محايداً من الصراع في موقعتي الجمل وصفين، ونصح أهل الكوفة بعدم المشاركة في

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٣٦ ب.

الفتن الداخلية. وقد عُزل أبو موسى عن الكوفة حين قدم علي إليها بعد موقعة الجمل، فصارت مركزاً للخلافة.

وأما إقليم فارس - وهو يتبع البصرة إدارياً - فكان واليه سهل بن حنيف الأنصاري الذي واجه حركة عصيان في الإقليم، فأرسل والي البصرة عبدالله بن عباس والياً جديداً عليه هو زياد بن أبي سفيان الذي تمكن من ضبط الإقليم. وكان يعين ولاية على المدن المهمة في الإقليم مثل اصطخر وأصبهان.

وأما خراسان فكانت تتبع إدارياً ولاية البصرة، وقد تولاهما في خلافة علي عبدالرحمن بن أبزي وجعدة بن هبيرة بن أبي وهب، وقد واجه جعدة تمرد أهلها وقضى عليه.

وكانت سجستان المجاورة لخراسان تتبع إدارياً البصرة أيضاً، فكان والي البصرة يعين عليها الولاية.

وكانت أذربيجان ولاية يتولاها الأشعث بن قيس لعثمان ولعلي، وهو الذي مَصَّر أردبيل، وبنى مسجدها ونشر الإسلام فيها.

أما الأهواز فكان عليها (الخريت بن راشد) والياً لعلي، لكنه انشق عليه في أعقاب صفين وأعلن خلعه، فأرسل إليه علي جيشاً فقضى عليه.

وتولى الأهواز (مصقلة بن هبيرة الشيباني) لكنه التحق بمعاوية.

وقد واجه عليٌّ مشكلات عديدة في هذه الولايات من انفلات بعضها من سلطانه: كاليمن والحجاز ومصر، ومن انتشار الحركة الخارجية ونشاطها في ولايات العراق وفارس، بالإضافة إلى ثورات السكان الأصليين، والتحاق بعض الولاية بمعاوية.

وكان علي رضي الله عنه يراقب ولايته ويسائلهم عن سياستهم تجاه الدولة والرعية، كما فتح بابه لاستقبال شكاوى الرعية ضد الولاة، فكان يقول: «اللهم إني لم آمرهم أن يظلموا خلقك أو يتركوا حقك»^(١).

وكان علي مدركاً لأهمية وجود السلطة في ديار الإسلام «لا بد للناس من إمارة برّة كانت أو فاجرة، فقليل: يا أمير المؤمنين هذه البرة قد عرفناها، فما بال الفاجرة؟ فقال: يُقام بها الحدود، وتأمين بها السبل، ويجاهد بها العدو، ويقسم بها الفيء».

فالسطة في نظره إن لم تسّم إلى مقامات عليا من الالتزام بالخير والصالح والتجرد للحق والعدل، وهي الإمارة البرة التي يتطلع إليها الناس، فإنها نافعة في حالة ضعف التزامها ورفيها الإيماني - المعبر عنه بالفجور -، وذلك لإقامتها الأمن وإنفاذ الأحكام الشرعية والتوزيع العادل للثروة، وإقامة الجهاد.

وقد ناقش المؤلفون المعاصرون عدة قضايا تخص الولاة في خلافتي عثمان وعلي، منها تولية الأقارب، حيث إن عثمان عيّن عدداً من الولاة على البصرة والكوفة والشام ومصر من أقاربه، وهم معاوية بن أبي سفيان (الشام) - وكان والياً لعمر فأقره عثمان -، وعبدالله بن عامر بن كريز (البصرة)، والوليد بن عقبة (الكوفة)، وسعيد بن العاص (الكوفة)، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح (مصر)، كما أن عليّاً عين أربعة من أبناء عمه: العباس بن عبدالمطلب على الولايات المهمة (البصرة واليمن والحجاز)، وهم على التوالي: عبدالله بن عباس، وعبيد الله بن عباس، وقثم بن عباس، وتام بن عباس.

والتحقيق أن كلاً من علي وعثمان عيّنا الأكفيا من أقاربهما وغيرهم^(٢)، ولا يتصور أنهما قدما الأقارب بسبب القرابة، وكانت الظروف التي تسود

(١) ابن تيمية: السياسة الشرعية ٣٢، والنويري: نهاية الأرب ٢٠: ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة ٣: ١٧٣، ١٧٦.

الولايات تقتضي اختياراً دقيقاً للولاة من حيث القوة والأمانة، فلا تزال الفتوحات في الأقاليم الشرقية البعيدة غير مستقرة، فضلاً عن مشكلات الخوارج في خلافة علي، ومشكلات الروح القبيلية في الأمصار، وصعوبة ضبطها وتوجيهها لصالح المجتمع والدولة. والحق أن عثمان وعلياً اجتهدا للأمة في الحفاظ على مصالحها الدينية والدنيوية، سواء أخطأ أو أصابا، وهما مأجوران في الحالين، ولا ينبغي اتهام نيتهما وإساءة تفسير دوافعهما دون دليل صحيح.

ومن القضايا الأخرى التي أثارها المؤلفون المعاصرون قضية عزل علي لولاة عثمان، حيث اشتطت الأقلام في تفسير الموقف، فمنهم من يحمله على صلابة علي في الحق وضرورة التغيير، لما أنكر على عثمان من تولية الأقارب، ومنهم من حمّله على ضعف خبرة علي السياسية، وأن الأولى سياسياً إبقاء الولاة وخاصة معاوية، حتى تستقر الأوضاع، وتؤخذ البيعة لعلي في الأمصار، وهذه التفسيرات مبنية على خبر ضعيف، يدور حول إبداء المغيرة رأيين متعارضين حول الموقف من الولاة^(١).

والتحقيق أن علياً كان يمتلك موهبة قيادة ومعرفة بالنفوس والأوضاع القائمة، وأنه أقال الولاة ليختار سواهم، حسب ما يراه ملائماً، لتحقيق الانسجام الإداري والسياسي بين الخليفة وأعوانه، كما أن شخصيته وأخلاقه لا تمكنه من أساليب المراوغة والحيلة في استعمال صلاحياته.

ولو تأملنا في أنساب ولاة علي لوجدنا أحد عشر والياً منهم من الأنصار من بين ستة وثلاثين والياً، وسبعة منهم من قريش - بينهم أربعة هم أولاد العباس بن عبد المطلب، وهم ترجمان القرآن ابن عباس وإخوته -.

(١) الطبري: تاريخ ٤: ٤٣٨ - ٤٣٩.

ومن تأمل في جملة وصاياه لولاته أدرك عمق نظراته إلى مقاصد الشريعة وعمران الاجتماع الإنساني معاً^(١)، وهو في كل ذلك يصدر عن رؤية إسلامية واعية ومنضبطة.

قائمة بأسماء الولاة في خلافة علي^(٢):

- ١ - سهل بن حنيف الأنصاري (المدينة).
- ٢ - تمام بن العباس بن عبدالمطلب (المدينة).
- ٣ - أبو أيوب الأنصاري (المدينة).
- ٤ - أبو قتادة الأنصاري (مكة).
- ٥ - قثم بن العباس بن عبدالمطلب (مكة والطائف).
- ٦ - عمر بن أبي سلمة (البحرين).
- ٧ - قدامة بن العجلان الأنصاري (البحرين).
- ٨ - النعمان بن العجلان الأنصاري (البحرين).
- ٩ - عبيد الله بن عباس (اليمن والبحرين).
- ١٠ - سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري (الجند).
- ١١ - مالك الأشتر (الجزيرة ثم مصر).
- ١٢ - شبيب بن عامر (الجزيرة).
- ١٣ - كميل بن زياد النخعي (الجزيرة).
- ١٤ - محمد بن أبي حذيفة بن عتبة (مصر).
- ١٥ - قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري (مصر).
- ١٦ - محمد بن أبي بكر الصديق (مصر).
- ١٧ - عثمان بن حنيف الأنصاري (البصرة).
- ١٨ - عبدالله بن عباس (البصرة).

(١) الطبري: تاريخ ٥: ١٤٧ - ١٤٨، والنويري: نهاية الأرب ٦: ١٩.

(٢) خليفة: التأريخ ١٩٩ - ٢٠٢، والطبري: تأريخ ٥: ١٥٥ - ١٥٦.

- ١٩ - أبو الأسود الدؤلي (البصرة).
- ٢٠ - هانئ بن هوذة النخعي (الكوفة).
- ٢١ - أبو موسى الأشعري (الكوفة).
- ٢٢ - أبو مسعود البدر (الكوفة).
- ٢٣ - قرظة بن كعب الأنصاري (الكوفة).
- ٢٤ - سهل بن حنيف الأنصاري (فارس).
- ٢٥ - زياد بن أبي سفيان (فارس).
- ٢٦ - المنذر بن الجارود (اصطخر).
- ٢٧ - عمر بن سلمة (أصبهان).
- ٢٨ - محمد بن سليم (أصبهان).
- ٢٩ - خلود بن قرة التميمي (خراسان).
- ٣٠ - عبدالرحمن بن أبزى (خراسان).
- ٣١ - جعدة بن هبيرة بن أبي وهب (خراسان).
- ٣٢ - عبدالرحمن بن جزء الطائي (سجستان).
- ٣٣ - ربعي بن كاس العنبري (سجستان).
- ٣٤ - جرير بن عبدالله البجلي (همدان).
- ٣٥ - الأشعث بن قيس الكندي (أذربيجان).
- ٣٦ - سعيد بن سارية الخزاعي (أذربيجان).
- ٣٧ - الخريت بن راشد الناجي (الأهواز).
- ٣٨ - مصقلة بن هبيرة الشيباني (الأهواز).
- ٣٩ - يزيد بن حجية التميمي (الري).
- ٤٠ - سعد بن مسعود الثقفي (المدائن).
- ٤١ - الحارث بن مرة العبدي (السند).

المبحث الثاني

الموظفون

كان الوالي يعتمد على عدد من الموظفين في تسير أمور الولاية مثل قائد الشرطة، وعمال الخراج، وموظفي بيت المال، وموظفي الدواوين، وأحياناً يكون الموظف على بيت المال في الولاية مستقلاً عن الوالي ومرتباً بالخليفة مباشرة.

وقد اتضحت النظم الإدارية وصار التمييز بين الوالي والقاضي وكاتب الديوان وغيرهم من الموظفين والعمال، سواء في العاصمة أو الأمصار منذ خلافة عمر^(١)، واستمر تقسيم العمل بعده في خلافة عثمان وعلي.

استعان الخلفاء والولاة على الأمصار بعدد من الموظفين، الذين تولوا أعمال الكتابة والحجابة والإشراف على بيوت الأموال ودواوين الدولة الثلاثة - ديوان الحجابة والخراج، وديوان الجند، وديوان العطاء - وتولي تنظيم الشرطة، كما ظهرت وظيفة جمع الغنائم وتقسيمها بين الجند، فكانت الأقسام والأقباض إلى سلمان بن ربيعة الباهلي^(٢). وظهرت وظيفة عمال العشور الذين يجبون عشور التجارة من التجار غير المسلمين، الذين يدخلون ديار الإسلام^(٣).

وقد اتبع الخليفة عثمان رضي الله عنه سياسة توسيع صلاحية الولاة، فكانوا يشرفون على بيوت الأموال والخراج، إلا أنه عهد إلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح بتولي شؤون الخراج بمصر في ولاية عمرو بن العاص، وذلك لنقص موارد الإقليم

(١) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان ٨٨.

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٤٨٩.

(٣) أبو يوسف: الخراج ١٣٠، والقاسم بن سلام: الأموال ٦٣٥.

بسبب إنفاق عمرو بن العاص على إصلاح القناطر والجسور^(١). وأكد الخليفة علي على قيام الولاية بالإشراف المباشر على بيوت المال والخراج^(٢).

وكانت دواوين الجباية والخراج في الأقاليم تكتب بالفارسية في العراق وإيران، وبالبيزنطية في الشام، وبالقبطية في مصر، مما كان يقتضي تعيين كتاب وموظفين من سكان المناطق المفتوحة للإشراف عليها، أما ديوان الجند وديوان العطاء فكانا باللغة العربية. ولا شك في ظهور الحاجة إلى المترجمين الذين يعرفون العربية واللغات المحلية، ليتمكن الوالي العربي من تفهم أوضاع ديوان الجباية والخراج^(٣). ومن عُرف بالترجمان مهران أسير أصبهان^(٤).

وقد ظهر نظام الشرطة منذ خلافة عمر لحراسة بيت المال والسجن وجلب الخصوم للقاضي وتنفيذ أحكام القضاء في المجرمين^(٥). وكان الشرطي الذي يعمل بين يدي القاضي يُعرف بالجلواز^(٦)، وقد استخدمت الدولة أقواماً داخلين في الإسلام حديثاً، مثل السيابجة في خلافة عثمان وعلي^(٧).

الرقابة على الأسواق (نظام الحسبة):

نشطت التجارة بعد إعادة توحيد الجزيرة العربية في خلافة الصديق رضي الله عنه والقضاء على حركة الردة، فحل الأمن والاستقرار، واطمأن الناس على أموالهم التي تحميها التشريعات الإسلامية من الظلم والاعتصاب، وتؤمن لها حرية التجارة والنمو والازدهار.

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٢٥٥، وابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١٦١.

(٢) المقرئ: الخطوط ١: ٣٠٠.

(٣) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان ٢: ١٠٤ - ١٠٥.

(٤) خليفة: التأريخ ١٦٢.

(٥) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ص ١١٢.

(٦) وكيع: أخبار القضاة ٢: ٢١٥.

(٧) صالح العلي: التنظيمات ١١٢.

وعمل في التجارة كبار الصحابة، وكان الخلفاء الراشدون الثلاثة الأوائل تجاراً.. فكانت معرفتهم بالمعاملات التجارية تيسر الأعمال التجارية، وتشجع على جلب البضائع، وتفض المنازعات بوعي وإدراك للمصالح الاقتصادية للدولة والأمة.

وقد ظهرت الرقابة على الأسواق في عهد النبوة، لمنع وقوع الغش في البضائع^(١). ولا شك أن هذه الرقابة استمرت في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ولكن التوسع الكبير في التجارة وتنظيم الأسواق أدى إلى الحاجة للرقابة الشاملة على التجارة والأسواق.

وكثيراً ما تجول عمر رضي الله عنه بنفسه في الأسواق، واطلع على أساليب التعامل، ومنع المخالفات الشرعية، سواء بالغش في السلع، أو بيع سلعة محرمة، أو الإضرار بالآخرين من الباعة بعدم التزام سعر السوق، أو احتكار البضائع، أو القيام بالسمسرة بتلقي البدو وشراء ما معهم، دون أن يعلموا سعر السوق، أو القيام بالبيع قبل أن تكون السلعة بيد البائع... وهذه الإجراءات كلها تطبيق للسنة النبوية.

وقد ثبت أن عمر رضي الله عنه اطلع على بيت رويشد الثقفي، وكان فيه حانوت لبيع الخمر، فأمر بإحراقه فأحرق^(٢). وباع سمرة بن جندب خمرأ فغضب عليه غضباً شديداً^(٣).

ومر بحاطب بن أبي بلتعة وهو يبيع زبيباً له بالسوق بأقل من سعر السوق، فقال له: إما أن تزيد في السعر، وإما أن ترفع من سوقنا^(٤).

(١) صحيح سنن الترمذي للألباني ٢: ٣٢.

(٢) ابن زنجويه: الأموال ٢: ٢٧١ - ٢٧٢ والأثر صحيح.

(٣) البخاري: الصحيح ٢: ٢٧، ومسلم: الصحيح (شرح النووي) ١١: ٧.

(٤) مالك: الموطأ ٢: ١٤٨، وعبدالرزاق: المصنف ٨: ٢٠٦ - ٢٠٨، وعمر بن شبة: تأريخ المدينة

٢: ٧٤٩ - ٧٥٠، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٢٩ والأثر صحيح. وفي رواية ضعيفة أنه أمر

بائع زيت بذلك أيضاً (ابن شبة: تأريخ المدينة ٢: ٧٤٩).

كما نهى طلحة بن عبيد الله من صرف ورق بذهب دون تسليم وتسليم مباشرة، وكان طلحة طلب من صاحب الورق مهلة يسيرة «حتى يأتينا خازننا من الغابة»^(١) - أطراف المدينة - .

وكان ينهى عن الاحتكار «لا يبيع في سوقنا محتكر»^(٢).

وينهى من لا يعرف أحكام التبائع عن العمل في السوق^(٣).

تنظيم العرفاء والنقباء ومساعدته في إيصال العطاء لمستحقه:

عرف المسلمون نظام العرفاء والنقباء منذ بيعة العقبة الثانية في عصر السيرة النبوية، وقد تجدد هذا النظام في خلافة عمر بن الخطاب، حيث نظم سعد بن أبي وقاص جنده في القادسية وفقه «فأمر أمراء الأجناد، وعرف العرفاء، فعرف على كل عشرة رجلاً... وعشر الناس (قسم إلى عشرة ومئة وألف)، وأمر على الأعشار رجلاً من الناس لهم وسائل في الإسلام»^(٤).

فكان العرفاء مسؤولين أمام سعد عن جندهم، ثم شمل هذا النظام الأمصار المختلفة، فصار العرفاء مسؤولين عن قبائلهم أمام الوالي، ويبدو أن النظام خضع لتعديلات بعد وقت قصير، ففي سنة ١٧ هـ تم إعادة تعريف الناس ليشتمل النظام على النساء والصبيان «وعرفوا على مئة ألف درهم، فكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة وأربعين رجلاً، وثلاثاً وأربعين امرأة، وخمسين

(١) البخاري: الصحيح (مع حاشية السندي) ٢: ٢٠-٢١، ومسلم: الصحيح (شرح النووي) ١١: ١٢.

(٢) مالك: الموطأ ٢: ١٤٨، وعبدالرزاق: المصنف ٨: ٢٠٦، وابن شبة: تأريخ المدينة ٢: ٧٤٨-٧٤٩ ويعتضد بطرقه إلى الحسن. ووردت روايات أخرى ضعيفة في نهيه عن الاحتكار (أحمد: المسند ١: ٢١، وابن ماجة: السنن ٢: ٢١٥٥، والبيهقي: دلائل النبوة ٦: ٢٤٦ والأزرقي: أخبار مكة ٢: ١٣٥، وابن أبي شيبة: المصنف ٤: ٣٤٧، ٣٨٦).

(٣) الترمذي: السنن ١: ٣٠٣-٣٠٤، وعبدالرزاق: المصنف ٤: ٤٨٣، وابن أبي شيبة: المصنف ٥: ١٥ ويعتضد الأثر إلى الحسن لغيره.

(٤) الطبري: تأريخ ٤: ٤٩.

من العيال لهم مئة ألف درهم، وكل عرافة من أهل الأيام عشرين رجلاً على ثلاثة آلاف، وعشرين امرأة، وكل عيّل على مئة ألف درهم، وكل عرافة من الرادفة الأولى ستين رجلاً، وستين امرأة، وأربعين من العيال ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف وخمس مئة على مئة ألف درهم، ثم على هذا من الحساب»^(١). وقد صارت القبائل أسباعاً بدل الأعشار، ودججت مجموعة قبائل في كل سبع^(٢).

وامتد التنظيم الجديد إلى أهل البصرة، فكان العطاء يُدفع إلى أمراء الأسباع وأصحاب الرايات، وهم عرب، فيدفعونه إلى العرفاء والنقباء والأمناء، فيدفعونه بدورهم إلى أهله في دورهم^(٣). وقد استمر هذا النظام في خلافة عثمان وعلي^(٤). وكان نظام العرفاء والنقباء يساعد الوالي في ضبط المجتمع، وتسليم المطلوبين للقضاء، وتجنيّد المقاتلين، ومعرفة آراء الناس، وتمثيلهم أمام الوالي.

الموظفون في خلافة أبي بكر^(٥):

- ١ - حنظلة بن الربيع الأسدي (كاتب).
- ٢ - عبدالله بن الأرقم (كاتب).
- ٣ - عبدالله بن خلف الخزاعي (كاتب).
- ٤ - معيقب بن أبي فاطمة الدوسي (كاتب).
- ٥ - أبو عبيدة عامر بن الجراح (بيت المال).
- ٦ - سعد القرظ مولى عمار بن ياسر (مؤذن).

(١) الطبري: تأريخ ٤: ٤٨.

(٢) المصدر السابق ٤: ٤٨.

(٣) نفسه ٤: ٤٩.

(٤) أبو عبيد: الأموال ٣٤٥.

(٥) خليفة: التأريخ ١٢٣، والطبري: التأريخ ٣: ٣٤٢ و ٦: ١٧٩، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٩٦: ٦.

٧ - زيد بن ثابت (كاتب مع تولي الفرائض).

٨ - عبدالرحمن بن عوف (إمارة الحج).

٩ - أبو حثمة الأنصاري (خارص).

عمال الصدقات^(١) :

١ - أنس بن مالك (البحرين).

٢ - سعد بن أبي وقاص (هوازن).

٣ - عمرو بن العاص (قضاة).

٤ - الوليد بن عقبة (قضاة).

٥ - سعد بن أبي ذباب الدوسي (دوس).

٦ - عدي بن حاتم الطائي (طي).

٧ - الزبرقان بن بدر التميمي (الرباب بن عوف والأبناء من بني سعد من تميم).

٨ - قيس بن عاصم (مقاعس والبطون من بني سعد من تميم).

٩ - صفوان بن صفوان (بهدي من بني عمرو من تميم).

١٠ - سبرة بن عمرو (خضم من بني عمرو من تميم).

١١ - سعيير بن خفاف التميمي (بطون تميم).

١٢ - الهيثم السلمي (بنو سليم).

الموظفون في خلافة عمر^(٢):

١ - زيد بن ثابت (كاتب).

٢ - معيقيب (كاتب).

(١) عبدالعزيز المقيبيل: خلافة أبي بكر ٩٤ - ٩٥.

(٢) خليفة: التأريخ ١٥٦، والطبري: التأريخ ٣٩: ٤، وابن عبدالبر: الاستيعاب ٤: ٤١.

- ٣ - عبدالله بن خلف الخزاعي (كاتب ديوان البصرة).
- ٤ - أبو جبيرة بن الضحاك الأنصاري (كاتب ديوان الكوفة).
- ٥ - يرفأ (حاجب).
- ٦ - يسار (خازن).
- ٧ - عبدالله بن أرقم (بيت المال).
- ٨ - عرفجة بن هرثمة - أو عتبة بن فرقد - (خراج البصرة).
- ٩ - الأقرع (مؤذن)^(١).
- ١٠ - مسلم بن مشكم (كاتب أبي الدرداء قاضي دمشق)^(٢).
- ١١ - سليمان بن أبي حثمة القرشي العدوي (الحسبة على سوق المدينة).
- ١٢ - عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي (الحسبة على سوق المدينة)^(٣).
- ١٣ - عمرو بن عبسة (الاهراء بالشام) وهي مخازن الحبوب والطعام^(٤).

الموظفون في خلافة عثمان^(٥) :

- ١ - زكريا بن جهم بن قيس (صاحب شرطة مصر)^(٦).
- ٢ - خارجة بن حذافة بن غانم بن عامر (صاحب شرطة مصر)^(٧).
- ٣ - عبدالله بن قنفذ (صاحب الشرط).
- ٤ - حمران بن أبان (حاجب).
- ٥ - عبدالله بن أرقم (بيت المال).

(١) أبو داود: السنن ٤: ٢١٤ رقم ٤٦٥٦، وابن أبي شيبة: المصنف ٢: ٣، والذهبي: تأريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ٤٧٥.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧: ٤٥٠.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥: ٥٨، وابن عبد البر: الاستيعاب ٢: ٦٥، ١٠٦، ٣٦٦، وابن حجر: الإصابة ٢: ١٠٦، ٣٤٠.

(٤) الطبري: تأريخ ٤: ٦٧.

(٥) خليفة: التأريخ ١٧٩، والطبري: التأريخ ٤: ٤٢٢.

(٦) ابن حجر: تهذيب التهذيب ٣: ٧٤، والكندي: ولاة مصر ٣٣.

(٧) الكندي: ولاة مصر ٣٣.

- ٦ - مروان بن الحكم (كاتب).
- ٧ - جابر بن عمرو المزني (خراج السواد).
- ٨ - سهاك الأنصاري (خراج السواد).
- ٩ - عقبة بن عمرو (بيت المال).
- ١٠ - أربعون من السيابجة (حراس بيت مال البصرة)^(١).

الموظفون في خلافة علي^(٢) :

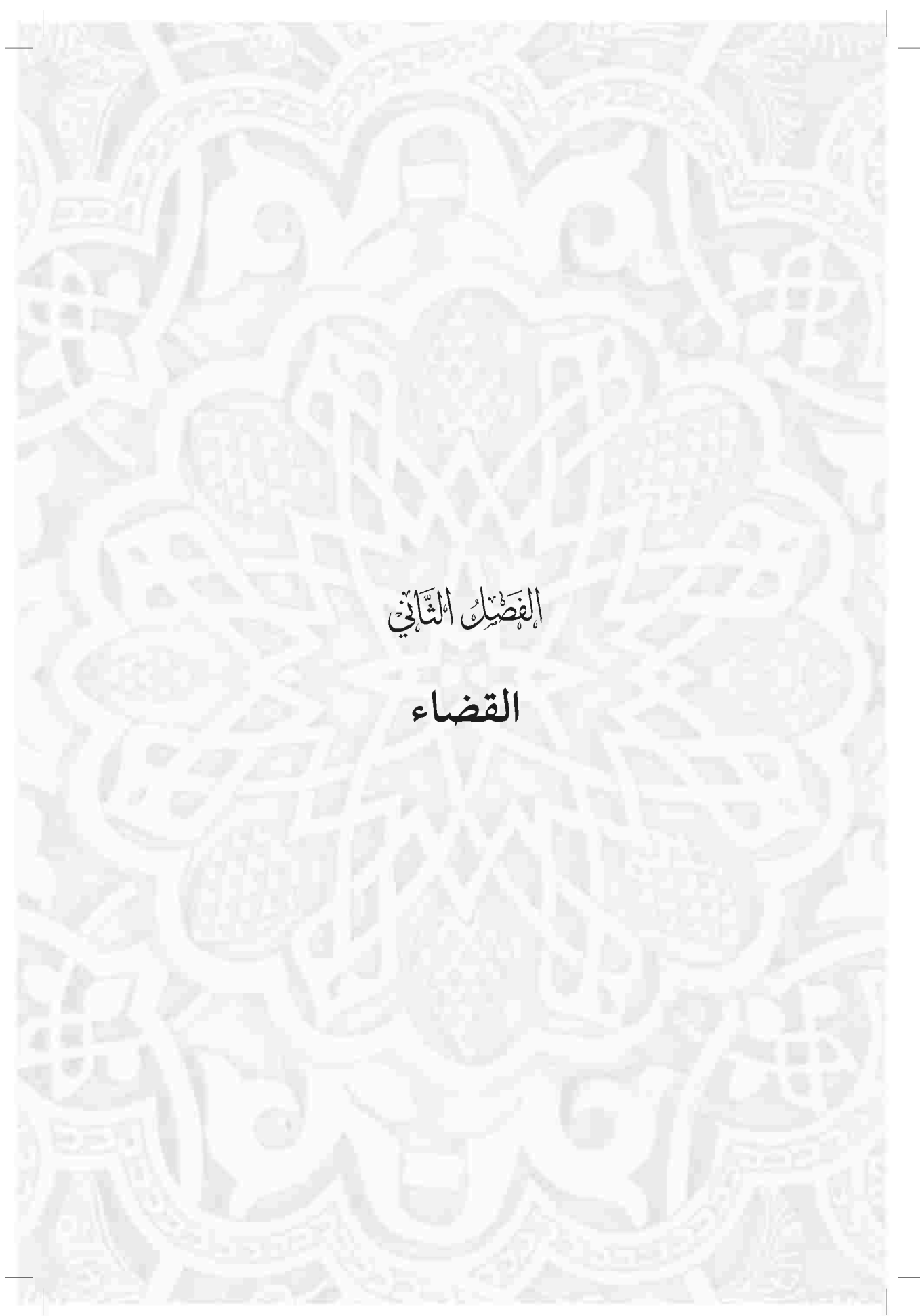
- ١ - معقل بن قيس الرياحي (الشرط).
- ٢ - مالك بن خبيب اليربوعي (الشرط).
- ٣ - الأصبغ بن نباتة المجاشعي (شرطة الخميس).
- ٤ - سعيد بن نمران الهمداني (كاتب).
- ٥ - عبيد الله بن أبي رافع (كاتب).
- ٦ - قنبر - أبو يزيد - (حاجب).
- ٧ - أربعون من السيابجة (حراس بيت المال في البصرة)^(٣).



(١) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ١١٢.

(٢) خليفة: التأريخ ٢٠٠ - ٢٠١.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٣٦٩.



إِفْطِيكَ الثَّانِي

القضاء

القضاء في عصر الخلافة الراشدة

لم يكن منصب القاضي متميزاً في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، بل كان يقوم به فقهاء الصحابة، وكان الخليفة يقضي بنفسه بين الناس في المدينة، وأحياناً كان يقوم بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأمر الخليفة أبي بكر، وكان الولاة هم مسؤولين عن القضاء في الأمصار.

ومنذ خلافة عمر عين بعض الصحابة على القضاء في المدينة، منهم زيد بن ثابت وأبو الدرداء^(١)، كما عين عدداً من القضاة في الأمصار، منهم عبدالله بن مسعود على قضاء الكوفة^(٢)، وشريح بن الحارث الكندي على قضاء الكوفة^(٣)، وعبيدة السلماني على قضاء الكوفة^(٤). وكان ألعياً في اختياره لهما، فقد خدما الناس مدة طويلة في مجال القضاء خلال عصر الراشدين والأمويين. كما عين عمر عبادة بن الصامت على قضاء حمص وقنسرين^(٥).

وبهذا الإجراء فصل عمر السلطة القضائية عن سلطة الولاة، وبذلك يتعزز موقع القاضي، حيث إنه يرتبط بالخليفة مباشرة^(٦).

ولكن استمر بعض الولاة يقومون بمهام القاضي في الولايات الداخلية المستقرة، حيث يجد الولاة الوقت الكافي لذلك، خلافاً لولاة الأقاليم المحاذية

(١) عمر بن شبة: تاريخ المدينة ٢: ٦٩٤، ووكيع: أخبار القضاة ١: ١٠٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢٦٩.

(٣) ووكيع: أخبار القضاة ٢: ١٩٨ - ١٩٩.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤: ٤٠، وابن العماد: شذرات الذهب ١: ٧٨.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ١٤٦.

(٦) ظهرت نظرية استقلال السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية في الفكر الغربي في كتابات منتسكيو التي مهدت للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م.

للأعداء، حيث يشغل الوالي بالمهام العسكرية والإدارية^(١). وكان عمر يوصي الولاة باختيار الصالحين للقضاء، وبإعطائهم المرتبات التي تكفيهم^(٢).

وكان عثمان رضي الله عنه يعين القضاة على الأقاليم حيناً، مثل تعيينه كعب بن سور على قضاء البصرة، ويترك القضاء للوالي حيناً آخر، مثل طلبه من واليه على البصرة أن يقوم بالقضاء بين الناس إضافة إلى عمل الولاية، وذلك بعد عزله كعب بن سور. وكذلك كان يعلى بن أمية والياً وقاضياً على صنعاء^(٣).

ويلاحظ أن بعض الولاة كانوا يختارون قضاة بلدانهم بأنفسهم، ويكونون مسؤولين أمامهم مما تشير إلى ازدياد نفوذ الولاة في خلافته.

أما علي رضي الله عنه فكان يتولى القضاء بنفسه في الكوفة، أما الأمصار فكان تعيين القضاة غالباً من قبل الولاة^(٤)، ولكن علياً رضي الله عنه عين بعض القضاة مباشرة^(٥). وكانت مصادر الحكم في عصر الخلافة الراشدة هي القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد والرأي.

وقد عرف من فقهاء الصحابة وأهل الفتوى الكثيرين والمتوسطين في عصر الخلافة الراشدة: أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وعبدالله بن مسعود وعائشة ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري وأنس بن مالك وأبو هريرة وسلمان الفارسي وأبو سعيد الخدري وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وزيد ابن ثابت رضي الله عنه^(٦).

(١) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان ٢: ٩٢.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١: ٤٥٤ - ٤٥٥، وابن قدامة: المغني ٩: ٣٧، والسمناني: روضة القضاة وطريق النجاة ٨٦.

(٣) خليفة: التأريخ ١٧٩.

(٤) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان ٩٣ نقلاً عن عبدالله عثمان علي مقبل: قضاة أمير المؤمنين علي ص ٢٩٠ (رسالة ماجستير من شعبة السياسة الشرعية بالمعهد العالي للقضاء).

(٥) خليفة بن خياط: التأريخ ٢٠٠.

(٦) ابن القيم: أعلام الموقعين ١: ١٢ - ١٣.

تطبيق الحدود الشرعية:

وكان القاضي في عصر الخلافة الراشدة «يقضي في الخصومات كلها، أيّاً كان نوعها، في المعاوزات المالية، وفي شؤون الأسرة، وفي الحدود والقصاص، وسائر ما يكون فيه الشجار، وليس هناك ما يشير إلى ما يعرف اليوم بالاختصاص القضائي سوى ما جاء في تولية السائب بن يزيد ابن أخت النمر من قول عمر ابن الخطاب: رد عني الناس في الدرهم والدرهمين»^(١).

ويجوز أن يعهد الخليفة إلى القاضي أن يقضي في قضية بعينها، وينتهي اختصاصه بالنظر فيها^(٢).

وكان القضاة يقضون في الحقوق المدنية والأحوال الشخصية، أما القصاص والحدود فكان الحكم فيها للخلفاء وأمراء الأمصار، فلا بد من موافقتهم على الحكم^(٣)، ثم انحصرت الموافقة على تنفيذ حد القتل بالخليفة وحده، وبقي للولاة حق المصادقة على أحكام القصاص دون القتل^(٤).

ولم يكن للقضاء مكان مخصص، بل يقضي القاضي في البيت والمسجد، والشائع جلوسهم في المسجد^(٥).

ولم تكن الأفضية تسجل لقلتها وسهولة حفظها^(٦).

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب ٢: ١٠٦، وابن حجر: الإصابة ٢: ١٣، ومناع القطان: النظام القضائي في العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة ١: ٣٩٥ - ضمن وقائع ندوة النظم الإسلامية - (أبو ظبي ١٨ - ٢٠ صفر ١٤٠٥ هـ - ١١ - ١٣ نوفمبر ١٩٨٤ م).

(٢) مناع القطان: النظام القضائي في العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة ١: ٣٩٦.

(٣) المرجع السابق ١: ٣٩٦.

(٤) محمد حميد الله: الوثائق السياسية ٥٢١.

(٥) مناع القطان: النظام القضائي ١: ٣٩٩.

(٦) المرجع السابق ١: ٤٠٩.

وكان بإمكان القاضي حبس المتهم للتأنيب واستيفاء الحقوق، وقد فعل ذلك عمر وعثمان وعلي^(١)، فكانت الدولة تهيب السجون في مراكز المدن، وكان القصاص ينفذ خارج المساجد^(٢).

ندرة الخصومات بين الناس:

كان الناس على مستوى عالٍ من الوعي الإسلامي، وكانوا يتعاملون بالمرءات فتقل بينهم الخصومات، مما خفف الأعباء عن القضاة.

فلما ولي أبو بكر قال له أبو عبيدة: أنا أكفيك بيت المال. وقال عمر: أنا أكفيك القضاء، فمكث سنة لا يأتيه رجلان^(٣).

وقال أبو وائل شقيق بن سلمة (ت ٨٢ هـ): «اختلفتُ إلى سلمان بن ربيعة حين قدم على قضاء الكوفة أربعين صباحاً لا أجد عنده فيها خصماً»^(٤). وكان سلمان بن ربيعة أول من استقضى على الكوفة^(٥).

ولم تكن الدولة تشجع الناس على الاعتراف بخطاياهم، بل تريد لهم الستر والتوبة فيما بينهم وبين الله تعالى، فلما خطب شرحبيل بن السمط الكندي (ت ٤٠ هـ) - وكان يتولى مسلحة^(٦) - دون المدائن - فقال: «أيها الناس، إنكم في أرضٍ الشراب فيها فاشٍ، والنساء فيها كثير، فمن أصاب منكم حداً فليأتنا فلنقم عليه الحد، فإنه طهوره، فبلغ ذلك عمر فكتب إليه: لا أحل لك أن تأمر الناس أن

(١) المرجع السابق ١: ٤١٠، والشوكاني: نيل الأوطار ٧: ١٥٩ - ١٦٠.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ١٦: ٢٥٠.

(٣) الطبري: تاريخ ٣: ٤٢٦.

(٤) ابن عبد البر: الاستيعاب ٢: ٦٢، وابن الأثير: أسد الغابة ٢: ٣٢٧.

(٥) ابن حجر: الإصابة ٢: ٦١.

(٦) مقاتلون يراقبون العدو في الثغر الذي يسكنونه لئلا يباغتهم، ويتكفلون بصدده عن وراءهم.

يهتكوا ستر الذي سترهم»^(١). ولكن إذا رفع الناس الأمر إلى القضاء فإن الدولة كانت تقيم الحدود دون هuada.

ومما يروى في الستر على حالات الجنوح أن امرأة من همدان في اليمن ارتكبت الفاحشة فقدم عمها إلى المدينة، وذكر ذلك لعمر بن الخطاب، فقال له عمر: «لو أفشيت عليها لعاقبتك، إذا أتاك رجل صالح ترضاه فزوجها إياه»^(٢). وقال عمر لرجل آخر في حالة مماثلة: «أنكحها نكاح العفيفة المسلمة»^(٣).

إخضاع الخلفاء أنفسهم لأحكام القضاء وإجراءاته:

كان الخلفاء الراشدون يستوون مع الرعية في إجراءات التقاضي، بل إنهم عززوا مكانة القضاة وطالبوهم بأقصى درجات العدل في المساواة بين الناس حاكمهم ومحكومهم. وقد تخاصم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الصحابي الجليل أبي بن كعب في ملكية بستان، فحكم زيد بن ثابت، فأتيه في منزله، فلما دخلا عليه قال له عمر: جئناك لتقضي بيننا، وفي بيته يؤتى الحكم.

فتنحى له زيد عن صدر فراشه، فقال: ها هنا يا أمير المؤمنين. فقال عمر: جرت يازيد في أول قضائك، ولكن أجلسني مع خصمي. فجلسا بين يديه. فادعى أبي وأنكر عمر. فقال زيد لأبي: أعف أمير المؤمنين من اليمين، وما كنت لأسألها لأحد غيره. فحلف عمر. ثم حلف عمر لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء»^(٤).

(١) عبدالرزاق: المصنف ٥: ١٩٧-١٩٨، والمتقى الهندي ٥: ٥٦٩-٥٧٠ واللفظ له. وناصر ابن عقيل الطريفي: القضاء في خلافة عمر بن الخطاب ٢: ٨٦٢. وانظر بعض أحكام القضاة التي تدعّم هذا التوجه (ابن أبي شيبة: المصنف ١٠: ١٥، وعبدالرزاق: المصنف ٧: ٣٧٠-٣٧١).

(٢) الشافعي: الأم ٥: ١٣٢، والطبري: تفسير ٦: ٦٧.

(٣) ابن قدامة المقدسي: المغني ٧: ٣٦٨، ٤٣٣.

(٤) وكيع: أخبار القضاة ١: ١٠٨-١٠٩، والبيهقي: السنن ١٠: ١٣٦، ١٤٤، ١٤٥.

وساوم عمر بن الخطاب بفرس فركبه ليجربه فعطب، فقال لصاحبه خذ فرسك. فأبى الرجل، فاحتكما إلى شريح، فقال شريح: يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو ردّ كما أخذت. فقال عمر: وهل القضاء إلا هكذا؟ فبعثه إلى الكوفة قاضياً^(١). وكان يتعاهده بالرسائل التي تحتوي على توجيهات بالقضاء وطرقه^(٢).

الجرائم والعقوبات^(٣):

١ - تزوير معن بن زائدة خاتم بيت المال بالكوفة (في خلافة عمر).

العقوبة: مئة سوط^(٤).

٢ - رجل سرق من بيت المال بالكوفة (في خلافة عمر).

العقوبة: جلده تعزيراً مع درء الحد؛ لأن له في بيت المال نصيباً^(٥).

٣ - سرقة غلمان حاطب - أرقاء - ناقة أكلوها (في خلافة عمر).

العقوبة: درء الحد عنهم للضرورة، وتهديد مالكمهم بعدم إجاعتهم، وتغريمه

ضعفي ثمن الناقة (٨٠٠ درهم)^(٦).

٤ - مجنونة زنت (في خلافة عمر).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦: ١٣٢، ووكيع: أخبار القضاة ٢: ١٨٩.

(٢) وكيك: أخبار القضاة ٢: ١٨٩، ١٩٢.

(٣) تم إعداد هذه القائمة بالاعتماد على مصدرين هما: ١ - صبحي محمدي: تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء، نشر دار العلم للملايين. ٢ - ناصر بن عقيل الطريفي: القضاء في عهد عمر بن الخطاب «مجلدان» نشر دار المدني، جدة.

(٤) مسلم: الصحيح (بشرح النووي) ٥: ١٢٦ و ١١: ٢٢١ - ٢٢٢ وأبو داود: السنن رقم ٤٤٩١، والعيني: عمدة القاري ٢٤: ٢٣.

(٥) الشافعي: الأم ٧: ٢١٦، وابن قدامة: المغني ١٠: ٢١٦ - ٢٧٦، وابن حزم: المحلى ١١ رقم ٢٢٦٤، والسرخسي: المبسوط ٩: ٥٣ و ١٦: ١٥٣.

(٦) مالك: الموطأ (بشرح السيوطي ٢: ١٢٤)، وابن القيم: أعلام الموقعين ٣: ٧ - ٨، ٢٩ - ٣٣، والشافعي: الأم ٧: ٢١٥، وابن قدامة: المغني ١٠: ٢٧٣ - ٢٨٩، وابن حزم: المحلى ١١: ٣٤٣ رقم ٢٢٧٧، والسرخسي: المبسوط ٩: ٥٣ و ١٦: ١٥٣.

- العقوبة: أسقط الحد عنها للجنون^(١).
- ٥ - ذمي استكره مسلمة على الزنا (في خلافة عمر).
- العقوبة: الصلب، لأنه خالف شروط العهد^(٢).
- ٦ - إكراه نساء على الزنا (في خلافة عمر).
- العقوبة: درء الحد عنهن للإكراه^(٣).
- ٧ - زناة يجهلون التحريم (في خلافة عمر).
- العقوبة: درء الحد عن كل من لا يعلم تحريم الزنا^(٤).
- ٨ - امرأة تزوجت في عدتها، وهي وزوجها لا يعلمان التحريم (في خلافة عمر).
- العقوبة: درء الحد عن المرأة، وجلد الزوج تعزيراً مع التفريق بينهما^(٥).
- ٩ - امرأة تزوجت ولها زوج كتمته (في خلافة عمر).
- العقوبة: رجم المرأة، وجلد الزوج مئة سوط، ولم يرجم للجهالة^(٦).
- ١٠ - امرأة أعجمية زنت ولا تعلم بالتحريم.
- العقوبة: درء الحد^(٧).

(١) ابن حجر: (فتح الباري ٩: ٣٤٤ و ١٢: ٤٠٧، والعيني: عمدة القاري ٢٠: ٢٥١، ٢٣: ٢٩٢، وأحمد: المسند ١: ١٥٤ - ١٥٥، الشافعي: الأم ٧: ١٦٨، وابن قدامة: المغني ١٠: ١٦٩، ١١٩).

(٢) ابن قدامة: المغني ١٠: ٦٠٩، ٦٣٤، والسرخسي: المبسوط ٩: ٥٧.

(٣) وكيع: أخبار القضاة ١: ١٠١ - ١٠٢، وابن رشد: بداية المجتهد ٢: ٣٦٥، وابن قدامة: المغني ١٠: ١٨٥، ١٥٩: ١٠.

(٤) الشافعي: الأم ٧: ٣١٥، وابن حزم: المحلى ١١: رقم ٢١٩٤، ٢٢٠٦، والسرخسي: المبسوط ٩: ٥٣، وابن قدامة: المغني ١٠: ١٢٠، ١٥٤ - ١٥٦، ١٨٤، والقرطبي: تفسير ١٢: ١٠٧، وابن حجر: (فتح الباري ٤: ٣٨٤، والشوكاني: نيل الأوطار ٧: ٨٨).

(٥) المصادر السابقة.

(٦) المصادر نفسها.

(٧) المصادر نفسها.

١١ - شهادة ثلاثة على المغيرة بالزنا وعدم اكتمال الشهادة لتراجع الشاهد الرابع (في خلافة عمر).

العقوبة: إقامة حد القذف على الشهود الثلاثة^(١) ثمانين جلدة (والقذف يشمل الرمي بالزنا أو نفي النسب افتراءً، ولا يشمل أنواع السب والشتم الأخرى)^(٢).

١٢ - امرأة اتهمت زوجها بجاريته ثم اعترفت بأنها وهبتها له (في خلافة عمر).
العقوبة: إقامة حد القذف على المرأة ثمانين جلدة^(٣).

١٣ - زناة من ولائد الإمارة (عبيد).
العقوبة: الجلد خمسون جلدة^(٤).

١٤ - رجل شرب الخمر في رمضان (في خلافة علي).

العقوبة: ثمانون جلدة مع عشرين جلدة تعزيراً لحزمة رمضان^(٥).

١٥ - صحابة منهم (ضرار وأبو جندل) شربوا الخمر متأولين (في خلافة عمر).
العقوبة: ثمانون جلدة (بعد استتابتهم وإقرارهم بحرمة الخمر، وإلا قُتلوا - إذا زعموا أنها حلال -)^(٦).

١٦ - المرتد (في عهد الخلفاء الأربعة).

العقوبة: يستتاب ثلاث مرات، فإن لم يتب يُقتل^(٧).

(١) مسلم: الصحيح (شرح النووي) ١١: ١٩٥، والسيرازي: المهذب ٢: ٣٤٢، والسرخسي: المبسوط ٩: ٣٨، ٣٩.

(٢) صبحي محمضاني: تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء ٢٣٥.

(٣) الشافعي: الأم ٧: ١٦٩، وابن حزم: المحلى ١١: رقم ٢٢٣٩، وابن قدامة المقدسي: المغني ١٠: ٢٠٨ - ٢١٥.

(٤) الموطأ ٢: ٨٢٧.

(٥) القرطبي: تفسير ١٢: ١٦٥، والسرخسي: المبسوط ٢٤: ٣٣.

(٦) القرطبي: تفسير ٦: ٢٩٩، والطبري: تاريخ ٤: ٢٢٢.

(٧) مالك: الموطأ (بشرح السيوطي) ٢: ١١٧، وابن حزم: المحلى ١١: رقم ٢١٧٠، ٢١٩٥، والسيرازي: المهذب ٢: ٢٣٨، والسرخسي: المبسوط ١٠: ٩٩، وابن رشد: بداية المجتهد ٢: ٣٨٠، وابن قدامة: المغني ١٠: ٧٢ - ٨٠، ١٠٠.

- ١٧ - أم قرفة ارتدت وحرضت أولادها على المسلمين (في خلافة الصديق).
العقوبة: عوقبت بالقتل^(١).
- ١٨ - ردة بني حنيفة (في خلافة الصديق).
العقوبة: القتل للرجال واسترقاق النساء^(٢) إلا من رجع منهم إلى الإسلام^(٣).
- ١٩ - حارث بن بدر قطع الطريق وحارب ثم تاب (في خلافة علي).
العقوبة: قبول توبته وإسقاط الحد عنه، لأنه تاب قبل القدرة عليه^(٤).
- ٢٠ - قاطع طريق ألقى القبض عليه (في خلافة علي).
العقوبة:

- أ - إذا لم يأخذ مالاً ولم يقتل نفساً حُبس حتى يتوب.
- ب - إذا أخذ مالاً ولم يقتل نفساً قُطعت يداه ورجلاه من خلاف.
- ج - إذا قتل وأخذ المال قُطعت يداه ورجلاه من خلاف، ثم صُلب حتى يموت.
- د - إن تاب قبل أن يؤخذ، ضمن الأموال واقتصر منه ولم يحد^(٥).
- التعزير:
- وهو العقوبة التي يُقدرها القاضي على كل جريمة أو معصية لا حدَّ ولا عقوبة شرعية لها^(٦).

(١) مسلم: الصحيح (شرح النووي) ٢١: ٩٠٢، والشافعي: الأم ٦: ٦٠١، وابن قدامة: المغني ١٠: ٤٧، ٨٧، ١١٠، وابن حجر: (فتح الباري ٢١: ٦٣٢، والعيني: عمدة القاري ٤٢: ٨٠، والسرخسي: المبسوط ١٠: ٩٠١ - ١١١.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) الشافعي: الأم ٦: ١٦٣، وابن حزم: المحلى ١١: ٢٢٧ رقم ٢١٩٦، ٢١٩٩، والسرخسي: المبسوط ٥: ٤٩ و ١٠: ٩٩ - ١٠٠.

(٤) الطبري: تفسير ٦: ١٤٣، وابن حزم: المحلى ١١ رقم ٢٢٥٢.

(٥) المصدران السابقان، وهو رأي الجمهور.

(٦) صبحي محمدي: تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء ٢٥٦.

- ١ - قاتل لص هو صابئ بن حارث التميمي (في خلافة عثمان).
- العقوبة: الحبس حتى الموت^(١).
- ٢ - الساحر (في خلافة عمر وعثمان وعلي).
- العقوبة: القتل إذا لم يتب^(٢).
- ٣ - شتم الرسول ﷺ (في عهد الخلافة الراشدة).
- العقوبة: القتل^(٣).
- ٤ - هجاء الخطيئة للناس (في خلافة عمر).
- العقوبة: السجن^(٤).
- ٥ - تخنث نصر بن الحجاج وتشبيهه بالنساء (في خلافة عمر).
- العقوبة: حلق شعره ثم نفيه من المدينة^(٥).
- ٦ - اتخاذ رويشد الثقفي حانوتاً لبيع الخمر (في خلافة عمر).
- العقوبة: إحراق الحانوت^(٦).
- ٧ - قرية تبيع الخمر (في خلافة علي).
- العقوبة: إحراق القرية^(٧).

(١) ابن حزم: المحلى ١١ رقم ٢٢٥٨، وابن فرحون: تبصرة الحكام ٢: ٢٢٦.

(٢) أبو داود: السنن ٣ رقم ٣٠٤٣، وأبو عبيد الأموال رقم ٧٧، وابن حزم: المحلى ٩ رقم ١٧٩٥ و ١١ رقم ٢٣٠٤، وابن قدامة: المغني ١٠: ١١٤ - ١١٦.

(٣) الطبري: تأريخ ٥: ١٣٦، وابن كثير: التفسير ١: ٤٨٦، وابن فرحون: تبصرة الحكام ٢: ٢٢٦ - ٢٠٦.

(٤) المصادر السابقة.

(٥) ابن حزم: المحلى ١١ رقم ٢٢١٠، وابن القيم: إعلام الموقعين ٤: ٣٠٩.

(٦) أبو عبيد: الأموال رقم ٢٦٥ - ٢٦٨، وابن حزم: المحلى ٩ رقم ١٥١٢، وابن القيم: إعلام الموقعين ٢: ٥ و ٤: ٣٠٩، والطرق الحكمية ١٥: ١٦، ٢٤٦.

(٧) المصادر السابقة.

الجنايات:

وهي الجرائم الواقعة على الأبدان كالقتل، وقطع الأعضاء، والجروح.
وحكمها القصاص من الفاعل إلا إذا اختار ولي القتل الدية.

١ - رجل قتل تاجراً لماله (في خلافة عثمان).

العقوبة: القتل - قصاصاً^(١).

٢ - امرأة قتلت زوجها يوم زفافها بحضور صديقها (في خلافة علي).

العقوبة: القتل - قصاصاً^(٢).

٣ - رجل قتل ولده عمداً (في خلافة عمر).

العقوبة: الدية^(٣).

٤ - مسلم قتل ذمياً بالشام (في خلافة عمر).

العقوبة: القتل - قصاصاً^(٤).

٥ - حر قتل عبداً (في خلافة علي).

العقوبة: القتل^(٥).

٦ - حر قتل عبداً (في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي).

(١) ابن حزم: المحلى ١٠: ٢٠٩٥، وابن قدامة: المغني ٩: ٣٨٦.

(٢) ابن القيم: الطرق الحكيمة ٥٠، وابن قدامة: المغني ٩: ٣٦٢، ٣٧٦.

(٣) أحمد: المسند ١: ٢٢، ٤٩، وابن قدامة: المغني ٩: ٣٥٩، ٣٧٢، والشوكاني: نيل الأوطار ٧:

١٢ لوجود الشبهة إذ إن القاتل في الظاهر يقصد التأديب وليس القتل.

(٤) أبو داود: السنن ٤: رقم ٤٥٣٠، والشافعي: الأم ٦: ٣٣ و ٧: ١٦٤، ٢٦١، وسحنون:

المدونة الكبرى ١٦: ١٠٠، والشيرازي: المهذب ٢: ١٨٥، وابن حزم: المحلى ١٠: ٣٧١

رقم ٢٠٢١، ٢٠٢٢، وابن قدامة: المغني ٩: ٣٤١، ٣٦٠، ٥٥٦، والسرخسي: المبسوط ٢٦:

١٣٣، والعيني: عمدة القاري ٢٤: ٦٤ - ٦٦، وابن حجر: فتح الباري ١٢: ٢١٧ - ٢٣٠.

(٥) الطبري: تفسير ٢: ٦١، وسحنون: المدونة الكبرى ١٦: ١٦٧، والشيرازي: المهذب ٢:

١٨٥، والسرخسي: المبسوط ٢٦: ١٣٠، وابن قدامة: المغني ٩: ٣٤٨ - ٣٦١، والعيني:

عمدة القاري ١٨: ١٠٠ - ١٠١ و ٢٤: ٤٠، والشوكاني: نيل الأوطار ٧: ١٢ - ١٣.

العقوبة: الضرب و الحبس^(١).

٧ - قاتل اعترف بالقتل لدفع التهمة عن متهم بريء (في خلافة علي).
العقوبة: الدية^(٢).

٨ - سبعة من أهل صنعاء اشتركوا في قتل رجل (في خلافة عمر).
العقوبة: القتل لهم جميعاً^(٣).

٩ - ثلاثة اشتركوا بقتل رجل (في خلافة علي).
العقوبة: القتل لهم جميعاً^(٤).

١٠ - امرأة و خليلها و خادمها و رجل قتلوا ابن زوجها - قطعوه و رموه بالبئر -
باليمن (في خلافة عمر).

العقوبة: القتل لهم جميعاً^(٥).

١١ - شاب تنكر بثياب امرأة و اغتصب امرأة نائمة فقتلته (في خلافة عمر).
العقوبة: براءة المرأة^(٦).

١٢ - امرأة قتلت رجلاً دفاعاً عن عرضها (في خلافة عمر).
العقوبة: براءة المرأة^(٧).

(١) المصادر السابقة.

(٢) ابن القيم: الطرق الحكيمة ٥٥ - ٥٦، والسرخسي: المبسوط ١٦: ٢١ و ٢٦: ١٣٣.

(٣) مالك: الموطأ (بشرح السيوطي) ١٩٢: ٢، والشافعي: الأم ٦: ١٩، وسحنون: المدونة الكبرى ١٦: ١٠١، وابن قدامة: المغني ٩: ٣٣٤ - ٣٣٥، وابن القيم: إعلام الموقعين ١: ١٨٥، والعيني: عمدة القاري ٢٤: ٥٥ - ٥٦، وابن حجر: (فتح الباري ١٢: ٠ - ٢٠ - ٢٠١، والسرخسي: المبسوط ١٨: ١٢٧ و ٢٦: ١٢٦ - ١٢٧.

(٤) المصادر السابقة.

(٥) المصادر السابقة.

(٦) الشافعي: الأم ٦: ٢٦، ١٢٣ و ١٦٩: ٧، وابن حزم: المحلى ٨ رقم ١٣٧٨، وابن قدامة: المغني ٤: ٣٥٤ و ٩: ٣٣٦، ٣٨٠ و ١٠: ٣١٧ - ٣١٨، ٣٥٣ - ٣٥٧، والعيني: عمدة القاري ٨: ١٩٠ - ١٩١ و ١٤: ٢١ - ٢٢.

(٧) المصادر السابقة.

١٣ - قتيل وجد بين حين (في خلافة عمر).

العقوبة: يخلفون خمسين يميناً، ثم الدية على أقرب الحيين، إذ لا يجب القصاص بالقسامة^(١).

القضاة في خلافة أبي بكر^(٢):

١ - عمر بن الخطاب (المدينة وإمارة الحج).

٢ - معاذ بن جبل (اليمن - إلى جانب ولايته -).

٣ - أبو موسى الأشعري (اليمن).

القضاة في خلافة عمر^(٣):

١ - أبو الدرداء - ت ٣٢ هـ - (دمشق)^(٤).

٢ - أبو قرّة الكندي - سلمة بن معاوية - (الكوفة ١٥ - ١٧ هـ)^(٥).

٣ - أبو مريم الحنفي - إياس بن صبيح - (البصرة ١٤ - ١٧ هـ)^(٦).

٤ - أبو موسى الأشعري - عبدالله بن قيس ت ٥٢ هـ - (قضاء البصرة مع ولايتها

١٧ - ٢٥ هـ ما عدا سنة ٢٢ هـ حيث تولى البصرة مع قضائها لعمر)^(٧).

(١) مسلم: الصحيح بشرح النووي ١١: ١٤٣ - ١٤٥، والشافعي: الأم ٧: ١٢، وابن حزم: المحلى ١٠: رقم ٢٠٧١ و ١١: رقم ٢١٤٨، وابن قدامة: المغني ٩: ٥٢٤ و ١٠: ٤ - ٣٩، وابن حجر: (فتح الباري ١٢: ٢٠٢ - ٢١٢، والعيني: عمدة القاري ٢٤: ٥٧ - ٦٤.

(٢) خليفة: التأريخ ٩٧، ١٢٣ وكان الزهري يقول: إن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكن لهما قاض (الطبري: تأريخ ٤: ٢٤١).

(٣) خليفة: التأريخ ١٥٤ - ١٥٥، والطبري: تأريخ ٤: ٣٩ - ٢٤١. والمصادر الأخرى المؤشرة بالخواشي.

(٤) ابن عبد البر: الاستيعاب ٣: ١٧، وابن حجر: الإصابة ٣: ٤٦٠.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦: ٤٨، والطبري: تأريخ ٤: ١٦٨، ١٨٨، ٢٢٢، وابن حجر: الإصابة ٤: ١٦٠.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٧: ٩١ و ٣: ٣٧٨، والطبري: تأريخ ٤: ٢٢٢، والعسكري: الأوائل ٢: ١٠٠ - ١٠١، ووكيع: أخبار القضاة ١: ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٧) ابن عبد البر: الاستيعاب ٤: ١٧٤.

- ٥ - أبي بن كعب الخزرجي الأنصاري - ت ٢٢ هـ - (المدينة)^(١).
- ٦ - خارجة بن حذافة القرشي العدوي - ت ٤٠ هـ - (مصر)^(٢).
- ٧ - زيد بن ثابت النجاري الخزرجي - ت ٤٥ هـ - (المدينة)^(٣).
- ٨ - سلمان بن ربيعة الباهلي - ت ٢٨ هـ - (الكوفة ثم المدائن)^(٤).
- ٩ - سعد بن أبي وقاص (الكوفة).
- ١٠ - شريح بن الحارث الكندي - ت ٨٧ هـ - (الكوفة ١٨ - ٧١ هـ)^(٥).
- ١١ - عبيدة السلماني (الكوفة).
- ١٢ - عباد بن الصامت - ت ٣٤ هـ - (الشام)^(٦).
- ١٣ - عبدالله بن مسعود الهذلي - ت ٣٢ هـ - (الكوفة إضافة إلى بيت المال)^(٧).
- ١٤ - عمار بن ياسر (الكوفة).
- ١٥ - جبير بن مطعم (الكوفة).
- ١٦ - عثمان بن قيس بن أبي العاص (مصر ٢٣ - ٤٢ هـ)^(٨).
- ١٧ - عروة بن عياض بن أبي الجعد البارقي الأزدي (الكوفة)^(٩).

(١) عبدالرزاق: المصنف ٨: ٤٧١ - ٤٧٢.

(٢) الطبري: تاريخ ٥: ٤٨ - ٤٩ عن سيف، وابن عبدالبر: الاستيعاب ١: ٤٢٠ - ٤٢١ بصيغة التمريض.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٢: ٣٥٩، وابن حجر: فتح الباري ٢: ٣٢٧ و ١٣: ١٥٤.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٦: ٣٤، وابن عبدالبر: الاستيعاب ٢: ٦٢، وابن الأثير: أسد الغابة ٢: ٣٢٧، وابن حجر: الإصابة ٢: ٦١.

(٥) ابن عبدالبر: الاستيعاب ٢: ١٤٩، وابن الأثير: أسد الغابة ٢: ٣٩٤، وابن حجر: الإصابة ٢: ١٤٦.

(٦) ابن عبدالبر: الاستيعاب ٢: ٤٥٠.

(٧) وكيع: أخبار القضاة ٢: ١٨٤، ١٨٨، والبيهقي: السنن ١٠: ٨٧.

(٨) ابن حجر: الإصابة ٢: ٤٦٤ والكندي: الولاة والقضاة ٣٠٥ - ٣٠٦ ويذكر أنه توفي سنة ٣٥ هـ.

(٩) ابن سعد: الطبقات ٦: ٣٤، وكيع: أخبار القضاة ٢: ١٨٤، وابن عبدالبر: الاستيعاب ٣: ١١١، وابن حجر: الإصابة ٣: ٩٠٥.

- ١٨ - علي بن أبي طالب - ت ٤٠ هـ - (المدينة)^(١).
 ١٩ - عمران بن حصين - ت ٥٢ هـ - (البصرة)^(٢).
 ٢٠ - قيس بن أبي العاص السهمي - ت ٢٣ هـ - (مصر)^(٣).
 ٢١ - كعب بن يسار بن ضنة العبسي - ت هـ - (مصر)^(٤).
 ٢٢ - كعب بن سور الأزدي - ت ٣٦ هـ - (البصرة ١٨ - ٣٦ هـ)^(٥).
 ٢٣ - المغيرة بن شعبة - (ت ٥٠ هـ - قضاء البصرة مع ولايتها)^(٦).

رواتب القضاة:

- ١ - سلمان بن ربيعة الباهلي (الكوفة) ٥٠٠ درهم كل شهر^(٧).
 ٢ - شريح القاضي (الكوفة) ١٠٠ درهم كل شهر^(٨).
 ٣ - عبدالله بن مسعود الهذلي (الكوفة) ١٠٠ درهم كل شهر وربع شاة كل يوم^(٩).

- (١) ابن عبد البر: الاستيعاب ٣: ٣٩.
 (٢) ابن سعد: الطبقات ٧: ٩١، وابن حجر: الإصابة ٣: ٢٦ عن خليفة، ولم أجده في المطبوع من التاريخ والطبقات.
 (٣) ابن حجر: الإصابة ٣: ٢٥٤، ووكيع: أخبار القضاة ٣: ٢٢٠، والكندي: الولاة والقضاة ٣٠٠.
 (٤) الطبري: تاريخ ٤: ٢٢٥، والبيهقي: السنن الكبرى ١٠: ٨٧ (الحاشية الأولى) (الثانية) ابن عبد البر: الاستيعاب ٣: ٢٩٧، ووكيع: أخبار القضاة ٣: ٢٢١، والكندي: الولاة والقضاة ٣٠٥، وابن حجر: الإصابة ٣: ٣٠٣.
 (٥) ابن عبد البر: الاستيعاب ٣: ٣٠٣، وراجع حول سبب استقضائه عبدالرزاق: المصنف ٧: ١٤٨ - ١٤٩، ووكيع: أخبار القضاة ١: ٢٧٥، ٢٧٦، وأسباب أخرى عند وكيعة: أخبار القضاة ١: ٢٧٧ - ٢٧٨.
 (٦) وكيعة: أخبار القضاة ١: ٢٧٤.
 (٧) الكمال بن الهمام: شرح فتح القدير ٦: ٣٦١، وناصر بن عقيل الطريفي: القضاء في عهد عمر بن الخطاب ٨٥٢: ٢.
 (٨) الكمال بن الهمام: شرح فتح القدير ٦: ٣٦١، وابن قدامة: المغني ٩: ٣٧، والطريفي: القضاء ٨٦٨: ٢.
 (٩) البيهقي: السنن الكبرى ١٠: ٨٧، وابن حجر: فتح الباري ١٣: ١٢١.

- ٤ - عثمان بن قيس بن أبي العاص (مصر) ٢٠٠ دينار^(١).
 ٥ - قيس بن أبي العاص السهمي (مصر) ٢٠٠ دينار - لضيافته^(٢).

القضاة في خلافة عثمان^(٣):

- ١ - زيد بن ثابت (المدينة).
 ٢ - أبو الدرداء (دمشق).
 ٣ - كعب بن سور (البصرة).
 ٤ - أبو موسى الأشعري (البصرة) بالإضافة إلى ولايته.
 ٥ - شريح (الكوفة).
 ٦ - يعلى بن أمية (اليمن).
 ٧ - ثمامة (صنعاء).
 ٨ - عثمان بن قيس بن أبي العاص (مصر).

القضاة في خلافة علي^(٤):

- ١ - أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي (البصرة).
 ٢ - الضحاک بن عبدالله الهلالي (البصرة).
 ٣ - عبدالله بن فضالة الليثي (البصرة).
 ٤ - شريح (الكوفة).
 ٥ - محمد بن زيد بن خليفة الشيباني (الكوفة).



(١) ابن سعد: الطبقات ٧: ٤٩٦ ويعلل زيادة الراتب «لشرفه وضيافته».

(٢) ابن سعد: الطبقات ٤: ٢٦١ «لضيافته».

(٣) خليفة: التأريخ ١٧٩، والطبري: تأريخ ٤: ٤٢١ - ٤٢٢.

(٤) خليفة: التأريخ ٢٠٠، والطبري: تأريخ ٥: ١٥٥.

البَابُ الثَّالِثُ
الاقتصاد

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ
الموارد المالية

المبحث الأول

الجزية

الجزية في خلافة أبي بكر رضي الله عنه:

الجزية هي مقدار من المال يفرض على أهل الكتاب، الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي: كاليهود والنصارى، ومن يلحق بهم ممن لهم شبهة كتاب كالمجوس.

وتؤخذ من البالغين من الرجال دون النساء والأطفال. وقد شرعها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وأخذها الرسول ﷺ في حياته، فلما توفي أخذها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت أول جزية يقبضها من أهل نجران، وكانت ألفي حلة من حلل الأواقي، في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، كل حلة أوقية من الفضة. فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالحساب. وما قضوا من درع أو خيل، أو ركاب، أو عروض أخذ منهم بالحساب. وعلى نجران مؤونة رسلي، ومنعتهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك. وهذا هو الكتاب الذي صالح عليه رسول الله ﷺ أهل نجران، فلما توفي جدّده لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ^(١).

ونتيجة لفتح مناطق من العراق والشام فقد فرضت عليها الجزية، وقد ذكرت المصادر أرقاماً متباينة لمقدار الجزية على الحيرة، تبدأ بألف درهم ^(٢)،

(١) الحديث في سنن أبي داود ٣: ٤٢٩، ٤٣٠، وأبو يوسف: الخراج ٧٢، ٧٣ نقلاً عن ابن إسحاق، وأبو عبيد: الأموال ٢٠١، ٢٠٢، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٤٤٩ - ٤٥٠، وابن سعد: الطبقات ١: ٢٨٧ - ٢٨٨، والبلاذري: فتوح البلدان ٨٧ - ٨٨، والطبري: تاريخ ٣: ٣٢١ - ٣٢٢ دون إسناد.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف بإسناد رجاله ثقات. وراجع بقية الأرقام في الخراج لأبي يوسف ١٤٣ عن ابن إسحاق، وأبو عبيد: الأموال ٨٩، والبلاذري: فتوح البلدان ٣٤٠، ٣٤٣، والطبري: تاريخ ٣: ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٦٢، ٣٦٤، والأزدي: فتوح الشام ٦٤.

ثم ستين ألف درهم، فسبعين، فأربعة وثمانين ألف، فتسعين ألف درهم، فمئة ألف درهم، فمئة وتسعين ألف درهم، فأربع مئة ألف درهم عاجلة. ولم تفرض جزية محددة على كل رجل^(١).

وهنا ينبغي الانتباه إلى احتمالات التصحيف بين (ستين) و (سبعين) و (تسعين) وإلى احتمال سقوط (ستين) قبل (ألف)، وخاصة إذا كان النقل عن وثائق قديمة ليست معجمة، كما يرجع الاختلاف في مقادير الجزية إلى أن الحيرة انتقضت عدة مرات على المسلمين، وأعيد فتحها بشروط جديدة، وهذا يفسر الاختلاف في مقدار الجزية المفروضة عليها.

وكانت الجزية المفروضة على الحيرة أول مال حمل إلى المدينة من العراق^(٢)، وقد صالح قرى السواد (بانقيا وباروسما وأليس ونهر المرأة) على مقادير من الجزية تعطي فكرة عن أعداد السكان في تلك القرى اختلفت المصادر في تحديدها، وهي ما بين ألف درهم (أليس) وألف دينار (أليس) وعشرة آلاف دينار^(٣) (بانقيا وباروسما) واثنى عشر ألف درهم^(٤) (نهر المرأة)، واختلاف المبالغ يرجع إلى تكرار الفتح بسبب انتقاض السكان على الفاتحين، مما أدى إلى تجدد عقود الصلح بشروط جديدة، وأما بقية قرى السواد فقد فتحت عنوة^(٥)، وكان عليها أن تدفع جزية مشتركة بالتضامن بين أفرادها، ودون تحديد لما هو على الأرض وما هو على الرأس، وكان اصطلاح الخراج يطلق على الجزية حتى

(١) يحيى بن آدم: الخراج ٥٣، والبيهقي: السنن الكبرى ٩: ١٣٤.

(٢) أبو يوسف: الخراج ١٤٤، ١٤٧، والبلاذري: فتوح البلدان ٣٤٠، والطبري: تأريخ ٣: ٣٤٥.

(٣) الطبري: تأريخ ٣: ٣٦٧ من طريق سيف، ٣٧٥، ٦١٩ - ٦٢٠. وأبو عبيد: الأموال ٨٨، ٨٩ - ٩٠.

(٤) خليفة: التأريخ ١١٨ عن المدائني.

(٥) يحيى بن آدم: الخراج ٥٢، وأبو عبيد: الأموال ٨٨، والبيهقي: السنن الكبرى ٩: ١٣٣ - ١٣٤.

اصطلح عمر على إطلاقه على الأرض. ويوضح صلح الحيرة أن الجزية لم تؤخذ من القسيسين والرهبان والزمنى - أصحاب العاهات والأمراض الدائمة - والشيوخ والعاجزين والفقراء الذين يعيشون على الصدقات^(١)، وكان سكان المدينة يجمعون الجزية بينهم ويسلمونها لعمال المسلمين^(٢). وبقيت الأراضي بيد أصحابها القدامى^(٣).

ولم تذكر المصادر مقادير الجزية التي فرضت على قرى أخرى صالحت خالد بن الوليد، وهي البوازيج وأهل كلواذي وعين التمر والقادسية وقرقيسيا وصندوديا. ويبدو أن المناطق المفتوحة عنوة عوملت معاملة المناطق المصالحة، تخفيفاً على سكان المناطق المفتوحة^(٤). هذا بالنسبة للجزية المفروضة على مدن وقرى المناطق المفتوحة من العراق في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ومعظمها غربي نهر الفرات، أما الشام فالمعلومات التي توردها المصادر عن جزية المناطق المفتوحة شحيحة، فضلاً عن ضيق مساحة المنطقة المفتوحة في خلافة أبي بكر، ولكن ثمة تحديد لمقادير الجزية التي فرضت على مآب وبصرى، وهي: «على كل حالم دينار، وجريب حنطة في كل عام»^(٥)، ولا نعلم مقادير الجزية التي فرضت على قرى أرك وتدمر وحوارين وقصم وعانات التي صالحت المسلمين^(٦)، ولعلها تماثل جزية بصرى ومآب، ولعل فرض الجزية نقداً وعيناً للتخفيف عن الفلاحين، الذين قد لا يحوزون الدنانير الذهبية البيزنطية التي يتم التعامل بها في بلاد الشام، وربما قصد بالإجراء توفير المؤن للجيش الإسلامي.

(١) أبو يوسف: الخراج ١١٤ عن ابن إسحاق، والطبري: تاريخ ٣: ٣٦٤ عن سيف.

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٣٦٩ عن سيف.

(٣) الدوري: نظام الضرائب في صدر الإسلام ص ٥١.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ٣٤٧، والبيهقي: السنن الكبرى ٩: ١٣٤.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ١٥٥، والطبري: تاريخ ٣: ٤١٨، وقدامة بن جعفر: الخراج ٢٨٨.

(٦) الأزدي: فتوح الشام ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠. والطبري: تاريخ ٣: ٤٠٧ عن المدائني، وأبو

يوسف: الخراج ١٤٦ عن ابن إسحاق.

الجزية في خلافة عمر رضي الله عنه :

تم فتح العراق والشام وإيران ومصر في خلافة عمر رضي الله عنه، وتوطد سلطان الإسلام في بلاد العرب جميعاً، ودخل الكثيرون من سكان المناطق المفتوحة في الإسلام، وحافظ آخرون على دياناتهم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وقد دفعوا الجزية للدولة الإسلامية، حسب ما ورد في القرآن والسنة من أخذها من أهل الكتاب^(١)، وأما المجوس فقد شهد عبدالرحمن ابن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر^(٢) - أكبر مدن البحرين يومئذ - فعامل عمر رضي الله عنه مجوس إيران والسواد وفق هذه السنة^(٣). وتشير آثار ضعيفة إلى أن عمر رفض قبول الجزية من نصارى العرب^(٤)، ولكنها لا تقوى على تخصيص أخذ الجزية من عموم أهل الكتاب عرباً وأعاجم، لعموم الآيات والأحاديث في ذلك^(٥). ومن هذه الآثار الضعيفة أيضاً خبر إعفاء نصارى تغلب من الجزية مقابل تضعيف الصدقة عليهم، لئلا يلحقوا بالروم الذين يجاورونهم^(٦). ويدل أثر ضعيف على أن عمر رضي الله عنه قبل

(١) قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ الْأَیُّمُ لَا یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَلَا یَأْتُونَ الْآخِرَ وَلَا یُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَلَا یَدِیْنُونَ دِیْنَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِیْنَ أُوتُوا الْکِتَابَ حَتّٰی یُعْطُوا الْجِزْیَةَ عَنْ یَدٍ وَهُمْ صٰغِرُونَ﴾ (التوبة ٢٩). وأما السنة: فقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم أمير الجيش بقوله: «إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث، ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوك فاقبل وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم». - مسلم: الصحيح ٣: ١٣٥٧، وأبو داود: السنن ٣: ٣٧ حديث رقم ٢٦١٢.

(٢) البخاري: الصحيح ٢: ٢٠٠، وأبو داود: السنن ٣: ١٦٨، والترمذي: السنن ٣: ٧٣.

(٣) عبدالرزاق: المصنف ٦: ٦٨، وابن أبي شيبه: المصنف ٦: ٤٣٠، وابن زنجويه: الأموال ١: ١٣٦ بإسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه. وأما حديث: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» فهو ضعيف

لانقطاعه. (مالك: الموطأ ١: ٢٧٨ رقم ٤٢، وابن حجر: فتح الباري ٦: ٢٦١).

(٤) البيهقي: السنن ٩: ٢١٦ بسند ضعيف.

(٥) عبدالسلام محسن آل عيسى: النواحي المالية في خلافة عمر بن الخطاب - دراسة نقدية

للأسانيد ١: ٥٣.

(٦) عبدالرزاق: المصنف ٦: ٥٠، ٩٩ و ١٠: ٣٦٧، وابن زنجويه: الأموال ١: ١٣٠، ١٣١،

والبيهقي: السنن ٩: ٢١٦ بإسناد فيه راو مجهول وآخر مقبول. وأما روايات البلاذري عن

طريق الكلبي والواقدي وابن أبي سبرة وعبدالملك بن نوفل فتالفة، فتوح ١٨٥، ١٨٧.

الجزية من نصارى نجران، وهم عرب قبل إجلائهم إلى الشام والعراق وبعده، ويعلل إجلائهم لتعاملهم بالربا، خلافاً لشروط الصلح النبوية^(١).

تتسم سياسة عمر رضي الله عنه في فرض الجزية بالعدل والتسامح ومراعاة أحوال الناس، فقد أعفى منها النساء والصبيان غير البالغين^(٢) والرجال غير القادرين، وزاد الجزية على أهل الشام أكثر من أهل اليمن، مراعيًا غنى بلاد الشام بالنسبة لليمن^(٣)، وزاد الجزية على أهل العراق بعد أن سأل عامله عثمان بن حنيف عن قدرتهم المالية، وتأكد من عدم الإضرار بهم. فقال لعثمان بن حنيف: «لئن زدت على كل رأس درهمين، وعلى كل جريب من الأرض درهماً وقفيزاً من طعام لا يضرهم ذلك ولا يجهدهم؟» قال: نعم. قال: فكان على كل رأس ثمانية وأربعون فجعلها خمسين^(٤).

ولم يكتف عمر بتنفيذ سياسة عادلة، بل أوصى الخليفة من بعده «بأهل الذمة خيراً أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم»^(٥). وقد بلغ عدد دافعي الجزية الذين سجلهم عثمان بن حنيف خمس مئة وخمسين ألف رجل (٥٥٠,٠٠٠ رجل)، فلعل سكان السواد كانوا يبلغون آنذاك خمسة ملايين نسمة^(٦).

(١) أبو داود: السنن ٣: ١٦٧ بإسناد ضعيف فيه يونس بن بكير يخطئ، وأسباط بن نصر كثير الخطأ يأتي بالغرائب، والسدي يهمل، ولا تقويه الروايات الواهية التي نجدها في طبقات ابن سعد ١: ٢٨٢، ٢٨٧، ٢٨٨، وفي الأموال لابن زنجويه ٢: ٤٤٩، ٤٥١.

(٢) عبدالرزاق: المصنف ٦: ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨. وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٢٨٦، ٤. وابن زنجويه: الأموال ١: ١٥١، ١٥٧، ١٥٨. والبيهقي: السنن ٩: ١٩٥، ١٩٦ بإسناد صحيح.

(٣) هذا تعليل مجاهد بن جبر المكي ولد سنة ٢١ هـ آخر خلافة عمر رضي الله عنه. (ابن حجر: تقريب التهذيب ٢: ٢٢٩ والأثر في صحيح البخاري معلقاً ٢: ٢٠٠، وعبدالرزاق: المصنف ٦: ٨٧، ٨٨. وانظر إرواء الغليل للألباني ٥: ١٠١).

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٣٦، وابن زنجويه: الأموال ١٦٠، ٢١٦، ٢١٧، والبيهقي: السنن ٩: ١٩٦ بإسناد صحيح.

(٥) البخاري: الصحيح ٢: ١٧٨، ٢٩٧-٢٩٨. وعبدالرزاق: المصنف ١١: ١٠٩. والبيهقي: السنن ٩: ٢٠٦.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ٣٣٢. على فرض أن النساء في حدود المليون، وأن الأطفال والصبيان في حدود ثلاثة ملايين ونصف بمعدل ستة أطفال للعائلة..

ومع ذلك فقد حدثت تجاوزات على أهل الذمة في بعض الأمصار في خلافة عمر رضي الله عنه دون علمه، فقد وضع عامل فلسطين عمير بن سعد الأنصاري المشهور بزهد ناساً من النبط في الشمس لعدم دفعهم الجزية، فذكر له الصحابي هشام بن حكيم حديث النبي ﷺ: «إن الذي يعذب الناس في الدنيا يعذبه الله في الآخرة»، فخلى سبيلهم^(١).

وكان عمر رضي الله عنه يفرض الجزية على الرقيق، وعلل ابن قدامة المقدسي فعله بأن «العبد ذكر مكلف قوي مكتسب، فوجبت عليه الجزية»، ومما يدل على رأي عمر رضي الله عنه هذا قوله: «لا تشتروا رقيق أهل الذمة، فإنهم أهل خراج وأراضيهم فلا تبتاعوها، ولا يقرن أحدكم بالصغار بعد إذ نجاه الله منه»^(٢).

وتسقط الجزية عن دافعها في حالة إسلامه^(٣)، كما تسقط في حالة عجزه، لأنه لا يكلف ما لا يطيق. ويلاحظ أن دافع الجزية لا يدفع الزكاة من أمواله، لأن الزكاة فريضة دينية وفي أدائها معنى تعبدية، برغم أن وظيفتها اجتماعية.

كما أن دافع الجزية لا يشترك في الجيش الإسلامي، لأن هدف الجيش الإسلامي الجهاد، وهو فريضة دينية لإعلاء كلمة الله، فلا يجب على غير المسلم، برغم أن فائدة الحماية التي يحققها الجيش تتعدى المسلمين إلى جميع سكان الدولة، وأن مكاسب الفتح تعود بالفائدة على الجميع لما تفتح من أسواق جديدة، وتحقق

(١) مسلم: الصحيح (مع النووي) ١٦: ١٦٧، ١٦٨.

(٢) عبد الرزاق: المصنف ٦: ٤٥، ٤٧ و ١٠: ٣٣٠، ٣٣٧. وابن زنجويه: الأموال ١: ٢٣٣، ٢٣٤، والبيهقي: السنن ١: ١٤٠ وتتضافر أسانيد الخبر الضعيفة لتبلغ به درجة الحسن لغيره. وانظر ابن قدامة: المغني ١٠: ٥٩٧.

(٣) لاشك في أن الإسلام مسقط للجزية، وقد وردت روايات ضعيفة عن إسقاط عمر رضي الله عنه الجزية عن أسلم وهي تتضافر في إثبات تطبيق هذا المبدأ (أبو عبيد: الأموال ٥٢، وابن زنجويه: الأموال ١: ١٧٣، وعبد الرزاق: المصنف ٦: ١٤، ١٠: ٣٣٦، وابن أبي شيبه: المصنف ٤: ٤٠٥، ٦: ٤٦٣، ٤٦٤ وكلها بأسانيد ضعيفة، لكنها تتضافر لترفع الأثر إلى الحسن).

من عوائد للدولة تمكنها من الإنفاق على الخدمات المتنوعة من تعمير المدن وبناء الأسواق وتمهيد الطرق..

وقد تفاوت مقدار الجزية بين الأمصار المفتوحة حسب غناها، مما يوضح مراعاة عمر لمبدأ عدم التكليف لهم بما لا يطيقون، ففرض على أهل السواد - جنوب العراق - جزية سنوية قدرها ثمانية وأربعون درهماً فضياً (ما يعادل أربعة دنانير ذهبية) على الغني، وأربعة وعشرون درهماً على متوسط الحال، واثنان عشر درهماً على الفقير^(١). ثم زاد درهمين على الأغنياء فصارت جزيتهم خمسين درهماً^(٢)، هذا بالإضافة إلى فرض خمسة عشر صاعاً من القمح وضيافة المسلمين ثلاثة أيام، يطعمونهم مما يأكلون مما يحل للمسلم من طعامهم^(٣). وصح أيضاً أن الضيافة المشروطة عليهم يوم وليلة، فمن حبسه مرض أو مطر أنفق من ماله^(٤). ولم يثبت أنه اشترط على سكان المناطق المفتوحة إصلاح القناطر^(٥).

(١) أبو عبيد: الأموال ٤٤، ٤٥، ٤٦ بإسناد فيه تدليس السبيعي. وابن زنجويه: الأموال ١: ١٥٩ - ١٦٠، ١٩٥ بإسناد فيه مندل بن علي وهو ضعيف. وابن سعد: الطبقات ٣: ٢٨٠، ٢٨٢ ويترجح عندي أنه روى عن شيخه عارم بن الفضل السدوسي قبل اختلاط الأخير، فروايته عنه في كتاب الطبقات واسعة، ولعلها من كتاب صنفه عارم. وتتضافر الأسانيد الثلاثة لترقى بالخبر إلى درجة الحسن. وشهود العيان ثلاثة هم: المغيرة بن شعبة - صحابي - وحارثة بن المضرب وأبو نضرة العبدي - تابعيان يرويان عن عمر - ..

(٢) ابن زنجويه: الأموال ١: ١٦٠، ٢١٦ وإسناده صحيح، وشاهد العيان هو عمرو بن ميمون. (٣) مالك: الموطأ ١: ٢٦٤، وعبدالرزاق: المصنف ٦: ٨٥، ٨٦، ٨٨، وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٢٩، وابن زنجويه: الأموال ١: ١٥٦، ٣٣١ والبلاذري: فتوح البلدان ١٣١، والبيهقي: السنن ٩: ١٩٥، ١٩٦ وهو أثر صحيح. وأما ماورد عند عبدالرزاق: المصنف ٦: ٨٦ «خمس عشرة قفيزاً» بدل «خمس عشرة صاعاً» فهو شاذ يخالف لروايات الثقات، مع العلم أن القفيز يساوي ٣٣ و ١٢ صاعاً مما يتعذر معه الجمع بين الأثرين، ويجعل الجزية من المواد العينية عالية القيمة.. بينما هي تبع للجزية النقدية.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٥١٩، وابن زنجويه: الأموال ١: ٣٠٧ وعرف (الرجل) في الإسناد بأنه صحابي (١: ٣٧٢)، والبيهقي: السنن ٩: ٩٦. والأثر صحيح، لأن الأعمش صرح بالسماع، والمبهم صحابي لا تضر جهالته.

(٥) أبو عبيد: الأموال ١٦٠، والبيهقي: السنن ٩: ١٩٦ بإسناد ضعيف فيه عننة قتادة السدوسي وهو مدلس. وقد انفرد بهذه الزيادة.

وتدل بعض الروايات على المرونة في تحصيل الجزية من دافعيها، فقد أخذت من الإبل أحياناً^(١)، ولم يقبل عمر رضي الله عنه في الجزية أخذ الخمر والخنزير، ولكنه أمر عماله بتوكيل أصحابها لبيعها لأهل دينهم وقبض ثمنها^(٢).

وقد فرض على مدن الجزيرة الفراتية (الرقعة والرها وحران وسميساط وموزن وقرقيسيا) أربعة دنانير ذهباً ومدين من البر وأربعة أقساط من الزيت وشيئاً من الودك والعسل على كل رجل^(٣). (وهذه المواد العينية تساوي نحو كيلو غرام - ٠٨٨، ١ غم - قمح، وكيلو غرامين زيت، ويبدو أن الودك - السمن - أقل من كيلو غرام).

وأما أهل الشام ففرضت عليهم الجزية مثل أهل الجزيرة مع ضيافة المسلمين ثلاثة أيام يطعمونهم مما يأكلون مما يحل للمسلمين من طعامهم، فلما قدم عمر الشام شكوا إليه «أنهم يكلفونا الدجاج والشاء، فقال عمر: لا تطعمونهم إلا مما تأكلون، مما يحل لهم من طعامكم»^(٤). وكذلك فرض عليهم الكسوة، وهي ملابس كان - عمر رضي الله عنه يكسوها للناس^(٥)، ولم تحدد المصادر عددها، ويبدو أنها فرضت على أهل الشام ومصر لكثرة المنسوجات في البلدين.

(١) مالك: الموطأ برواية الشيباني ١١٧، وابن زنجويه: الأموال ١: ١٦٨، ٢: ٥٦٢ والأثر حسن، وأحمد: الزهد ١٤٥، والبيهقي: السنن ٧: ٣٥ والأثر صحيح.

(٢) أبو عبيد: الأموال ٥٤، ٥٥، وابن زنجويه: الأموال ١: ٧٩، ٢٧١ والأثر صحيح.

(٣) ابن زنجويه: الأموال ١: ١٥٧، ١٥٨ بإسناد صحيح. والبلاذري: فتوح البلدان ١٣١، ١٥٧ بإسناد حسن، لكنه يذكر «ثلاثة أقساط زيت».

(٤) مالك: الموطأ ١: ١٦٤، وعبدالرزاق: المصنف ٦: ٨٥-٨٨ و ١٠: ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣١، وابن زنجويه: الأموال ١: ٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ٣٦٨.

(٥) عبدالرزاق: المصنف ٦: ٨٨، ١٠: ٣٢٩، وابن أبي شبة: المصنف ٦: ٤٢٩، وابن زنجويه: الأموال ١: ١٥٧، ١٥٨، والبلاذري: فتوح البلدان ١٣١، والبيهقي: السنن ٩: ١٩٥، ١٩٦.

وأما اليمن فقد خضعت للإسلام في عهد النبوة، وفرضت الجزية على كل رجل دينار أو عدله معافر^(١)، وتشير روايات ضعيفة إلى بقاء هذه الجزية على أهل اليمن دون تغيير في خلافة عمر^(٢). وبرغم ضعفها فإنها تتفق مع سياسة عمر في مراعاة أحوال الرعية، وعدم تغيير الإجراءات النبوية.

وكانت مقادير الجزية على أهل مصر مثل أهل الشام، مع زيادة يسيرة في القمح تبلغ صاعاً إضافياً، ولم يذكر أنهم يدفعون الودك - السمن - فلعل ذلك أسقط مقابل زيادة القمح^(٣).

وتذكر رواية واهية السند أن عدد دافعي الجزية بمصر بلغ ستة ملايين رجل كانوا يدفعون اثني عشر مليون دينار كل سنة^(٤)، وهذا يتعارض مع ما ثبت من كون الرجل يدفع أربعة دنانير جزية.

(١) أقوى ماورد في جزية نصارى اليمن حديث معاذ بن جبل: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فأمرني أن أخذ من كل... ومن كل حالم ديناراً أو عدله معافر». (أخرجه النسائي: ١٧: ٥، والدارمي ١: ٣٢٠، والبيهقي ٩: ١٩٣)، وعن الأعمش وغيره عن أبي وائل شقيق بن سلمة (انظر: الأموال ١: ١٢٦). والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم والذهبي على شرطهما، وصححه ابن عبد البر وابن حزم، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على الخراج ليحيى بن آدم ١١٢. وله شواهد منها: حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وفي إسناده المثني بن الصباح ضعيف اختلط بأخرة: «كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن أن يؤخذ من أهل الكتاب من كل محتلم دينار» ويوجد مرسلان عن الحسن وعروة يقويان ببعضهما والشواهد ونصهما: «على كل حالم من ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف أو قيمته من المعافر في كل عام». ووجه الشاهد على كل حالم ذكر.. وأما بقية الكلام عن الأنثى والعبد فلا. الأموال ١: ١٢٨. ويوجد مرسل الحكم بإسناد إليه صحيح، نصه «وفي الحالم والحاملة دينار أو عدله من المعافر». (الأموال ١: ١٢٩). أخلص إلى القول: إن ما ثبت هو فرض جزية على البالغين من الذكور قدرها دينار واحد أو عدله معافر، والله أعلم. والمعافر: حي من همدان تنسب إليها الثياب المعافرية.

(٢) عبدالرزاق: المصنف ٦: ٨٩ بإسناد ضعيف.

(٣) عبدالرزاق: المصنف ٦: ٨٥، ٨٦، ٨٨ و ١٠: ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣١. وابن أبي شبة: المصنف ٦: ٤٢٩، وابن زنجويه: الأموال ١: ١٥٧، والبلاذري: فتوح البلدان ١٣١، والبيهقي: السنن ٩: ١٩٥، ١٩٦ والأثر صحيح. ولاحظ أن الأردب يساوي ٤٦ و ٣٠ كيلو غراماً.

(٤) ابن عبدالحكم: فتح مصر ٦٤ - ٧٠ بإسناد واهٍ فيه خالد بن نجيح المصري كذاب، وفيه رواية مجاهيل.

ولم تصح أي رواية فيما يتعلق بجزية أهل برقة (في ليبيا) وزويلة (في حدود السودان)، فلعلها عوملت مثل مصر، وتذكر رواية ضعيفة أن عمرو ابن العاص صالح برقة على جزية قدرها ثلاثة عشر ألف دينار^(١).

كما لم تصح الروايات في مقدار الجزية التي فرضت على بلاد إيران، ولكن تتضافر الروايات الضعيفة على الإقرار بالأخذ بمبدأ الرفق بالرعية وعدم تكليفهم ما لا يطيقون^(٢). كما ذكر بعضها أن جزية أذربيجان بلغت ثمان مئة ألف درهم، والأهواز مليونين وثمان مئة وتسعين ألف درهم (٢,٨٩٠,٠٠٠ درهم)^(٣).

ولا نعرف على وجه الدقة عوائد الجزية على بيت المال في خلافة عمر رضي الله عنه، ولكن الفقيه أبا يوسف ذكر أن جباية السواد وحده من الجزية والخراج بلغت في خلافة عمر مئة ألف درهم (١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم)^(٤)، في حين ذكر اليعقوبي - وتابعه الماوردي - أنها بلغت مئة وعشرين ألف درهم (١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم) وذكر ابن خرداذبة أنها بلغت مئة وثمانية وعشرين ألف درهم (١٢٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم)، فلعل الأرقام تشير إلى واردات سنين مختلفة، يزيد فيها الوارد وينقص حسب المواسم الزراعية، التي تتأثر بالأمطار وبطرق الري، ثم بسلامة نظم الجباية.

(١) خليفة: التاريخ ١٤٤، وابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٧٠، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٢٥، ٢٢٦، ويلاحظ أن هذه الرواية الضعيفة تذكر أيضاً أنهم خيروا أن يبيعوا في جزيتهم من أبنائهم من أجواب بيعه، وهذا مخالف للقاعدة العمرية في أن لا يكلفوا من الجزية ما لا يطيقون، بل هي تسقط عنهم إذا عجزوا عن أدائها، فكيف يكلفون بيع أولادهم فيها؟!

(٢) خليفة: التاريخ ١٣٤، والبلاذري: فتوح البلدان ٣٠٣-٣٠٦، والطبري: تاريخ ٥٢٠:٢، ٥٣٠، ٥٣٢، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٣، ٥٤٤ من طريق سيف بن عمر، وهو إخباري كبير، وهما المحدثون في رواية الحديث واعترف أهل الاستقراء من متأخريهم كالذهبي بمكانته في علم التاريخ.

(٣) خليفة: التاريخ ١٣٤، والبلاذري: فتوح البلدان ٣٢٣.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ٣٠٦، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢١، ٣٢٣.

وثمة ظاهرة في أواخر خلافة عمر رضي الله عنه تتمثل في فرض جباية محددة على بعض المناطق المفتوحة في المشرق تدفع بالتضامن بين أبناء الإقليم أو المدينة، وتجمعها السلطات المحلية وتشتمل على الجزية والخراج معاً، فقد صالحت همذان على أن تؤدي خراج أرضهم وجزية رؤوسهم مئة ألف درهم للمسلمين» وصالحت الري وقومس على خمس مئة ألف درهم يؤدونها من جزيتهم وخراجهم، وصالحت أذربيجان على ثمان مئة ألف درهم^(١).

الجزية في خلافة عثمان رضي الله عنه:

ولانجد روايات توضح عوائد الجزية على بيت المال في خلافة عثمان رضي الله عنه، ويبدو أن السياسة العمرية استمرت دون تغيير يذكر في المناطق المفتوحة، ومنها ظاهرة تتمثل في تحديد مبلغ من المال تدفعها المنطقة المفتوحة بالتضامن بين سكانها وتجيبة السلطة المحلية وتقدمه إلى الدولة الإسلامية، وهذا ما يعرف بولاية العهد، فالولاية معاهدة للدولة الإسلامية، ومن ذلك أن عبدالله بن سعد بن أبي سرح صالح بطريق أفريقية تونس على ألفي ألف دينار وخمس مئة ألف (٢, ٥٠٠, ٠٠٠)^(٢).

وكذلك صالح الوليد بن عقبة أهل أذربيجان على ثمان مئة ألف درهم (٨٠٠, ٠٠٠ درهم)، وصالح معظم مدن إيران وخراسان على مبالغ محددة تدفعها المدينة أو الإقليم بالتضامن، وتشتمل على الجزية والخراج معاً، وإذا جمعنا الأرقام فإن دخل الدولة الإسلامية من الجزية والخراج يتجاوز (٢٢٠, ٠٠٠, ٠٠٠ درهم) موزعة كالاتي:

العراق: (١٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠ درهم).

(١) المصدر السابق ٣٩٠.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢٢٨ - ٢٢٩، واليعقوبي: تاريخ ٢: ١٦٥، والطبري: تاريخ ٤: ٢٥٦ بزيادة ٢٠٠٠٠ دينار على المبلغ.

الشام: لا توجد إحصائية، ويمكن أن تقاس على مصر.

مصر: (٤٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم).

أفريقية (تونس): (٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم).

برقة: (١٣,٠٠٠ درهم).

إيران: (٢٠,٧٠٠,٠٠٠ درهم)^(١).

كما يلاحظ حصول زيادة كبيرة في جباية مصر من الجزية والخراج في خلافة عثمان رضي الله عنه، فقد كانت جبايتها في خلافة عمر رضي الله عنه مليوني دينار (١٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم)، وارتفعت في خلافة عثمان وولاية عبدالله بن سعد ابن أبي سرح عليها إلى أربعة ملايين دينار (١٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم)^(٢). ولعل الزيادة الكبيرة الحاصلة ترجع إلى دخول قرى ومدن جديدة في ولاية ابن أبي سرح من ناحية، كما ترجع إلى النمو السكاني والإصلاحات الزراعية واستقرار الأمن، مما أدى إلى الازدهار الاقتصادي وارتفاع عوائد الجباية.

الجزية في خلافة علي رضي الله عنه:

لم يطرأ تغيير على مقدار الجزية في خلافة علي رضي الله عنه^(٣)، ولم تتوسع الفتوحات بسبب الانشغال بالفتن الداخلية بين المسلمين، بل انتفضت بعض المناطق المفتوحة في حين استمر أكثرها على الصلح ودفع الجزية، ويلاحظ انتشار

(١) يمكن مراجعة الأرقام التفصيلية في فتوح البلدان للبلاذري ٣٢١-٣٢٣، ٣٣٠، ٣٧٢، ٣٨٦، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨. وخليفة بن خياط: التأريخ ١٥٨، ١٥٩، ١٦٤ - ١٦٥. وياقوت: معجم البلدان مادة «نيسابور».

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢٢٠، وأما ما ذكره ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب ٢١٥ - ٢١٦ فيبدو أن الأرقام محرفة، حيث تشير إلى مقادير هائلة من الجباية وهي ١٢٠٠٠٠٠٠ دينار في خلافة عمر، و ١٤٠٠٠٠٠٠ دينار في خلافة عثمان! وانظر مناقشة ضياء الدين الرئيس لمقادير الجباية (الخراج والنظم الإسلامية ١٤٩).

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٣٣٣.

الإسلام بقوة في أذربيجان لما قدمها الأشعث والي علي رضي الله عنه^(١). ومعنى هذا انخفاض جباية الجزية، كما توجد إشارة إلى اعتماد جباية الجزية من قبل الدهاقين في إقليم خراسان وتسليمها للمسلمين، وأن الدهاقين كانوا يواجهون حركات تمرد في خراسان برغم دعم الدولة الإسلامية لهم، مما يستتج منه انخفاض واردات الجزية، حيث لم يعرض والي خراسان جعدة بن هبيرة «لأهل النكث وجبي أهل الصلح»^(٢).

المبحث الثاني

الخراج

أنجز الفتح الإسلامي فتح العراق بعد القادسية (١٥ هـ) وجولاء (١٦ هـ)، وكان أكثر الفتح عنوة، وانتفضت البلاد مرات عديدة، لذلك فإن عهود الفتح وشروط الصلح تغيرت مرات عديدة، ويترتب على الفتح عنوة استملاك المسلمين للأرض، وتقسيمها، وبنال الدولة الخمس في حين ينال المقاتلون أربعة أخماس الأرض، ولو تم ذلك التقسيم لأصاب كل مقاتل مساحة واسعة من الأرض الزراعية الخصبة، وثلاثة من فلاحي السواد^(٣).

ولكن التقسيم للأرض وللأهل لم يحدث، بل جمع عمر رضي الله عنه الصحابة رضوان الله عليهم للنظر في كيفية معاملة منطقة سواد العراق. وقد أوضح وجهة

(١) المصدر السابق ٤٠٤.

(٢) المصدر نفسه ٥٠٥.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٦٦، والخطيب البغدادي: تأريخ بغداد ١: ٨. وسند الخبر ضعيف فيه تدليس السبيعي واختلاطه بأخرة. ولكن القدر المذكور من الرواية تأريخي صرف، لا علاقة له بعقيدة ولا بشريعة.

نظره للصحابة، فالأصل تقسيم المنطقة المفتوحة، وقد ثبت عنه تصريحه بذلك «لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها، كما قسم النبي ﷺ خير»^(١). ومراعاة حقوق الأجيال اللاحقة استنبطها عمر رضي الله عنه من الآيات القرآنية - التي قرأها على المجتمعين - : ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَتَغَوْنَ فُضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضُونًا وَيَضْرِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ﴾ فقال معقبا على هذه الآية: والله ما هو لهؤلاء وحدهم.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٢). وعقب على هذه الآية الأخيرة بقوله: «والله ما من أحد من المسلمين إلا وله حق من هذا المال أعطي منه أو منع، حتى راع بعدن»^(٣).

(١) البخاري: الصحيح ٤٨: ٣.

(٢) الحشر: ٧ - ١٠.

(٣) عبد الرزاق: المصنف ٤: ١٥١، ١٥٢ و ١١: ١٠١، ١٠٢. وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٧١.

(ط. كمال يوسف). وابن زنجويه: الأموال ١: ١٠٨، ١٠٩ و ٢: ٤٨٠. والبيهقي: السنن

٦: ٣٥١، ٣٥٢ والأثر صحيح.

وقد غلب هذا الرأي على المجتمعين^(١)، وهكذا دعا الفاتحون المغلوبين للبقاء في الأرض على أن يدفعوا الخراج، وقد أفاد هذا الإجراء في عدم تحول الفاتحين إلى فلاحين مما يضعف قدراتهم القتالية - وهم يواجهون الفرس في الشرق والبيزنطيين في الغرب - كما ربط الفلاحين القدامى بأرضهم وكسب ولاءهم، وساعد على استمرار ازدهار الزراعة في السواد، إذ ما كان بوسع الفاتحين استثمار الأرض لنقص الخبرة الزراعية.. وأوجد مورداً سنوياً كبيراً لبيت المال، خاصة وأن الأراضي المفتوحة في الشام ومصر عوملت وفق نظام الخراج أيضاً، وهذا المورد مكّن الدولة من تجهيز الجيوش الكبيرة والقيام بالإصلاحات المتنوعة، وخاصة الارتقاء بالمستوى المعيشي للناس عن طريق نظام العطاء، إضافة إلى الحد من نشوء الملكيات الإقطاعية الكبيرة، مما يولد تبايناً اقتصادياً شاسعاً، ويحصر تداول الثروة بأيدي قليلة، وهذا ما وعاه عمر من الآيات القرآنية مما يوضح دقة فهمه وعمق بصيرته، وأثر القرآن في توجيه سياسته.

ونظراً لأن الخراج ضريبة على الأرض خلافاً للجزية، فإنه لا يسقط بإسلام صاحب الحق في استثمار الأرض، سواء كان رجلاً أو امرأة، عبداً أو حراً^(٢).

(١) توجد أخبار ضعيفة السند تدل على رغبة بعض الصحابة في قسمة السواد، لأنه فتح عنوة، ويصرح عمر في هذه الأخبار بأنه يحفظ بإجرائه حقوق الأجيال اللاحقة. ابن أبي شبة: المصنف ٤٦٦: ٦، وسعيد بن منصور ٢: ٢٢٧، وابن زنجويه: الأموال ١: ١٩١، ١٩٤، والخطيب. تاريخ بغداد ١: ٧، ٨، ٩، والبيهقي: السنن ٩: ١٣٤. وهذه الأخبار الضعيفة تتضافر لتقوية تعليل عمر رضي الله عنه لإجرائه في أرض السواد، وهي تتفق مع الثابت من استنباطه من القرآن. كما توجد أخبار ضعيفة تتضافر لتأكيد وجود معارضة ضعيفة لإجراءات عمر في عدم تقسيم أرض الشام ومصر (أبو عبيد: الأموال ٦٣، وأحمد: فضائل الصحابة ١: ٢٨٩، وابن زنجويه: الأموال ١: ٩١، والبيهقي: السنن ٦: ٣١٨ و ٩: ١٣٨، ١٣٩. بأسانيد ثلاثة فيها انقطاع وإرسال، وتقوى ببعضها إلى الحسن).

(٢) أبو عبيد: الأموال ٧٨.

فلما أسلمت دهقانة نهر الملك - كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى تضم قرى كثيرة - قال عمر: «دعوها في أرضها تؤدي عنها الخراج»^(١).

وتتضافر روايات أخرى ضعيفة في تأكيد عدم سقوط الخراج بالإسلام^(٢). وقد ثبت أن عمر رضي الله عنه كان ينهج سياسة رفيقة مع أهل الخراج، خوفاً من المشقة عليهم وإجهادهم، فكان يسأل عماله على مسح السواد: «انظروا ما لديكما أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق»^(٣). وبالطبع فإنه كان يتعامل مع مخالفين له في العقيدة، وذلك في بداية الفتح وفرض الخراج، فكان يحرص على معاملتهم بالعدل والإحسان.

وقد نهى عمر رضي الله عنه عن شراء أرض الخراج، لأنها وقف للأمة جميعاً^(٤). كما نهى عن شراء أرض أهل الذمة الخراجية الصلحية أيضاً، وإن لم تكن ملكيتها وقفاً للأمة، لئلا يضطر المسلم إلى دفع الخراج^(٥).

(١) عبد الرزاق: المصنف ٦: ١٠٢ و ١٠: ٣٧٠. وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٦٤. وابن زنجويه: الأموال ١: ٢٥٧. والبيهقي: السنن ٩: ١٤١. والخبر صحيح الإسناد.

(٢) عبد الرزاق: المصنف ٦: ١٠٢، ١٠٣. وابن أبي شيبة: المصنف ٤: ٤٠٥، ٤٦٣. وابن زنجويه: الأموال ١: ٢٥٧. والبيهقي: السنن ٩: ١٤١، ١٤٢. وفيه ضعف جابر الجعفي وإرسال الشعبي عن عمر.

(٣) البخاري: الصحيح ٢: ٢٩٧، وعبد الرزاق: المصنف ٦: ١٠٣، وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٣٦ و ٧: ٤٣٥، ٤٣٦. وابن زنجويه: الأموال ١: ١٦٠، ١٦١. وكان هذا السؤال قبل أربعة أيام من استشهاده.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ١٤٧، ١٤٨. وتوجد رواية ضعيفة تفيد رد عمر لشراء عتبة بن فرقد أرضاً خراجية (أبو عبيد: الأموال ٨٤، وابن زنجويه: الأموال ١: ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٥٥٤، والخطيب: تاريخ بغداد ١: ١٧، والبيهقي: السنن الكبرى ٩: ١٤١).

(٥) عبد الرزاق: المصنف ٦: ٤٧ وفيه جهالة راو، ١٠: ٣٣٧ وفيه إرسال الحسن البصري. وأبو عبيد: الأموال ٨٣، ٨٤ وفيه تدليس قتادة. وابن أبي شيبة: المصنف ٤: ٣٣٧. وابن زنجويه: الأموال ١: ٢٣٣، ٢٣٤ وفيه انقطاع بعد ابن سيرين. والبيهقي: السنن ٩: ١٤٠ والخبر يرقى بطرقه إلى الحسن.

وكان عمر قد بعث عثمان بن حنيف لمسح السواد، فبلغ ستة وثلاثين ألف جريب (الجريب: ١٣٦٦ م^٢)، فوضع على كل جريب درهماً وقفيزاً من طعام (القفيز: ١١٢، ٢٦ كغم) مراعيّاً عدم المشقة على المالكين. ويحتمل أن هذا الإجراء شمل المساحة الصالحة للزراعة كلها مزروعة وغير مزروعة، للحث على زراعتها وأداء خراجها، أو أن هذا المقدار من الخراج كان في أول الأمر، ثم عدل عنه إلى فرض مقدار من الخراج يختلف حسب نوع المحصولات الزراعية، فكان على الجريب من النخل عشرة دراهم (وفي رواية ثمانية دراهم، وربما ذلك يتبع الجودة). والجريب من العنب ثمانية دراهم^(١)، والجريب من القضب (الأشجار الكبيرة المثمرة) ستة دراهم، والجريب من البر أربعة دراهم، والجريب من الشعير درهين^(٢).

ويبدو أنه أضيف إلى الدراهم أخذ شيء من المحصول الزراعي ما بين خمسة إلى عشرة أفقرة^(٣)، فلعل المقصود من ذلك تمويل القوات الإسلامية. ولم تثبت مقادير الخراج على أرض الشام ومصر، ولكن يبدو أنها عوملت مثل أرض السواد دون إرهاق.

ولم تشر المصادر إلى وقوع تغيير في مقادير الخراج في عهد الخليفين عثمان وعلي عليهما السلام، مما يشير إلى استمرارهما في سياسة عمر رضي الله عنه الخراجية، التي كان لها الأثر البالغ في الازدهار الاقتصادي، الذي تحقق في خلافة عثمان رضي الله عنه.

(١) لم يثبت أن عمر رفع الخراج عن العنب والنخل والخضراوات، كما ذكر أبو يوسف عن الحسن ابن عمار لأن الحسن متروك (الخراج ٤١).

(٢) عبدالرزاق: المصنف ٦: ١٠٠، ١٠١ و ١٠: ٣٣٣. وابن زنجويه: الأموال ١: ٢٠٩، ٢١٠. والخطيب: تاريخ بغداد ١: ١٠ - ١١. والبيهقي: السنن ٩: ١٣٦. وتتعاضد الروايات لتقوية الخبر.

(٣) أبو عبيد: الأموال ٧٥، وابن أبي شيبه: المصنف ٢: ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٥، ٤٣٦. وابن زنجويه: الأموال ١: ٢١٠، ٢١١. والأسانيد تتضافر لتقوية الخبر.

وقد تميز عصر عمر بالدقة في الإحصاء للسكان ومسح أراضي السواد، وتميز الأراضي الخاصة بكسرى وأسرته، والأراضي التي قتل أصحابها أو فروا في المعارك ضد المسلمين، والأراضي البور، وقد قاد عملية المسح رجال من الصحابة «جمع سعد من وراء المدائن، وأمر بالإحصاء، فوجدهم بضعة وثلاثين ومئة ألف - أكثر من ١٣٠,٠٠٠ نسمة - ووجدهم بضعة وثلاثين ألف أهل بيت - أكثر من ٣٠,٠٠٠ أسرة - وهذا الإحصاء الذي قام به الصحابي سعد ابن أبي وقاص يدل على قدرة عالية ومرونة في الاستفادة من الخبرات المحلية في أعمال المسح والإحصاء»^(١).

الْبَحْثُ الثَّالِثُ

الغنائم

يعرف الفقهاء الغنائم بأنها «ما غلب عليه المسلمون من أموال أهل الحرب حتى يأخذوه عنوة»^(٢). فلا يدخل فيها الفبيء، وهو ما أخذ من أموال أهل الحرب دون قتال.

ويعطى السلب للمقاتل، وهو متاع وسلاح ودابة المقتول، لحديث: «من قتل قتيلاً فله سلبه»^(٣). ويسهم للفارس بثلاثة أسهم، وللراجل بسهم واحد^(٤).

(١) عبدالعزيز إبراهيم العمري: الولاية على البلدان ٢: ١٠٢.

(٢) أبو يوسف: الخراج ١٩، ويحيى بن آدم: الخراج ٢٢، وأبو عبيد: الأموال ٢٣٧.

(٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٦: ٢٤٧).

(٤) رواه أبو داود: صحيح سنن أبي داود للألباني ٢: ٥٢٢.

ويعامل الأسرى باحترام، وللإمام أن يحكم فيهم بقبول المفاداة، أو المن عليهم بإطلاق سراحهم دون مقابل، أو ضرب الجزية عليهم إن كانوا كتابيين، أو استرقاقهم، أو قتلهم مراعيًا في ذلك المصلحة^(١). وكانت الدولة تباع الرقيق الذي يقع لها ضمن خمس الغنائم، فقد اشترى الأشعث من بيت مال الكوفة رقيقاً بعشرين ألف درهم، وذلك خلال تولي عبدالله بن مسعود بيت مال الكوفة^(٢).

وتعد الغنائم التي حازها المسلمون من أعدائهم مورداً حسناً لبيت المال، وللمقاتلين مما يرفع من مستوى معيشتهم، ومن المعلوم أن القرآن نصّ على توزيع الغنائم بين الدولة والمقاتلين، ولم يترك ذلك لاجتهاد الدولة، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ...﴾^(٣). وهكذا صار الخمس للدولة، وأربعة أخماس الغنيمة للمقاتلين.

ومن الظاهر أن حركة الردة اقتصرت غنائمها على داخل الجزيرة العربية، فكان معظمها من الخيل (الكراع) والإبل والماشية، والسبي (نساء وذري)، والسلاح (الحلقة)، وشيء من الذهب والفضة، ولا تذكر المصادر أرقاماً محددة بالنسبة لأصناف الغنيمة، ولكن مصادرة الخيل والسلاح من القبائل المرتدة يوفر أعداداً جيدة للدولة، نظراً لعناية القبائل بحياسة الخيل والسلاح. وكان الإجراء يهدف إلى إضعاف المرتدين لعدم الثقة بهم، لذلك لم يقبل اشتراكهم في حركات الفتح الإسلامي حتى نهاية خلافة أبي بكر (رضي الله عنه).

ولا جدوى من محاكمة الروايات وفق مناهج المحدثين؛ لأن معظم الأرقام وردت في روايات تاريخية لا يتمتع رواتها بثقة النقاد من أهل الحديث، فلو نظرنا

(١) ابن حجر: فتح الباري ٦: ١٥٢.

(٢) أبو داود: السنن ٢: ٢٥٥.

(٣) الأنفال: ٤١.

في مصادر الطبري عن حركات الردة لوجدناه ينقل (٧٣ رواية) عن سيف و (١٤ رواية) عن ابن إسحاق و (٥ روايات) عن أبي مخنف و (٤ روايات) عن ابن الكلبي^(١). أما كتاب ابن حبش (عبدالرحمن بن محمد بن حبش الأندلسي) فهو أكثر دقة وتنوعاً في المصادر بالنسبة لحركة الردة، حيث يقتبس كثيراً من ابن إسحاق والواقدي ووثيمة ويعقوب الزهري، في حين اعتمد خليفة بن خياط في تأريخه على ابن إسحاق (١٩ رواية) والمدائني (١٦ رواية) بالدرجة الأولى.

والحق أن المصادر الحديثة تقتصر على ذكر معلومات محدودة، دون الخوض في التفاصيل التي أوردها الإخباريون.

وإذا كانت مصادرة أسد وغطفان لم تحدد مقدار الخيل والسلاح^(٢)، ومصادرة أهل اليمامة لم تحدد كميات الذهب والفضة والسبي والسلاح والخيل ومساحة البستان من كل قرية مما أخذه المسلمون^(٣)، فإن غزو القرية والعرض من ديار بني حنيفة قبل الصلح أوقع عدداً كبيراً من السبي، حيث أرسل خالد بن الوليد خمس مئة منهم إلى المدينة^(٤). ولا غرابة في كثرة غنائم اليمامة، لأنها مركز اقتصادي مهم زراعياً وتجارياً، وفيها كثافة سكانية عالية^(٥).

(١) عبدالعزيز محمد نور ولي: حركة الردة في اليمن وحضرموت وعمان ص ١٠.
(٢) ابن أبي شبة: المصنف ١٢: ٢٦٣ - ٢٦٤، والبخاري: الصحيح ٩: ١٠١ مختصراً. وأبو عبيد: الأموال ٤٧٠، وسعيد بن منصور: السنن ٢: ٣٣٠، وأحمد: فضائل الصحابة ٢: ٨٩٣، والبلاذري: فتوح البلدان ١٣٢، والطبراني: الأوسط (مجمع الزوائد ٦: ٢٢٢)، والبيهقي: السنن الكبرى ٨: ١٨٣، ٣٣٥.

(٣) الطبري: تأريخ ٣: ٢٩٨ من طريق سيف و ٣: ٢٩٧ - ٢٩٨ من طريق ابن إسحاق، لكنه يذكر أن المصادرة لربع السبي فقط. وخليفة: تأريخ ١١٠، والبلاذري: فتوح البلدان ١٢٣ لكنه يذكر ربع السبي ونصف الذهب والفضة. وابن أعثم: الفتوح ١: ٤٠ ويذكر ثلث الخيل وربع السبي.

(٤) ابن أعثم: الفتوح ١: ١٥ - ١٦.

(٥) حشدت ٤٠,٠٠٠ مقاتل في مواجهة المسلمين بقيادة مسيلمة.

وصالح العلاء بن الحضرمي أهل البحرين على ثلث أموالهم داخل مدينتهم، أما ما كان خارجها فقد أخذه جميعاً، وأرسل بأموال كثيرة إلى المدينة^(١). وبلغ نصيب الفارس من جزيرة دارين ٦٠٠٠ درهم (ستة آلاف درهم)، والراجل ٢٠٠٠ درهم (ألفي درهم)^(٢).

وبلغت الأموال التي جناها المسلمون من المرتدين في عمان (دبا) ٤٠٠٠ رأس (أربعة آلاف رأس) من الإبل، كان حصة الدولة منها ٨٠٠ رأس (ثمان مئة رأس)، ويبلغ ثمنها ما يقارب ٢٠٠,٠٠٠ درهم (مئتي ألف درهم)^(٣) وإضافة إلى الإبل حازوا ٣٥٠٠ من الأسرى والنساء والذراري بلغت حصة الدولة منها ٧٠٠ (٣٠٠ أسير و ٤٠٠ نساء وذراري) - إذا افترضنا توزيع الأسرى والنساء والذراري بنسبة أربعة أخماس للمقاتلين -^(٤). وهذا العدد الكبير من الأسرى والسبي يقدر بـ ١,٤٠٠,٠٠٠ درهم منها ٢٨٠,٠٠٠ درهم حصة الدولة. هذا إذا قبلنا أن فداء الأسير يبلغ ٤٠٠ درهم أربع مئة درهم، كما حدث في مفاداة أهل النيجر في خلافة أبي بكر^(٥).

(١) الكلاعي: الاكتفا (حروب الردة) ٢٠١.

(٢) الطبري: تأريخ ٣: ٣١١ عن سيف.

(٣) وهذا التقدير يفترض أن ثمن الواحد من الإبل ٥٠ درهماً (خمسین درهماً)، وإذا قبلنا خبرين بإسنادين ضعيفين، فإن ثمن ست قلانص (النياق الشابة) كانت تعادل ٤٠٠ درهم في خلافة عمر، فالناقة الشابة الواحدة تساوي ٦٦ درهماً، مع العلم أن ثمن الإبل زاد في خلافة عمر عما كانت عليه في عصر السيرة وخلافة أبي بكر رضي الله عنه (عبدالرزاق: المصنف ٧: ٢٧٨، ٢٧٩، وأبو عبيد: الأموال ١٤٧، ١٤٨، وابن زنجويه: الأموال ١: ٣٥٠، ٣٥١، والبيهقي: السنن ٩: ٧٤ والخبران بإسنادين ضعيفين).

(٤) حول تقسيم السبي بعد المعركة بين المقاتلين انظر: عبدالرزاق: المصنف ٥: ١٩٤، والدارقطني: السنن ٤: ١١٤، والبيهقي: السنن ٩: ١١٢، وابن أبي شيبه: المصنف ٦: ٥٠٦، وسعيد بن منصور: السنن ٢: ٢٨٨.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ١٤٥، والكلاعي: الاكتفا (حروب الردة) ٢٤٠.

وكان عدد السبي من أهل النيجر ألف امرأة وضعن في دار رملة بنت الحارث، فيكون فداؤهن ٤٠٠,٠٠٠ درهم (أربع مئة ألف درهم) فضلاً عن الأموال المنقولة^(١).

وأصاب المسلمون من المرتدين بمهرة ألفي نجبية (٢٠٠٠ نجبية)^(٢)، تبلغ قيمتها أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ درهم - إذا اعتبرنا النجبية بـ ١٠٠ درهم^(٣)، في حين أن الجمل العادي بـ ٥٠ درهماً -.

وقد اقتضى تملك الدولة للإبل والخيول والأغنام من الزكاة والغنائم تخصيص مراعى لها، فكان حمى النقيع - نقيع الخضعات - قرب المدينة للخيول منذ عصر السيرة^(٤)، واستمر في خلافة الصديق^(٥)، وحمى الربذة لإبل الصدقة^(٦).

وهذه الأموال لا تعد شيئاً إلى جانب غنائم الفتوح الإسلامية في الهلال الخصيب ومصر، ولا تشير المصادر إلى مقادير غنائم الفتوح في العراق والشام، بل تذكر وقوع السلاح والدواب والمتاع والنساء والصبيان بيد الجيوش الإسلامية^(٧)، ولكنها حددت سهم الفارس في موقعة ذات السلاسل والثني بألف درهم (١٠٠٠ درهم)، والراجل ثلث المبلغ، كما أشارت إلى ثراء الأبله

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٣١٧ عن سيف، والبلاذري: فتوح البلدان ١٤٥، والكلاعي: الاكتفا ٢٤٠.

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٣١٧ عن سيف

(٣) قومت بختية لعمر - ناقة خراسانية - بثلاث مئة درهم (أحمد: المسند ٢: ١٤٥).

(٤) أحمد: المسند ٢: ٩١، ١٥٥، ١٥٧ بإسناد صحيح. وأبو عبيد: الأموال ٣٠٩، وأبو داود: السنن ٣: ٤٦١ - ٤٦٢ بسند حسن.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٥: ١١ عن الواقدي.

(٦) الطبري: تاريخ ٣: ١٤٨ عن سيف.

(٧) خليفة: التاريخ ١١٧، ١١٨، ١١٩. والطبري: تاريخ ٣: ٣٥١ عن سيف، ٣٥٤، ٣٨٢ عن

سيف، ٤٠٧، ٤١٠ عن سيف. وأبو يوسف: الخراج ٤٢، ١٤٦، ١٤٧ عن ابن إسحاق.

والأزدي: فتوح الشام ٧٠، ٧٦، ٧٧، ٨٢. والبلاذري: فتوح البلدان ١٥٢، ١٥٤.

«حتى إنهم ليولغون كلابهم في أنية الذهب والفضة»^(١). كما حددت سهم الفارس في امغيشيا بألف وخمس مئة درهم (١٥٠٠ درهم) سوى المكافآت للشجعان^(٢).

ويجمل الفقيه أبو يوسف مقدار غنائم فتوح العراق خلال قيادة خالد بن الوليد «بألف رأس وقيل خمسة آلاف رأس»^(٣). وبالطبع فإن المعارك جميعاً دارت في قرى ومدن صغيرة على الفرات، ولم يتسم الفتح بالاستقرار، بل انتقضت المناطق المفتوحة مراراً، وهذا يوضح قلة الغنائم في المناطق المفتوحة في خلافة الصديق رضي الله عنه.

أما في خلافة عمر رضي الله عنه فقد زادت الغنائم زيادة كبيرة لاتساع المناطق المفتوحة، ولما كانت تتمتع به من ازدهار اقتصادي كبير، وكان القادة الفرس والروم يخرجون إلى الميدان بكامل أهبتهم، فيقع سلبهم للمسلم، وأحياناً يبلغ ١٥,٠٠٠ درهم^(٤) و ٣٠,٠٠٠ درهم^(٥).

وقد فتحت المدن العظيمة كالمدائن وجلولاء وهمذان والري واصطخر وغيرها، فحاز المسلمون أموالاً عظيمة، مثل بساط كسرى، وهو ٣٦٠٠ ذراع مربعة «أرضه مفروشة بالذهب وموشى بالفصوص، وفيه رسوم ثمار بالجواهر، وورقها بالحرير، وفيه رسوم للماء الجاري بالذهب»، وقد بيعت قطعة صغيرة منه بعشرين ألف درهم (٢٠,٠٠٠ درهم)^(٦).

(١) خليفة: التأريخ ١١٧.

(٢) الطبري: تأريخ ٣: ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٣) الخراج ١٤٧.

(٤) حازه أبو قتادة الأنصاري، وهو ثمن منطقة قتيله ومعها أشياء أخرى (ابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٨٩، ٦٩٠ بسند ضعيف).

(٥) حازه البراء بن مالك الأنصاري من قتيله مرزبان الزارة بالبحرين (عبدالرزاق: المصنف ٥:

٢٣٣، وسعيد بن منصور: السنن ٢: ٢٦٣، وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٧٩، وابن زنجويه:

الأموال ٢: ٦٨٩، والبيهقي: السنن ٦: ٣١٠ - ٣١١ والخبر صحيح).

(٦) الطبري: تأريخ ٢: ٤٦٧ عن سيف.

وحاز المسلمون الذهب والفضة والمجوهرات العظيمة من غنائم جلولاء ونهاوند^(١). حيث بلغ خمس جلولاء ستة ملايين درهم (٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم)^(٢)، وأعظم الغنائم هي أرض السواد التي وقفها عمر رضي الله عنه للدولة، وأراضي الصوافي التي قتل أصحابها أو فروا عنها، وأملاك كسرى وأهله، حيث جعلت غلتها للدولة، فقامت بإدارتها لصالح بيت المال، ويقال: إن غلتها - فيما بعد - بلغت سبعة ملايين درهم (٧,٠٠٠,٠٠٠ درهم)^(٣).

وللأسف فإن المصادر لا تتيح من أرقام غنائم الفتح ما يمكن من تقدير دخل الدولة والمقاتلين منها، ولكن لا شك في أنها كانت عظيمة القدر، وأنها أغنت المسلمين أفراداً ودولة، وارتفعت بمستوى المعيشة، وظهرت آثارها أكثر جلاء في خلافة عثمان رضي الله عنه. وقد توسعت الفتوحات في النصف الأول من خلافة عثمان في خراسان شرقاً وأفريقية (تونس) غرباً^(٤)، وبلغ سهم المقاتل في تونس ألف دينار (١٠٠٠ دينار)^(٥) و ثلاثة آلاف دينار (٣٠٠٠ دينار)^(٦)، وبلغ خمس غنائم أفريقية خمسة عشر ألف درهم (١٥,٠٠٠ درهم) عندما غزاها مروان بن الحكم^(٧)، فتكون غنيمة تلك الغزوة (٧٥,٠٠٠ درهم) للدولة، وتكون سائر الغنيمة (٣٧٥,٠٠٠ درهم).

-
- (١) ابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٦٧ بسند حسن (ط. بيروت). وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٨٠ - ٥٨٢. والبلاذري: فتوح البلدان ٣٠٢. والطبري: تاريخ ٢: ٥١٨ - ٥٢٠ بسند ضعيف.
- (٢) ابن أبي شيبة: المصنف ١٢: ٣١٨، وأبو عبيد: الأموال ٢٢٤ وفي السند مجالد ليس بالقوي، ثم هو مرسل الشعبي.
- (٣) ابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٧٣، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٣١، وابن حجر: المطالب العالية ٢: ١٨٢ نقلاً عن الحارث بن أبي أسامة، والبيهقي: السنن ٩: ١٣٤.
- (٤) الطبري: تاريخ ٤: ١٨٢، ٢٥٣ - ٢٥٤ عن سيف.
- (٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١٢٥.
- (٦) أبو زرعة الدمشقي: تاريخ ١: ١٨٤ - ١٨٥، وخليفة: التاريخ ١٦٠، وابن شبة: تاريخ المدينة ٣: ١٠٢٢.
- (٧) أبو هلال العسكري: الأوائل ١: ٢٧٢ بسند ضعيف.

وقد أدت كثرة النقود إلى التضخم الاقتصادي في البضائع ذات الجودة العالية أو النادرة، فبلغ ثمن مطرف خز مئتي درهم ٢٠٠ درهم وبرد يمانى مبلغ مئة درهم ١٠٠ درهم^(١)، وبيعت الفرس بخمسين ألفاً (٥٠,٠٠٠ درهم)^(٢) وبمئة ألف درهم (١٠٠,٠٠٠ درهم)، وبيعت نخلة بألف درهم (١٠٠٠ درهم)^(٣).

المبحث الرابع

الزكاة

قامت الدولة الإسلامية في خلافة الصديق رضي الله عنه بجباية أموال الزكاة عن طريق إرسال المصدقين إلى أرجاء الجزيرة التابعة لها، وقد أعاققت حركة الردة أعمال الجباية من معظم المناطق سوى الحجاز وجواثا - قرية بالبحرين - والقبائل التي حافظت على إسلامها وولائها للدولة، وقد قاتلت جيوش الخلافة المرتدين سنة وأشهرًا، حتى أعادتهم إلى الإسلام والطاعة، وكان ذلك الموقف الحازم من الخليفة الراشد سبباً لإعادة توحيد الدولة، وتطبيق الشريعة على الناس، ولما رأى بعض الصحابة عدم مقاتلة المرتدين ومنهم عمر بن الخطاب، واحتجوا بالحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله». فأوضح

(١) ابن سعد: الطبقات ٣: ٥٨ وكلا الثمنين من طريق الواقدي، وهو متروك في الحديث، غزير المعرفة التاريخية، لا يستغنى عنه في التاريخ.

(٢) ابن شبة: تاريخ المدينة ٣: ١٠٢٣ بسند مرسل.

(٣) ابن شبة: تاريخ المدينة ٣: ١٠٢١ بسند منقطع قبل السعدي. والطبراني: المعجم الكبير ١: ١٥٨ - ١٥٩ بسند مرسل. والحاكم: المستدرک ٣: ٥٩٧ ونقد الذهبي متنه.

لهم أبو بكر الفهم الصحيح للأحاديث بالجمع بينها، قائلاً: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً (وفي رواية: عقلاً) كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها» • قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق^(١).

ورجع الصحابة جميعاً إلى رأي أبي بكر^(٢). وكان اعتراضهم على قتال مانعي الزكاة فقط، لأنهم متأولون للآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾^(٣). فزعموا أن دفع الزكاة خاص به ﷺ، لأن غيره لا يطهرهم، ولا يصلي عليهم، فكيف تكون صلاته سكناً لهم!! ولم ينكروا الزكاة جحوداً، فلا يخرجهم التأويل عن الإسلام، وهؤلاء لم يقاتلهم أبو بكر إلا بعد أن دعاهم إلى الرجوع إلى دفع الزكاة، فلما أصرروا قاتلهم. وأما الجاحدون للزكاة فيخرجون من الإسلام بإنكارهم فريضة من أركانه، وليس اعتراض الصحابة على قتالهم ولا على قتال أتباع مسيلمة وغيره من أدعياء النبوة^(٤).

ولا شك أن العام الأول من خلافة الصديق شهد انخفاضاً كبيراً في موارد الزكاة، فقد دفعت فروع من تميم صدقاتها، وهي الرباب بن عوف والأبناء من بني سعد بن تميم، وهي سبع مئة بعير قيمتها نحو خمسة وثلاثون ألف درهم (٣٥,٠٠٠ درهم)^(٥). ودفعت طي زكاتها ثلاث مئة بعير تساوي خمسة عشر ألف درهم (١٥,٠٠٠ درهم)^(٦).

(١) البخاري: الصحيح ٢: ١٣١، ١٤٧ و ٩: ١٩، ١١٥. ومسلم: الصحيح ١: ٥١.

(٢) الكلاعي: الاكتفا (حروب الردة) ٣٨، وسعيد بن منصور: السنن ٢: ٣٢٢، والبيهقي: السنن الكبرى ٨: ١٧٧.

(٣) التوبة: ١٠٣.

(٤) ابن حجر: فتح الباري ١٢: ٢٧٦، ٢٧٧ و ٣: ٣٦٦.

(٥) ابن قتيبة: المعارف ٣٠٢.

(٦) الكلاعي: الاكتفا حروب الردة ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥١. والديار بكري: تاريخ الخميس ٢: ٢٠٣.

وقد دفعت القبائل التي ثبتت على الإسلام الزكاة، بعضها صرحت المصادر بدفعها الزكاة، وهي مقاعس والبطون من بني سعد من تميم، وبني مالك من بني يربوع من تميم، وقوم الهيثم السلمي، وجمع من مهرة بن حيدان، وأسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع^(١). وبعضها ذكرت المصادر ثباتها على الإسلام دون التصريح بدفعها الزكاة، ولكن لا شك في أنها دفعت الزكاة وهي ثقيف وهذيل والدليل وكنانة وأهل السراة وبجيلة وخثعم وهوازن وجشم وسعد بن بكر وعبد القيس (من تميم)، ومذحج إلا بنو زيد، وهمدان والأبناء^(٢).

وينبغي الإشارة إلى نفقات الدولة الكثيرة في حروب الردة لا بد أنها اعتمدت على موارد الغنائم من ناحية، والزكاة التي تضاءلت كثيراً من ناحية أخرى. وكذلك لا بد من الإشارة إلى أن أبا بكر رضي الله عنه كان يأخذ الزكاة من الأموال الظاهرة والباطنة، وكان يسأل الرجل عندما يسلمه العطاء إن كان عنده مال عليه زكاة، فإذا قال: نعم. استقطع الزكاة من عطائه^(٣).

وفي خلافة عمر رضي الله عنه سار على نهج النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه، في إرسال المصدقين لجمع الزكاة من أرجاء الدولة الإسلامية، وقد أسلم الكثير من سكان الأقطار المفتوحة، ونمت رؤوس أموال المسلمين في خلافته نتيجة الفتح ومكاسبه والتجارة الحرة في ظل الأمن وقوة الدولة الإسلامية، ولا شك أن هذه العوامل أدت إلى زيادة عظيمة في مقادير الزكاة. وكان العدل في الجباية ظاهراً دون الإخلال بحقوق بيت المال، ولم يكن موعد جباية الزكاة متفقاً مع موعد دفع العطاء، إذ لا يحول الحول على أموال الرعية في وقت العطاء، لذلك لم تكن

(١) الطبري: تأريخ ٣: ٢٦٨ عن سيف، ٢٧٦. وابن أبي الدنيا: الإشراف في منازل الأشراف ٢٠٥. وابن حجر: الإصابة ٣: ٦١٥، ٦٣٦. وقدامة بن جعفر: الخراج ٢٧٧. والكلاعي: الاكتفا (حروب الردة) ٤٤٧. والديار بكري: تأريخ الخميس ٢: ٢٠٣.

(٢) العيني: عمدة القاري ٧: ١٧١ عن كتاب الردة للواقدي.

(٣) مالك: الموطأ ١: ٢٤٥ وفيه انقطاع، نبّه عليه ابن حجر (كنز العمال ٦: ٥٣٠).

الدولة تأخذ الزكاة من العطاء^(١)، وكان سفيان بن عبد الله الثقفي مصدقاً، فكان يحصي جميع الغنم حتى الوليدة ولكنه لا يأخذها في الزكاة، فجادله أصحاب الغنم، فسأل المصدق عمر رضي الله عنه فدله على أخذ الغنم المتوسطة دون سخاها ولا خيارها^(٢).

وهذا يتفق مع السنة: «وإياك وكرائم أموالهم»^(٣)، وقد أنكر عمر رضي الله عنه على عامل الصدقات أخذه لشاة كثيرة اللبن ذات ضرع عظيم، قائلاً: «ما أعطى هذه أهلها وهم طائعون، لا تفتنوا الناس!!»^(٤).

وقد توسعت ملكية الرقيق والخيّل في أيدي المسلمين، فاقترح الصحابة فرض الزكاة على الرقيق والخيّل^(٥)، فعَدَّ عمر الرقيق والخيّل من أموال التجارة، وفرض على الرقيق الصبيان والكبار ديناراً عشرة دراهم، وعلى الخيل العربية (عشرة دراهم)، والبراذين (الخيّل غير العربية) خمسة دراهم. ويفهم أنه لم يفرض الزكاة في رقيق الخدمة والخيّل المعدة للجهاد، لأنها ليست من عروض التجارة، بل إنه عوض من يدفع زكاتها كل شهر جريين (نحو ٢٠٩ كيلو غرام من القمح)، وهو أكثر قيمة من الزكاة^(٦)، وذلك لحديث: «ليس على المسلم

(١) أبو عبيد: الأموال ٤١٧، وابن زنجويه: الأموال ٣: ٩٢٠، وابن أبي شيبة: المصنف ٢: ٤٠٧، والأثر صحيح.

(٢) مالك: الموطأ ١: ٢٥٤، وعبد الرزاق: المصنف ٤: ١٠، ١١، ١٤، ١٥. وابن زنجويه: الأموال ٢: ٨٥٧، والبيهقي: السنن ٤: ١٠٠ - ١٠٣ والأثر صحيح.

(٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٣: ٢٦١).

(٤) مالك: الموطأ ١: ٢٥٦، وابن أبي شيبة: المصنف ٢: ٣٦٢، وابن زنجويه: الأموال ٣: ٨٨٥ - ٨٨٦، والبيهقي: السنن ٤: ١٥٨ والأثر حسن.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١: ١٥٢، وابن أبي شيبة: المصنف ٢: ٣٨١ بإسناد صحيح. وأبو عبيد: الأموال ٢٦١، ٢٦٢، ٤٦٨، ٤٦٩. وابن زنجويه: الأموال ٣: ١٠٢٦ والأثر صحيح.

(٦) ابن زنجويه: الأموال ٣: ١٠٢٤، والطبري: تهذيب الآثار ٢١٢. والأثر صحيح.

في فرسه ولا عبده صدقة»^(١). وقد أخذ من الركاز (المال المدفون) - إذا عثر عليه - الخمس^(٢).

وحرص على تداول الأموال وتشغيلها، لئلا تذهب بها الزكاة مع تعاقب الأعوام. فكان عنده مال لیتيم، فأعطاه للحكم بن العاص الثقفي ليتجر به^(٣)، إذ لم يجد عمر وقتاً للتجارة، وقد زحمته مسؤوليات الخلافة. وعندما صار الربح وفيراً من عشرة آلاف درهم - (١٠,٠٠٠ درهم) - إلى مئة ألف درهم - (١٠٠,٠٠٠ درهم) - شك عمر في طريقة الكسب، ولما علم أن التاجر استغل صلة الیتيم بعمر رفض جميع الربح واسترد رأس المال، حيث اعتبر الربح خبيثاً!!^(٤). فهو يعمل بمبدأ فرضه على ولاته، وهو رفض استغلال مواقع المسؤولية في الدولة، ومن هنا قاسم الولاة ثروتهم إذا نمت بالتجارة.

وقد أخذ عمر زكاة الزروع العشر فيما سقته الأمطار والأنهار، ونصف العشر فيما سقي بالآلة^(٥)، وهو الموافق للسنة^(٦). وكان يوصي بالرفق بأصحاب البساتين عند تقدير الحاصل من التمر^(٧). وأخذ زكاة عشرية من العسل إذا حمت الدولة وادي النحل لمستثمره^(٨).

-
- (١) صحيح الترمذي ١: ١٩٦ وقال الترمذي: والعمل عليه عند أهل العلم.
 (٢) عبدالرزاق: المصنف ٥: ٢٢٦، ٢٢٧، وابن أبي شيبه: المصنف ٢: ٤٣٦ و ٦: ٤٣٤، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٧٤٩، ٧٥٠. وتتعاقد الطرق لتقوية الأثر إلى الحسن.
 (٣) ابن زنجويه: الأموال ٣: ٩٩٠ والأثر صحيح.
 (٤) عبدالرزاق: المصنف ٤: ٦٧، ٦٨، وأبو عبيد: الأموال ٤٥٥ والأثر صحيح.
 (٥) عبدالرزاق: المصنف ٤: ١٣٤، ١٣٥ والأثر صحيح.
 (٦) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٣: ٣٤٧).
 (٧) عبدالرزاق: المصنف ٤: ١٢٩، وابن أبي شيبه: المصنف ٢: ٤١٤ والأثر صحيح.
 (٨) أبو داود: السنن ٢: ١٠٩، والنسائي: السنن ٥: ٤٦، والدارقطني: السنن ٤: ٢٣٨، والبيهقي: السنن ٤: ١٢٦ والأثر حسن. وانظر أثر آخر في عبدالرزاق: المصنف ٤: ٦٢، وابن أبي شيبه: المصنف ٢: ٣٧٣ وهو أثر حسن أيضاً. ويقوى الأثران إلى الصحيح لغيره في فرض الزكاة العشرية على العسل الذي تحميه الدولة للمستثمر.

وقد كثرت الخنطة في خلافته، فسمح بإخراج زكاة الفطر من الخنطة بنصف وزن ما كانوا يؤدونه قبل خلافته من الشعير أو التمر أو الزبيب^(١). وهذا فيه تيسير على الناس، وقبول للمال الأنفس في الزكاة وإن تفاوت الجنس^(٢).

وقد ذكرت المصادر أسماء عدد من المصدقين في خلافة عمر رضي الله عنه، وهم:

- ١ - أنس بن مالك^(٣).
- ٢ - سعيد بن أبي ذباب، على السراة^(٤).
- ٣ - حارثة بن مضرب العبدي^(٥).
- ٤ - عبدالله بن الساعدي^(٦).
- ٥ - سهل بن أبي حثمة^(٧).
- ٦ - مسلمة بن مخلد الأنصاري^(٨).
- ٧ - معاذ بن جبل، على بني كلاب^(٩).

(١) ابن زنجويه: الأموال ٣: ١٢٤٣ والأثر حسن. وانظر ما رواه أبو داود: السنن ٢: ١١٢ حيث نسب ذلك إلى عمر من طريق مولاة نافع، في حين أن سبعة من أصحاب نافع نسبوه إلى معاوية (مسلم: التمييز ٢١١، ٢١٢). وراجع البخاري: الصحيح (فتح الباري ٣: ٣٧٢) في نسبته إلى معاوية.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٣: ٣١٣.

(٣) عمر بن شبة: تاريخ المدينة ٣: ٨٥٤، ٨٥٥ والأثر صحيح. وأبو عبيد: الأموال ٤٢٧، وابن زنجويه: الأموال ٣: ٩٣٤ والأثر حسن.

(٤) ابن أبي شيبه: المصنف ٢: ٣٧٣، وابن زنجويه: الأموال ٢: ١٠٩١، والبزار: المسند ١: ٤١٥، ٤١٦.

(٥) ابن أبي شيبه: المصنف ٢: ٣٩٤ والأثر صحيح.

(٦) مسلم: الصحيح ٢: ٧٢٣، والنسائي: السنن ٥: ١٠٣ - ١٠٥.

(٧) عبد الرزاق: المصنف ٤: ١٢٩، وابن أبي شيبه: المصنف ٢: ٤١٤، والبيهقي: السنن ٤: ١٢٤ والأثر صحيح.

(٨) ابن سعد: الطبقات ٣: ٣١٣، وابن زنجويه: الأموال ٣: ١١٩٢ والأثر ضعيف.

(٩) أبو عبيد: الأموال ٥٨٩، ٥٩٠ والأثر ضعيف.

٨ - سعد الأعرج، على اليمن^(١).

٩ - سفيان بن عبدالله الثقفى، كان والياً على الطائف، فكان يجبي زكاتها^(٢). وفي خلافة عثمان رضي الله عنه جرى تعديل على جباية الزكاة، حيث ترك للناس إخراج زكاة الأموال الظاهرة (العين وهي الذهب والفضة) دون تسليمها للدولة^(٣)، ويعلل ذلك بأنه أراد رفع المشقة والخرج عن الناس من تفتيش سعاة السوء، ففوض الناس بإخراجها^(٤). أما زكاة المواشي والنخل فاستمرت الدولة بجبايتها.

ولا بد أن هذا الإجراء قلص موارد بيت المال من الزكاة، ولكنه ما كان ليؤثر كثيراً في التكافل الاجتماعي بين الناس، حيث إن الزكاة فريضة دينية، والمجتمع كان على وعي كبير بالإسلام ورغبة صادقة في تنفيذ تعاليمه.

الْبَحْثُ الْخَامِسُ

عشور التجارة

لم تفرض العشور على التجارة في عصر السيرة وخلافة أبي بكر، بل فرضها عمر رضي الله عنه لأول مرة^(٥) على التجار الأجانب إذا دخلوا ببضاعتهم ديار المسلمين، وذلك لأن دولهم كانت تأخذ ضريبة عشرية من التجار المسلمين، فاتبع سياسة

(١) عبدالرزاق: المصنف ٤: ١٣، وابن أبي شيبه: المصنف ٢: ٣٦٨، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٨٧٣، ٨٧٦ والأثر ضعيف.

(٢) مالك: الموطأ ١: ٢٥٤، وعبدالرزاق: المصنف ٤: ١٠، ١١، ١٤، ١٥، وابن أبي شيبه: المصنف ٢: ٣٦٨، والبلاذري: فتوح البلدان ٩٦.

(٣) أبو عبيد: الأموال ٥٣٤ بسند صحيح.

(٤) السرخسي: المسوط ٢: ١٦٩، وانظر: أبا عبيد: الأموال ٥٠٩ رقم ١٨١٧.

(٥) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٣٢٩ والأثر صحيح.

المعاملة بالمثل، وتؤخذ من التاجر مرة واحدة في السنة، ويعطى إيصالاً بذلك لئلا يتكرر أخذها كلما عبر الحدود. وقد نبه عمر رضي الله عنه زياد بن حدير عامله على العشور: «أن لا تعشر في السنة إلا مرة واحدة». «وكان يعشر كل من أقبل وأدبر»^(١). وكان مقدار الضريبة العشرية درهما واحداً من كل عشرة دراهم^(٢). وقد شمل ذلك تجار النبط، ولكنه جرى التخفيف عليهم إذا جلبوا الحنطة والزيت فأخذ منهم نصف العشر لحاجة الناس إليهما، وأما إذا جلبوا العدس والحمص واللوييا وما شاكلها مما لا تشتد الحاجة إليه لتوفره محلياً، فكان يؤخذ منهم العشر^(٣).

وكانت العشور تدفع أحياناً لعامل السوق، وكان على سوق المدينة عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي ومعه السائب بن يزيد، فكانا يأخذان العشر من النبط^(٤). وأخذ نصف العشر من تجارة أهل الذمة إلا بني تغلب من العرب، فأخذ منهم العشر^(٥).

وأما التجار المسلمون فلا يدفعون سوى الزكاة وهي ربع العشر. ولا توجد إحصائيات توضح موارد بيت المال من العشور في عصر الخلافة الراشدة.

(١) أبو عبيد: الأموال ٥٣٠ والأثر صحيح.

(٢) عبدالرزاق: المصنف ٤: ٨٨ و ٦: ٩٥، وأبو عبيد: الأموال ٥٣٠، والبيهقي: السنن الكبرى ٩: ٢٠٩ - ٢١٠ والأثر صحيح.

(٣) مالك: الموطأ ١: ٢٦٦، وعبدالرزاق: المصنف ٦: ٩٩ - ١٠٠ و ١٠: ٣٣٥، وأبو عبيد: الأموال ٥٣١، وابن أبي شيبة: المصنف ٢: ٤١٧، والبيهقي: السنن ٩: ٢١٠ والأثر صحيح.

(٤) مالك: الموطأ ١: ٢٦٦، وأبو عبيد: الأموال ٥٣١ والأثر صحيح.

(٥) عبدالرزاق: المصنف ٦: ٩٥ و ٤: ٨٨، وأبو عبيد: الأموال ٣٤، ٥٣٠ - ٥٣١، وابن زنجويه: الأموال ١: ١٣١ - ١٣٢ والأثر حسن مداره على إبراهيم بن المهاجر وهو صدوق لين الحديث، وقد اختلف عليه الرواة، فرواه الحكم بن عتيبة وسفيان الثوري فذكرافرض العشر على بني تغلب، وهما ثقتان. ورواه إسرائيل وشريك عنه فذكرافرض نصف العشر، وإسرائيل ثقة وشريك صدوق يخطئ كثيراً، وروايتها مخالفة، فهي شاذة.

إِهْضِيكَ الثَّانِي

النفقات العامة

المبحث الأول

مصارف الزكاة

إن مصارف الزكاة حددها القرآن بالأسهم الثمانية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١) دون أن يشترط بين الأصناف الثمانية، بل تصرف حسب تقدير المصلحة والحاجة^(٢). ونظراً لظروف حركة الردة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فقد توسع الصرف على السهم السابع ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من زكاة قبائل أسلم وغفار ومزينة وجهينة^(٣) ولعل أموالاً من الزكاة صرفت على حركة الفتوح في العراق والشام. وأنفق أبو بكر رضي الله عنه من السهم الرابع ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فأعطى عدي بن حاتم ثلاثين بغيراً من إبل الصدقة^(٤)، وأعطى الزبير بن بدر أيضاً من هذا السهم^(٥). وهذا يتفق مع أوضاع الدولة وقت الردة وحاجتها إلى تأليف القلوب، وإن كان الأثران ضعيفين.

وبرغم اتجاه الإنفاق هذا فإن الأسهم الأخرى أخذت نصيبها من أموال الزكاة، وأحياناً أشرف الخليفة بنفسه على توزيعها على الفقراء^(٦).

ومن أهم ما حدث من تغيير في توزيع الصدقات في خلافة عمر رضي الله عنه إسقاط سهم ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾^(٧) إذ كانوا يتألفون بالمال في عهد

(١) التوبة: ٦٠.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى ١٩: ٢٥٧ - ٢٥٩.

(٣) الكلاعي: الاكتفا (حروب الردة) ٤٤.

(٤) حماد بن إسحاق: تركة النبي ﷺ ص ٩٠ دون إسناد، والبيهقي: السنن الكبرى ٧: ١٩ - ٢٠،

والكلاعي: الاكتفا (حروب الردة) ٥٢.

(٥) ابن قدامة: المغني ٦: ١٢٧.

(٦) البيهقي: السنن الكبرى ٨: ٤٩ والأثر حسن.

(٧) تتضافر آثار ضعيفة على إثبات هذا الإسقاط (أحمد: فضائل الصحابة ١: ٢٩٢، وابن زنجويه:

الأموال ٢: ٦٢٣، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ٣: ٣٧٢ - ٣٧٣، والبيهقي: السنن ٧: ٢٠).

النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه^(١). وذلك لأن الإسلام كان قوي الجانب في خلافته فلا حاجة للإنفاق من أموال الزكاة على هذا الصنف من الأصناف الثمانية التي نصت عليها الآية^(٢).

وتشير روايات ضعيفة إلى أن عمر كان يجهز المجاهدين بأربعة آلاف فرس^(٣)، وثلاثين ألف بعير^(٤).

ومن المعروف أن المجاهدين هم أحد الأصناف الثمانية الذين يستحقون الزكاة حتى لو كانوا أغنياء. ومن البديهي القول: إن وفرة الأموال نتيجة الفتوحات ساعدت على التوسع في الصرف على التكافل الاجتماعي مما رفع من مستوى المعيشة في المجتمع.

المبحث الثاني

مصارف الغنائم والفبيء

يقصد بالغنائم تلك الأموال التي حازها المسلمون بالقوة، أما الأموال التي أخذت دون قتال فهي الفبيء.

وقد بين القرآن أن خمس الغنائم هي حصة الدولة، ولكنه حدد أوجه صرف الخمس: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ

(١) مسلم: الصحيح (شرح النووي) ١٥٦: ٧، وصحيح الترمذي للألباني ٢٠٤: ١، وابن كثير: التفسير ٣٦٥: ٢.

(٢) ابن كثير: التفسير ٣٦٥: ٢.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ٣٠٦، وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٧٥، والطبري: تاريخ ٢: ٥٧١ والأثر ضعيف للانقطاع بين نافع مولى ابن عمر وعمر، ولتدليس الحجاج بن أوطاة وقد عنعنه.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ٣٠٥ - ٣٠٦ والأثر ضعيف للانقطاع بين الراوي وعمر رضي الله عنه.

وَأَلَيْتَمَنَّى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴿١﴾. وأما أربعة أخماس الغنائم الأخرى، فإنها توزع على المقاتلين الذين شهدوا القتال، وبذلك فإن معظم الغنائم يتصرف بها الأفراد مما يرفع مستوى معيشتهم.

وأما الفيء فقد حدد القرآن أوجه صرفه: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (٢). وهكذا فإن أموال الفيء كلها للدولة، تتصرف في إنفاقها في التكافل الاجتماعي والتقريب بين فئات المجتمع الاقتصادية. ولما تولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة جعل سهم الرسول ﷺ من الخمس في الجهاد (سبيل الله) (٣)، وأما سهم ذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، فولى عليه علياً رضي الله عنه ليقوم بقسمته (٤)، ووردت روايات أخرى ضعيفة بأن أبا بكر رضي الله عنه «لم يكن يعطي قربي رسول الله ﷺ ما كان النبي يعطيهم» (٥) أو أنه أسقط سهم ذوي القربى وجعله في الجهاد (٦).

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) الحشر: ٧.

(٣) عبدالرزاق: المصنف ٥: ٢٣٨، وابن أبي شيبة: المصنف ١٢: ٤٧١ مختصراً، والبلاذري: أنساب الأشراف ١: ٥١٦، والطبري: جامع البيان ١٠: ٧ من مرسل إبراهيم وقتادة، والنسائي: السنن ٧: ١٣٣ من مرسل الحسن بن محمد ابن الحنفية، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٣٤٢.

(٤) أحمد: المسند ١: ٨٤-٨٥، وابن أبي شيبة: المصنف ١٢: ٤٧٠، وفي إسنادهم حسين بن ميمون الخندقي لين الحديث. وأبو داود: السنن ٣: ١٤٧، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٣٤٣ والأثر يقوى بطرقه إلى الحسن لغيره.

(٥) أبو داود: السنن ٣: ١٤٥، وأحمد: المسند ٤: ٨٣، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٣٤٢ وإسناده صحيح، ولكن العبارة المقتبسة أعلاه مرسل الزهري، أدرجت في كلام عثمان بن عفان وجبير بن مطعم (ابن حجر: فتح الباري ٦: ٢٤٥) فلا تثبت.

(٦) عبدالرزاق: المصنف ٥: ٢٣٨، ٢٣٩، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٧٣٠، والحاكم: المستدرک ٣: ١٣٨ وإسناده الأثر ضعيف. والطبري: تفسير ١٠: ٧ وفي الإسناد علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس، وعبدالله بن صالح كاتب الليث صدوق كثير الغلط وفيه غفلة، لكنه ثبت في كتابه (ابن حجر: تهذيب التهذيب ٧: ٣٣٩).

وقد ظهرت قضية ميراث الرسول ﷺ، وكان يتصرف في حياته بأموال الفيء وفق التوجيه القرآني، فلما توفي عليه الصلاة والسلام طالبت فاطمة رضي الله عنها بنصيبها مما ترك من سهامه من خير وفدك وصدقاته بالمدينة^(١)، وهي أموال عظيمة، وقد أوضح أبو بكر أن هذه الأموال لا تورث وفق وصية النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة»^(٢)، و«لا يقتسم ورثتي ديناراً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة»^(٣).

والحق أن هذه الأموال ليست ملكية شخصية للرسول ﷺ ما دام صرفها في أوجه يحددها القرآن، بل كان النبي ﷺ يقوم بقسمتها بوصفه رئيساً للدولة، ومجال صرفها عام يهدف إلى تحقيق التكافل الاجتماعي بين المسلمين.

ومن ثم فإن الأموال تعود بعد وفاته إلى الدولة، ويتولى مسؤوليتها الخليفة أو من ينوبه. لذلك قال أبو بكر لفاطمة رضي الله عنها: «من كان رسول الله ﷺ يعوله فأنا أعوله، ومن كان رسول الله ﷺ ينفق عليه فأنا أنفق عليه»^(٤). فكان أبو بكر ينفق على أهل الرسول ﷺ من الفيء، وما بقي يضعه في المصالح الأخرى^(٥). ولم تطالب أزواج الرسول ﷺ بميراثهن بعد أن ذكرتهن عائشة بحديث: «لا نورث ما تركنا صدقة»^(٦).

وقد شغلت هذه القضية أهل الأخبار، فملؤوا الأسفار بالروايات المتعلقة^(٧). وفي خلافة عمر رضي الله عنه عرض على بني هاشم والمطلب أن يصرف

(١) هي حدائق خمس وهبها له خريق.

(٢) البخاري: الصحيح ٩٦: ٤، ومسلم: الصحيح ٣: ١٣٨١.

(٣) البخاري: الصحيح ٩٩: ٤، ومسلم: الصحيح ٣: ١٣٨٢. قال أبو داود: «ومؤنة عاملي يعني أكرة الأرض» السنن ٣: ١٤٤ (ط. محمد محيي الدين عبد الحميد).

(٤) ابن حجر: فتح الباري ٦: ٢٠٣.

(٥) المصدر السابق.

(٦) البخاري: الصحيح ٥: ١١٥ و ٨: ١٨٧، ومسلم: الصحيح ٣: ١٣٧٩.

(٧) ابن سعد: الطبقات ٨: ٢٩، وهما بن إسحاق: تركة النبي ٨٦، وابن شبة: تاريخ المدينة ١: ١٩٩ - ٢٠٠، والبلاذري: أنساب الأشراف (الشيخان) ٥٧، والبيهقي: السنن الكبرى ٤: ٢٩.

عليهم من خمس ذوي القربى في مجالات محددة «يزوج أيهم، ويقضي دين غريمهم، فأبوا إلا أن يسلمهم الخمس جميعاً، فأبى عمر رضي الله عنه»^(١).

وقد أجلى عمر رضي الله عنه يهود خيبر إلى تيماء وأريحا^(٢)، وذلك تطبيقاً لحديث: «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان»^(٣). وقد كثر العمال في أيدي المسلمين في خلافته، وقوي المسلمون على العمل في الأرض^(٤)، فلم تعد ثمة ضرورة لاستمرار عقد المزارعة معهم. فأجلى يهود خيبر، وقسم ما كان بأيديهم من أرض خيبر بين من شهد خيبر في عهد النبوة^(٥). ولما كان النبي ﷺ يعطي زوجاته من خمس خيبر ثمانين وسقاً من التمر وعشرين وسقاً من الشعير، فقد خيرهن عمر بين أن يقطع لهن من الأرض أو يعطينهن مئة وسق، فاخترت عائشة وحفصة الأرض^(٦).

وأمسك عمر رضي الله عنه ما جعله النبي ﷺ لنوابه وحوادثه من شطر خيبر ونصيبه من خمس خيبر، وجعل التصرف فيهما لولي الأمر^(٧). كذلك أجلى عمر رضي الله عنه يهود

(١) عبدالرزاق: المصنف ٥: ٢٣٨، وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٥١٦، ٥١٧، وأحمد: المسند ١: ٣٢٠ وابن زنجويه: الأموال ٢: ٧٣٥، ٧٣٦، وأبو يعلى: المسند ٤: ٢٣، ٤٢٤ و ٥: ٤١، وأبو عوانة: المسند ٤: ٣٣٠، ٣٣١، وابن حبان: الإحسان ٧: ١٥٧ والأثر صحيح.

(٢) البخاري: الصحيح ٢: ٤٨، ومسلم: الصحيح ١٠: ٢١٢، وعبدالرزاق: المصنف ٦: ٥٥ و ٨: ٩٨ و ١٠: ٣٥٩، وابن زنجويه: الأموال ٣: ١٠٦٧، ١٠٦٨، وابن الجارود: المتقى ١٦٦، ١٦٧، ٢٧٨، والبيهقي: دلائل النبوة ٤: ٢٣٤، والسنن ٦: ١١٤، ١٣٥.

(٣) عبدالرزاق: المصنف ٤: ١٢٥، ١٢٦ و ٦: ٥٦، والبزار: المسند ٢: ٩٤، ٩٥، والبيهقي: السنن الكبرى ٩: ٢٠٨ والحديث صحيح.

(٤) أبو عبيد: الأموال ٦١، ٦٢، وابن شبة: تاريخ المدينة ١: ١٨٨، والبلاذري: ٣٨، ٣٩ والأثر إسناده ضعيف.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ٢٧، وابن حبان: الإحسان ١١: ٦٠٩، والبيهقي: السنن ٦: ١١٤ والأثر حسن.

(٦) البخاري: الصحيح ٢: ٤٦، ومسلم: الصحيح (شرح النووي) ١٠: ٢٠٩، ٢١٢، وابن شبة: تاريخ المدينة ١: ١٧٨، ١٨٤، ١٨٦، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤١، ٤٢، وابن الجارود: المتقى ١٦٦، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ١١٤ - ١١٦، ٣٤٠.

(٧) البخاري: الصحيح ٢: ١٨٥، ١٨٦، ومسلم: الصحيح (شرح النووي) ١٢: ٧٦، ٨٠، ٨١.

فدك بعد أن عوّضهم عن أرضهم، وجعلها تحت تصرف ولي الأمر، وكانت في عهد النبوة قد حُبست مواردها لأبناء السبيل^(١).

وأما الفيء من أرض بني النضير، فكان الرسول ﷺ يعطي أهله نفقة ستهم منها، والباقي ينفقه في صالح الدولة.

وقد أمضى أبو بكر رضي الله عنه هذه السياسة، ثم أمضاها عمر رضي الله عنه ستين من خلافته، ثم دفعها للعباس ولعلي رضي الله عنه بشرط إمضاء سياسة النبي ﷺ فيها^(٢)، وهذا توكيل منه لهما على الأرض وليس تملكاً.

المبحث الثالث

العطاء

لم يكن للمسلمين بيت مال في عصر الرسالة، و«كان الرسول ﷺ إذا أتاه الفيء قسمه في يومه، فأعطى الأهل حظين، وأعطى العزب حظاً»^(٣). وكان يعطي المال تأليفاً للقلوب حتى «إن الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»^(٤). ولم يفرض للجند عطاءً معيناً، بل يقتسمون أربعة أخماس الغنيمة. ولكن الولاة على المدن والعمال على الصدقات كانت لهم رواتب محددة^(٥)، وهي تكفل لهم تنفيذ الأمر النبوي، «من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً، فإن

(١) صحيح سنن أبي داود للألباني ٢: ٥٧٤.

(٢) البخاري: الصحيح ٢: ١٨٦ - ١٨٨، ومسلم: الصحيح ١٢: ٧١ - ٧٦.

(٣) صحيح سنن أبي داود للألباني ٢: ٥٧٠.

(٤) مسلم: الصحيح (شرح النووي) ١٥: ٧٢.

(٥) صحيح سنن أبي داود للألباني ٢: ٥٦٨.

لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً»، قال أبو بكر: أخبرت أن النبي ﷺ قال: «من اتخذ غير ذلك فهو غال أو سارق»^(١).

وكان أبو بكر في أول خلافته ينهج منهج الرسول ﷺ في قسمة المال دون حفظه، ويذكر الواقدي أنه كان يحتفظ به بعد ذلك في بيته بالسنة دون حارس، ثم نقله إلى جوار المسجد النبوي^(٢).

وقد حدّد الصحابة مرتب أبي بكر رضي الله عنه بألفي درهم، فقال: «زيدوني فإن لي عيلاً، وقد شغلتموني عن التجارة»، فزادوه خمس مئة.

وقد شك الراوي فذكر احتمال أن الراتب كان في الأصل ألفين وخمس مئة درهم، ثم صار ثلاثة آلاف بالزيادة^(٣). ويبدو أنه راتب سنوي، وأنه أخذ من الدولة خلال خلافته ستة آلاف درهم، فيكون راتبه الشهري في حدود ٢٥٠ درهماً^(٤)، كما جعلوا له شاة في كل يوم يطعمها لضيوفه، ويبقى رأسها وأكارعها لأهل بيته^(٥). كما جعلوا له شيئاً من السمن واللبن^(٦).

أما رواتب الولاة فلم تصرح الروايات بمقاديرها، ولكن يبدو أنها كانت لا تكفيهم، حيث طلبوا زيادتها «أن زدنا في أرزاقنا، وإلا فابعث إلى عملك من يكفيك» فاستشار أبو بكر الصحابة فوافقوا على زيادتها^(٧).

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢١٢، ٢١٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٨٥ وفيه انقطاع لأن ميموناً الجزري لم يدرك خلافة أبي بكر (ابن حجر: تلخيص الحبير ٤: ٢١٣)، وانظر: أحمد: فضائل الصحابة ١: ١٦٢، وفيه «ألفان وخمس مئة» فقط.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٩٣، والبلاذري: (الشيخان) ٥٦، وأبو عبيد: الأموال ٢٨١ من مرسل سعيد بن المسيب ومراسيله قوية.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٨٥ من رواية ميمون الجزري، ولم يدرك خلافة الصديق.

(٦) أبو عبيد: الأموال ٢٨٠، وابن سعد: الطبقات ٣: ١٩٣، والبلاذري: (الشيخان) ٥٥، والأثر صحيح.

(٧) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٢٩٢ من مرسل نافع مولى ابن عمر.

وقد دفعت الدولة للناس مرتبات سنوية محددة سميت بالعطاء، وقد ساوى أبو بكر رضي الله عنه بين الناس في العطاء دون النظر إلى تفاضلهم في السابقة والجهاد، معللاً ذلك بقوله: «إن هذا المعاش الأسوة فيه خير من الأثرة»، فعمل بهذا ولأته. وقد شمل العطاء المتساوي الصغير والكبير والحر والمملوك والذكر والأنثى^(١). وتحدد رواية ضعيفة مقدار العطاء في العام الأول من خلافة الصديق عشرة دراهم، وفي العام الثاني بعشرين درهماً^(٢). وكان العطاء مقتصرًا على أهل المدن دون البادية^(٣).

وفي خلافة عمر رضي الله عنه تدفقت الأموال على الدولة، كما زادت نفقات الدولة زيادة عظيمة، فاحتاجت إلى تنظيم الواردات والمصروفات، والاحتفاظ بفائض المال لمدة طويلة، فاتخذ عمر رضي الله عنه بيت المال^(٤)، ومن تولى إدارته عبدالرحمن ابن عبد القاري (تابعي له رؤية)^(٥)، وعبدالله بن الأرقم الزهري (صحابي)^(٦)، ومعيقب بن أبي فاطمة (صحابي)^(٧).

وقد استحدثت بيوت الأموال في الأمصار أيضاً توضع فيها أموال المصر الخاصة، فكان عبدالله بن مسعود يتولى بيت المال في الكوفة^(٨).

(١) أبو يوسف: الخراج ٤٢ من مرسل عبدالله بن أبي نجيع وهو ثقة، وصحيح سنن أبي داود للألباني ٢: ٥٧٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٩٣ بإسناد فيه أسامة بن زيد بن أسلم «ضعيف».

(٣) أبو عبيد: الأموال ٢٤٠، ٢٤٣.

(٤) ابن شبة: تاريخ المدينة ٣: ٨٥٧ - ٨٥٨ بسند مقطوع.

(٥) البيهقي: السنن الكبرى ٢: ١٤٣ بإسناد حسن.

(٦) خليفة: التاريخ ١٥٦، وابن أبي شبة: المصنف ٦: ٥٥٦ - ٥٥٧، وأحمد: الزهد ١: ٤٣ - ٤٤،

وابن شبة: تاريخ المدينة ٦٩٩، وابن حجر: المطالب العالية ٣: ٧٣٢ نقلاً عن مسند إسحاق ابن راهويه، والأثر إسناده حسن.

(٧) ابن شبة: تاريخ المدينة ٢: ٧٠٢ والخبر صحيح، وابن حجر: التقريب ٢: ٢٦٨.

(٨) عبدالرزاق: المصنف ٦: ١٠٠ - ١٠١ و ٣٣٣: ١٠، وابن سعد: الطبقات ٨: ٦، وأحمد: المسند ١: ١٥٩

وفضائل الصحابة ٢: ٨٤٢، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٤٩٩، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٣٥٤ وهو يعتضد بطرقه إلى الحسن.

وكان عمر يعجل بقسمة الأموال التي ترد إلى بيت المال في أول خلافته^(١)، ثم دون الديوان، وفرض الفرائض، ووضع العرفاء على القبائل^(٢).

ويؤرخ الطبري تدوين الديوان لأول مرة في السنة الخامسة عشرة من الهجرة^(٣) وأما البلاذري فيؤرخه في سنة عشرين. وتدل الروايات الصحيحة على أن تدوين الديوان كان عقب قدوم أخماس غنائم فتوح العراق يحملها أبو هريرة السدوسي^(٤) بعد ولاية أبي موسى الأشعري على البصرة، وقدرها ثمانون ألف درهم^(٥)، وكانت ولايته عليها منذ السنة السابعة عشرة للهجرة، كما أن غنائم المدائن وجلولاء - وقد فتحتا سنة ست عشرة -^(٦) وصلت في وقت مقارب للأخماس التي أرسلها أبو موسى الأشعري، وقدر خمس غنائم جلولاء ستة ملايين درهم (٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم)^(٧)، فلعل تدوين الديوان كان في حدود سنة ١٧ هـ.

وأراد عمر رضي الله عنه توزيع هذه الأموال فأشار عليه الصحابة رضوان الله عليهم: «لا تفعل يا أمير المؤمنين، إن الناس يدخلون في الإسلام ويكثر المال، ولكن أعطهم على كتاب»^(٨) • ولا بد أن كتابة قوائم بأسماء المقاتلة مع تحديد معدلات أعطياتهم وأرزاقهم استلزم وقتاً طويلاً، ولم يتم إنجازه كاملاً إلا سنة

(١) عبدالرزاق: المصنف ١١: ١٠٠، وأحمد: المسند ١٦: ٩٤، والبخاري: المسند ٤: ٢٥٣.
(٢) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٣٢٨، وابن أبي شيبة: المصنف ٥: ٣٤٣ و ٦: ٤٥٥ ط. بيروت، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٣٦٠ و ٨: ١٠٨ والأثر صحيح.

(٣) الطبري: تاريخ ٢: ٤٠٢.

(٤) أما المصادر التاريخية فتذكر أن قدوم أبي هريرة كان من البحرين، وكان والياً عليها سنة عشرين للهجرة (البلاذري: فتوح البلدان ٤٣٩، وأبو يوسف: الخراج ١٠٥، والبيهقي: السنن ٦: ٣٥٠ وقد اضطربت في مقدار الخمس).

(٥) يعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٤٦٥ - ٤٦٧، وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٥٧، والبيهقي: السنن ٦: ٣٦٤ والأثر صحيح.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٩٦، ٢٩٧ عن الواقدي، والبلاذري: فتوح البلدان.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنف ١٢: ٣١٨ (ط. السلفية)، وأبو عبيد: الأموال ٢٢٤.

(٨) يعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٤٦٥ - ٤٦٧، وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٥٧، والبيهقي: السنن ٦: ٣٦٤ والأثر صحيح.

عشرين بعد أن استقرت الأوضاع، واتضحت أبعاد الفتح، وأنشئت المعسكرات الجديدة كالكوكة والبصرة، وتحددت الأجناد (جند الشام، وجند حمص، وجند قنسرين) واتضحت موارد الدولة المالية، مما يمكن معه من إنجاز الإحصاء والتدقيق اللازمين للديوان^(١).

وتشير روايات ضعيفة إلى أن فكرة الديوان عرضها بعض الصحابة بناء على ما رآوه في بلاد الفرس والشام^(٢)، أو أن فكرة الديوان عرضها الهرمزان - أسير تستر سنة ١٧ هـ -^(٣). ولكن مما لا شك فيه أن الدواوين الإدارية والمالية كانت معروفة في أجهزة الحكم للدولتين العظميين المتصارعتين في المشرق قبيل ظهور الإسلام^(٤).

ولاشك أن تدوين الديوان هو بمثابة إحصاء لأعداد المقاتلين المسلمين، بل ولغيرهم أيضاً ممن استحقوا العطاء، وكان قد جرى أول إحصاء في الإسلام في عهد النبوة: «اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس» فكتب له ألفا وخمس مئة رجل^(٥). ولم تشر المصادر إلى وقوع إحصاء آخر للسكان حتى تدوين الديوان.

أما عن ترتيب الديوان، فقد بدأ بقرابة الرسول ﷺ^(٦) الحسن والحسين^(٧)، ثم الأقرب فالأقرب، فقسم لزوجاته ﷺ، ثم قدم المهاجرين الأولين، فبدأ بأهل

(١) عبدالعزيز بن عبدالله السلمي: ديوان الجند ١٠١.

(٢) ابن سعد: الطبقات ٣: ٣٠٠، وابن أبي شبة: المصنف ٦: ٤٥٢، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٤، والبيهقي: السنن ٦: ٣٤٩، والأثر فيه ضعف مداره على محمد بن عمرو بن علقمة اللثبي صدوق له أوهام. ابن حجر: التقريب ٢: ١٩٦.

(٣) الجهشباري: الوزراء والكتاب ١٧، والصولي: أدب الكتاب ١١٠، والماوردي: الأحكام السلطانية ١٩٩، والعسكري: الأوائل ١٣٤.

(٤) الجهشباري: الوزراء والكتاب ٢، ٣، وابن خرداذبة: المسالك والممالك ١١١ - ١١٢، والبلاذري: فتوح البلدان ٥٦٠، والماوردي: الأحكام السلطانية ١٩٩، والمقريزي: الخطط ١: ١٤٨، والسلمي: ديوان الجند ٩١.

(٥) البخاري: الصحيح ٤: ٨٧.

(٦) يعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٤٦٦ بإسناد صحيح رجاله ثقات.

(٧) عبدالرزاق: المصنف ١١: ١٠٠ بإسناد صحيح رجاله ثقات.

بدر منهم ثم أحد.. وعلل ذلك بقوله: «إني بادئ بأصحابي المهاجرين الأولين، فإننا أخرجنا من ديارنا ظلماً وعدواناً - ثم أشرفهم، ففرض لأهل بدر وأحد - ثم قال: ومن أسرع في الهجرة أسرع به العطاء، ومن أبطأ في الهجرة أبطأ به العطاء، فلا يلو من رجل إلا مناخ راحلته»^(١). وإذا اقتصرنا على ما صح من مقادير العطاء، فإن عطاء زوجات النبي ﷺ كان عشرة آلاف درهم (١٠,٠٠٠ درهم) كل سنة، إلا جويرية وصفية وميمونة فقد فرض لهن أقل من ذلك، ثم زاد عطاؤهن فصار اثني عشر ألف درهم (١٢,٠٠٠ درهم) إلا صفية وجويرية كان عطاؤهن ستة آلاف درهم (٦,٠٠٠ درهم). وقد طالبت عائشة بالمساواة بين أمهات المؤمنين، فوافق عمر على مساواتهن^(٢).

وكان عطاء المهاجرين والأنصار أربعة آلاف درهم (٤٠٠٠ درهم) لكل واحد سنوياً^(٣)، سوى عبدالله بن عمر بن الخطاب فإنه فرض له ثلاثة آلاف وخمسة مئة درهم (٣٥٠٠ درهم) معللاً ذلك «بأنه هاجر به أبوه أي ليس هو كمن هاجر بنفسه»^(٤)، وكان عبدالله صبيّاً حين الهجرة. ثم زاد المهاجرين ألفاً فصار عطاؤهم خمسة آلاف درهم (٥٠٠٠ درهم) كل سنة^(٥). ويبدو أن هذا العطاء للبدرين فقط من المهاجرين والأنصار^(٦).

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٥٧، وأحمد: المسند ٣: ٤٧٥ بإسناد حسن، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٤٦٣ بإسناد صحيح.

(٢) عبدالرزاق: المصنف ١١: ١٠٠، وأحمد: المسند ٣: ٤٧٥، ٤٧٦، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٤٦٣، ٤٦٤، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٣٦، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٣٤٩.

(٣) البخاري: الصحيح ٢: ٣٣٥.

(٤) البخاري: الصحيح ٢: ٣٣٥.

(٥) عبدالرزاق: المصنف ١١: ١٠٠ والأثر صحيح.

(٦) أحمد: المسند ٣: ٤٧٥ - ٤٧٦، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٤٦٣، والبيهقي: السنن ٦: ٣٤٩ والأثر صحيح.

وأما من شهد صلح الحديبية فكان عطاؤه ثلاثة آلاف درهم (٣٠٠٠ درهم) كل سنة^(١).

وفرض لكل مولود مئة درهم (١٠٠ درهم)، وكان يفرض للفتيم ثم فرض للمولود حين ولادته، خوفاً من تعجيل فطامه^(٢).

وأما الموالي، فقد فرض لأشرافهم كالهرمزان حينما أسلم ألفي درهم (٢٠٠٠ درهم)^(٣).

وإضافة إلى العطاء السنوي فإن عمر رضي الله عنه كان يوزع عطايا متفرقة، فقد أرسل إلى عائشة رضي الله عنها دراجاً سفظاً لوضع الطيب والحلي بعد أن استأذن الصحابة^(٤). وأعطى بغيراً محملاً بالطعام والنفقة والثياب لبنت خفاف بن إيماء الغفاري لمكانة أبيها وأخيها في الجهاد^(٥). وقسم مروطاً (أكسية تأتزر بها النساء من الصوف أو الحرير) بين نساء من نساء المدينة، وخص أم سليط بمرط جيد، «لأنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد»^(٦). وربما دفع أموالاً لبعض الصحابة لقسمتها على المحتاجين، كما فعل مع عثمان وابن عباس^(٧).

(١) يعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٤٦٣ - ٤٦٤، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٣٤٩ والأثر صحيح.

(٢) عبدالرزاق: المصنف ٥: ٣١١، «ابن سعد: الطبقات ٣: ٣٠١، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٢٨ والأثر صحيح. وابن أبي شيبه: المصنف ٦: ٤٥٦، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٢٧ والأثر صحيح لكنه خاص بعطاء زيد حفيد عمر، ولا يعقل أن يختصه دون أولاد المسلمين. (٣) ابن أبي شيبه: المصنف ٣: ٧ و ٦: ٥١١، وابن زنجويه: الأموال ١: ٣٠٥ - ٣٠٦، والطبري: تاريخ ٢: ٤٨١ والأثر صحيح.

(٤) أحمد: فضائل الصحابة ٢: ٨٧٥، والحاكم: المستدرک ٤: ٨، وابن حجر: المطالب العالية ٢: ١٨٩ نقلاً عن أبي يعلى الموصلي، والأثر حسن.

(٥) البخاري: الصحيح ٣: ٤٣.

(٦) البخاري: الصحيح ٢: ١٥٠.

(٧) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٨٨، والبخاري: المسند ٤: ٢٥٥ - ٢٥٦، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٥٢١ - ٥٢٢، والأثر صحيح.

وقد قسم المال مرة فسوّى بين الناس، ولكن راعى أحوالهم الاجتماعية، فان كان الرجل وحده أعطاه نصف دينار، وإن كانت معه امرأته أعطاه ديناراً^(١).

ومن المهم أن نتبين وجهة نظر عمر رضي الله عنه في عدم المساواة بين المسلمين في العطاء، ودعمه الواضح لقراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ول كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار واعتباره للسابقة في الإسلام والبلاء في الجهاد.. فلا شك أن الفئة التي حازت الأموال الوفيرة في خلافته هي التي أقامت على أكتافها صرح الدولة الإسلامية، كما أنها أكثر فقهاً والتزاماً بالشرع ومقاصده، وأكثر ورعاً وصلاحاً في التعامل مع المال، وتذليله لتحقيق المقاصد الاجتماعية عن طريق الإنفاق. ودعم هذه الفئة اقتصادياً يقوي نفوذها في المجتمع، ويجعلها أقدر على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويحقق مقصد الحديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى».

ويلاحظ أن عمر رضي الله عنه أراد العدول عن سياسة التفضيل في العطاء إلى المساواة، ولعل سياسة التفضيل حققت مقاصدها، كما أن وفرة الأموال تتيح له رفع العطاء الأقل إلى الأعلى.. وقد صرح بذلك في آخر خلافته قائلاً: «لئن بقيت إلى قابل، لألحقن آخر الناس بأولهم، ولأجعلنهم بياناً واحداً»^(٢) - أي سواء - . وأما عن نظرة عمر إلى الأموال العامة فقد عبر عنها بقوله: «إن الله جعلني خازناً لهذا المال، وقاسماً له، ثم قال: بل الله يقسمه»^(٣).

وقد بكى عندما رأى عظمة الأموال التي جلبت إلى بيت المال من فتوح

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٩٣، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٣٩ والأثر حسن.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٥٥٤، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٧٦ والأثر صحيح.

(٣) سعيد بن منصور: السنن ٢: ١٢٤، ١٢٥، وأحمد: المسند ٣: ٤٧٥، ٤٧٦، وابن أبي شيبة: المصنف

٤٥٧: ٦، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٤٩٩، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٤٦٣ -

٤٦٤، والحاكم: المستدرک ٣: ٢٧٢، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٢١٠، ٣٤٩، والأثر صحيح.

فارس، فلما ذكره عبدالرحمن بن عوف بأنه يوم شكر وسرور وفرح، قال عمر: «كلا إن هذا لم يعطه قوم إلا ألقى بينهم العداوة والبغضاء»^(١).

ونظر إلى أموال فتح جلولا فقرأ الآية: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْكُمُ الْإِنْسَانُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلًا مِثْلَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ الَّذِي ذُكِرَ فِي الْآيَةِ﴾^(٢) وقال: اللهم لانستطيع إلا أن نفرح بما زين لنا، اللهم فاجعلني أنفقه في حقه، وأعوذ بك من شره^(٣).

أما ورعه من المال العام فيظهر من قوله: «أنا أخبركم بما أستحل من مال الله، حلة الشتاء والقيظ، وما أحج عليه وما أعتمر من الظهر، وقوت أهلي كرجل من قريش، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، أنا رجل من المسلمين يصيبني ما يصيبهم»^(٤).

وكان يقول: «اللهم إنك تعلم أني لا أكل إلا وجبتي، ولا ألبس إلا حلتي، ولا أخذ إلا حصتي»^(٥). ويقول: «إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم، من كان غنياً فليستعفف، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف»^(٦).

وكان مثالياً في موقفه عام الرمادة حيث امتنع عن أكل السمن، وعاش على الزيت والشعير مواساة للرعية حتى انجلت المجاعة^(٧). ورفض أول ما حيا

(١) ابن المبارك: الزهد ٢٦٥، وعبدالرزاق: المصنف ١١: ١٠٠، وأحمد: المسند ١: ١٦ والزهد ١٤٣، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٠٠ - ٥٠١، والطبري: التأريخ ٢: ٤٧١، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٣٥٧ والأثر صحيح.

(٢) آل عمران: ١٤.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٥٥٦ - ٥٥٧، وأحمد: الزهد ١٤٣ - ١٤٤، وابن شبة: تأريخ المدينة ٦٩٩ وهو أثر حسن.

(٤) عبدالرزاق: المصنف ١١: ١٠٤ - ١٠٥، وابن سعد: الطبقات ٣: ٣٧٥ - ٣٧٦، وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٥٩ - ٤٦٠، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٠٠ - ٦٠١، وابن شبة: تأريخ المدينة ٢: ٦٩٨ والأثر صحيح.

(٥) ابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٠٢، وعمر بن شبة: تأريخ المدينة ٢: ٦٩٨ والأثر صحيح.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٧٦، وابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٦٠، وابن شبة: تأريخ المدينة ٢: ٧٠١، والأثر حسن لغيره.

(٧) ابن سعد: الطبقات ٣: ٣١٣، وعبدالرزاق: المصنف ١١: ٢٢٣ والأثر صحيح.

الناس أن يأكل السمن واللبن لارتفاع سعره، حيث بلغ ثمن عكة السمن والحيس (يصنع من تمر وأقط وسمن) أربعين درهماً^(١).

الأرزاق العينية:

إضافة إلى العطاء السنوي، فإن الدولة كانت توزع أرزاقاً عينية تشمل كبار الموظفين والرعية، فقد بعث عمر رضي الله عنه عبدالله بن مسعود على القضاء وبيت المال بالكوفة، وعثمان بن حنيف على مساحة الأرض، وعمار بن ياسر على الصلاة والقتال، وجعل لهم كل يوم شاة، نصفها وسواقتها لعمار بن ياسر، وربعها لعثمان ابن حنيف، وربعها الباقي لعبدالله بن مسعود^(٢). ولما قدم الشام طلب من أمراء الأجناد أن يكفلوا لكل رجل من المسلمين كل شهر مدي بر، ويعادلان ٧٢ و ٣٦ كيلو غرام، وقسطين من الزيت والخل^(٣)، بعد أن تحقق عملياً من أن هذا الرزق يكفي الرجل مدة شهر، بأن أطعم المدين والقسطين ثلاثين رجلاً فشبّعوا^(٤).

وكان عمر يرسل لأزواج النبي ﷺ بالروؤوس والأكارع والورس والزعفران^(٥). وأما الثياب فكان يأمر بصنع الحلل الجيدة (برود اليمن) للصحابة، وكانت قيمة الحلة تتراوح بين (١٠٠٠ - ١٢٠٠ درهم)، وربما بلغت (١٥٠٠ درهم)^(٦).

- (١) الطبري: تأريخ ٥٠٨: ٢ عن سيف، وهو عمدة في التأريخ ومتروك في الحديث.
- (٢) عبدالرزاق: المصنف ١٠٠: ٦ - ١٠١ و ٣٣٣: ١٠، وابن سعد: الطبقات ٨: ٦، وأحمد: المسند ١: ١٥٩ وفضائل الصحابة ٢: ٨٤٢، وابن زنجويه: الأموال ١: ٢٠٦، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٣٥٤، والخطيب: تأريخ بغداد ١٠: ١١، والأثر حسن لغيره.
- (٣) ابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٤٤، ٥٥٧ والأثران صحيحان.
- (٤) ابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٤٥ - ٥٤٦، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتأريخ ١: ٤٦٤ - ٤٦٥، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٣٤٦ والأثر حسن لغيره.
- (٥) ابن سعد: الطبقات ٣: ٣٠٢ - ٣٥٣، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٤٠ والأثر صحيح. وأبو عبيد: الأموال ٢٥٤ - ٢٥٥ والأثر صحيح.
- (٦) عبدالرزاق: المصنف ١: ٣٨٣ - ٣٨٤، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٥٤ - ٥٥٥، والحاكم: المستدرک ٤: ١٨٧ والأثر صحيح.

وقد باع الصحابي معاذ بن عفراء حلته بألف وخمس مئة درهم، وأعتق بها خمس رقاب، وكانت الحلة الغليظة بمئة درهم فقط^(١).

وأعظم ما أنفقته الدولة من الأرزاق العينية كان عام الرمادة، فقد أصابت الناس في نجد والحجاز مجاعة دامت تسعة أشهر، اسودّت خلالها الأرض لانقطاع الأمطار، وقد توسع الواقدي^(٢) في وصف حالة المجاعة هذه، مبيناً نزوح الأعراب إلى المدينة، وقد بلغ عدد الذين تمدهم الدولة بالطعام ستين ألفاً، منهم من يتعشى على مائدة واحدة وقد بلغوا عشرة آلاف، ومنهم من يصله الطعام إلى داره، وقد طلب الخليفة من ولاته على الأمصار إرسال الطعام والثياب فوافوه بها، ثم أدى عمر والصحابة صلاة الاستسقاء، فنزلت الأمطار وحيث الأرض، ورجع أهل البوادي إلى ديارهم، وقد عقّب عمر رضي الله عنه على هذه الأحداث الشاقة بقوله: «الحمد لله، فوالله لو أن الله لم يفرجها ماترت أهل بيت من المسلمين لهم سعة إلا أدخلت معهم أعدادهم من الفقراء، فلم يكن اثنان يهلكان من الطعام على ما يقيم واحداً»^(٣).

نفقات طارئة:

فقد جعل عمر رضي الله عنه نفقة اللقيط من بيت مال المسلمين^(٤)، كما دفع دية رجل قتل في الكعبة من المال العام^(٥).

(١) ابن شبة: تاريخ المدينة ٢: ٧٨١ - ٧٨٢ والأثر صحيح.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٣١٠.

(٣) البخاري: الأدب المفرد ٨٣، وابن شبة: تاريخ المدينة ٢: ٧٣٨ - ٧٣٩ والأثر صحيح.

(٤) عبدالرزاق: المصنف ٧: ٤٥٠، وابن أبي شبة: المصنف ٦: ٢٩٥ والأثر صحيح.

(٥) عبدالرزاق: المصنف ١٠: ٥١ والأثر صحيح.

المبحث الرابع

الإصلاحات

١ - الإقطاع:

مضى أبو بكر رضي الله عنه في تطبيق السياسة النبوية في إقطاع الأراضي للناس طلباً لاستصلاحها، فقد أقطع الزبير بن العوام أرضاً مواتاً ما بين الجرف وقناة^(١). وأقطع مجاعة بن مرارة الحنفي الخضرمة (قرية كانت باليامة)^(٢)، وأراد إقطاع الزبرقان بن بدر، ثم عدل عن ذلك لاعتراض عمر رضي الله عنه، كما أراد إقطاع عينة ابن حصن الفزاري والأقرع بن حابس التميمي أرضاً سبخة، ليس فيها كلاً ولا منفعة أراد استصلاحها، ثم عدل عن ذلك أخذاً برأي عمر رضي الله عنه في عدم الحاجة لتأليفهما على الإسلام «إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل، وإن الله ﷻ قد أعز الإسلام، فاذهبوا فاجهدا جهدكما»^(٣) ومن الواضح أن اعتراض عمر ليس على مبدأ الإقطاع لاستصلاح الأراضي. بل على أشخاص بعينهم لا يرى تأليفهم على الإسلام.

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ١٠٤ والأثر صحيح. وابن أبي شيبه: المصنف ١٢: ٣٥٤،

والبلاذري: فتوح البلدان ٣١، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ١٤٤.

(٢) البخاري: التاريخ الكبير ١: ٣٧٦ والتاريخ الصغير ١: ١١٩ وفي الإسناد هشام بن إسماعيل مجهول الحال، وابن حجر: الإصابة ٣: ٥٢١ وفي الإسناد هلال بن سراج الحنفي مقبول، فالإسناد ضعيف، لأن متابعة هشام لاتعضده.

(٣) ابن أبي شيبه: المصنف ١٢: ٣٥٦، والبخاري: التاريخ الصغير ١: ٨١، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ٣: ٣٧٣، والبيهقي: السنن الكبرى ٧: ٢٠. والأثر أسانيده مرسله، فعبيدة السلماني لم يسمع من أبي بكر أو عمر رضي الله عنهما (الإصابة ١: ٧٣) حيث ينقل رأي ابن المديني. وأبو عبيد: الأموال ٢٩٠ من مرسل عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأزدي بإسناد حسن. والمتقي الهندي: كنز العمال ١: ٣١٥ عن عبد الرزاق من مرسل طاوس، والمراسيل الثلاثة تعضد لتقوية الخبر.

وقد توسع عمر رضي الله عنه في إقطاع الأرض لغرض استصلاحها جرياً على السياسة النبوية، فقد أعلن: «يا أيها الناس من أحيا أرضاً ميتةً فهي له»^(١).

وتعتضد آثار ضعيفة لتؤكد انتزاع عمر رضي الله عنه ملكية الأرض المقطعة إذا لم يتم استصلاحها^(٢)، وتحدد رواية ضعيفة لذلك ثلاث سنوات من تأريخ الإقطاع^(٣) وقد ثبت إقطاع عمر رضي الله عنه لخوات بن جبير أرضاً مواتاً^(٤)، وللزبير بن العوام أرض العقيق جميعها^(٥)، ولعلي بن أبي طالب أرض ينبع، فتدقق فيها الماء الغزير، فأوقفها علي رضي الله عنه صدقة على الفقراء^(٦). وتوجد آثار ضعيفة لإقطاعه عدداً من الصحابة الآخرين، ونظراً لما يترتب على الإقطاع من حقوق التملك فلا ينبغي إعطاءها أهمية^(٧)، بل إن عمر رضي الله عنه رفض إقرار إقطاع البحرين للعباس ابن عبدالمطلب مما أغضب الأخير، إذ لم يكن عنده سوى شاهد واحد على أن النبي ﷺ أقطعه إياها^(٨).

(١) مالك: الموطأ ٢: ٢١٧، ويحيى بن آدم: الخراج ٨٧، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٥١ والأثر صحيح.

(٢) ابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٤٥.

(٣) يحيى بن آدم: الخراج ٨٨، وعبدالرزاق: المصنف ٩: ١١، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٤٤، والبيهقي: السنن ٦: ١٤٨.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ٢٦ والأثر حسن.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٧٢، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٢٦، والبلاذري: فتوح البلدان ٣٤ والأثر صحيح.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنف ٦: ٤٧٢، وابن شبة: تأريخ المدينة ١: ٢٢٠ - ٢٢١، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٧ - ٢٨، والبيهقي: السنن ٦: ١٤٤، ١٦٠ - ١٦١ والأثر يرقى بطرقه إلى الحسن.

(٧) وهم: عثمان بن أبي العاص (ابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٢٦). ومجاعة بن مرارة السلمي (ابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٢٠ - ٦٢١، والبلاذري: فتوح البلدان ١٠٢). وخوات بن جبير (ابن شبة: تأريخ المدينة ١: ١٥١، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٦) وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله ابن مسعود، وخباب بن الأرت، وأسامة بن زيد، والزبير بن العوام (يحيى بن آدم: الخراج ٧٦). وعبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي (الطبري: تأريخ ٢: ٥٥٤ عن علي بن مجاهد متروك) وتميم الداري وأنه منعه من التصرف بالبيع (أبو عبيد: الأموال ٢٨٨).

(٨) ابن سعد: الطبقات ٤: ٢٢ - ٢٣ والأثر حسن.

ولما تولى عثمان رضي الله عنه الخلافة توسع في الإقطاع، وخاصة في المناطق المفتوحة، حيث ترك عدد من الملاكين أراضيهم فارين، فصارت صوافي تقوم الدولة باستثمارها، فأقطع عثمان رضي الله عنه منها خوفاً من بوارها^(١)، ولكن الإمام أحمد يرى أنه أقطع من السواد أيضاً^(٢).

ومما لا شك فيه أن الصوافي قد يقع كثير منها في أرض السواد. وعلى أي حال فإن الإقطاع من الصوافي رفع غلتها من تسعة آلاف درهم (٩٠٠٠ درهم) سنوياً في خلافة عمر رضي الله عنه إلى خمسين مليون درهم (٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم) في خلافة عثمان رضي الله عنه^(٣) مما يدل على نجاح سياسته في إدارة الصوافي.

وتذكر المصادر قائمة بأسماء الذين أقطعهم عثمان رضي الله عنه، ومعظمهم ليسوا من قريش، ومعظم الروايات في إقطاع عثمان رضي الله عنه ضعيفة، وهي بالجملة تثبت توسعه في الإقطاع.

ولعل من المفيد ذكر أسماء المقطعين، وهم:

- ١ - عبدالله بن مسعود الهذلي «أرض بين نهري بيل وبين في السواد».
- ٢ - عمار بن ياسر العنسي «أستينيا».
- ٣ - خباب بن الأرت التميمي «صعبي - قرية بالسواد».
- ٤ - عدي بن حاتم الطائي «الروحاء - قرية من قرى بغداد على نهر عيسى».
- ٥ - سعد بن أبي وقاص الزهري القرشي «قرية هرمز ببر فارس»^(٤).

(١) أبو عبيد: الأموال ٢٦١، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٧٣، وابن قدامة: الخراج وصناعة الكتابة ٢١٧، والماوردي: الأحكام السلطانية ١٩٣.
 (٢) ابن رجب: الاستخراج في أحكام الخراج ٤٢٨ - ٤٣٠.
 (٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ١٩٣.
 (٤) محمد بن محمد علي العواجي: خلافة عثمان بن عفان ١٨٠ - ١٨٢، وكلها أخبار ضعيفة ومعظمها دون أسانيد.

- ٦ - الزبير بن العوام.
- ٧ - أسامة بن زيد الكلبي.
- ٨ - سعيد بن زيد العدوي القرشي.
- ٩ - جرير بن عبدالله البجلي «أرض على شاطئ الفرات».
- ١٠ - ابن هبار.
- ١١ - طلحة بن عبيد الله التيمي القرشي «النشاستج - ضيعة بالكوفة».
- ١٢ - وائل بن حجر الحضرمي «أرض توالي قرية زرارة، بالكوفة».
- ١٣ - خالد بن عرفطة القضاعي «أرض عند حمام أعين بالكوفة».
- ١٤ - الأشعث بن قيس الكندي «طيزناباذ - موضع بين الكوفة والقادسية».
- ١٥ - أبو مريد الحنفي «أرض بالأهواز على نهر تيري».
- ١٦ - نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي «قطيعة بشط عثمان بالبصرة».
- ١٧ - أبو موسى الأشعري «قطيعة بحمام عمرة»^(١).
- ١٨ - عثمان بن أبي العاص الثقفي «شط عثمان بالبصرة».

ويبدو أن جلاء أهل هذه الأراضي عنها، فصارت مواتاً، وأقطعها عثمان رضي الله عنه لإحيائها. ويبدو أن معاوية بن أبي سفيان أقطع قطائع في سواحل الشام لتعميرها وإعدادها لمواجهة هجمات الروم^(٢). وكذلك أقطع قطائع بأنطاكية بأمر عثمان^(٣)، وأخرى بقاليقلا^(٤). كما أقطع معاوية من صوافي الشام^(٥). وأما

(١) ابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٣٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١٣٣.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١٥٣، وياقوت الحموي: معجم البلدان ٤: ٢٩٩.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ٢٠٠ - ٢٠١.

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١: ١٧٢ - ١٨٣.

إقطاعه فدك لمروان بن الحكم فلم يعرف من طريق صحيحة^(١). وقيل: إن الذي أقطع فدك لمروان هو معاوية بن أبي سفيان^(٢).

٢ - الحمى:

وهي أراض خصصت لرعي الإبل والخيول التي تملكها الدولة، وقد استمرت حماية وادي النقيع في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم قد حماه للخيول^(٣). وطوله ثمانون كيلو متراً، ويبدأ جنوب المدينة ب ٤٠ كيلو متراً^(٤).

وقد كثرت المناطق المحمية في خلافة عمر رضي الله عنه لكثرة ما تملكه الدولة من الإبل والخيول المعدة للجهاد، ومن ذلك حمى الربذة لنعم الزكاة^(٥)، وعين عليه مولاه هني، وأوصاه بالسماح لأصحاب الإبل القليلة بالرعي فيه دون الأغنياء^(٦). وحمى أرضاً في ديار بني ثعلبة برغم احتجاجهم على ذلك، فقد أجابهم: «البلاد بلاد الله تحمي لنعم مال الله»^(٧). وقيل: إنه حمى ضرية أيضاً، وتعرف بالشرف^(٨).

(١) أبو داود: السنن ٣: ٤٣ رقم ٢٩٧٢ بسند ضعيف (ضعيف سنن أبي داود للألباني ٢٩٣ رقم ٦٣٧ فيه عبد الله بن الجراح التميمي صدوق يخطئ، والمغيرة بن مقسم يدلّس). ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٥٨٧ بسند فيه سليمان بن أرقم ضعيف جداً، وهشام بن عمار صدوق كبر فصار يتلقن، لكن هذا من قديم حديثه، ولا يعتضد الخبران لشدة ضعف سليمان بن أرقم.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٤٥ - ٤٦ بسند فيه ابن برقان مجهول.

(٣) أحمد: المسند ٨: ٤٠ و ٩: ١٧١ - ١٧٢، ١٧٩ بتحقيق أحمد شاكر، وقال: إسناده صحيح. وصحيح سنن أبي داود للألباني ٢: ٥٩٥.

(٤) البلاذري: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ٣٢٠.

(٥) ابن أبي شيبه: المصنف ٥: ٦ بإسناد صحيح، وأحمد: الزهد ١٤٤ بإسناد حسن.

(٦) ابن حجر: فتح الباري ٦: ١٧٦، والإصابة ٣: ٦٢٠ عن الواقدي.

(٧) ابن سعد: الطبقات ٣: ٣٢٦، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٦٨ - ٦٦٩، وابن شيبه: تاريخ المدينة ٣: ٨٨٩ والأثر صحيح.

(٨) البخاري: الصحيح ٢: ٥٣ تعليقا، والتعليقات لا تأخذ حكم الصحيح، وابن سعد: الطبقات ٣: ٣٠٥، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٦٦. والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ١٤٦ والأثر ضعيف لأنه من مراسيل الزهري.

٣ - الإنفاق على العمران:

عمران المساجد:

قامت الدولة في عصر الخلافة الراشدة بالإنفاق على المنشآت العامة، فتم تجديد سقف المسجد النبوي بالمدينة وسواريه في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ولكن لم تستعمل في التجديد مواد أخرى غير جذوع النخل وجريده^(١). كما لم تتم توسعة المسجد^(٢).

وفي خلافة عمر رضي الله عنه زاد في مساحة المسجد، وأدخل فيه دار العباس بن عبدالمطلب^(٣)، وامتدت التوسعة عشرة أذرع من جهة القبلة وعشرين ذراعاً من الناحية الغربية، وسبعين ذراعاً من الناحية الشمالية^(٤). وأعاد بناءه باللبن والجريد، وجعل عُمده من الخشب^(٥)، وجعل سقفه من الجريد وكساه، ليحمي الناس من المطر، ونهى عن زخرفته بحمرة أو صفرة، لئلا يفتتن الناس في صلاتهم^(٦)، ورصف أرضه بالحصباء، جيء بها من العقيق^(٧).

وأجرى عمر رضي الله عنه تعديلات يسيرة في المسجد الحرام بمكة، فنقل مقام إبراهيم، وكان ملصقاً بالكعبة إلى مكانه اليوم بعيداً عنها للتيسير على الطائفين والمصلين^(٨)، وعمل عليه المقصورة^(٩). كما أقام لأول مرة جداراً قصيراً حول

(١) أبو داود: السنن ١: ١٢٣ بإسناد ضعيف، لأن عطية العوفي مدلس.

(٢) البخاري: الصحيح ١: ١٢١، وأحمد: المسند ٢: ١٣٠، وأبو داود: السنن ١: ١٢٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٤: ٢١، ٢٢، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٥١٢، والحاكم: المستدرک ٣: ٣٣١ - ٣٣٢.

(٤) غالي محمد الأمين الشنقيطي: الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ٨٣.

(٥) البخاري: الصحيح ١: ٨٩.

(٦) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٤: ٩٨).

(٧) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٣٢٥، وابن سعد: الطبقات ٣: ٢٨٤، والبيهقي: السنن ٢: ٤٤١ وتعضد طرقة إلى الحسن.

(٨) عبد الرزاق: المصنف ٥: ٤٧ - ٤٨، والفاكهي: تأريخ مكة ١: ٤٥٤ - ٤٥٦ ويعتضد بطرقه إلى الحسن. وانظر ابن حجر: (فتح الباري ٨: ١٦٩).

(٩) ابن حجر: (فتح الباري ٨: ١٦٩).

البيت الحرام^(١)، وكسى من بيت المال الكعبة القباطي^(٢) - وهي ثياب مصرية رقيقة بيضاء -.

كما عمرت المساجد في الأمصار الجديدة في خلافة عمر رضي الله عنه، فاخطط سعد ابن أبي وقاص المسجد الجامع بالكوفة، واخطط عتبة بن غزوان المسجد الجامع بالبصرة، واخطط عمرو بن العاص المسجد الجامع في الفسطاط، فكانت هذه المساجد الكبيرة محل صلاة المسلمين وتعارفهم وتدارسهم العلم وقضائهم وتلقيهم أوامر الخليفة والولاية..

بناء الأمصار:

لا شك أن خطوط المواصلات بين المدينة المنورة عاصمة الخلافة الراشدة وميادين القتال في العراق وإيران والشام ومصر وأفريقية أصبحت طويلة، فكان لا بد من اتخاذ قواعد عسكرية داخل المناطق المفتوحة، تصلح لسكن المقاتلين، وتوفر لهم الخدمات الضرورية، وقد تم اختيار مواقع المدن الجديدة بعد مشاورات بين الخليفة عمر رضي الله عنه، وقادة الميادين.

وقد نبه عمر قاداته إلى ضرورة قرب المدن من الماء والمرعى، وأن يجتمع فيها المسلمون، وبنى القادة مدنها، فابتنى عتبة بن غزوان (١٤ - ١٦ هـ) البصرة، وابتنى سعد بن أبي وقاص سنة ١٧ هـ^(٣) الكوفة، وابتنى عمرو بن العاص الفسطاط.

وقد لوحظ في اختيار الموقع أن المدن الثلاثة لا تفصلها عن الصحراء عوائق طبيعية من أنهار وجبال ليسهل انسحاب المقاتلين منها إلى الصحراء عند الضرورة^(٤).

(١) البخاري: الصحيح ٢: ٣١٧.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة ١: ٢٥٣، وعبدالرزاق: المصنف ٥: ٨٩ بإسناد ضعيف.

(٣) الطبري: تاريخ ٢: ٤٧٧.

(٤) تؤكد روايات ضعيفة عدة أن ذلك تم بتوجيه من عمر رضي الله عنه (ابن عبدالحكم: فتوح مصر ٩١).

وقد استخدم القصب المتوافر بكثرة في موقع البصرة لبناء المسجد وسط المدينة، وقرب المسجد اختط عتبة دار الإمارة وإلى جوارها السجن والديوان في الرحبة، وكان الناس في أول الأمر إذا خرجوا إلى الجهاد نزعوا ذلك القصب، وحزموه، ثم يعيدون بناءه إذا رجعوا من الجهاد.

ولما تولى أبو موسى الأشعري ولاية البصرة بنى دار الإمارة باللبن والطين وسقفها بالعشب، وزاد في المسجد، وأخذ الناس بالبناء باللبن خاصة بعد أن وقع الحريق بالبصرة^(١).

وأما بناء الكوفة فكان سنة ١٧ هـ، وكان المسلمون يقيمون بالمدائن، وقد اختلطوا فيها وأقاموا المساجد، لكنهم استوخموها، فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر رضي الله عنه، فأمره ببناء مدينة لهم، وقام بتخطيط الكوفة أبو الهياج السلمي وفق توجيهات الخليفة العامة، حيث جعل عرض الطرق الرئيسية (المناهج) أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين ذراعاً وما بينهما عشرين ذراعاً، والأزقة سبعة أذرع، ولا يخط طريق أضيق من ذلك. واعتبرت الطرق الرئيسية حدوداً فاصلة بين مخيمات القبائل الواقعة على جانبي الطريق. وقد بُدئ ببناء المسجد الجامع وسط المدينة، ثم تُرك فراغ حول المسجد كالصحن، ثم بنيت دار الإمارة وبيوت الأموال بجوار المسجد وكان بين المسجد ودار سعد مئتي ذراع، وحُفِر خندق بعد صحن المسجد، لئلا تمتد إليه بيوت الناس. وسمح بإقامة السوق دون بنيان داخل صحن المسجد، ويكون المكان من حق السابق إليه من الباعة. وأنزلت القبائل حول صحن المسجد، واختطت لها مكان إقامتها، فكان لكل قبيلة مكان يعرف باسمها، لاتنزل فيه القبائل الأخرى^(٢).

(١) صالح العلي: خطط البصرة ومنطقتها ٤٦، وانظر البلاذري: فتوح البلدان ٣٤١ - ٣٤٢، وياقوت: معجم البلدان ٢: ٣٦٣، والطبري: تاريخ ٢: ٤٧٩.

(٢) ماسينيون: خطط الكوفة وشرح خريطتها..

وأما الفسطاط فقد اختطها عمرو بن العاص، فابتنى مسجدها الجامع وحول دار الإمارة وخطط القبائل.

حفر الأنهار والخلجان وإقامة السدود والمنشآت الأخرى:

أنفقت الدولة الإسلامية على مشاريع عدة بعضها لتحسين المواصلات البحرية، مثل خليج أمير المؤمنين بمصر، حيث حفره واليها عمرو بن العاص بين النيل والخليج، وبذلك أصبحت السفن المصرية تمخر البحر الأحمر تحمل المواد الغذائية وغيرها إلى ميناء الجار ميناء أهل المدينة^(١). ومثل حفر قناة مائية مسافة ثلاثة فراسخ من الخور إلى البصرة لإيصال مياه دجلة إلى البصرة^(٢).

وفي خلافة عمر أصابت السيول الكعبة، واقتلعت مقام إبراهيم عليه السلام، فبنى سدين، أحدهما من الصخور العظيمة^(٣).

وقد اشترى عمر داراً بمكة بأربع مئة دينار واتخذها سجناً^(٤). كما شيد سجن بالكوفة من القصب^(٥).

وأقيمت في خلافة عمر استراحات للحجاج توفر الماء والظل على الطريق بين المدينة ومكة^(٦).

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٦٣ - ١٦٦، وابن سبّة: تأريخ المدينة ٢: ٧٤٥، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٥٥، والطبري: تأريخ ٢: ٥٠٩. وهذه الروايات الضعيفة تعتضد لتؤكد الصحة التاريخية لإحياء هذه القناة المائية بين النيل والبحر الأحمر.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٥٠ عن الكلبي وجماعة من أهل العلم.

(٣) الأزرقى: أخبار مكة ٢: ١٦٧ والسند مرسل، والبلاذري: أنساب الأشراف ٦٥ عن هشام الكلبي.

(٤) البخاري تعليقا (فتح الباري ٥: ٧٦)، وعبدالرزاق: المصنف ٥: ١٤٨، والأزرقى: أخبار مكة ٢: ١٦٥، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ٣٤ والأثر ضعيف. وانظر ابن القيم: الطرق الحكمية ١٠٣، ١٠٢.

(٥) أبو هلال العسكري: الأوائل ١٢٠.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٢٨٣، ٣٠٦ عن الواقدي.

واتخذ عمر رضي الله عنه دار الدقيق لحفظ الدقيق والسويق والتمر والزبيب وغير ذلك لوقت الحاجة^(١).

٤ - مشروع تحرير الرقيق:

إن مشكلة الرقيق واجهت الإسلام منذ البداية، ولم يكن أمامه فرصة إلغاء الرقيق وهو نظام عالمي، ولا توجد منظمة عالمية تتمكن من إقرار التحرير الشامل، ولو أن الدولة الإسلامية ألغت الرقيق من طرف واحد فإنها لن تتمكن من تحرير أسرى الحرب المسلمين إذا وقعوا بيد الدولة الأخرى عن طريق مبادلتهم بأسرى من غير المسلمين، ولكن ذلك لم يمنع الدولة الإسلامية من وضع برامج تحرير الرقيق داخل المجتمع الإسلامي عن طريق الكفارات والمكاتبه والحث على عتق الرقيق طلباً للثواب الأخروي.

وقد كثر المكاتبون من الرقيق في خلافة عمر، فكانوا يساعدون تنفيذاً لأمر الله تعالى، كما أن الدولة كانت ترضخ للعبيد من الغنائم والعطاء، لتكون لهم مال يعملون بتنميته حتى يتحرروا من الرق. وقد ألزم سادتهم بتحريرهم إذا سدّدوا ما تعهدوا به من مال، وكان مقدار الفداء حسب مهارة العبد، وقد يبلغ (٤٠,٠٠٠ درهم) أحياناً.

ولما تحسنت موارد بيت المال في خلافة عمر رضي الله عنه قدم وصيته - قبل موته - بتحرير جميع الأرقاء المسلمين في الدولة. ولكن المصادر لا تذكر تطبيق هذه الوصية في عصر الخلافة الراشدة، ولعل ظروف الفتن التي أعقبت خلافة عمر حالت دون ذلك^(٢). وهذه المبادرة العمرية هي أقدم محاولة في التاريخ الإنساني لتحرير الرقيق تحريراً شاملاً في نطاق دولة كبرى.

(١) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٨٣ دون إسناد.

(٢) عبدالرزاق: المصنف ٨: ٣٨١، ٣٨٢ و ٩: ١٦٧ - ١٦٨، وابن سعد: الطبقات ٣: ٣٥٩ والخبر صحيح الإسناد.

٥ - النقود:

يروى أن عمر بن الخطاب رأى الدراهم الفضية المتداولة في الأسواق مختلفة الأوزان، منها البغلي وهو ثمانية دوانيق، ومنها الطبري وهو أربعة دوانيق، ومنها المغربي وهو ثلاثة دوانيق، ومنها اليمني وهو دانق واحد * ولاحظ أن المتداول منها كثير هو الطبري والبغلي، فجمع بينهما فكان اثني عشر دانقا، فأخذ نصفها فكان ستة دوانق، فجعل الدرهم الإسلامي في ستة دوانق. كما يروى أنه أراد أن يجعل الدراهم من جلود الإبل ثم عدل عن ذلك.

واستعملت الدولة الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة الدينار البيزنطي و الدراهم الساسانية، وكان الدينار البيزنطي يزن مثقالاً من الذهب أو ثمانية دوانيق أو عشرون قيراطاً^(١). ومن الثابت ضرب بعض النقود الإسلامية في بلاد فارس في نحو سنة ٢٠ هـ وسنة ٣٩ هـ، وعليها عبارات عربية فارسية مشتركة، ويحتفظ المتحف العراقي ببعض منها^(٢).

وراقب عمر رضي الله عنه النقود، فنهى عن بيع النقود الرديئة (الزيوف) بأخرى جيدة دون وزنها، وكان يرى أنه يوقد عليها حتى يذهب ما فيها من النحاس أو الحديد حتى تخلص الفضة ثم تباع بوزنها^(٣)، وهذا منعاً للغرر.

القروض الحسنة:

كان القرض الحسن شائعاً ابتغاء الأجر الآخروي، وشرطه أن لا يجبر نفعاً مشروطاً لصاحب المال، ولكن إذا أعطاه المدين أفضل من دراهمه فلا بأس بأن

(١) عبد القدوم زلوم: الأموال في دولة الخلافة ٢٠٢.

(٢) وداد علي الفزاز: الدراهم المضروبة على الطراز الساساني للخلفاء الراشدين في المتحف العراقي ص ١٣، ١٥.

(٣) ابن أبي شيبه: المصنف ٤: ٥٣٥، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٤٤٠ ويعتضد بطريقه إلى الحسن.

يأخذها^(١). وربما يعجز المدين، فلا يلزم الدائن بترك المال، بل يقضى لهم من ماله^(٢) وإذا أدرك الرجل ماله بعينه عند المدين فهو أحق به من بقية الدائنين^(٣)، وربما أعفى الدائن المدين من بعض المال^(٤).

وكان بيت المال في المدينة والأمصار يقدم بعض القروض الحسنة للخلفاء والولاة.

القوة الشرائية للنقود:

إن القوة الشرائية للنقود يمكن أن تتحد إذا تأملنا في المبالغ التي كانت تصرفها العائلة في السنة، وكذلك في التأمل في أسعار الحاجيات المتنوعة، ويبدو أن العائلة الكبيرة في خلافة الصديق كانت تحتاج إلى ألفين وخمس مئة درهم في السنة، يدل على ذلك أن كبار الصحابة أهل الحل والعقد جعلوا مرتب أبي بكر الصديق حين استخلافه ألفي درهم، فقال: زيدوني إنكم قد منعتموني من التجارة ولي عيال. فزادوه خمس مئة درهم، وجعلوا له شاة كل يوم يطعمها المسلمين. فقال: طيبوا لأهلي رأسها وأكارعها، ففعلوا^(٥).

كما أن التأمل في العطاء السنوي يوضح مستوى المعيشة، والقوة الشرائية للنقود، لأن العطاء كان يكفل مستوى كريماً لأصحابه، ولا بد أن شرف العطاء كان يفيض عن حاجة أصحابه.

وأما أسعار الحاجيات المتنوعة فهي كما يلي:

(١) البخاري: الصحيح ٣: ٨٦.

(٢) البخاري: الصحيح ٣: ٨٦ - ٨٧.

(٣) البخاري: الصحيح ٣: ٨٧.

(٤) البخاري: الصحيح ٣: ٩٠.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٨٥، وأحمد بن حنبل: فضائل الصحابة ١: ١٦٢ بإسناد حسن.

- قميص (أربعة دراهم)^(١).
- قباء حريري منسوج بالذهب - من غنائم جلولا في خلافة عمر - (٣٠٠ درهم)^(٢).
- دية المرأة (٦٠٠٠ درهم)، وتزاد ألفي درهم إذا قتلت بالحرَم في الطواف تغليظاً للحرَم^(٣).
- دية الطفل وهو حمل (٥٠٠ درهم يساوي غرة عبدٍ أو أمةٍ، أو فرس، أو عشرون ومئة شاة)^(٤).
- ثمن بعير (٤٠٠ درهم)^(٥).

الرقابة المالية:

كان أبو بكر رضي الله عنه عظيم الورع حذراً في تعامله مع المال العام، فلما حضرته الوفاة استدعى ابنته عائشة رضي الله عنها، وأوصاها وصيته الأخيرة: «أما والله كنت حريصاً على أن أدخر فيء المسلمين، على أني قد أصبت من اللحم واللبن، فانظري ما كان عندنا فابلغيه عمر».

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: وما كان عنده دينار ولا درهم، ما كان إلا خادماً ولقحة، فأرسلتها عائشة بعد موته وتشييعه إلى عمر رضي الله عنه. فقال عمر: لقد أتعب أبو بكر من بعده تعباً شديداً^(٦).

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١٢: ٣٧٥ - مخطوطة الظاهرية - نقلاً عن كتاب الزهد للإمام أحمد، وابن كثير: البداية والنهاية ٨: ٤.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف ١٢: ٥٧٩.

(٣) ابن قدامة: المغني ٧: ٧٧٣.

(٤) ابن حجر: الإصابة ٤: ٧٠٨ وقال: إسناده صحيح.

(٥) قصة غلمان حاطب.

(٦) أحمد: الزهد ١٣٨، وابن أبي شيبة: المصنف ٤: ٤٦٦ و ٦: ٤٥٩، وأبو عبيد: الأموال ٢٨٠ -

٢٨١، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٩٨ - ٥٩٩، والطبراني: المعجم الكبير ٦: ١، والبيهقي:

السنن الكبرى ٦: ٣٥٣ والأثر صحيح.

وكان عمر رضي الله عنه شديد الورع في التعامل مع الأموال العامة (بيت المال)، ولم يكن يأخذ منه سوى المرتب الذي حدده الصحابة، فكان يوزع القطائف الجيدة المزركشة بالدباج على الصحابة، دون أن يأخذ منها لنفسه^(١).

وقد أصيب بعير من الأموال العامة، فنحره عمر ووزع بعضه على أمهات المؤمنين وصنع منه طعاماً للصحابة، فاقترح العباس بن عبدالمطلب عليه أن يفعل ذلك كل يوم ليجتمعوا عنده ويتحدثوا. فقال عمر: لا أعود لمثلها، إنه مضى صاحبان لي عملاً عملاً وسلوكاً طريقاً، وإني إن عملت بغير عملها سلك بي طريق غير طريقهما^(٢).

وتتمثل نظرتَه للمال في دعائه: «اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينتنا، اللهم فاجعلني أنفقه في حقه، وأعوذ بك من شره»^(٣).

وكان مرهف الحس، عظيم الشعور بالمسؤولية تجاه الأموال العامة والخاصة، فكان يقول: «لومات جمل ضياعاً بشاطئ الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه»^(٤). وكان يسأل بعض علماء الصحابة عن سياسته، وقد سأل مرة حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قائلاً: أنشدك بالله وبما يحق لي عليك من الولاية، كيف ما رأيت مني؟ قال حذيفة: يا أمير المؤمنين، إن جمعت فيء الله وقسمته في ذات الله فأنت أنت وإلا فلا^(٥).

(١) ابن زنجويه: الأموال ٢: ٥٥٨ بإسناد حسن.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٢٨٨ - ٢٨٩، وابن حجر: المطالب العالية ٤: ٤٠ نقلاً عن مسند مسدد، والأثر صحيح.

(٣) إسناده صحيح.

(٤) ابن حجر: المطالب العالية ٤: ٤١ عن مسدد، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٣٠٥، وابن أبي شيبة: المصنف ٧: ٩٩، والطبري: تاريخ ٢: ٥٦٦ والأثر حسن لغيره.

(٥) ابن زنجويه: الأموال ٢: ٦٠٢، وابن شبة: تاريخ المدينة ٢: ٧٧٧، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ٢: ٧٦٩ والأثر صحيح.

فلا غرابة إذا ما راقب صرف الأموال العامة بصورة دقيقة، يشمل ذلك نفسه وأهله وولاته ورعيته..

رقابة عمر لأهله:

منع عمر رضي الله عنه أهله من جر المنافع بسبب صلة القربى به، وثبتت حادثتان في ذلك، الأولى مع ابنه عاصم، والثانية مع ابنه عبدالله وعبيد الله، فأما عاصم فقد قال معقيب ما يلي: «أرسل إليَّ عمر رضي الله عنه مع الظهيرية، فإذا هو في بيت يطالب ابنه عاصماً.. فقال لي: أتدري ما صنع هذا؟ إنه انطلق إلى العراق فأخبرهم أنه ابن أمير المؤمنين، فانتفقهم (سألهم النفقة)، فأعطوه آنية وفضة ومتاعاً، وسيفاً محلياً. فقال عاصم: ما فعلت، إنما قدمت على ناس من قومي، فأعطوني هذا. فقال عمر: خذه يامعقيب فاجعله في بيت المال»^(١).

وأما عبدالله وعبيد الله فخرجا في جيش إلى العراق، فلما قفلا مرّاً على أبي موسى الأشعري والي البصرة، فأعطاهما ما لا لیسلماه لعمر، وجعله سلفاً عليهما، واقترح عليهما أن يشتريا من بضائع العراق ويبيعوها بالمدينة، ويحوزان الربح ويسددان رأس المال لعمر. فربحا بهذه التجارة، وأرادا تسديد رأس المال، فأبى عمر إلا أن يسددا معه ما ربحاه. وبعد تدخل الصحابة جعله مضاربة، فأخذ نصف الربح مع رأس المال. وكان يحتج عليهما بقوله: أكل الجيش أسلفه مثل ما أسلفكم!! أديا المال وربحه^(٢). وهكذا منع استغلال نفوذه من قبل أولاده.

وله موقفان آخران مع ابنه عاصم، فعندما كان عاصم غلاماً صغيراً التقط درهماً من حجرة كان فيها مال جديد أمر عمر بإدخاله إلى بيت المال، ثم رأى

(١) ابن شبة: تاريخ المدينة ٢: ٧٠٠-٧٠١ والأثر حسن.

(٢) مالك: الموطأ ٢: ١٧٣، والدارقطني: السنن ٣: ٦٣، والبيهقي: السنن الكبرى ٦: ١١٠-١١١ والأثر صحيح.

درهما بيد عاصم، فحقق معه ونزعه منه، وأرسله إلى بيت المال^(١). ولما كبر عاصم وتزوج كان عمر رضي الله عنه ينفق عليه، فجاء يطلب مالاً، فقال له عمر: «ما كنت أرى أن هذا المال يحل لي قبل أن أليه إلا بحقه، وما كان أحرم عليّ منذ أن وليته، فعاد أمانتي، وقد أنفقت عليك من بيت المال ولست بزائدك، ولكنني معينك بثمان مالي في العالية، فأجرده، ثم آت رجلاً من قومك من تجارهم، فقم إلى جنبه، فإذا اشتري شيئاً، فاستشره وأنفق على أهلك»^(٢).



(١) ابن شبة: تاريخ المدينة ٢: ٧٠٢ والأثر صحيح.
 (٢) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٧٧، وأحمد: الزهد ١٤٤، وابن زنجويه: الأموال ٢: ٥١٦ - ٥١٧، وابن شبة: تاريخ المدينة ٢: ٩٩ والأثر صحيح.

البَابُ الرَّابِعُ

الثقافة والتعليم

إِفْطِيحُ الْأَوَّلِ

السمات والنظرية والتقاليد

التراث الثقافي قبل الإسلام

يبدو أن من المتعذر الكلام عن حركة التعليم، واقعه ومداه ومستوياته ومناهجه ومؤسساته بصورة دقيقة وشاملة للمنطقة الواسعة، التي كان الإسلام يحكمها في عصر السيرة والراشدين، فقد امتد الإسلام في برهة وجيزة من أطراف خراسان الشرقية حتى أفريقية (تونس)، ومن شرق الأناضول حتى البحر العربي، وهي منطقة تبلغ مساحتها ٣٥٠٠٠٠٠ ميل مربع^(١)، وتشتمل على مراكز الحضارة العالمية القديمة، في بلاد الرافدين ووادي النيل، حيث قامت الحضارات السومرية والآشورية والبابلية في العراق، والحضارة الفرعونية بمصر.

وبرغم أن التأريخ يحدثنا عن الكتابة وظهورها في العراق (٣٠٠٠ قبل الميلاد) وعن مكتبة آشور بانيبال، ومجموعة الألواح التي اكتشفت في مدينة نمرود وحدها، التي تضم ٣٠٠٠٠ رقيم طيني في شتى صنوف المعرفة العظيمة^(٢)، ومسلة حمراي ونصوصها القانونية، وعن بقية مظاهر الرقي الأدبي والفني المتنوعة الأخرى في العراق.

كما يحدثنا عن الكتابة الهيروغليفية والآثار الفرعونية ذات الدلالة القوية على تقدم المصريين في العلم والحضارة، وخاصة الطب والهندسة والرسم والنحت، برغم هذا كله فإن هذه الحضارات كانت قد اندثرت قبل ظهور الإسلام بزمان بعيد. كما اندثرت حضارات معين وسبأ وحير في اليمن، حيث انتشرت الكتابة وعرف خط المسند.

(١) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية (لاحظ الخارطة مقابل: ٥٤٢).

(٢) وزارة الثقافة والإعلام العراقية: العراق في التأريخ ٦٥، ٦٩.

وما نعرفه عن مراكز العلم والثقافة العالمية عند ظهور الإسلام يبدو ضئيلاً جداً، فالقوى العالمية المعاصرة لظهوره كانت متمثلة بالإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية، وقد أزال الإسلام الأولى، وحسر الثانية عن حوض البحر المتوسط الجنوبي والشرقي، حيث مستعمراتها الغنية. لكنها بقيت تناهضه وتعارضه بدينها وثقافتها، وتتبادل معه الخبرات عبر اتصالات الحرب والسلام.

ومن هذه المعلومات الضئيلة التي حفظها التاريخ، عرفنا مركزاً ثقافياً مهماً في علوم الطب والفلسفة، يتمثل في مكتبة الإسكندرية الشهيرة، التي حافظت على الثقافة الإغريقية والكتب البابلية، التي اعتكف العلماء على ترجمتها وشرحها^(١)، ومركزاً آخر في جند يسابور، حيث أنشأ كسرى انوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) المدارس العليا لتعليم الطب، كما أمر بنقل كتب علمية من اللغات السريانية واليونانية والسنسكريتية إلى البهلوية، التي كانت في ذلك العصر لغة الفرس^(٢). وثمة إشارات إلى أنشطة فكرية في الأديرة النصرانية أو المدارس اليهودية، وخاصة في الرها حيث ينشط السريان. وإشارات أخرى إلى المعابد المصرية القديمة، التي حفظت كتب علماء مصر القدماء، ومنها معبد سيرايس بالإسكندرية^(٣) ومعبد أخميم الذي أقامه اليونان في مصر العليا، وكان يطلق عليه «دار الحكمة لقدماء اليونان»^(٤).

ونقرأ ملحوظات عن «مدى عناية الأمم القديمة بالعلوم عند صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢ هـ) في كتابه (طبقات الأمم)، فقد ذكر عناية بعض الشعوب بالعلم، وهم: الهنود، والفرس، والكلدان، واليونان، والروم، وأهل مصر، والعرب، وبنو إسرائيل»^(٥).

(١) ابن النديم: الفهرست ٢٣٩ - ٢٤٠، والقفطي: تأريخ الحكماء ٧١، ٣٥٦.

(٢) نالينو: علم الفلك - تأريخه عند العرب ١٨٠ - ١٨١.

(٣) المقرئزي: خطط ١٣٣.

(٤) ابن النديم: الفهرست ٢٣٨، ٣٥٢.

(٥) صالح أحمد العلي: تأريخ العلماء وفهارس المصنفات في المصادر العربية (مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الرابع والثلاثون ١: ٦ - ٧).

وكان اهتمام هذه الشعوب ينصب على التاريخ، والأدب، والفلسفة، والطب، والفلك، والإسرائيليات (تأريخ الأنبياء). ومن الواضح أن أيّاً من هذه العلوم المدونة باللغات الأجنبية لم يترك أثراً على الثقافة والتعليم في عصر السيرة والراشدين ماعدا الإسرائيليات التي اطلع عليها - بحذر شديد - أفراد معدودون من الصحابة.

ولكن - للأسف - لم يحفظ لنا التاريخ ما يكفي لتصوير واقع التعليم في المنطقة الواسعة التي حكمها الإسلام في عصر السيرة والراشدين، والتي يتنوع سكانها ما بين عرب وفرس وسريان وكرد و أرمن وقبط، وتنوع معهم ثقافتهم وأديانهم وعقائدهم، التي حاولت التشبث بالبقاء طويلاً، مستغلة ظروف الحرية الدينية التي أتاحها الإسلام. ومن ثم فنحن لا نعرف على وجه التحديد طبيعة المؤسسات التعليمية في المناطق المفتوحة، وعلاقتها بالدولة والمجتمع، ولا نعرف إلى أي مدى كان التعليم منتشرًا، وما موازين الثقافة آنذاك، ولا نعرف شيئاً عن أعداد المتعلمين ومستوياتهم، ومستوى المعلمين وطبيعة المعلومات التي يقدمونها للطلبة، ولا علاقة مراكز الثقافة ومؤسسات التعليم ببعضها داخل الدولة الواحدة، وصلاتها مع مثيلاتها في الدول الأخرى. ثم ما مآل ذلك كله بعد الفتح الإسلامي؟.

إن التاريخ لا يرد على تساؤلنا، ولعله لن يفعل ذلك إلى الأبد، إلا أن نقف على مصادر جديدة لمعرفة ما يكتنزها باطن الأرض، أو تحتفي بين أكداس الكتب الكثيرة، التي لا تزال حبيسة لم يعرض لها أحد بالفهرسة والدراسة، فقد زادت معلوماتنا التاريخية خلال العقدين الأخيرين بعد أن نشرت للمرة الأولى مجموعة من المصادر التاريخية، مما يبعث الأمل في المستقبل. أما معلوماتنا عن واقع التعليم في الحجاز في عصر السيرة والراشدين فإنها وإن كانت مشتتة إلا أنها أكثر

وضوحاً، بسبب عناية المؤرخين المسلمين بهذه المدة، وتقييدهم لأخبار السيرة النبوية، وأخبار الخلفاء الراشدين بتفصيل، لما تمثله من أهمية دينية وتشريعية.

لقد وردت معلومات متناثرة عن معرفة أفراد من العرب في الحجاز بالكتابة والقراءة والحساب، حيث استدعت ذلك ضرورات الحياة، وخاصة في المجتمع المكي التجاري، أو حيث الأقلية اليهودية المتمركزة في يثرب، التي كانت تمارس التجارة والزراعة، وتحفظ بتراثها الديني وكتابتها بالعبرانية.

ولا شك في أن أسماء المتعلمين التي أوردتها المصادر لا تمثل إحصاء دقيقاً، ولكن ينبغي أن لا يبالغ في تصور انتشار التعليم على نطاق أوسع مما أوردت، لأن قلة عدد المتعلمين هي التي استرعت انتباه الإخباريين لذكر أسمائهم.

ويذكر البلاذري أن عدد الكاتبين من قريش عند ظهور الإسلام كان سبعة عشر رجلاً^(١).

وقد سمت المصادر بعض الكاتبين، فقد كان أمية بن أبي الصلت نظر الكتب وقرأها في الجاهلية^(٢)، وكذلك قيس بن نشبة الذي «كان يتأله في الجاهلية وينظر في الكتب»^(٣)، وكان كردوس بن عمرو «يقرأ الكتب وينقل عبارات من الإنجيل»^(٤).

وقد ذكر القرآن الكريم معرفة بعض اليهود بالكتابة، وذلك في الآية: ﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾^(٥).

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٣/ ٥٨٠.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٣١٩/ ١٨).

(٣) ابن حجر: الإصابة ١: ٢٥٠.

(٤) ابن حجر: الإصابة ٥: ٦٤٠.

(٥) البقرة: ٧٩.

ولا شك أن ورود مصطلحات الكتابة وأدواتها في القرآن الكريم كاللوح والقرطاس والقلم والمداد يدل على معرفة المخاطبين بها.

وكذلك فإن المستوى البياني والفكري للقرآن الكريم يبين المستوى الثقافي للعرب وقت نزوله، فما فيه من أوجه البلاغة ومعاني الحكمة، والمحاججات والأقيسة العقلية، كل ذلك يحتاج فهمه إلى مستوى ثقافي وذوق لغوي وقدرة عقلية. ثم إن القرآن معجزة بيانية أولاً - وإن ظهرت للبعض فيه أوجه أخرى للإعجاز - تحدى الله بها العرب لعنايتهم الفائقة بفن القول، حتى صار شغلهم الشاغل في ندواتهم، بل في سائر حياتهم. وهل يبلغ التحدي مداه والإعجاز حده إلا عندما تعجز أمة (فن القول) عن أن تقول مثل القرآن؟.

ولا غرابة أن يرتفع مستوى الثقافة آنذاك مع قلة عدد الكاتبين، بل ربما كان ذلك أدعى إلى حفظ الصدر وحدة الفكر واعتماد السليقة، فلا بد من التمييز بين (الثقافة) و(تعلم الكتابة)، فالعلم والتقاليد يمكن نقلهما من جيل إلى آخر عن طريق التواصل بين الأجيال حتى في المجتمعات الأمية. وقد قامت العائلة والقبيلة بنقل التراث الثقافي في المجتمع العربي قبل الإسلام، وكانت الأسفار في مجلس القبيلة الذي يحضره الشعراء والنسابون والإخباريون، ثم الأسواق الأدبية، التي تجتمع فيها القبائل، تتناشد الأشعار وتتفاخر بالأحساب والأنساب، وتزهو بأخبار الكرم والشجاعة والمروءة، من أهم وسائل نقل التراث الذي كان ينمو بإضافة الأجيال اللاحقة على السابقة، وقد هيأت هذه الاجتماعات فرصاً مهمة للتلاقح الثقافي واللغوي، ولتوحيد المقاييس النقدية والذوقية، وللتقريب بين لغات العرب، ومهدت بذلك لفهم القرآن الذي أنزل بلغة قريش.

الملحق الأول

السمات العامة للتعليم

إن الاعتماد الكبير على الذاكرة النشيطة في نقل التراث، وعدم اكتراث جمهور العرب بتعلم الكتابة والقراءة، أدّى إلى إعاقة ظهور مؤسسات التعليم، فلم يقد منها سوى الكتاب الذي لم ينتشر إلا على نطاق محدود في المراكز الحضرية، مثل مكة والطائف ويثرب، فلم يكن هناك تعليم عام، بل كانت الأمية هي الطاغية، وورد في الحديث: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»^(١). ومن ثم لم تكن عندهم تقاليد متبلورة للتعليم، فكان أن حدد الإسلام المعالم كاملة، فأوضح أهمية العلم وربطه بالدين، فعزّز بذلك مكانة العلماء، وبين آداب التعليم وتقاليده بعمق وشمول، فأصبحت تحتذى طوال القرون اللاحقة، ولا تزال قادرة على إعطائنا الكثير من القيم الثقافية والتربوية الراشدة، إذ ربما تكون من أهم معطيات عصر السيرة والراشدين في نطاق التعليم.

لقد قامت حركة التعليم في عصر السيرة والراشدين على أكتاف رجال يعدون على أصابع اليد، ولكن الحافز الديني القوي - الذي جعل الأمة تحدد أهدافها وتوحد قواها لبلوغها - أوجد وسطاً ملائماً لانتشار التعليم. وبعد زمن يسير ظهرت آثار حركة التعليم الجديدة في إظهار الطاقات الكامنة، فإذا بأعداد هائلة تعنى بالفكر والعلم، وتظهر القدرة والإبداع في ميادين شتى، فتسهم في بناء الصرح الثقافي والحضاري الجديد.

ولا شك في أن الانسجام العقدي والفكري والاجتماعي، ووضوح الرؤية بتحديد الأهداف العامة للدولة والمجتمع، دفعا بقوة حركة التعليم، بل الحركة

(١) رواه مسلم: الصحيح ٢: ٧٦١.

الثقافية العامة، لمواكبة التقدم العسكري والسياسي، وحل المشكلات الجديدة في الدولة الواسعة. فتحديد وجهة التعليم وأهدافه لأول مرة كان من معطيات عصر السيرة والراشدين، وقد أدت هذه الحوافز القوية والضوابط الجديدة إلى انتشار التعليم بسرعة خارقة، لا تقل دهشة الإنسان أمامها عن دهشته إزاء سرعة الفتوح العسكرية، إذ لا ريب في أن الإسلام أحدث (ثورة التعليم)، التي أثمرت «النضوج الفكري المبالغت»، وشكلت بذلك «ظاهرة خارقة».

يقول العالم الألماني مورتز كانتور: «إن شعباً ظل قروناً متتابعةً معزولاً عن المؤثرات الحضارية التي كان يتعرض لها جيرانه، ولم يؤثر هو نفسه على الآخرين كل هذا الوقت، نهض فجأة وفرض عقيدته وقوانينه ولغته على الأمم الأخرى إلى درجة لا مثيل في التاريخ لظاهرة غريبة مثلها، وأسبابها جذيرة بالدراسة والتقصي، لأننا في الوقت نفسه متأكدون من أن هذا النضج الفكري المبالغت الذي تكون بسرعة تشبه سرعة حدوث الانفجار لم يأت من تلقاء نفسه»^(١).

وتتطابق رؤية عالم آخر هو فلوريان كاجوري مع ما ذكره مورتز كانتور، قال كاجوري في كتاب «تأريخ تدوين الرياضيات»: «إن العرب يمثلون ظاهرة خارقة في تأريخ المدنية، حيث القبائل الجاهلة المنقسمة على نفسها في الجزيرة العربية، التي لم تعرف الحكم ولا الحرب، قد انصهرت في أتون الحماس الديني خلال عشر سنوات، وجعلت من نفسها أمة قوية، وبعد مئة عام من مسيرة الفتوحات الجليلة، رأيناهم يتصدرون أمماً غيرهم في الجهد الفكري، وأصبح المسلمون هم علماء زمانهم الأجلاء»^(٢).

لقد أعاد الإسلام صياغة شخصية الإنسان، ففجر طاقاته الإبداعية الكامنة من أجل العلم والعمل لبناء حضارة إنسانية متوازنة، وكانت نظرية المعرفة

(١) الدكتور سيد معظم حسين: التعليم الإسلامي ١٢٨، «مناشدة لإقامة جامعة إسلامية حديثة» حيث تم اقتباس النص بواسطته، ولم أقف على كتاب كانتور.

(٢) المصدر السابق.

الإسلامية بشمولها وتكاملها واتساقها، وسيلته لإحداث التغيير الجذري في كيان الإنسان وبنية المجتمع، تلك النظرية التي غرس القرآن بذرتها وعبرت عنها «السنة» في فجر تأريخ الإسلام.

وقامت الدولة الناشئة في المدينة المنورة بمسؤوليتها في بداية الأمر، فقيادتها أكثر وعياً للحاجة إلى التعليم، وهي تواجه مسؤولية إدارة الدولة وحاجاتها المتنوعة للتعليم.

وصدرت البادرة الأولى عن الرسول ﷺ نفسه، عندما أمر بعض المتعلمين من المسلمين بتعليم الآخرين، وأمر بعض الأسرى ببدر بتعليم شباب الأنصار الكتابة مقابل مفاداتهم، وأرسل المعلمين - وسط الأخطار - إلى البوادي للدعوة ولتعليم الناس القرآن وتفقيهم بالدين.

وما إن أشعلت الدولة الفتيلة حتى انطلقت الأمة لتوسع من نطاق التعليم، بحيث أصبح لا قبل للدولة باحتواء مؤسساته أو الإشراف عليها.

وهكذا تحولت حركة التعليم إلى كتاتيب وحلقات علم ومجالس في المساجد وفي دور العلماء، وظهرت جذور المدارس الفكرية المتنوعة متمثلة بمدرسة أبي موسى الأشعري في القراءات في البصرة، ومدرسة عبدالله بن مسعود في الفقه في الكوفة، ومدرسة عبدالله بن عباس في التفسير بمكة، والمدرستين البصرية والكوفية في النحو.

والحق أن مسؤولية الدولة عن التعليم كانت محدودة النطاق، إذ تركت للناس حريتهم في التعليم مع أنها منحتهم التشجيع والمؤازرة. وكان الانسجام في الأهداف والتطلعات يوحد بين الحكومة والأمة، فلم تكن انطلاقة التعليم الواسعة تهدد الدولة، بل كانت تحقق لها القوة والاستقرار برغم عدم هيمنتها عليها.

ولا شك في أن حرية التعليم وبعده عن هيمنة الدولة ظلَّ سمةً مميزةً له طوال القرون اللاحقة، إلى أن ظهرت المدارس والجامعات الأولى في الإسلام، تلك التي رعتها الدولة، غير أنها لم تكن في الحقيقة تحت إشراف الدولة، إلا من حيث إمدادها بالنفقات ومساعدتها على البقاء، فقد استمرت حرية التعليم بعد ظهور تلك المؤسسات.

إن مبدأ «مجانية التعليم» وكذلك مبدأ «التعليم للجميع» هما من معطيات ذلك العصر. فقدسية التعليم وارتباطه بالعقيدة جعلت رواده يهدفون إلى خدمة المبدأ عن طريق التعليم بدلاً من التكسب به. وقد استمر هذا المبدأ قروناً طويلة، كان التعليم خلالها شعبياً بما تحمله هذه الكلمة من معنى، يناله الغني والفقير، بل إن حظ الفقراء فيه أعظم من حظ الأغنياء، وتفرغهم له وبرزهم فيه كان أكبر، ولم يكن قاصراً على الطبقات الحاكمة والغنية، كما هو حال العصور الوسطى الأوروبية. ومنذ بدء حركة التعليم في الإسلام، اقترن العلم بالعمل، فلم يفصل بين العلم وحاجيات الحياة الواقعية طوال عدة قرون، باستثناء تيارات تمثل الترف الفكري والنزوع العقلي النظري، ومن أبرزها مدرسة المعتزلة التي لم يكتب لها الهيمنة على الحياة الفكرية، وإن علا صوتها - بقوة السلطان - زمناً يسيراً في العصر العباسي.

واقتران العلم بالعمل من أهم المبادئ التي صبغت فلسفة التعليم في الإسلام فيما يشبه البراجماتيكية المعاصرة في عمليتها، ويخالفها في ماديتها ونفعيتها، وقد ولّد هذا الطابع العملي آثاراً تربوية عميقة، وأثمر حضارة باهرة شاركت في بناء صرح التمدن البشري.

إن تقاليد التعليم عند المسلمين مدينة لذلك العصر بمبدأ «التعليم المستمر» طوال الحياة، وهكذا انقطع رجال كثيرون للعلم من المهد إلى اللحد، ويندر أن نجد

عالمًا ترك التعلم أو اعتقد أنه وصل إلى الكمال. ولو استمر هذا المبدأ يسيطر على حياتنا الثقافية حتى الوقت الحاضر لكان لنا شأن آخر في الحركة الثقافية العالمية.

وقد اهتم الإسلام بتعليم الكبار «فكان الصحابة يتعلمون في كبر سنهم»، ولكن الأصل هو البدء بالتعلم عند الصغر، غير أن من فاته ذلك يلقي الباب مفتوحاً أمامه. ومن أبرز خصائص التعليم في ذلك العصر قيامه على الجهود الفردية، فمبدأ «التعلم الذاتي» كان مهيمناً على نشاط العلماء والمتعلمين، حيث ظل العلماء قرونًا طويلة يقومون بتعليم أنفسهم بجهودهم الخاصة، دون الارتباط بمؤسسات التعليم، أو تلقي الحوافز التشجيعية من الدولة. والجدير بالذكر أن مبدأ «تراكم المعرفة» و«تجميع العلم» كان من خصائص الحركة الفكرية في القرون الأولى عن طريق تنويع مصادر التلقي والأخذ عن الشيوخ الكثيرين، والرحلة في طلب العلم لتجميعه. تلك الرحلة التي بدأت في عصر الراشدين، واتسع نطاقها في القرون اللاحقة، والتي أثمرت التجانس الفكري، والتلاقح الأدبي، والحفاظ على وحدة الهوية الثقافية. كما أثمرت - فيما بعد - الدراسات المتعلقة بالبلدان والسكان والجغرافية والإنثروبولوجيا.

إن هذه السمات العامة لبداية التعليم في الإسلام تدعمها النصوص المبعثرة في المصادر التراثية، وهي مصادر تحتاج إلى قراءات معاصرة، تقف على قيم التعليم وتقاليد في عصر السيرة والراشدين وما بعده من عصور التأريخ الإسلامي، وتحدد مجالات توظيفها في بنائنا الثقافي ومؤسساتنا التعليمية المعاصرة، مما يؤكد الهوية الثقافية لأمتنا، ويحدد عملية الأخذ والعطاء المتبادلة بيننا وبين الثقافات المتنوعة، ومؤسسات التعليم المختلفة المعاصرة.

المبحث الثاني

نظرة الإسلام إلى العلم والتعليم

منح الإسلام العلم قدسية حين جعل «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١)، فثمة قدر من العلم ضروري لإيمان المسلم وعبادته ومعاملاته، وهو القدر المفروض عليه تعلمه، وما سواه فهو من فروض الكفاية.

وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على طلب العلم ونشره وبيان فضل طالبه، فطلبة العلم تبسط لهم الملائكة أجنتها^(٢)، وتحفهم الملائكة، وتغشاهم الرحمة، وتنزل عليهم السكينة، ويذكرهم الله فيمن عنده^(٣).

وطلب العلم توفيق من الله للإنسان «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٤). والعلم مثل المال، يصلح للتصدق به على الناس «من الصدقة أن يتعلم الرجل العلم فيعمل به ثم يعلمه»^(٥).

وطلب العلم عبادة، فلا بد من استحضار النية فيه «من تعلم علماً مما يُتَغنى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»^(٦). وتترتب على العمل مسؤولية دينية تضبط توجيهه نحو خير الإنسان وسعادته، وتمنع انحرافه وتهديده للعدل والأمن البشري، وفي القرآن: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٧).

(١) أخرجه ابن ماجه: السنن ١: ٨١ حديث رقم ٢٢٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه: السنن ١: ٨٢ حديث رقم ٢٢٦ وفيه عاصم بن أبي النجود اختلط بأخره.

(٣) أخرجه ابن ماجه: السنن ١: ٨٢ حديث رقم ٢٢٥.

(٤) أخرجه البخاري: حديث رقم ٧١، ومسلم: الصحيح ٢: ٧١٨.

(٥) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١٢٣.

(٦) أخرجه أبو داود: السنن حديث رقم ٣٦٦٤ وأحمد: المسند ٢: ٣٣٨.

(٧) الإسراء ٣٦.

فالحواس مسؤولة دينياً عن العلم طلباً وتنفيذاً، والعالم يسأل عن موقفه العلمي، ففي الحديث: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»^(١).

و الإحساس بالمسؤولية الدينية ولّد ضوابط خلقية، وقواعد منطقية، وآداباً عامة، تركت تأثيرها في الحركة الفكرية، من ذلك ضرورة التحلي بالأمانة العلمية، فالعالم لا يقول جزافاً، لأنه مسؤول عن صحة المعلومات التي يدلي بها، «فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: لا أعلم»^(٢). وهو لا يكتّم العلم ولا ييخل به، إذ ليس العلم الذي حازه ملكاً خالصاً له، بل فيه «حق عام» ربما يكون أوسع من الحق العام في الملكية الفردية.

لذلك توعّد القرآن والحديث العلماء الذين يكتّمون العلم، ففي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾^(٣). وفي الحديث: «من سئل عن علم نافع فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجماً من نار»^(٤).

و الإنسان لا يولد عالماً، غير إنه قادر على تحصيل العلم ببذل الجهد، فهو يولد على الفطرة، وأبواه يؤثّران تأثيراً بالغاً في نقل الأفكار والقيم والعقائد إليه، وفي الحديث: «إنما العلم بالتعلم»^(٥).

(١) أخرجه الترمذي بلفظ مقارب: الجامع حديث رقم ٢٤١٧ وقال: هذا حديث حسن صحيح. والنص من عند الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١: ٨٨ - ٨٩.

(٢) البخاري: الصحيح، كتاب التفسير ٣٠، ٣٨، ٤٤، وأحمد: المسند ١: ٤٣١.

(٣) البقرة ١٥٩.

(٤) أخرجه أبو داود: السنن حديث رقم ٣٦٥٨، والترمذي: الجامع حديث رقم ٢٦٤٩، وابن ماجه: السنن حديث رقم ٢٦٦.

(٥) البخاري: الصحيح، كتاب العلم ١٠.

وما دام للتعليم قدسية، ومنه ما هو فرض متعين على الأفراد، فلا بد أن يكون «التعليم للجميع» ميسراً لا تعيقه أي عوائق مادية أو اجتماعية، وهكذا ساد مبدأ «مجانية التعليم» وورد النهي عن أخذ الأجرة عليه، فقد نهى الرسول ﷺ أبي بن كعب عن قبول هدية من أحد طلابه، وقال له: «إن أخذتها فخذ بها قوساً من النار»^(١). ويبدو أن النهي تكرر مع عبادة بن الصامت - إن لم يقع وهم في الاسم من قبل الرواة - قال عبادة: «علّمت ناساً من أهل الصفة الكتاب والقرآن، فأهدى إلي رجل منهم قوساً فقلت: ليست بهال وأرمني عليها في سبيل الله ﷻ، لآتين رسول الله ﷺ فلا سأله، فأتيته فقلت: يا رسول الله، رجل أهدى إلي قوساً ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن وليست بهال وأرمني عليها في سبيل الله؟ قال: «إن كنت تحب أن تطوق طوقاً من نار فاقبلها»^(٢).

وقد تكفلت الدولة في عصر الراشدين بدفع نفقات التعليم أحياناً، وقام المجتمع بذلك أحياناً أخرى، ولم يعرف عن طلبة العلم أنهم دفعوا نفقة للتعليم آنذاك.

ونظراً لأن العلم كانت تحفظه صدور العلماء غالباً، ويتم نقله مشافهة، فإن العلم ارتبط بالعلماء، فهو يبقى ما بقوا، وينقص إذا توفي العالم، وهذا ما يشير إليه حديث قبض العلم: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»^(٣). فلا غرابة إذا اعتبر موت العالم ثلماً في الإسلام^(٤)، فالعلماء ورثة الأنبياء^(٥). ورثوا عنهم العلم، وهذا

(١) البيهقي: السنن ٦: ١٢٦.

(٢) أخرجه أبو داود: السنن، كتاب البيوع، باب في كسب المعلم حديث رقم ٣٤١٦، وفي إسناده المغيرة بن زياد أبو هاشم الموصلي صدوق له أوهام، كما في تقريب التهذيب لابن حجر.

(٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١: ١٩٤ حديث رقم ١٠٠). ومسلم رقم ٢٦٧٣.

(٤) الدارمي: السنن، المقدمة ٣٢.

(٥) البخاري: الصحيح، كتاب العلم ١٠.

الإحساس بخطورة نقص العلم بسبب موت العلماء كان من أقوى الدوافع التي أدت إلى اختيار العلماء طريق تقييد العلم وعدم الاكتفاء بحفظ الصدور، ذلك الاختيار الذي كان له أهمية كبرى في حفظ علوم الإسلام، ولم يكد القرن الأول - الذي وقع فيه الخلاف والجدل حول كتابة الحديث - ينتهي حتى ظهرت أولى المصنفات دليلاً على غلبة الاتجاه نحو التدوين. ولكن حفظ الصدور لم ينقطع، بل استمر التأكيد عليه قروناً طويلة، ولا زال التعليم الإسلامي يؤكد على «الحفظ» حتى الوقت الحاضر.

وتمتع العلماء - لارتباط العلم بهم - بمكانة عالية واحترام كبير في ذلك العصر وما بعده.. قال الشعبي: «أمسك ابن عباس بركاب زيد بن ثابت، فقال: أتمسك لي وأنت ابن عم رسول الله؟ قال: إنا هكذا نصنع بالعلماء»^(١). وكذلك فعل مرة مع أبي بن كعب قائلاً: «إنه ينبغي للحبر أن يعظم ويشرف»^(٢).

الْبَحْثُ الثَّالِثُ

آداب التعليم وتقاليده

إن آداب التعليم وتقاليده عند المسلمين مدينة بأصولها إلى عصر السيرة والراشدين، برغم أنها تبلورت على مر الأيام، كما تظهر في المؤلفات المتخصصة. ومن أقدم الآداب والتقاليد ظهوراً ما يتعلق بتنظيم مجلس العلم والحلقة العلمية، فقد نهى الرسول ﷺ عن الجلوس وسط الحلقة^(٣)، وأن يجلس المتعلم

(١) الخطيب: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١: ١٨٨، وابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١: ١٢٨.

(٢) الخطيب: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١: ١٨٨.

(٣) أخرجه أبو داود: السنن ٤: ٢٥٨، والترمذي: الجامع حديث رقم ٢٧٥٣ وقال: هذا حديث حسن صحيح. والخطيب: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١: ١٧٦.

بين رجلين إلا بإذنها^(١). وسمح للرجل بالجلوس في المكان إذا فسح له فيه، فقال: «إذا أخذ القوم مجالسهم، فإن دعا رجل أخاه، فأوسع له في مجلسه فليأته، فإنما هي كرامة أكرمه، فليجلس فيه»^(٢). وأمر بحفظ حق الرجل في مجلسه، فقال: «إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه، فهو أحق به»^(٣).

ومن السنة احترام مجلس العلم، وعدم رفع الصوت أو اللغط فيه، والتزام السكينة. قال أسامة بن شريك: «أتيت النبي ﷺ وأصحابه، كأنها على رؤوسهم الطير»^(٤).

وقد وصف أبو إسحاق السبيعي تنظيم الحلقة العلمية في مجلس الصحابي البراء بن عازب فقال: «كنا نجلس عند البراء بعضنا خلف بعض»^(٥). وهو نص يشير أيضاً إلى سعة الحلقة.

ومن الحلقات المعروفة آنذاك في المسجد النبوي حلقة الصحابي جابر بن عبدالله الأنصاري^(٦).

ويرجع كثير من آداب طلبة العلم مع الشيوخ إلى ذلك العهد، فاحترام العالم، وعدم الإلحاح في الاستئذان عليه أو التردد على منزله، والصبر على التلقي، وتحمل الشدائد في طلب العلم، كل ذلك يمكن أن نقف عليه من الخبر الآتي الذي يحكيه ابن عباس، قال: «لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من

(١) أخرجه أبو داود: السنن حديث رقم ٤٨٤٤، والخطيب: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١: ١٧٨.

(٢) أورده الهيثمي: مجمع الزوائد ٨: ٥٩ وقال: «رواه الطبراني وإسناده حسن»، وأخرجه الخطيب: الجامع ١: ١٧٨.

(٣) أخرجه أبو داود: السنن حديث رقم ٤٨٥٣.

(٤) أخرجه أبو داود: السنن حديث رقم ٣٨٥٥، والخطيب: الجامع ١: ١٩٢.

(٥) الخطيب: الجامع ١: ١٧٤.

(٦) ابن حجر: الإصابة ١: ٤٣٥.

الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم اليوم كثير. قال: واعجباً لك يا ابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟ قال: فترك ذاك، وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل، فأتي بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، تسفي الريح عليّ من التراب فيخرج فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليّ فأتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث. قال: فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رأيته، وقد اجتمع الناس حولي يسألوني. فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني»^(١).

وثمة رواية أخرى توضح العلاقة بين صغار العلماء وكبارهم في ذلك العصر، فاحترام الكبير مبدأ إسلامي عام، وقد كان معهوداً في الحياة العلمية أيضاً، قال الصحابي سمرة بن جندب: «لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاماً، فكنت أحفظ عنه، وما يمنعني من القول إلا أن هاهنا رجالاً هم أسن مني»^(٢).

والتبكير في الحياة اليومية وعدم الإخلاد للنوم بعد الفجر سمت عام في حياة مسلمي ذلك العصر، لكن ابن عمر يرى أن حديث «اللهم بارك لأمتي في بكورها» يراد به التبكير في طلب العلم والصلاة في الصف الأول في المساجد^(٣).

وقد انتبه المسلمون في ذلك العصر إلى أهمية التعلم في الصغر، وقد أرشدتهم الرسول ﷺ إلى تعليم الصغار أحكام الصلاة وتربيتهم عليها وهم في السابعة من العمر.

(١) الخطيب: الجامع ١: ١٥٨ - ١٥٩.

(٢) الخطيب: الجامع ١: ٣١٨.

(٣) ابن حجر: الإصابة ١: ١٥٠.

وقد كشف عمر رضي الله عنه عن جانب سيكولوجي مهم عندما نصح مواطنيه بالتعلم في الصغر، فقال: «تفقهوا قبل أن تسودوا»^(١). لأن الكبير في السن وصاحب الشأن في المجتمع، قديانفان من السؤال أو الجلوس في حلقات العلم خلافاً للصغير، كما أن عمر رضي الله عنه كان يدرك حدة الذكاء وقوة الاستعداد لدى الصغار، فكان يحرص على سؤالهم والإفادة من نباهتهم.

وقد استمر هذا المبدأ «التعلم في الصغر» يسود حياة المسلمين التعليمية حتى الوقت الحاضر، كما أن التعليم في إطار الحضارة الغربية يلتقي مع التعليم الإسلامي في مراعاة هذا المبدأ.

وقد بين الرسول ﷺ اختلاف الاستعداد العقلي والقدرة على الفهم بين الناس في الحديث: «نضر الله امرأً، سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه»^(٢).

وقد راعى الصحابة ذلك، فقال عبدالله بن مسعود: «إن الرجل ليحدث بالحديث، فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث، فيكون عليه فتنه»^(٣).

كذلك أدرك عبدالله بن مسعود أثر الأحوال النفسية والجسمية في عملية تلقي العلم، وأوصى بمراعاة ذلك، فقال: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وإن للقلوب فترة وإدباراً، فاغتنموها عند شهوتها، ودعوها عند فترتها وإدبارها»^(٤).

وقال: «حدّث القوم ما أقبلت عليك قلوبهم، فإذا انصرفت قلوبهم فلا تحدثهم، قيل له: ما علامة ذلك؟ قال: إذا حدقوك بأبصارهم. فإذا تشاءبوا واتكأ بعضهم على بعض، فقد انصرفت قلوبهم فلا تحدثهم»^(٥).

(١) البخاري: الصحيح فتح الباري ١: ١٦٥ باب ١٥ بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي: الجامع، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع.

(٣) الخطيب: الجامع ٢: ١٠٩.

(٤) الخطيب: الجامع ١: ٣٣١.

(٥) المصدر نفسه ١: ٣٣٠.

وقد بين ابن مسعود أن من السنة مراعاة ذلك، فقال: «أما إني أخبر بمكانكم، فأترككم كراهية أن أملككم. إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة بين الأيام مخافة السأم علينا»^(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها لعبيد بن عمير: «ألم أحدث أنك تجلس وتجلس إليك؟ قال: بلى. قالت: فيأياك وإملا ل الناس وتقنيطهم»^(٢).

واحترام الحرف العربي حامل الوحي الإلهي كان مستقرًا في نفوس أهل ذلك العصر، فالقرآن الكريم مكتوب به، وأحاديث الرسول ﷺ أيضاً، وقد استمر هذا الاحترام لدى الناس قروناً طويلة، بل مازالت آثاره قائمة في حياتنا، عندما يرفض بعض الناس رمي الكتابة العربية على الأرض.

قيل لأنس بن مالك الصحابي الجليل رضي الله عنه (ت ٩٣ هـ): «كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؟ قال أنس: كان المؤدب له أمانة»^(٣)، وكل صبي يأتي كل يوم بنوبته ماء طاهراً، فيصبونه فيها، فيمحوون به ألواحهم. قال أنس: ثم يحفرون حفرة في الأرض، فيصبون ذلك الماء فيها فينشف. قلت: أفترى أن يلعط؟^(٤) قال: لا بأس به، ولا يمسح بالرجل، ويمسح بالمنديل وما أشبهه. قلت: فما ترى فيما يكتب الصبيان في الكتاب من المسائل؟ قال: أما ما كان من ذكر الله فلا يمحوه برجله، ولا بأس أن يمحو غير ذلك مما ليس في القرآن»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (فتح الباري ١: ١٦٣ حديث رقم ٧٠)، ومسلم: الصحيح ٤: ٢١٧٢.

(٢) الخطيب: الجامع ٢: ١٢٨.

(٣) إناء من فخار يوضع فيه الماء.

(٤) يلعط: يلطع، أي يلحس، وهو مقلوب.

(٥) ابن سحنون: آداب المعلمين ٤٠ - ٤١.

فهذه الصورة الرائعة تعبر أصدق تعبير عما كان في نفوس أبناء ذلك العصر من احترام للحرف العربي، عندما يكتب به الوحي الإلهي، فيختارون الماء الطاهر لمسحه، ويحفرون له في الأرض ويصبونه لينشف.

كما تبين هذه الرواية وجود الكتاتيب والمؤدبين في عصر الراشدين واستخدام الألواح في التعليم.

وقد ترك خروج الصحابة من المدينة إلى الأمصار مع جيوش الفتح تأثيراً بالغاً في انتشار العلم، وتفرق العلماء، وقد ظهرت تقاليد علمية استمرت راسخة لقرون طويلة، وتركت أثراً عميقاً في تواصل الحركة العلمية في أرجاء العالم الإسلامي، وفي توحيد الآداب والمناهج والتقاليد العلمية، وفي التقريب بين وجهات نظر العلماء الأخرى، وفي إعادة تجميع العلم المنتشر، تلك هي الرحلة في طلب العلم. فقد سار جابر بن عبد الله شهراً حتى قدم الشام، ليسمع حديثاً واحداً لم يسمعه من قبل، كان سمعه عبدالله بن أنس رضي الله عنه من رسول الله ﷺ ^(١)، ورحل إلى مصر للقاء مسلمة بن مخلد رضي الله عنه لسماع حديث بلغه عنه ^(٢).

وقال الحارث بن معاوية الكندي: إنه ركب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليسأله عن ثلاث خلال، فقدم المدينة، فقال له عمر رضي الله عنه: ما أقدمك عليّ؟ قال: لأسألك عن ثلاث. قال: وما هن؟ قال: ربما كنت أنا والمرأة في بناء مبني، فتحضر الصلاة، فإن صليت أنا وهي كانت بحذائي، وإن صلت خلفي خرجت من البناء. فقال عمر رضي الله عنه: تستر بينك وبينها بثوب، ثم تصلي بحذاءك إن شئت قال: وعن الركعتين بعد العصر؟ فقال: نهاني عنهما رسول الله ﷺ. قال: وعن القصص، فإنهم أرادوني على القصص؟ فقال: ماشئت. كأنه كره أن يمنعه. قال:

(١) البخاري: الصحيح ١: ٢٩، والخطيب: الجامع ٢: ٢٢٥، وابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١: ٩٣.

(٢) الخطيب: الرحلة في طلب الحديث ٥٦.

إنما أردت أن أنتهي إلى قولك. قال: أخشى عليك أن تقص، فترفع عليهم في نفسك، ثم تقص فترفع حتى يخيل أنك فوقهم بمنزلة الثريا، فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك^(١).

ورحل أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر، وكان بمصر ليسمع منه حديث: «من ستر على أخيه في الدنيا، ستر الله عليه في الآخرة». ولم يحل رحله حتى رجع إلى بيته^(٢).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبليغه للإبل لأتيته»^(٣).

إن طرق تلقي العلم في عصر السيرة والراشدين تتمثل في السماع والعرض والمذاكرة والسؤال. وكان الاعتماد على المحاضرات الشفهية لا الكتب، وهو الأسلوب الذي اعتمده الرسول ﷺ في توضيح معالم الدين ونشر الإسلام^(٤). أما الرسائل المكتوبة فكان نطاقها محدوداً.

واعتبر بعض الصحابة هذا الأسلوب شيئاً من «السنة»، فقال أبو سعيد الخدري: «لا نكتبكم، ولا نجعلها مصاحف، وكان رسول الله ﷺ يحدثنا فنحفظ، فاحفظوا عنا، كما حفظنا نحن عن نبيكم»^(٥).

والسماع هو الطريقة الأكثر انتشاراً لقلّة المواد المكتوبة، فالطلبة يتلقون المعلومات عن طريق سماع الشيخ الذي يلقيها بصوته بعد أن حفظها بصدوره.

(١) المتقي الهندي: كنز العمال ٥: ٨٥٥ نقلاً عن مسند أحمد وسنن سعيد بن منصور.

(٢) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١: ٩٣ - ٩٤، والخطيب: الكفاية ٤٠٢، والرحلة في طلب الحديث ٥٦، والجامع ٢: ٢٢٦.

(٣) الخطيب: الكفاية ٤٠٢.

(٤) صالح العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ١٩.

(٥) الخطيب: تقييد العلم ٣٨.

والإلقاء ينبغي أن يكون واضحاً، وقد يؤكد الشيخ المعنى بإعادة الكلام، ليتمكن المستمع من إتقان حفظه، وقد كان هذا هو أسلوب الرسول ﷺ. وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها على أبي هريرة رضي الله عنه سرد الحديث والتعجل في إلقائه، فقالت لابن أختها عروة بن الزبير: «ألا يعجبك أبو هريرة، جاء فجلس إلى جانب حجرتي، يحدث عن رسول الله ﷺ يسمعي ذلك، وكنت أسبح، فقام قبل أن أقضي سبحتي، ولو أدركته لرددت عليه، إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث سردكم»^(١).

أما العرض: فهو أن يقرأ الطالب على العالم من نسخة مكتوبة.

قال زيد بن ثابت: «كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ.. فأكتب وهو يملي عليّ، فما أفرغ حتى يثقل، وإذا فرغت قال: اقرأه عليّ، فإن كان فيه سقط أقامه، ثم يخرج به»^(٢).

ولما أراد بشير بن نهيك أن يتصرف عن أبي هريرة أتاه بكتبه التي كتبها عنه فقرأها عليه، فقال: «هذه سمعتها منك؟ قال: نعم»^(٣).

لقد اتخذ العلماء فيما بعد من هذه السوابق دليلاً على صحة المعارضة بين الفرع المكتوب وأصله الذي كتب عنه. وقد روي عن علي رضي الله عنه قوله: «القراءة على العالم بمنزلة السماع منه»^(٤).

وروي عن عبد الله بن عباس قوله: «اقرأوا عليّ، فإن قراءتكم عليّ كقراءتي عليكم»^(٥).

(١) البخاري: الصحيح حديث رقم ٣٥٦٨، والخطيب: الجامع ١: ٤١٤.

(٢) ذكره الهيثمي: مجمع الزوائد ١: ١٥٢ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون». والخطيب: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢: ١٣٣.

(٣) الخطيب: الجامع ٢: ١٢٤.

(٤) الرامهرمزي: المحدث الفاضل ٧٦ ب.

(٥) الترمذي: الجامع ٢: ٣٣٧.

وأما المذاكرة فقد قال الصحابي أبو نضرة العبدى: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا تذاكروا العلم وقرأوا سورة»^(١).

وكان الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري يوصي بالمذاكرة، لتثبيت المعلومات، يقول: «تحدثوا وتذاكروا، فإن الحديث يذكر بعضه بعضاً»^(٢).

ولم تقصر المذاكرة على الحديث، بل كانت في الفقه أيضاً، فقد أتى أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد العشاء، فقال له عمر رضي الله عنه: «ما جاء بك؟ قال: جئت أتحدث إليك. قال: هذه الساعة؟ قال: إنه فقه. فجلس عمر، فتحدثا طويلاً. ثم إن أبا موسى قال: الصلاة يا أمير المؤمنين. فقال عمر: إنا في صلاة»^(٣).

وأما السؤال فهو أسلوب شائع حيث كان الصحابة يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام عما يعرض لهم، ويحتاجون لمعرفة حكم الدين فيه. وقد روي عن علي رضي الله عنه ما فيه الحث على السؤال العلمي بقوله: «ألا رجل يسأل فينتفع وينفع جلساءه»^(٤).

(١) الخطيب: الجامع ٢: ٦٨.

(٢) أورده الهيثمي: مجمع الزوائد ١: ١٦١ وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح. وأخرجه الخطيب: الجامع ١: ٢٣٧.

(٣) المتقي الهندي: كنز العمال ١٠: ٢٥٣.

(٤) المتقي الهندي: كنز العمال ١٠: ٣٠٢.

إِفْطِيكَ الثَّانِي

التطبيقات والمراكز والموضوعات

المبحث الأول

النشاط التعليمي

تمهيد:

أ - النشاط التعليمي بمكة قبل الهجرة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم مكان اجتماع المسلمين في مكة، يوم أن كانت أعدادهم قليلة، يتسربون إليها خلسة خوفاً من قريش، حيث يلتقون الرسول ﷺ، ويتعلمون منه أمور دينهم، ويتلقون عنه ما ينزل من القرآن^(١).

ومن المعروف أن نفراً منهم كان يعرف الكتابة في هذه المرحلة المبكرة، فدوّن بعض سور القرآن الكريم، ومما يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اطلع على صحيفة فيها صدر سورة طه، فتأثر عند قراءتها وأسلم.

وهذا الخبر يفيد معرفة عمر رضي الله عنه القراءة في المرحلة المكية^(٢)، ومعرفة خباب رضي الله عنه - وهو الذي كان يقرأ الصحيفة على فاطمة أخت عمر رضي الله عنه - القراءة. وكان عبدالله بن مسعود أول من علّم القرآن بمكة^(٣).

ولا شك أن ظروف المسلمين الصعبة ومواجهتهم العنيفة مع قريش، كانت تقف حائلاً أمام توجيه معظم اهتمامهم للتعليم، إذ إن الاستقرار وهدوء البال يساعدان على انتشاره، كما أن الحاجة العملية للدعوة الإسلامية - في بدايتها - كانت محدودة. وكان في المسلمين الأوائل عدد من المتعلمين.

(١) ابن هشام: السيرة ١: ٢٥٣ حاشية (١)، والحاكم: المستدرک ٣: ٥٠٢ - ٥٠٣.

(٢) المصدر نفسه ١: ٣٦٧ وما بعدها.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٥١.

ب - النشاط التعليمي بالمدينة:

كان المكيون أوفر حظاً من الأنصار في انتشار الكتابة بينهم، وهذا عائد إلى أن الحاجة إلى الكتابة في المجتمع التجاري أوسع ميداناً من المجتمع الزراعي، يقول الواقدي: «كان الكتاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلاً، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكانت تعلمه الصبيان في المدينة في الزمن الأول» وعد الواقدي أسماء أحد عشر شخصاً يعرفون الكتابة^(١). وهذا العدد يشير إلى أن الجهد الذي بذله اليهود في تعليم العربية كان ضئيلاً ومحدوداً.

ولما أخذ الإسلام ينتشر بين الأنصار ظهرت بوادر حركة التعليم الجديدة... فقد ذهب رافع بن مالك الأنصاري إلى مكة، وتعلم ما نزل من القرآن في السنوات العشر التي مضت على البعثة من النبي ﷺ نفسه^(٢).

وفي بيعة العقبة طلبت الأنصار من الرسول ﷺ بمكة أن «ابعث إلينا رجلاً يفقهنا في الدين، ويقرئنا القرآن»، فبعث إليهم مصعب بن عمير^(٣).

ثم كانت الهجرة إلى المدينة، وقامت دولة الإسلام الأولى، وكانت متطلبات الدعوة أولاً والإدارة ثانياً تقتضي بذل جهود حثيثة في نشر التعليم.

وقد قام المسجد النبوي بمسؤولية كبرى في هذا المجال، ثم عضدته ثمانية مساجد أخرى^(٤)، والمسجد يجتمع فيه الناس خمسة أوقات للصلاة، وتنعقد فيه حلقات العلم، ويخطب فيه كل جمعة، ويتلى فيه القرآن، وقد استمرت أهمية المسجد التعليمية قروناً طويلة بعد ذلك.

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٦٦٣ - ٦٦٤.

(٢) ابن حجر: الإصابة ٢: ١٤٤.

(٣) المصدر نفسه ١: ١٢٤.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ١: ٢٧٣.

وفي الجانب الشمالي من المسجد النبوي تقوم الصفة التي سكنها فقراء المهاجرين والأنصار والقادمين من الغرباء، وهم منقطعون للعلم والعبادة والجهاد، وقد وردت روايات تفيد أن تعليم القراءة والكتابة كان ضمن النشاط التعليمي في الصفة، وأن ممن تولى هذه المهمة عبادة بن الصامت^(١). قال عبادة ابن الصامت: «علمت ناساً من أهل الصفة الكتابة والقرآن»^(٢).

وإلى جانب المسجد قامت مراكز أخرى للتعليم في المدينة، كما يشير قول ابن مسعود: «قرأت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة، وزيد بن ثابت له ذؤابة في الكتاب»^(٣)، وكما أخبر أنس بن مالك عن وجود الكتاب والمؤدبين في عصر الراشدين^(٤). ولا نعرف مدى انتشار هذه الكتاتيب داخل المدينة وخارجها، ولكن ثمة إشارة إلى وجود كتاب في الطائف، حيث كان جرير بن حية الثقفي يعلم فيه^(٥).

وقد وردت إشارة عن «دار القراء» بالمدينة، وكانت قائمة بعد بدر الكبرى^(٦) - على الأقل - ولا نعرف طبيعة الدور أو المهام الموكلة إليها، ولكن اسمها يدل على الاهتمام بقراءة القرآن الكريم.

وقد استفاد الرسول ﷺ من بعض أسرى بدر من المشركين في تعليم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة مقابل فدائهم، وممن تعلم منهم زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار^(٧).

(١) أبو داود: السنن ٢: ٢٣٧، وابن ماجه: السنن ٢: ٧٣، ولمعرفة المزيد عن أهل الصفة راجع: أكرم العمري: المجتمع المدني ٩٦.

(٢) أحمد: المسند ٥: ٣١٥.

(٣) أحمد: المسند ١: ٣٨٩، والخطيب: الجامع ٢: ٩٢، وفيه «وإن زيدا ليختلف إلى الكتاب».

(٤) ابن سحنون: آداب المعلمين ٤٠ - ٤١.

(٥) ابن حجر: الإصابة ١: ٤٦٢.

(٦) الخزازي: تخريج الدلالات السمعية ٨٠.

(٧) أحمد: المسند ٤: ٤٧ بإسناد صحيح، وقال البنا في الفتح الرباني: «في إسناد علي بن عاصم فيه كلام، ولكن وثقه الإمام أحمد». وابن سعد: الطبقات ٢: ٢٢، وأبو عبيد: الأموال ١١٦، والحاكم: المستدرک ٢: ١٤٠، والمقرئزي: إمتاع الأسع ١٠١، والخزازي: تخريج الدلالات السمعية ٧١.

وقد وردت أخبار عن رواد التعليم في ذلك العصر، فقد كان الحكم بن سعيد بن العاص الأموي كاتباً، فأمره النبي ﷺ أن يعلم الكتاب بالمدينة.. وكان يعلم الحكمة أيضاً^(١).

ومن هؤلاء الرواد عبدالله بن سعيد بن العاص الذي أمره النبي ﷺ أن يعلم الكتاب بالمدينة، وكان كاتباً، وقضى يوم بدر شهيداً^(٢).

وكانت الشفاء بنت عبدالله العدوية القرشية من أوائل المهاجرات، وقد أمرها النبي ﷺ أن تعلم حفصة أم المؤمنين الكتابة، وهذه أقدم إشارة إلى تعليم المرأة المسلمة الكتابة^(٣). وكان سعد بن عباد زعيم الخزرج يكتب بالعربية، ويحسن العوم والرمي، فكان يقال له الكامل^(٤) و«كان جهيم بن الصلت المطلبي قد تعلم الخط في الجاهلية، فجاء الإسلام وهو يكتب، وقد كتب لرسول الله ﷺ»^(٥)، وكان عمر بن الخطاب كاتباً، وقد كتب بعض الآيات بيده^(٦). وكان لأبي ریحانة الأزدي رضي الله عنه صحف، وهو أول من طوى الطومار، وكتب فيه مدرجاً مقلوباً^(٧).

ومن رواد التعليم الأوائل في المسجد النبوي بالمدينة سعد بن الربيع الخزرجي، وبشير بن سعد بن ثعلبة، وأبان بن سعيد بن العاص رضي الله عنه^(٨).

(١) ابن حجر: الإصابة ٢: ١٠٢ - ١٠٣.

(٢) ابن حجر: الإصابة ١: ٣٤٤، وانظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧: ٤٣٨ حيث يذكر أنه ابن أحيحة بن العاص.

(٣) ابن حجر: الإصابة ٧: ٧٢٧، ٧٢٩، والخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ٧١، ٧٣.

(٤) ابن حجر: الإصابة ٣: ٦٦.

(٥) ابن حجر: الإصابة ١: ٥٢٤.

(٦) الطبري: تفسير ٢٤: ١٥.

(٧) ابن حجر: الإصابة ٣: ٣٥٩، ٣٦١ والطومار هو: الصحيفة.

(٨) ابن عبد البر: الاستيعاب ١: ٦٤، وابن سعد: الطبقات ٣: ٥٣١، وابن حجر: الإصابة ١: ١٠.

وكان من ثمار السياسة التعليمية التي اختطها الرسول ﷺ ازدياد عدد الكاتبين في المجتمع الإسلامي، حتى بلغ عدد كتاب النبي ﷺ وحدهم نحو خمسين كاتباً، منهم من كتب الوحي مثل علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وعبدالله بن سعد بن أبي السرح وحنظلة بن الربيع ومعاوية بن أبي سفيان وأبان بن سعيد وخالد بن سعيد رضي الله عنهم، ومنهم من كان يكتب أموال الصدقات كالزبير بن العوام وجهيم بن الصلت رضي الله عنهم، ومنهم من كان يكتب المداينات والعقود، مثل عبدالله بن الأرقم الزهري، والعلاء بن عقبة رضي الله عنه ^(١).

وقد دعمت الدولة جهود التعليم في المدينة، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرزق ثلاثة من المعلمين الذين كانوا يعلمون الصبيان بالمدينة خمسة عشر درهماً كل شهر لكل واحد منهم ^(٢). واستقدم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رجلاً من العراق يعلم أبناءهم الكتاب بالمدينة ويعطونه الأجر ^(٣).

وكان التعليم يشمل الرجال والنساء، فقد خصص الرسول ﷺ للنساء مجلساً في المسجد النبوي بالمدينة ^(٤) وذلك إجابة لطلبهن ^(٥)، كما أمر الرجال - وكانت تتاح لهم عادة فرص أكثر للتعليم بسبب من مصاحبة الرسول ﷺ وحضور المجالس العامة - أن يعلموا النساء ^(٦)، وقد قال لهم مرة: «ارجعوا إلى أهليكم فاعلموهم» ^(٧).

(١) الكتاني: التراتيب الإدارية ١: ١١٥ - ١١٧، والجهمياري: الوزراء والكتاب ١٢ - ١٣، والخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ١٥٩، ١٧٣.

(٢) ابن عساكر: تأريخ دمشق ٨: ق ٩٢ ترجمة صدقة بن موسى الدمشقي، والمتقي الهندي: كنز العمال ٣: ٩٢٤ نقلاً عن ابن أبي شيبة والبيهقي.

(٣) ابن سحنون: كتاب آداب المعلمين ٣٧.

(٤) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١: ١٩٢ حديث رقم ٩٨).

(٥) المصدر نفسه، ١ / ١٩٥ حديث رقم ١٠١.

(٦) المصدر نفسه، ١ / ١٩٥ حديث رقم ٩٧.

(٧) المصدر نفسه ١: ١٨٣ باب ٢٥ تعليقا قبل حديث رقم ٨٧. ومسلم رقم ٦٧٤.

وقد أثنت عائشة رضي الله عنها على نساء الأنصار لطلبهن العلم^(١). وكانت صفوف النساء في المسجد خلف صفوف الرجال، ولم تعقد حلقات علمية مختلطة، ومنذ ذلك الوقت ظهر الأخذ بمبدأ عدم الاختلاط في التعليم، ولا يزال طابعه يغلب على حياتنا، مع أن مؤسساتنا التعليمية الحديثة قد تأثرت بأسلوب التعليم المختلط الغربي.

ج - انتشار التعليم الإسلامي في البوادي والأمصار الجديدة:

أخذ التعليم في البوادي القريبة من مكة والمدينة ينتشر منذ عصر الرسالة، فقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم بعثات التعليم إلى البادية، وكان منها وفد الرجيع إلى عضل والقارة لتعليمهم شرائع الإسلام، وكان يضم عشرة من الصحابة رضي الله عنهم، وقد تعرض بنو لحيان للوفد فقتلوهم، ولم ينج منهم سوى اثنين، أسروهما وباعوهما لقريش فقتلهما^(٢). ووفد بئر معونة كان يضم سبعين من القراء، توجهوا إلى نجد، حيث تعرضوا للغدر الأعراب، وقتلوا جميعاً باستثناء واحد، عاد بخبرهم إلى المدينة^(٣).

وقد أبقى الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه بمكة بعد الفتح، ليفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن^(٤)، ثم بعثه قاضياً إلى الجند - من اليمن - ليعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام، ويقضي بينهم^(٥). «وكان معاذ معلماً يتنقل في عمالة كل عامل باليمن وحضر موت»^(٦).

(١) المصدر نفسه ١: ٢٢٨ باب ٥٠.

(٢) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٣٨٦).

(٣) المصدر نفسه ٧: ٣٨٦ - ٣٨٨.

(٤) ابن هشام: السيرة ٢: ٥٠٠، والخزاعي: تخریج الدلالات السمعية ٦٧.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٧: ٣٨٨، وابن عبد البر: الاستيعاب ١: ٢٤٦، والخزاعي: تخریج الدلالات السمعية ٦٧.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١: ١٨٥٢ - ١٨٥٣ (ط. ليدن).

كذلك بعث الرسول ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى أهل نجران، بناء على طلب وفدهم «أن يبعث من يعلمهم السنة والإسلام»^(١)، ثم أرسل إليهم عمرو ابن حزم رضي الله عنه بعده، وهو ابن سبع عشرة سنة، ليفقههم في الدين، ويعلمهم القرآن، ويأخذ صدقاتهم، وذلك في السنة العاشرة للهجرة^(٢).

وتنقطع أخبار إرسال البعثات التعليمية في خلافة الصديق رضي الله عنه، وربما يرجع ذلك إلى أحداث حركة الردة الخطيرة، حيث لم تعد البوادي آمنة. ثم تنشط هذه البعثات بعد إعادة توحيد الجزيرة والتوسع في الفتوح في خلافة عمر رضي الله عنه. وقد بعث عمر رضي الله عنه رجلاً يقال له أبو سفيان، يستقرئ أهل البوادي القرآن، فمن لم يقرأ ضربه بالسوط^(٣).

وقد اعتبر عمر رضي الله عنه التعليم من المسؤوليات المنوطة بالولاية في الأمصار، فقد ورد في إحدى خطبه: «اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار، فإني بعثتهم يعلمون الناس دينهم وسنة نبيهم»^(٤)، وقد أكد هذا المعنى في مناسبة أخرى^(٥).

وكان عمال عمر رضي الله عنه على الأمصار يدركون هذه المسؤولية، فقد صرح بها أبو موسى الأشعري رضي الله عنه حين قدم البصرة والياً، فقال: «بعثني إليكم عمر بن الخطاب أعلمكم كتاب ربكم وستتكم»^(٦). وكان أبو موسى الأشعري يقرئ تلاميذه القرآن بعد أن يجلسهم حلقةً حلقةً، وعليه بردان أبيضان^(٧).

(١) أحمد: المسند ٣: ٢١٢، وابن سعد: الطبقات ٣: ٤١١ - ٤١٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١: ١٨٥٢، والخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ٧٩.

(٣) ابن حجر: الإصابة ١: ١٥١.

(٤) أحمد: المسند ١: ٤٨، وابن سعد: الطبقات ٣: ١، ١٤٩.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٨١.

(٦) الدارمي: سنن ١: ١٣٥.

(٧) الفاكهي: أخبار مكة ٤: ١٠ بإسناد صحيح.

وقد أولى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه القراء في البصرة عناية خاصة، فازداد عددهم، وقويت مكانتهم الفكرية والسياسية، وكان لهم دور في كثير من الأحداث في صدر الإسلام^(١).

ولم يكتف الخليفة عمر رضي الله عنه بجهود ولاية الأمصار في نشر التعليم، بل دعمها بالعلماء الذين كان يرسلهم من المدينة، محملين بوصاياهم... فقد بعث عشرة من الصحابة رضي الله عنهم، وكان فيهم عبدالله بن مغفل المزني، ليفقهوا الناس بالبصرة^(٢).

كذلك بعث عمران بن حصين الخزاعي رضي الله عنه إلى البصرة ليفقه أهلها، وكان من فقهاء الصحابة^(٣).

ويروي قرظة بن كعب أنه لما أراد الذهاب مع عدد من أصحابه إلى الكوفة شيعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: «إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله»^(٤).

وقد سير عمر عبدالله بن مسعود رضي الله عنه إلى الكوفة ليعلم أهلها أمور دينهم^(٥). وكان نصيب الكوفة من الصحابة كبيراً، إذ هبط فيها ثلاث مئة من أصحاب الحديبية وسبعون من أهل بدر^(٦).

وأرسل عمر معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء رضي الله عنهم إلى الشام، لأن أهلها بحاجة إلى من يعلمهم القرآن الكريم^(٧). فكان عبادة في الشام قاضياً ومعلماً^(٨).

(١) صالح أحمد العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ١٥.

(٢) ابن حجر: الإصابة ٤: ٢٤٣.

(٣) ابن حجر: الإصابة ٤: ٧٠٥، ٧٠٦.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٦: ٧.

(٥) ابن حجر: الإصابة ٤: ٢٣٥.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٦: ٩.

(٧) ابن عساکر: تاريخ دمشق تحقيق د. شكري فيصل وآخرين ص ٢٣ وابن حجر: الإصابة ٢: ٦٢٦.

(٨) ابن عبد البر: الاستيعاب ٢: ٤٢٤.

وقد نظم أبو الدرداء رضي الله عنه طلابه، ووزعهم في مجموعات لكثرتهم، واستحالة قيامه بتعليمهم بطريقة مباشرة، وراعى تدرجهم في العلم عند تقسيمهم، فكانت المجموعات متباينة المستوى. قال سويد بن عزيز: كان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا صلى الغداة في جامع اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفهم، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء رضي الله عنه فسأله عن ذلك، وكان ابن عامر عريفاً على عشرة، فلما مات أبو الدرداء رضي الله عنه خلفه ابن عامر. قال مسلم بن مشكم - أحد تلاميذ أبي الدرداء - : قال لي أبو الدرداء رضي الله عنه : أعدد من يقرأ عندي القرآن. فعددتهم ألفاً وست مئة وثيِّفاً، وكان لكل عشرة منهم مقرئ، وأبو الدرداء يكون عليهم قائماً، وإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء رضي الله عنه ^(١).

وقد اهتم قادة الفتح في الشام بتعليم المسلمين القراءة والكتابة، حيث طلبوا من أسرى قيسارية تعليم المسلمين الكتابة، وقد وضعوا في الجرف، وهو معسكر المسلمين في فلسطين ^(٢).

وقد ظهرت الكتاتيب في الشام بعد الفتح، وتعلم فيها أبناء الفاتحين. يقول أدهم بن محرز الباهلي الحمصي: «أنا أول مولود ولد بحمص - يعني من المسلمين - وأول مولود رئي في كتف - يعني يحمل كتفاً مكتوباً فيه القرآن - وأنا أختلف إلى الكُتَّابِ أتُعلم الكِتَابَ - يعني القرآن -» ^(٣). ومن تعلم في كتاتيب الشام وهو صبي إياس بن معاوية المزني قاضي البصرة المشهور ^(٤).

(١) ابن الجوزي: غاية النهاية في طبقات القراء ١: ٦٠٦ - ٦٠٧. ويعرض ابن عساكر في تاريخ دمشق صوراً أخرى ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١٩٣.

(٣) ابن بدران: تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ٢: ٣٦٧.

(٤) المصدر السابق ٣: ١٨٠.

وقد شاركت المرأة في نشر التعليم في الشام منذ وقت مبكر، قال عبد ربه ابن سليمان: كتبت لي أم الدرداء في لوفي فيما تعلمني: (تعلموا الحكمة صغاراً تعملوا بها كباراً)، و(إن لكل حاصد ما زرع من خير أو شر)^(١).

ويبدو أن التعليم في الشام كان أكثر مركزية من بقية الأمصار، لأن عمر رضي الله عنه «لما افتتح البلدان كتب إلى أبي موسى الأشعري، وهو على البصرة، يأمره أن يتخذ للجماعة مسجداً، ويتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة وشهدوا الجمعة. وكتب إلى سعد بن أبي وقاص، وهو على الكوفة بمثل ذلك. وكتب إلى عمرو بن العاص، وهو على مصر بمثل ذلك. وكتب إلى أمراء أجناد الشام: لا يتبدوا إلى القرى ويتركوا المدائن، وأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً واحداً، ولا يتخذوا للقبائل مساجد كما اتخذ أهل الكوفة والبصرة ومصر. وكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده»^(٢).

المبحث الثاني

مراكز الحركة الفكرية

كانت المدينة المنورة أهم مراكز الحركة الفكرية في عصر السيرة والراشدين، فهي دار السنة، ومجتمع الصحابة، ومنها انتشر العلم إلى بقية المدن والأمصار، بخروج عدد كبير من الصحابة منها بعد وفاة النبي ﷺ، حيث استقروا في البلاد المفتوحة، ونشروا العلم والرواية فيها.

(١) ابن عساکر: تاريخ دمشق ١٩: ق ٤٠٨. ترجمة هجيمة بنت حبي أم الدرداء.

(٢) ابن عساکر: تاريخ دمشق ٢: ٩٤ - ٩٥ (ط. المنجد).

إن إلقاء نظرة على ما خصصه كل من خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) في طبقاته، ومحمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) في طبقاته لتراجم علماء المدينة، ومقارنة ذلك بما خصصاه لبقية المدن، يكفي للدلالة على تفوق المدينة في العلم على ما سواها من المدن في ذلك العصر.

أما بقية مدن الحجاز فقد كان دورها في العلم ضئيلاً إذا ما قيسَت بالمدينة، وتبرز من بينها مكة بسبب مركزها الديني، واجتماع العلماء فيها في مواسم الحج. أما الأمصار الجديدة فتبرز الحركة العلمية في كل من: الكوفة، والبصرة، ودمشق، والفسطاط، حيث استقر فيها عدد كبير من الصحابة، إذ برزت في الكوفة مدرسة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في الفقه، وفي البصرة مدرسة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في القراءات.

وتأتي دمشق بعد الكوفة والبصرة في الأهمية، ثم يأتي دور الفسطاط بمصر. أما المشرق فلم تبرز أهميته العلمية في هذه المرحلة المبكرة، برغم أن نواة التعليم الإسلامي بذرت في قلوب أبنائه منذ ذلك الوقت. فقد ذكر أبو نعيم «أنه كان رجل بأصبهان من بني سليم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكان في جملة الدهاقين يعلم أهلها الفرائض والسنن»^(١).

مواد الكتابة:

قبل انتشار الورق - الذي ظهر في العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري -^(٢) كانت مواد الكتابة هي الحجارة أو العظام، أو عشب النخيل أو القماش، أو الجلود أو القراطيس (ورق البردي)، ولم ترد إشارة إلى استعمال الكاغد في عصر السيرة والراشدين.

(١) أبو نعيم: ذكر أخبار أصبهان ١: ٧٥.

(٢) صالح أحمد العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ١٣.

والقراطيس اسم أطلق على ورق مصنوع من لب نبات البردي، الذي تشتهر به دلتا مصر. وقد عرف في جزيرة العرب قبل الإسلام، ويمتاز بصفحاته الكبيرة، غير أنه أغلى كلفة، وأقل دواماً من الورق^(١).

وقد ورد ذكر القراطيس في القرآن الكريم^(٢)، ولما أراد أبو بكر رضي الله عنه جمع القرآن الكريم كان بعضه مكتوباً في قراطيس^(٣)، وقد وصلت إلينا نسخ من القرآن الكريم مكتوبة على البردي، وهي مما تحتفظ به دار الكتب المصرية^(٤).

وكتب خالد بن الوليد رضي الله عنه عهد الصلح مع دمشق على قراطيس، كما أن صكوك «الجار» كانت تكتب على القراطيس^(٥). وشاع استعمال القراطيس في بلاد العرب بعد فتحهم لمصر من قبل عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وقد توسعت احتياجات الدولة للقراطيس ومواد الكتابة الأخرى، حتى خصص للقراطيس بيت كان ملتصقاً ببيت عثمان رضي الله عنه^(٦).

وأما الجلود فقد استعملتها العرب في كتابتها، ويسمونها الرق والأديم والقضيم، فأما الرق فهو الجلد الرقيق الأبيض الذي يكتب عليه، وأما الأديم فهو الجلد أيا كان وقيل الأحمر، وقيل هو المدبوغ، وكان يستعمل في زمن الرسول ﷺ كثيراً، فالقرآن «كان مما يكتب على الأديم»، وكتبه ﷺ إلى أهل دوما ومالك الجذامي وزهير بن أقيش العكلي، وإقطاعه للعباس بن سلمة...

(١) صالح أحمد العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ٥٤ - ٥٥.

(٢) الأنعام ٧، ٩١.

(٣) السيوطي: الإتقان ١: ٦٠، وصالح العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ٥٤ - ٥٥.

(٤) صالح العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ٥٤ - ٥٥.

(٥) المرجع نفسه ٥٥. وصكوك الجار كانت تصدرها الدولة وفيها أرزاق الناس من واردات مصر. والجار ميناء أهل المدينة المنورة على البحر الأحمر (البكري: معجم ما استعجم ٢: ٣٥٥).

(٦) البلاذري: (أنساب الأشراف) ١: ٢٢.

كل ذلك كان مكتوباً على أديم بعضه أحمر وبعضه خولاني. وأما القضيـم فهو الجلد الأبيض، وقيل: هو الصحيفة البيضاء، وقبض رسول الله ﷺ والقرآن في العـسب والقضيـم^(١).

وقد أجمع الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن الكريم في الرق لطول بقائه، أو لأنه الموجود عندهم حينئذ^(٢).

وكان لأبي ریحانة الأزدي رضي الله عنه صحف، وهو «أول من طوى الطومار، وكتب فيه مدرجاً مقلوباً»^(٣)، والطومار هو الصحيفة.

وكان سعيد بن جبیر يكتب عند ابن عباس رضي الله عنهما في صحيفة، فإذا امتلأت كتب في نعله، فإذا امتلأت كتب في كفه^(٤). واستخدم ابن عباس رضي الله عنهما الألواح^(٥)، وبلغت كتاباته حمل بعير^(٦).

وقد استخدم آخرون أكفهم، فكتبوا عليها بالقصب عند البراء بن عازب رضي الله عنه^(٧)، وبالطبع كانت الكتابة على الأكف وسيلة لتذكر المعلومات وحفظها ومن ثم تغسل، فاستخدمهم لها أشبه ما يكون بعمل السبورة اليوم.

وقد كتب زيد بن ثابت رضي الله عنه فريضة الجد في قطعة قتب^(٨).

وكانت الصحف متوافرة في السوق، فقد اشترى الحارث الأعور صحفاً بدرهم، ثم جاء بها علياً رضي الله عنه فكتب له علماً كثيراً^(٩).

(١) صالح العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ٥١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٤٢٥، وصالح العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ٤٩.

(٣) ابن حجر: الإصابة ٣: ٣٥٩، ٣٦١.

(٤) أحمد بن حنبل: العلل ١: ٤٢، وفؤاد سزكين: تأريخ التراث العربي ١: ٩٧.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٢: ٣٧١ (ط. دار صادر).

(٦) المصدر نفسه ٥: ٢٩٣.

(٧) أحمد بن حنبل: العلل ١: ٤٢، وابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ٧٣.

(٨) الدارقطني: سنن ٤: ٩٣-٩٤، والقتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير (لسان العرب).

(٩) ابن سعد: الطبقات ٦: ١٦٨، والخطيب: تقييد العلم ٨٩.

وقد استعان البعض بالسبورة، فكان أبان بن أبي عياش يكتب عليها في الليل عند الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه ^(١).

وقد كانت الكتب الرسمية تطين وتختم منذ عصر الرسالة ^(٢)، وباتساع العلاقات الخارجية كثرت هذه المكاتبات، واحتاجت إلى الحفظ. وقد دوّن عمر رضي الله عنه الديوان، وكان يحفظ في تابوت كل معاهدة كانت بينه وبين أحد من عاهده ^(٣).

المبحث الثالث

موضوعات التعليم

لم يقتصر التعليم في عصر السيرة والراشدين على المراحل الأولية لتعليم الكتابة والقراءة، بل عرف أنماطاً أخرى عالية وتخصصات دقيقة، لم تكن مرتبطة في الغالب بمعرفة الكتابة، وإنما كانت تتم عن طريق السماع والمشاهدة، فهو وسيلة التثقيف الأولى في ذلك العصر، وقد برز عدد من الصحابة المتخصصين في فن بعينه، كما جمع بعضهم بين فنون عدة.

وقد قام هؤلاء العلماء بمسؤوليتهم في نشر العلم وتفتيح العقول عليه، وتنمية أعداد طلبته، وإمداد الدولة بما تحتاج إليه من العناصر القيادية.

وكانت موضوعات التعليم تتمثل في القرآن وعلومه، والحديث، والفقه، واللغة العربية، والتأريخ، والأنساب، والشعر، والقصص، والحكم، والأمثال، والتنجيم واللغات والثقافات الأجنبية.

(١) الخطيب: الجامع ٢: ٥٨.

(٢) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ١٧٣.

(٣) المقرئ: الخطوط ١: ٢٩٥.

وفيما يلي عرض لهذه الموضوعات مع الإشارة إلى أبرز المتخصصين فيها في ذلك العصر وفقاً لما انتهى إلينا من المعلومات:

أ - القرآن وعلومه:

لا شك في أن حفظ القرآن وإقراءه وتفسيره، يتقدم بقية الموضوعات، فهو الكتاب الوحيد المدون كاملاً في ذلك العصر، وقد بدأ المسلمون تدوينه في أثناء نزوله مفرقاً على الرسول ﷺ، ثم جمعت من هذه المدونات المفرقة نسخة واحدة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقام على هذه المهمة زيد بن ثابت بأمر أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تنفيذاً لما أشار به عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد انتقلت هذه النسخة إلى عمر في خلافته، ثم أودعت عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها.

وقد أعيد جمع القرآن في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه من قبل لجنة رباعية كونها عثمان، كلفت القيام بهذه المهمة، وتتألف اللجنة من زيد بن ثابت رضي الله عنه، إذ تم اختياره نتيجة عوامل، منها: استماعه إلى العرضة الأخيرة للقرآن من النبي ﷺ نفسه بنصه الكامل الخالد دون الآيات التي نسخت تلاوتها من ناحية، وقيامه بالجمع الأول في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ومن قبل عمله كاتباً للوحي زمن الرسول ﷺ.

والثلاثة الآخرون في هذه اللجنة هم: عبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، وأعضاء اللجنة كلهم من قريش إلا زيد فهو أنصاري. وقد وضع عثمان رضي الله عنه للجنة قاعدة العمل بقوله: «ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش، فإنه نزل بلسانهم». وقد أتمت اللجنة عملها، وأقرهم عليه الصحابة آنذاك، حيث تم نسخ ستة مصاحف، وزعت أربعة منها على الأمصار، مكة والشام والكوفة والبصرة، وبقيت النسخة الخامسة في المدينة، واحتفظ عثمان بالنسخة السادسة. ثم نقلت سائر المصاحف عبر القرون

اللاحقة عن مصحف عثمان رضي الله عنه، الذي عرف بالمصحف الإمام، وسمي رسمه بالرسم العثماني.

وكان النص القرآني خالياً من النقط والحركات، تحتاج قراءته إلى السليقة اللغوية، وأدى نزوله على سبعة أحرف إلى نشوء بعض الاختلافات في قراءته، وكان ما فيه من الإجمال والعموم والناسخ والمنسوخ بحاجة إلى معرفة أسباب النزول، وتحديد القراءات الصحيحة، وتفسير المعاني، وبيان الأحكام التشريعية، وذلك كله يحتاج إلى تخصص دقيق، وقد برز في القراءات عدد من الصحابة، منهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وكان يمتلك مصحفاً مدوناً حمله معه إلى الكوفة، وقدر له أن يسمع سبعين سورة بلفظ الرسول ﷺ^(١)، كما كان مطلعاً بدقة على تفسير القرآن. وقد وضع تلميذه مسروق طريقته في التعليم بقوله: «كان عبدالله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار»^(٢).

كذلك برز زيد بن ثابت رضي الله عنه، وأبي بن كعب رضي الله عنه الذي كان ممن يعلم الناس القرآن^(٣).

وقد أوصى الرسول ﷺ الصحابة بأخذ القرآن من أربعة، هم: عبدالله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه^(٤).

وقد حفظ علي بن أبي طالب رضي الله عنه القرآن كاملاً بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة^(٥). ووردت أحاديث كثيرة في الحث على حفظ القرآن، وقراءته وتدبر معانيه، ومعرفة مقاصده، منها حديثه ﷺ: «تعلموا القرآن»^(٦).

(١) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٥١، وأحمد: المسند ١: ٣٨٩.

(٢) الطبري: تفسير، رقم ٨٤ (ط. أحمد شاكر).

(٣) البيهقي: السنن ٦: ١٢٦.

(٤) الخزامي: تخريج الدلالات السمعية ١٣٣.

(٥) المتقي الهندي: كنز العمال ١٣: ١٢٨.

(٦) الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ٢٥٨.

أما التفسير فكان يعتمد على شرح الرسول ﷺ للآيات، وكانت أسباب النزول معروفة لعلماء الصحابة، لأنهم عاشوا مع الأحداث. ونجد ابن عباس رضي الله عنهما يعتمد كثيراً على شواهد الشعر الجاهلي في التفسير. ولم تظهر بوادر التفسير بالرأي في ذلك العصر، بل نجد أبا بكر رضي الله عنه يحذر منه بقوله: «أي سماء تظلني، وأي أرض تظلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»^(١).

وتبرز مصطلحات عدة تتعلق بعلوم القرآن في كلام عبدالله بن عباس، فقد فسر معنى الحكمة في الآية «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا»^(٢) بأنها «المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحرامه وحلاله، وأمثاله»^(٣).

ب - الحديث:

مع وجود عدد من الكتاب في عصر السيرة، وقيامهم بتدوين القرآن الكريم، فإنه لم يتم تدوين الحديث النبوي بشمول واستقصاء، بل اعتمدوا على الحفظ والذاكرة في أغلبه، ولم يأمرهم النبي ﷺ بكتابته، ولعله بهذا أراد الحفاظ على ملكة الحفظ عندهم، خاصة أن الحديث تجوز روايته بالمعنى، خلاف ما عليه القرآن الكريم، الذي هو معجز بلفظه ومعناه، ومن ثم فلا تجوز روايته بالمعنى، لذلك اقتضت الحكمة حصر جهود الكاتبين في نطاق تدوين القرآن الكريم، وللتخلص من احتمال حدوث التباس عند عامة المسلمين، فيخلطون القرآن بالحديث إذا اختلطت الصحف التي كتب فيها القرآن بالصحف التي كتب فيها

(١) الخطيب: الجامع ٢: ١٩٣.

(٢) البقرة ٢٦٩.

(٣) ابن الجوزي: نواسخ القرآن ١١٠.

الحديث، خاصة في الحقبة المبكرة، عندما كان الوحي ينزل بالقرآن، ولما يكمل القرآن، ولما يعتد عامة المسلمين على أسلوبه^(١).

وقد وردت أحاديث عن النبي ﷺ تنهى عن كتابة الحديث، ووردت أحاديث أخرى تسمح بكتابته، وأقوى أحاديث النهي ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: «جهدنا بالنبي ﷺ أن يأذن لنا في الكتابة فأبى»^(٢).

وأقوى أحاديث السماح بالكتابة ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: «ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»^(٣). وحديث آخر أخرجه البخاري في صحيحه: أن رجلاً من أهل اليمن طلب من الصحابة أن يكتبوا له خطبة النبي ﷺ بعد الفتح، فاستأذنوا النبي ﷺ في ذلك، فقال: «اكتبوا لأبي فلان»^(٤). وحديث ثالث أخرجه البخاري أيضاً، وهو قول النبي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه: «أتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده»^(٥).

وفي التوفيق بين حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه وهذه الأحاديث يقول الرامهرمزي عن حديث أبي سعيد: «أحسبه أنه كان محفوظاً في أول الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن»^(٦). ومن ذهب إلى نسخ أحاديث النهي ابن قتيبة الدينوري^(٧).

(١) لعبد الله بن رواحة قصة مع زوجته، حيث قرأ عليها من شعره أبياتاً حسبتها قرآنًا. (الذهبي: سير أعلام النبلاء ١: ٢٣٨ وقد قال: إن السند حسن، لكنه مرسل).

(٢) حديث رقم ٢٢٩٨.

(٣) البخاري: الصحيح ١: ٣٨.

(٤) المصدر نفسه ١: ٣٨.

(٥) المصدر نفسه ١: ٢٩، ومسلم: الصحيح حديث رقم ١٢٥٧.

(٦) الرامهرمزي: المحدث الفاصل ٧١ أ.

(٧) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث ٣٦٥.

وقد وقف الصحابة رضي الله عنهم في عصر الراشدين مواقف متباينة من كتابة الحديث، فمنهم من كره الكتابة، ومنهم من أجازها، ومنهم من روي عنه الأمران.

فمن مواقف كبار الصحابة الذين كرهوا كتابة الحديث ما يلي:

- ١ - جمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه خمس مئة حديث، ثم أحرقها^(١).
- ٢ - استشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصحابة في تدوين الحديث، ثم استخار الله تعالى في ذلك شهراً، ثم عدل عن ذلك، وقال معللاً: «إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً»^(٢).
- ٣ - قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاها، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم، وتركوا كتاب ربهم»^(٣).
- ٤ - أتي عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بصحيفة فيها حديث، فدعا بقاء فمحاها، وقال: «بهذا أهلك أهل الكتاب قبلكم، حين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون»^(٤).
- ٥ - وردت روايات تدل على كراهية صحابة آخرين لكتابة الحديث، وهم: زيد ابن ثابت، وأبو هريرة، وعبدالله بن عباس، وأبو سعيد الخدري، وعبدالله ابن عمر، وأبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وقد أوضح كل منهم أن سبب كراهته لكتابة الحديث. راجع إلى خوفه من انشغال الناس بها وانصرافهم عن القرآن الكريم.

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١: ٥.

(٢) الخطيب: تقييد العلم ٥٠، وابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١: ٦٤.

(٣) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١: ٦٣.

(٤) المصدر نفسه ١: ٦٥.

أما مواقف الصحابة التي تدل على إجازتهم الكتابة، فهي:

١ - كتب أبو بكر الصديق لأنس بن مالك رضي الله عنه فرائض الصدقة، التي سنّها النبي ﷺ ^(١).

٢ - كتب عمر رضي الله عنه لعتبة بن فرقد بعض السنن ^(٢)، ووجد في قائم سيفه صحيفة فيها صدقة السوائم ^(٣).

٣ - كان عند علي رضي الله عنه صحيفة فيها: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر ^(٤).

٤ - كان عبدالله بن عمر رضي الله عنه إذا خرج إلى السوق نظر في كتبه المدونة في الحديث ^(٥).

٥ - وردت أخبار عن إجازة بعض الصحابة الآخرين الكتابة، مثل: عائشة، وأبي هريرة، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، والبراء بن عازب، وأنس بن مالك، والحسن ابن علي، وعبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

وبعضهم كان يكره الكتابة ثم أجازها، ولا تناقض في مواقفهم، لأن سبب كراحتهم هو الخوف من اختلاطها بالقرآن أو مزاحمتها له، أما حين يأمنون ذلك فإنهم يميزون كتابة الحديث. ولذلك فقد كتب بعضهم الأحاديث في الصحف في عصر الرسالة والراشدين، ومنها:

١ - صحيفة سعد بن عباد الأنصاري.

(١) أحمد: المسند ١: ١١.

(٢) أحمد: المسند ١: ١٦.

(٣) الخطيب: الكفاية ٣٥٣.

(٤) البخاري: الصحيح ١: ٣٨، وابن سعد: الطبقات ١: ٤٨٦.

(٥) الخطيب: الجامع ٢: ١٤.

- ٢ - صحيفة عبدالله بن أبي أوفى.
- ٣ - نسخة سمرة بن جندب (ت ٦٠ هـ)، جمع فيها أحاديث كثيرة.
- ٤ - كتب أبي هريرة.
- ٥ - صحيفة أبي موسى الأشعري (ت ٥٠ هـ).
- ٦ - صحيفة جابر بن عبدالله الأنصاري (ت ٧٨ هـ).
- ٧ - الصحيفة الصادقة لعبدالله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥ هـ)، وقد نقلها الإمام أحمد في مسنده^(١).

وغير ذلك من النسخ والصحف التي دونت في هذه الحقبة المبكرة، وقد أحصى أحد الباحثين أسماء اثنين وخمسين صحابياً كتبوا الأحاديث النبوية^(٢)، مما أدى إلى توسع الأجيال اللاحقة في كتابة الحديث حتى جمعت الكتب الستة وغيرها من مدونات الحديث الضخمة.

ج - الفقه:

يشتمل الفقه على أحكام العبادات والمعاملات معاً، وبذلك ينظم سائر النشاط الفردي و الجماعي في ذلك العصر، ومصادره الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وقد برز عدد من الفقهاء اللامعين، الذين تركوا ثروة فقهية، يأخذ عنها الفقهاء المعاصرون.

ويذكر ابن القيم أن الذين حفظت عنهم الفتوى من الصحابة مئة ونيف وثلاثون صحابياً، بين رجل وامرأة، وأن الكثيرين منهم سبعة هم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد ابن ثابت، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم.

(١) أكرم العمري: بحوث في تاريخ السنة المشرفة ٢٢٣.

(٢) محمد مصطفى الأعظمي: دراسات في الحديث النبوي ٩٢ - ١٤٢.

وينقل ابن القيم عن ابن حزم قوله: «ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخمة»، وذكر أن أبا بكر محمد بن موسى بن يعقوب الحافظ جمع فتيا عبد الله بن عباس رضي الله عنه في عشرين كتاباً^(١).

وقد قام بعض الباحثين المعاصرين بجمع فقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأصدره في أربع مجلدات^(٢)، كما جمع آخر فقه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في مجلدة كبيرة تقع في ٥٦٠ صفحة^(٣).

وسمى ابن حزم ثلاثة عشر صحابياً من المتوسطين في الفتيا، وقال: إنه يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم جزء صغير جداً، وقد ذكر في المتوسطين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد جمع فقهه باحث معاصر، فوقع في مجلدة متوسطة (٣٤٠ صفحة)^(٤). أما المقلون في الفتيا منهم، وهم أكثر من عشرة ومئة صحابي، فقال ابن حزم: إنه يمكن أن يجمع من فتيا جميعهم جزء صغير فقط بعد التقصي والبحث^(٥). ومن الجدير بالذكر أن بعض المعلومات الفقهية كانت مدونة في عصر السيرة نفسه، منها كتاب الرسول ﷺ إلى عمرو بن حزم الأنصاري رضي الله عنه في الفرائض والزكاة والديات.

وكان عمر رضي الله عنه يذاكر بالفقه، ويأمر بتعلم السنن والفرائض والتفقه في السنة^(٦). وكان لدى علي رضي الله عنه صحيفة تتناول الصدقات والديات وحرم المدينة، وقد ورثها عن النبي ﷺ مع سيفه ذي الفقار، حيث كانت معلقة بجفن السيف. وكذلك دونت في تلك الحقبة المبكرة بعض أقضية علي رضي الله عنه وفتاويه^(٧).

(١) ابن القيم: إعلام الموقعين ١: ١٢.

(٢) هو الدكتور رويحي بن راجح الرحيلي.

(٣) هو الدكتور محمد رواس قلعه جي.

(٤) هو الدكتور محمد رواس قلعه جي.

(٥) ابن القيم: إعلام الموقعين ١: ١٢.

(٦) المتقي الهندي: كنز العمال ١٠: ٢٥٢.

(٧) مسلم: الصحيح، المقدمة ١٣.

د - اللغة العربية:

وقد ظهرت العناية باللغة العربية لأهميتها في فهم نصوص القرآن والسنة، وكذلك لأهميتها الذاتية، وقد نقلت المصادر توصيات عدة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بتعلم العربية ورواية الشعر، فقد كتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حينما كان واليه: «مر من قبلك بتعلم العربية، فإنها تدل على صواب الكلام، ومرهم برواية الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق»^(١).

ونقل قوله: «تعلموا العربية، فإنها تزيد في المروءة»^(٢).

وقوله: «عليكم بالتفقه في الدين، والتفقه في العربية وحسن العربية»^(٣).

وقوله: «أعربوا القرآن فإنه عربي»^(٤).

وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنه يضرب بنيه إذا لحنوا^(٥). ولا شك أن عصر السيرة والراشدين يمثل بداية جديدة لازدهار اللغة العربية، التي اعتز بها أصحابها، وتعلمها المسلمون الجدد في المناطق المفتوحة، وهذا ليس غريباً، فهي لغة الدين والدولة الجديدة.

هـ - التاريخ:

أما علم التاريخ فقد انصبت العناية على السيرة النبوية وأخبار الأنبياء الماضين، قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «كنا نعلم أولادنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما نعلمهم السورة من القرآن»^(٦).

(١) المتقي الهندي: كنز العمال ١٠: ٣٠٠.

(٢) الخطيب: الجامع ٢: ٢٥.

(٣) المتقي الهندي: كنز العمال ١٠: ٢٥٤.

(٤) المصدر نفسه ١٠: ٢٥٢.

(٥) الخطيب: الجامع ٢: ٢٩.

(٦) فقدت المصدر، ولم أقف عليه.

ولا شك في أن القرآن الكريم وجّه أتباعه إلى العناية بالتأريخ بإشاراته التأريخية المتنوعة، وبعطائه الثري في ميدان التعليل للأحداث، وإثبات قانون السببية، وخاصة في موضوع قيام الدول وانحيار الحضارات. لكن المعلومات التأريخية كانت تنقل مشافهة في الغالب، حيث تأخر التدوين التأريخي عن هذا العصر.. باستثناء صور من عصر السيرة، دونها بعض الصحابة ضمن الأحاديث النبوية.

وتشير رواية قديمة إلى أن الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه حث وهب بن منبه على تعلم تأريخ الحميريين^(١).

وكانت بعض المعلومات التأريخية والوثائق مدونة في ذلك العصر، مثل رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء، ورسائل الخلفاء الراشدين إلى القادة في ميادين القتال وإلى ولاية الأمصار. ولكن هذه الوثائق الرسمية لم تكن بالطبع ضمن المواد التعليمية، وربما لم يطلع عليها آنذاك غير عدد محدود من الناس.

و - علم الأنساب:

أما علم الأنساب، فهو علم عرفه المسلمون عن العصر الجاهلي، لكنهم جمعوه ودونوه، فضلاً عن شيوعه بينهم. وقد استمر الاهتمام بالأنساب في عصر السيرة والراشدين لضرورات دينية واجتماعية وعسكرية وإدارية، وفي الوقت الذي حرم الإسلام العصبية القبلية والتفاخر بالأنساب، فإن للأنساب أهميتها في تطبيق أحكام الأحوال الشخصية من زواج وميراث.. وفي معرفة أنساب المحدثين لتمييز رواية الحديث، وفي توزيع العطاء، وفي التنظيم العسكري، حيث كانت القبيلة وحدة مقاتلة، كما أنها كانت أساس التنظيم الاجتماعي والإداري في الأمصار، ويمكن أن نعد ديوان الجند في خلافة عمر رضي الله عنه أول تدوين شامل للأنساب.

(١) ابن هشام: كتاب التيجان ٨٢، وفؤاد سزكين: تأريخ التراث العربي ١: ٤٠٢.

وقد صحَّ أن الرسول ﷺ أمر بتعلم الأنساب، فقال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم»^(١).

وقد ذكر الجاحظ ١٤ مؤلفاً صنفوا كتباً في الأنساب، معظمهم عاش قبيل الإسلام أو وقت ظهوره^(٢).

وقد اشتهر بعض الصحابة بمعرفة علم النسب، وكان منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه^(٣).

وقد كلف الخليفة عمر بن الخطاب ثلاثة من نسابي قريش، وهم جبير بن مطعم، وعقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل رضي الله عنهم عمل جدول بالأنساب^(٤). وكان عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه «عالماً بأنساب قريش ومآثرها ومثالبها، وكان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة»^(٥)، وكذلك اشتهر حكيم بن حزام الأسدي رضي الله عنه بعلمه بأنساب قريش وأخبارها^(٦).

ز - الشعر:

وتدل الشواهد الشعرية العديدة على أن القبائل اهتمت بتقيد أشعار شعرائها، وبعض هذه القبائل كانت تسجل أيضاً أخبار حروبها ووقائع أيامها ومفاخرها ومآثرها وحكمها^(٧).

(١) الترمذي: السنن، كتاب البر ٤٩، وأحمد: المسند ٢: ٣٧٤، والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم الحديث ٢٧٦.

(٢) الجاحظ: كتاب الحيوان ٣: ٢٠٩ - ٢١٠، وفؤاد سزكين: تأريخ التراث العربي ١: ٤٠٣.

(٣) فؤاد سزكين: تأريخ التراث العربي ١: ٤٠٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٩٥ - ٢٩٩، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤٣٦ - ٤٣٧، والطبري: تأريخ الرسل والملوك ١: ٢٧٥٠ - ٢٧٥٢، وفؤاد سزكين: تأريخ التراث العربي ١: ٤٠٤.

(٥) ابن حجر: الإصابة ٤: ٥٣٢.

(٦) المصدر نفسه ٢: ١١٣.

(٧) الدكتور ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي ١٠٧ - ١٣٣، ١٦٥.

وقد أفاد جيل عصر السيرة والراشدين من هذه الأشعار في فهم القرآن الكريم وتفسير معانيه، قال ابن عباس رضي الله عنه: «إذا سألتُموني عن عربية القرآن فالتمسوه بالشعر، فإن الشعر ديوان العرب»^(١).

وقد سمع النبي ﷺ الشعر، وأثنى على بعضه، فقال: «إن من الشعر حكمة»^(٢). وامتدح الشعراء المسلمين الذين نافحوا عن الدين، وقد برز في عصر السيرة من شعراء الإسلام حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله ابن رواحة رضي الله عنه.

وبنى عمر رضي الله عنه رحبة في ناحية المسجد النبوي سميت بالبطيحاء، وقال: من كان يريد أن يلفظ أو ينشد شعراً أو يرفع صوته، فليخرج إلى هذه الرحبة^(٣)، فقد نهى النبي ﷺ عن تناشد الأشعار في المسجد^(٤).

وقال كثير بن أفلح: «آخر مجلس جالسنا فيه زيد بن ثابت تناشدنا فيه الشعر»^(٥).

ح - القصص:

أما القصص فقد بدأ في وقت مبكر، وكان القصاصون يقومون بدور وعظي، وكان الأسود بن سريع السعدي شاعراً، وكان في أول الإسلام قاصاً، وهو أول من قص في مسجد البصرة^(٦). وقد استأذن تميم الداري عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليقص على الناس فلم يأذن له، وكان عمر بن زرارة يقص على الناس في مسجد الكوفة في حياة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه الذي اعترض عليه^(٧).

(١) الخطيب: الجامع ٢: ١٩٨.

(٢) البخاري: الصحيح، حديث رقم ٦١٤٥.

(٣) الخزاوي: تخريج الدلائل السمعية ١٣٠.

(٤) المصدر نفسه ١٢٩ نقلاً عن الترمذي.

(٥) الخطيب: الجامع ٢: ١٣١.

(٦) ابن حجر: الإصابة ١: ٧٤.

(٧) السيوطي: تحذير الخواص ٥٩، ٦٠ - ٦١.

وقد نهى علي بن أبي طالب عليه السلام أبا يحيى عن القصص في مسجد الكوفة، لأنه لا يعرف الناسخ والمنسوخ^(١).

وينفي عبدالله بن عمر وقوع القصص على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان، ويقول: إنه أحدث بعد قتل عثمان رضي الله عنه.

ط - الحكم والأمثال:

لقد أضيف في الإسلام إلى حكم وأمثال العرب في الجاهلية قدر كبير، حيث ضرب القرآن الكريم والحديث النبوي الأمثال الكثيرة، التي صنفت فيها فيما بعد مؤلفات كثيرة، وبالطبع لا يمكن أن نقبل بسهولة تأويل ابن خلدون لكلمة «الحكمة» التي وردت في القرآن ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢) بأنها تعني الفلسفة^(٣)، لأنها في الحقيقة تعني ما فهمه العرب - الذين نزل القرآن بلغتهم - من كلمة «الحكمة»، وهو: فهم القرآن والسنة، والإصابة في القول والفعل^(٤).

وللحكم والأمثال أهمية تربوية، فقد روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «روّحوا القلوب، وابتغوا لها طرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان»^(٥).

ي - الطب:

ولقي الطب اهتماماً واضحاً، وكانت أحداث الجهاد وكثرة الجراحات دافعاً قوياً لذلك، وقد ورث المسلمون خبرات العصر الجاهلي الطبية، وأشهر أطباء العرب الذين عاصروا ظهور الإسلام الحارث بن كلدة الثقفي^(٦)، والمتطبب

(١) ابن الجوزي: نواسخ القرآن ١٠٥ - ١٠٩.

(٢) البقرة: ٢٦٩.

(٣) سيد معظم حسين: مناشدة لإقامة جامعة إسلامية حديثة (حل الازدواجية) ضمن كتاب التعليم الإسلامي: أهدافه ومقاصده ١٣٠، وابن خلدون: المقدمة ٥٤٩.

(٤) الطبري: تفسير ٣: ٨٩ - ٩٠، وابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١٧.

(٥) الخطيب: الجامع ٢: ١٢٩، وابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١٠٥.

(٦) ابن حجر: الإصابة ١: ٥٩٥.

الشمردل بن قباث الكعبي النجراني^(١)، وكان ضماد بن ثعلبة الأزدي يتطب، وقد رحل في طلب علم الطب^(٢).

وقد أضاف النبي ﷺ رصيذاً ضخماً إلى التراث الطبي الجاهلي، كما يظهر ذلك في كتب الطب النبوي، ولا شك أن علم الطب ازداد رصيده في عصر الراشدين بإضافة معلومات الفرس والروم الطبية إليه.

ك - علم النجوم (التنجيم):

ومنذ ذلك العصر كانت النظرة إلى علم النجوم مفعمة بالشك، فليس من أحد يعرف الغيب إلا الله وحده، وقد أبطلت الكهانة والسحر وعلم النجوم، التي كانت شائعة في الجاهلية بحكم العقيدة الإسلامية، فورد في الحديث النبوي: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»^(٣). قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه: «قوم ينظرون في النجوم يكتبون «أبا جاد»، أولئك لا خلاق لهم»^(٤).

ولا شك أن علم التنجيم فيه ادعاء معرفة الغيب، وجعل الأفلاك وحركتها مؤثرة في أقدار الناس ومصائرهم، ولا علاقة له بعلم الفلك الذي اهتم المسلمون به، وأضافوا إلى تراث الإنسانية في مجاله.

إن التمييز بين العلمين كان واضحاً في عصر السيرة والراشدين، فقد قال عمر رضي الله عنه: «تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، ثم أمسكوا»^(٥).

(١) المصدر نفسه ٣: ٣٥٨.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٤٨٦.

(٣) ابن ماجة: السنن ١: ١٢٢٨ حديث رقم ٣٧٢٦ وإسناده قد يرقى إلى الحسن، ففيه عبيد الله ابن الأحنس صدوق يخطئ.

(٤) ابن سحنون: كتاب آداب المعلمين ٦٢.

(٥) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ٣٨ - ٣٩.

ل - الثقافة واللغات الأجنبية:

لم يكن الحجاز في عزلة عن العالم المحيط به من الشمال والجنوب، فالمجتمع المكي التجاري له رحلات منظمة في الشتاء والصيف إلى الشام واليمن، وهذه الرحلات أكسبتهم خبرات لا تقتصر على النواحي الاقتصادية، بل تمتد إلى الثقافة أيضاً، والمجتمع المدني تعيش فيه جالية كبيرة من القبائل اليهودية التي تنتشر بينها العبرية، والتوراة والقصص الديني التاريخي. وقد وردت إشارات مبشرة في المصادر التاريخية، تبين معرفة بعض العرب بالعبرية، فقد صح أن ورقة بن نوفل كان يكتب الإنجيل باللغتين العربية والعبرية^(١).

ويبدو من عدم ورود إشارات في المصادر عن معرفة الأنصار بالعبرية، أن اليهود لم يستعملوها في الحياة اليومية، بل كانوا يتخاطبون بالعربية، وربما لم يكن يعرف العبرية سوى أحبارهم، لذلك ظهرت الحاجة إلى أن يتعلم بعض المسلمين في المدينة اللغة العبرية، قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال لي: «تعلم كتاب اليهود فيني والله ما آمن اليهود على كتابي». قال: فتعلمته في أقل من نصف شهر^(٢).

أما السريانية فقد تعلمها زيد بن ثابت رضي الله عنه أيضاً، فكان يقرأ الكتب التي ترد بها، ويكتب رد الرسول ﷺ عليها^(٣). كذلك تعلمها عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه^(٤).

(١) البخاري: الصحيح، كتاب بدء الوحي ٢: ٢١٤، ومسلم: الصحيح، كتاب الإيمان ٢٥٢، والترمذي: الجامع، كتاب الاستئذان والأدب عن رسول الله ﷺ، باب في تعليم السريانية.

(٢) أحمد: المسند ٥: ١٨٦، وأبو داود: السنن ٤: ٦٠ حديث رقم ٣٦٤٥، والترمذي: السنن ٥: ٦٧ حديث رقم ٢٧١٥، وابن سعد: الطبقات ٢: ٣٥٨، والحاكم: المستدرک ١: ٧٥، والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ١: ٣٦٤ حديث رقم ١٨٧، وابن حجر: فتح الباري ١٣: ١٨٥ حديث رقم ٧١٩٥ معلقاً.

(٣) الترمذي: الجامع، كتاب الاستئذان ٢٢، وابن سعد: الطبقات ٢: ٣٥٨، والحاكم: المستدرک ٣: ٤٢٢، وابن حجر: الإصابة ٢: ٥٩٤، وابن عبد البر: الاستيعاب ١: ١٩٤، والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢: ١٥٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٧: ٤٩٥.

والحقيقة أن زيد بن ثابت رضي الله عنه كان وحده - في عصر السيرة - يعرف لغات عدة، فقد ذكر الخزاعي أنه «كان يكتب للملوك، ويحيب بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ترجمانه بالفارسية والقبطية والحبشية، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن»^(١).

أما عن التراث المكتوب باللغات الأجنبية، فقد كانت تتوفر نسخ من التوراة في المناطق المفتوحة^(٢).

وكان عند عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه جملة من كتب أهل الكتاب، وكان يقرأ فيها^(٣). وقد حصل على كثير منها في وقعة اليرموك، فكان يخبر بها فيها من الأمور المغيبة، حتى إن بعض أصحابه ربما قال له: حدثنا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا تحدثنا عن الصحيفة^(٤). وكان أبو هريرة رضي الله عنه يعلم ما في التوراة وإن لم يقرأها، فقد علم شيئاً مما فيها بواسطة الأشخاص المطلعين عليها^(٥).

وقد أظهر رجل كتاب دانيال بالكوفة، فأنكر الناس عليه أن يظهر غير القرآن^(٦).

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم من بعده يرغبون في أن يزاحم القرآن والسنة بهذا التراث الديني القديم، فقد كانت العناية تتجه إلى فهم الإسلام قبل الانفتاح على الثقافات الأخرى.. حدث أن أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله هذه

(١) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ٢٠٨.

(٢) ابن حجر: الإصابة ٣: ٤٩٦.

(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٤٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣: ٥٤، وأحمد بن حنبل: المسند ١٩٥: ٢.

(٤) ابن حجر: الإصابة ٧: ٤٤٠.

(٥) المصدر نفسه ٧: ٤٤٠.

(٦) الخطيب: تقييد العلم ٥٦ - ٥٧.

نسخة من التوراة، فسكت. فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير. فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتكم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتي لاتبعني»^(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال حين أتاه عمر بالتوراة: «أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟» يعني: أمتحيرون أنتم في الإسلام، فتلجؤون إلى الأخذ من سواه؟. ثم قال: «لقد جئكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»^(٢).

وقد ازداد اتصال المسلمين بمصادر الثقافات الأجنبية في عصر الراشدين، فالأمصار الجديدة فيها نسخ وصحف من التراث الديني القديم، وقد استمر حذر الدولة شديداً، فنهت عن شيوع تلك الصحف التي تتناول العقائد الدينية، وكان هدف الدولة صبغ المجتمعات المفتوحة بالثقافة الإسلامية والعقيدة الدينية الجديدة من غير أن تختلط بمفاهيم أخرى.

قال خالد بن عرفة: كنت جالساً عند عمر رضي الله عنه إذ أتني برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدى؟ قال: نعم. فضربه بعضاً معه. فقال الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الرَّيَّةُ أَيُّهُنَّ أَلَكَنْبِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ۝ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَمِنَ الْغَفْلِينَ﴾، فقرأها عليه ثلاثاً، وضربه ثلاثاً.

(١) رواه الدارمي: السنن ١: ١١٥-١١٦، وأخرجه ابن حبان: الصحيح.

(٢) رواه أحمد: المسند، والبيهقي: شعب الإبان، من طرق يؤيد بعضها بعضاً.

فقال له الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتاب دانيال؟ قال: مرني بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه أنت ولا تقرئه أحداً من الناس، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأهلكنك عقوبة. ثم حكى له عمر رضي الله عنه قصة مجيئه بالتوراة إلى النبي ﷺ وغضبه وكلامه في ذلك^(١).

إن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم من بعده نهوا المسلمين في أول الإسلام عن الأخذ مما في كتب التراث الديني الأخرى، لأن الإسلام جاءهم بالشرعية الواضحة الخالصة من الشرك والشبهات، المصونة عن التبديل والتحريف، ففيها غنى وكفاية عما سواها من العقائد والأديان، وكان هذا الحذر في تداول الكتب الدينية القديمة ضرورياً لصون الفكرة الإسلامية واستقرار التصور الإسلامي.

فلما استقر الإسلام عقيدة وشرعية ومنهج حياة، واتضحت مقاييسه الفكرية والخلقية في أذهان الناس، تفتحوا على ثقافات الأمم وأديانها وعقائدها بعقلية ناقدة ونظرة مقارنة فاحصة، فكانت دراسات الأديان المقارنة التي تمثلها كتب الفرق الكثيرة، ومنها ما تركه البغدادي وابن حزم والشهرستاني وغيرهم.



(١) أورده الهيثمي: مجمع الزوائد ١: ١٨٢ وقال: رواه أبو يعلى، وفيه عبدالرحمن بن إسحاق الواسطي، ضعفه أحمد وجماعة. وأورده البوصيري: إتحاف الخيرة ٢: ١٣٥، وابن حجر: المطالب العالية ٤: ٢٨.

البَّابُ الْخَامِسُ

أحوال العالم.

الدعوة الإسلامية ومنطلقاتها الفكرية.

الفتوحات.

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

أحوال العالم.

الدعوة الإسلامية ومنطلقاتها الفكرية.

المبحث الأول

نظرة إلى أحوال العالم قبل الفتح الإسلامي

كان البشر وقت الفتوح الإسلامية منتشرين في العالم، وخاصة القارات الثلاث: آسيا وأوروبا وأفريقيا، وهم من أجناس متنوعة، فالعرب في شبه جزيرة العرب والعراق والشام، والفرس في بلاد إيران، والتتار والترك في بلاد ما وراء النهر وأواسط آسيا، والهنود في شبه جزيرة الهند، والجنس الأصفر في الصين واليابان وجنوب شرق آسيا، والروم في آسيا الصغرى (تركيا حالياً) وبلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، والانجلوسكسون في إنجلترا، والفرنح في فرنسا وهولندا وألمانيا، والقوط في أسبانيا وإيطاليا، والسودان والحبشة في بلادهم المعروفة اليوم في أفريقيا، وكانت القوى الكبرى المتحكمة في العالم آنذاك تتمثل في الفرس والروم، حيث سيطرت القوتان على مساحات شاسعة من الأرض، وحكما شعوباً عديدة امتد نفوذهما إليها، ولم يكن الفرس على دين صحيح، بل كانوا مجوساً يعبدون النيران، وكان الروم نصارى، ولكنهم لم يحافظوا على التعاليم التي جاء بها عيسى عليه السلام بل حرفوها، لذلك لم تكن القوتان الكبيرتان في العالم آنذاك قادرتين على توجيه البشرية نحو التوحيد والعدل والفضيلة والخير، وكانت بقية الشعوب في الصين واليابان والهند والتبت تدين بالبوذية، وهي ديانة وثنية ترمز لألهتها بالأصنام الكثيرة، وتقيم لها المعابد، وتؤمن بتناسخ الأرواح. أما شعوب أوروبا فكانت بربرية تعبد الأوثان وتقدر قوى الطبيعة..

وكانت تعيش في ذلك العالم أقليات يهودية مشتتة ما بين بلاد الشام والعراق والحجاز، وقد تحرفت تعاليم موسى عليه السلام، ودخلت فيها آراء كتبها الأحرار، ونسبوها إلى الدين، فجعلوا الله - سبحانه - إلهاً قومياً خاصاً باليهود،

وافتروا الحكايات على أنبيائهم مما يشوه سمعتهم، وأحلوا التعامل مع غيرهم من الأميين بالربا والغش وحرموه بينهم، وأبوا دعوة الناس إلى دينهم، لئلا يحظوا - في زعمهم - بشرف الانتماء إلى شعب الله المختار، وتعاليم موسى ﷺ قبل أن يحرفها اليهود، لا تُقر هذه الروح العنصرية البغيضة، ولا تعترف بنسبية الأخلاق في التعامل بين الناس.

ونخلص من هذا العرض الوجيز إلى القول: إن العالم يومذاك كان بحاجة إلى رسالة دينية جديدة، تعيد للتوحيد صفاءه، وللأخلاق قيمتها، وتأخذ بيد الإنسان نحو الحق والخير والعدل، بعد أن ساد الشرك والظلم والشر آماداً طويلة، وانحرف الناس عن تعاليم الأنبياء.

وقد جعل الله تعالى مهمة حمل الرسالة الخاتمة التي بعث بها رسوله محمداً ﷺ في أعناق العرب سكان شبه جزيرة العرب، وكانوا ضعفاء مقهورين، فقواهم الله، وفقراء مملقين، فأغناهم الله، وقبائل متفرقين، فوحدهم الله وأغماراً منسيين، فعرفتهم الدنيا بعد أن حملوا رسالة الإسلام، وقدموها للأمم الأخرى، فاستجاب لهم كثيرون من أمم الأرض، وساعدوهم على نشر الدعوة حتى امتد الإسلام إلى بلاد فارس والترك والهند وأطراف الصين شرقاً، وإلى البلاد الخاضعة للروم في الشام وشمال أفريقيا، بل إلى الأندلس وجنوب فرنسا وإيطاليا، وهكذا عمَّ نور الإسلام معظم أرجاء المعمورة، وأزاح القوتين الكبيرتين، فقضى على فارس، وأضعف الروم في القرن الأول الهجري.

وسوف نستعرض فيما يلي الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والأخلاقية، التي كانت تسود في بلاد فارس والروم، ثم نعرض لهذه الأحوال في شبه جزيرة العرب، وذلك لتعرف على الظروف العامة التي ظهر فيها الإسلام، ثم نتبين مقدار ما أحدثه من تغيير في تلك الأحوال.

دولة الفرس

الحالة السياسية والاقتصادية:

كانت الدولة الساسانية تحكم بلاد إيران في القرن السابع الميلادي، ويكون الفرس مادة الإمبراطورية، ولكنها أخضعت الترك في بلاد ما وراء النهر، والعرب في العراق، وكانت حدودها الغربية غير مستقرة حسب قوتها، فأحياناً تغلب على أطراف بلاد الشام كما حدث سنة ٦١٤ م عندما اجتاحت بلاد الشام واستولت على بيت المقدس، ثم استولت على مصر سنة ٦١٦ م^(١).

ولم يستسلم هرقل إمبراطور الروم، بل أعاد تنظيم بلاده وإعداد جيوشه، وهزم الفرس في آسيا الصغرى سنة ٦٢٢ م، ثم استعاد منهم سوريا ومصر سنة ٦٢٥ م، ثم هزمهم هزيمة ساحقة سنة ٦٢٧ م (٦ هـ) قرب أطلال نينوى، مما أدى إلى ثورة العاصمة المدائن ضد كسرى الثاني، وعقد خليفته شيرويه الصلح مع هرقل، على أن أحوال الدولة الفارسية لم تستقر بعد ذلك، إذ تكاثرت الثورات والانقلابات الداخلية، حتى تعاقب على عرش فارس في التسع سنوات اللاحقة أربعة عشر حاكماً، مما مزق أوصال دولة الفرس، وجعلها مسرحاً للفتن الداخلية، حتى أجهز عليها العرب المسلمون في حركة الفتح^(٢).

هذا عن الأحداث السياسية والعسكرية التي مرت على بلاد فارس. وأما نظام الحكم فكان كسروياً مطلقاً، يقف على رأسه الملك، ولقبه كسرى، وصلاحياته مطلقة، وأحياناً يوصف بصفات الألوهية، فكسرى أبرويز وصف نفسه بـ «الرجل الخالد بين الآلهة، والإله العظيم جداً بين الرجال»^(٣). مما يدل

(١) د. سعيد عبدالفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى ١: ١٢٤.

(٢) توينبي: مختصر دراسة التاريخ ١: ٢٦٤.

(٣) كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ٤٣٢.

على الغرور والتعاضم في حين وصفه المؤرخون بـ «الملك الحقود المرائي الجشع الرعيد»^(١)، وبينوا اهتمامه الكبير بجمع أكوام الذهب والفضة والجواهر، التي ملأت خزائنه عن طريق المظالم، التي استغل بها يؤس رعيته^(٢). وكان يلجأ إلى المنجمين والكهان والسحرة لاستشارتهم في اتخاذ قراراته المهمة^(٣).

أما الحياة الاقتصادية، فقد احتكر الأقوياء الثروة ومصادرها، وانهمكوا في مباحج الحياة وملذاتها، وزادوا من ثرائهم بالربا الفاحش والمكوس والضرائب الثقيلة التي فرضوها على الضعفاء من الفلاحين والعامه، فزادوها فقراً وتعاسة، وحرموا على العامة أن يشتغل الواحد منهم بغير الصناعة التي مارسها أبوه، وكان العامة من سكان المدن يدفعون الجزية كالفلاحين، ويشغلون بالتجارة والحرف، وهم أحسن حالا من الفلاحين، الذين كانوا تابعين للأرض، ومجبرين على السخرة، ويُجرون إلى الحروب بغير أجر ولا إرادة^(٤). وكان الجباة للضرائب لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجبايتها، وكانت الضرائب تفرض بصورة اعتباطية، وخاصة وقت الحروب.

الحالة الدينية والفكرية:

لم يعرف الفرس الدين الحق، ولم تنتشر بينهم الأديان السماوية، التي سبقت ظهور الإسلام إلا بنطاق محدود جداً، وكان أكثرهم على المجوسية، فمنذ القرن الثالث الميلادي صارت الزرادشتية ديناً للدولة، وقد تدهورت أخلاق رجال الدين الزرادشتي، فوصفوا بالارتداد والحرص والاشتغال بحطام الدنيا، وحاول كسرى الثاني تجديد الزرادشتية، وإحياء معابد النيران، ونشر تفسير جديد لكتابها (الآفستا)، وكانت عقوبة من يخرج عليها الإعدام^(٥).

(١) المرجع السابق ٤٣٧

(٢) نفسه ٤٣٧.

(٣) نفسه ٤٣٧، ٤٦٩.

(٤) كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ٣٠٦.

(٥) كريستنسن: إيران ٤٧٠ - ٤٧٣.

وتقوم العقيدة الزرادشتية على الثنوية، أي وجود إلهين في الكون، هما إله النور (اهورا مزدا)، وإله الظلام (أهريمن)، وهما يتنازعان السيطرة على الكون، ويقف البشر الأخيار مع إله الخير، والأشرار مع إله الظلام.

وتقدس الزرادشتية النار، وقد أقيمت معابد النيران في أرجاء الدولة، ويعرف رجال الدين الزرادشتيون بـ (الموابذة)، وكل منهم يرأس مجموعة يسمون (الهرا بذة)، وهم الذين يخدمون نار المعبد في كل قرية.

وهذه المعتقدات الباطلة لا تقدر أن تهب النفوس البشرية الطمأنينة والراحة النفسية، ولا تشجع تطلعها إلى عبادة الله الواحد الحق، ولا تمنحها القيم الأخلاقية الرفيعة، ولا قواعد العدل الاجتماعي.

الحالة الاجتماعية والأخلاقية:

كانت الحياة الاجتماعية في إيران تقوم على عمادين: النسب والملكية. فكان لفصل النبلاء عن الشعب حدود محكمة، «وكان لكل فرد مرتبته ومكانه المحدد في الجماعة، وكان من قواعد السياسة الساسانية المحكمة ألا يطمع أحد في مرتبة أعلى من المرتبة التي يخولها له مولده»^(١).

وتقوم الأسرة على أساس تعدد الزوجات، وشاع بينهم الزواج بين المحارم^(٢)، وكان وضع المرأة يشبه وضع الرقيق، حيث بإمكان الزوج أن يتنازل عنها لزوج آخر دون رضاها، كما شاعت عادة التبني للأولاد^(٣). وقد انتشرت الإباحية وعم الفساد الخلقي والاجتماعي، خاصة عندما انتشرت المزدكية التي دعا إليها مزدك (ولد سنة ٤٨٧ م).

(١) نفسه ٣٠٢.

(٢) كريستنسن: إيران ٣١٠ - ٣١١.

(٣) نفسه ٣١٦ - ٣١٨.

دولة الروم (الإمبراطورية البيزنطية)

٣١٢ - ١٤٥٣ م

الحالة السياسية والاقتصادية:

كانت الإمبراطورية البيزنطية تضم الروم في آسيا الصغرى (تركيا حالياً)، وتتوسع فتحتل الأقطار الواقعة على حوض البحر المتوسط الشرقي والجنوبي، وبذلك جمعت أجناساً عديدة من البربر والقبط والعرب إلى جانب الروم، ولم يكن بين هذه العناصر تجانس في الجنس واللغة والثقافة والتقاليد، وبرغم انتشار النصرانية بين هذه الشعوب، لكنها لم تحقق لها الانسجام بسبب الخلاف المذهبي، الذي أضعف ولاء رعايا الإمبراطورية في الشام ومصر لها.

وكان نظام الحكم ملكياً مطلقاً، فالنصرانية لا تنظم المجتمع والدولة، بل تكتفي بتنظيم العلاقة بين الناس وخالقهم، وشعارها (دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله). وكانت الفكرة السائدة التي تدعمها الكنيسة النصرانية، هي أن الله اختار الإمبراطور لهذا المنصب، فأضحى بذلك موطن تبجيل وتقديس من رعاياه في أمور السياسة والدين، وكانت الطقوس والمراسيم تجري في البلاط بمشاركة الكنيسة ورجال البلاط، فإذا طلع الإمبراطور ركعوا أمامه جميعاً^(١).

وبرغم النصرانية فإن القانون الروماني والحضارة اليونانية الوثنية كانا يسودان الحياة^(٢).

(١) د. السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ٢٦.

(٢) نفسه ٢٧.

إن الإمبراطور البيزنطي الذي عاصر ظهور الإسلام هو هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) ويعتدُّ من أعظم الأباطرة في التأريخ البيزنطي، حيث سعى إلى تجديد الإمبراطورية، وإعادة تنظيم الدولة، وبناء جيوشها، وزيادة ثرائها بتنظيم الضرائب وطرق الجباية، وتمكن من إحراز النصر على الإمبراطورية الساسانية، التي كانت تتفوق عسكرياً على الروم^(١). وقد أشار القرآن الكريم إلى النصر الرومي النصراني على فارس المجوسية، وفرح المسلمون في مكة به، وكانت حملات هرقل على فارس بين سنتي ٦٢٢ - ٦٢٨ م من (سنة ١٢ بعد البعثة المحمدية إلى سنة ٥هـ).

أما الحالة الاقتصادية، فإن الربا والاحتكار هما أساسا النظام^(٢)، وقد فرض هرقل ضرائب جديدة على أهالي الولايات المستائين من الحكم الروماني، لتسديد الدين الكبير لحروبه مع فارس، وقد أصيبت الإمبراطورية البيزنطية بانحطاط هائل، نتيجة المغالة في المكوس والضرائب، والانحطاط في التجارة وإهمال الزراعة وتناقص العمران. ويكفي لبيان كيفية إدارة الإمبراطورية للولايات الخاضعة لها أن نستشهد بقول بتلر عن إدارة مصر: «إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس، وضرائب أخرى كثيرة العدد». ويقول: «مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجري بين الناس على غير عدل». ويقول: «إن حكومة مصر الرومية لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية، لتكون غنيمة للحاكمين»^(٣). وحتى الروم أنفسهم تعرضوا لثقل الضرائب، وخاصة الفلاحين الذين اضطرتهم الضرائب الباهظة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن^(٤).

(١) الباز العريني: الدولة البيزنطية ١١٦، ١٢٤ - ١٢٧، وجوزيف نسيم يوسف: تأريخ الدولة البيزنطية ١٠٥.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٧٧.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ٤٧.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٧٤.

الحالة الدينية والفكرية:

برغم أن الإمبراطورية البيزنطية تدين بالنصرانية، لكن تعاليم النصرانية لم تبق كما جاء بها عيسى عليه السلام. «بل إن تعاليم الكنيسة انطوت على قدر كبير من تفكير الفلاسفة الوثنيين، واستخدمت الكنيسة وسائلهم وأساليبهم العقلية في شرح العقيدة المسيحية»^(١).

وخلاصة القول: إن النصرانية الحقة فقدت روحانيتها ووجدانياتها، لما أدخله إليها داعيتها الكبير بولس من تعاليم وثنية نشأ عليها قبل تنصّره، ولما تنصر الإمبراطور البيزنطي قسطنطين أدخل إليها مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومانية والأفلاطونية المصرية والرهبانية، وبذلك تحرفت الديانة، وضاعت تعاليمها الأصلية، وانحدرت إلى عبادة القديسين والصور^(٢).

وقد وقع الخلاف المذهبي الذي كان محوره تفسير طبيعة المسيح ﷺ بين سكان الإمبراطورية، فقد تبنت الدولة مذهب الملكانية، الذي يرى أن للمسيح طبيعتين: إلهية وبشرية، في حين انتشر مذهب اليعاقبة والمنفوسية في بلاد الشام ومصر، وهو يرى أن للمسيح طبيعة واحدة إلهية، وقد أدى هذا الاختلاف إلى شقاق عنيف بين الدولة ورعاياها، وحاول هرقل توحيد مذهب الإمبراطورية، فعقد مجمعاً دينياً انتهى إلى إقرار عدم الخوض في طبيعة المسيح والاكتفاء بالقول: إن لله إرادة واحدة^(٣). لكن المصريين قاوموه فاضطهدهم بالتعذيب والتحريق، وفشلت محاولة التوحيد الديني، وضعف ولاء اليعاقبة والمنوفية في الشام ومصر للإمبراطورية البيزنطية.

(١) الباز العريني: الدولة البيزنطية ٢٧.

(٢) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٤٢. وديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٥٤ - ١٥٥.

(٣) أرنولد توينبي: تأريخ البشرية ٢: ٥٩ - ٦١.

وهذا الخلاف المذهبي يوضح مدى الانحدار الفكري والانحراف العقدي، الذي أصاب شعوب الإمبراطورية، حتى جعلوا عيسى عليه السلام وهو عبدالله ورسوله إلهاً، سبحانه الله عما يقولون.

وكانت طبقات المجتمع البيزنطي جميعاً تؤمن بالتنجيم، والتنبؤ بالغيب، والعرافة، والاتصال بالشياطين، والتمائم^(١).

الحالة الاجتماعية والأخلاقية:

انتقلت تقاليد المجتمع اليوناني والروماني إلى الدولة البيزنطية، فلا غرابة إذا ما شاع الفساد الأخلاقي والانحلال الاجتماعي^(٢) داخل البلاط وفي أوساط الشعب. وكان الإمبراطور وقادة الجيش وكبار رجال الكنيسة يعيشون في أعلى السلم الاجتماعي، في حين يقبع آلاف العبيد في المزارع الضخمة حيث يعانون من سوء التغذية وتدني مستوى المعيشة. ويقترّب من مستواهم المعيشي الأحرار الذين يشتغلون في الصناعات، وهذه الطبقات من الفقراء كانوا يحسون بسوء حالهم، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها. وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يؤلفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد^(٣).

وهكذا فإن الطبقيّة والإقطاع وفقدان العدالة الاجتماعية كانت تطبع المجتمع البيزنطي، كما كانت القسوة والعنف والتعصب والجهل والخرافة تطبع حياة الأفراد، وما ذلك إلا بسبب ضعف الإيمان الصادق بالله ورسله، وطغيان المظاهر الخادعة على الحياة الدينية في الإمبراطورية^(٤).

(١) ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٧٠.

(٢) ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٧٠.

(٣) المرجع السابق ١٤: ١٧٣ - ١٧٥.

(٤) ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٨٧ - ١٨٨.

تنبيه:

وبرغم مظاهر الضعف والفساد في الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية في وقت ظهور الإسلام وقيام حركة الفتوح الإسلامية، فإن من الخطأ المبالغة في وصف ضعفهما، فقد تمكنتا من حشد جيوش جرارة أمام تقدم المسلمين، وكانت جيوشهما تتفوق عدداً وعدة على المسلمين، ولكن الإيمان الصادق وروح الجهاد ونصر الله للمسلمين، هو الذي أكسبهم المعارك الطويلة التي خاضوها ضد قوى منظمة وجيوش متمرسة وقلاع حصينة وأمم عريقة.

الهند والصين واليابان

كانت البوذية تنتشر في الصين، فكانت التماثيل الخزفية المزججة التي تمثل الخدم والخيول والجمال تدفن مع الأموات في القبور، ثم تحولت هذه العادة إلى ذبح العبيد والخيول الحيّة ودفنها مع الملوك والرؤساء، لخدمتهم في عالم ما بعد الموت^(١)، وكانت تماثيل بوذا (٥٦٣ - ٤٨٣ ق. م) تنتشر في الهند أيضاً.

وتتركز البوذية حول مفاهيم تقول بخلود الحياة المستمرة في دورة لانهائية من تناسخ الأرواح، وهي حياة تفيض بالألم الذي يمكن الهروب منه بفضل الثقيف الذاتي، والوصول إلى الاستنارة التي تسمو بالإنسان لتصل به إلى مرحلة (الرفانا)، أي التوحد مع الذات الإلهية، أو باندماج الذات الإنسانية اندماجاً بهيجاً مع الكون^(٢). وكل فعل شرير عقابه في هذه الحياة بعد عودة الروح في جسد جديد، والألم يرجع إلى الشهوة، ولذلك فالحكمة أساسها قمع الشهوات جميعاً، ونهى بوذا عن قتل الكائنات الحية والسرقة والكذب والمسكر والدنس، ولم يهتم بالطقوس ولم يتكلم عن (الله) و(الآخرة)، بل هو لا يؤمن

(١) ولز: موجز تاريخ الإنسانية ٣: ٧٧٣.

(٢) ادوين رايشاور: اليابانيون ٦٨.

إلا بالمحسوسات، وإن كان يركز على إنكار الذات والإحسان إلى الآخرين، كما أنه لم يهاجم نظام الطبقات السائد في الهند هجوماً صريحاً وإن كان يرى المساواة بين الناس، وقد رفض الأضاحي والتعزيم والرقى والدعاء، لكنه لم يحرم عبادة الآلهة الشائعة بين الهنود. وكان يدعو إلى تحقيق السعادة عن طريق النرفانا بجمع مقوماتها السبعة، وهي: السيطرة على النفس، والبحث عن الحقيقة، والنشاط، والهدوء، والغبطة، والتركيز، وعلو النفس^(١).

وتزاحم الديانة البرهمية الديانة البوذية في بلاد الهند^(٢)، وقد حمل الكوريون الذين هاجروا إلى اليابان الديانة البوذية ونشروها هناك^(٣)، وكان اليابانيون قبل البوذية يعبدون إلهاً يدعونه كامى، ويتمثل في عبادة ظواهر من الطبيعة كالشمس أو الأجداد الأسطوريين، الذين هم ظواهر من الطبيعة حسب معتقدتهم، وتعرف ديانتهم باسم (الشتو)، أي الطريق إلى الآلهة^(٤)، وعند ظهور الإسلام كانت البوذية قد انتصرت على الشنتو^(٥).

وقد انتشرت البوذية في سيلان والملايو والتبت وتركستان وبورما وسيام وكمبوديا وكوريا إلى جانب الصين والهند واليابان^(٦).

وأما في الهند فإن البرهمية هي التي سادت فيها بعد أن زاحمت الديانة البوذية، والبرهمية تقوم على نظام الطبقات، وزعامة البراهمة، وتقديس البقرة، وتناسخ الأرواح، وقد بلغ عدد الآلهة الهندوسية ثلاثين مليوناً تزدهم بها مقبرة العظماء في الهند^(٧).

(١) ديورانت قصة الحضارة ٣: ٦٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٥.

(٢) ولز: موجز تاريخ الإنسانية ٣: ٧٧٩.

(٣) تويبي: تاريخ البشرية ٢: ٧٦ - ٧٧.

(٤) ادوين رايشاور: اليابانيون ٦١.

(٥) المرجع السابق ٦٣.

(٦) ديورانت: قصة الحضارة ٣: ٢٠٠، ٢٠٧.

(٧) المرجع السابق.

وقد صورت هذه الآلهة بصور لا تراعى فيها حدود الأخلاق، واحتفظت خلال القرون بعبادات وحشية، مثل التضحية بأفراد من الإنسان، وإحراق الأرملة عند وفاة زوجها.. وصورت البرهمية الحياة على أنها شر لا مفر منه، وعملت على تشييط المهمة عند أتباعها، وإشاعة الكآبة في نفوسهم، واستحالت الظواهر الدنيوية على يديها أوهاماً، فمحت بذلك الفوارق بين الحرية والعبودية، بين الخير والشر، بين الإفساد والإصلاح^(١).

ومن هذا العرض السريع الشامل يتبين أن البشرية جمعاء كانت منحرفة عن توحيد الله تعالى، وجاهلة بكيفية عبادته، وأن مجيء الإسلام كان رحمة عظيمة لهذا العالم، حيث صحّح الإسلام الاعتقادات الباطلة بالتعريف الواضح بالخالق ﷻ وأسمائه وصفاته، ومعرفة جوانب العقيدة الأخرى مفصلة، والكشف عن مراده من العباد ببيان أحكام الحلال والحرام، وتفصيل الآداب والأخلاق، وبذلك صار بوسع الإنسان الاهتداء إلى الله الواحد القهار، وعبادته وفق ما بينه القرآن والسنة، وتطبيق منهجه الشامل في الحياة الإنسانية.

المبحث الثاني

الدعوة الإسلامية ومنطلقاتها الفكرية

إن الخطاب الإسلامي موجه للناس كافة بشتى بقاعهم، ومختلف أزمانهم، وبكل أجناسهم وقومياتهم وألوانهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣)، وهذا العموم في الخطاب

(١) المرجع السابق ٣: ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) سبأ: ٢٨.

لل بشرية اقتضى أن يقوم الرسول ﷺ وأتباعه بدعوة الآخرين إلى الدخول في الإسلام ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(١) . وقد حفلت العصور الإسلامية المتعاقبة بنشاط دعوي في أوضاع الحرب والسلام كان له أثره البالغ في تكثير أعداد المسلمين وتوسيع رقعة دار الإسلام. وكان الباعث الرئيسي على الدعوة هو طلب مرضاة الله والحصول على ثوابه، ففي الحديث النبوي: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من مائة النعم»^(٢).

إن موضوع الدعوة هو الإسلام بشموله للعقيدة والشرعية والأخلاق أو بتعبير معاصر لجوانب الحياة المتنوعة فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية، ولكن المحور الأساسي هو التوحيد الخالص لله تعالى، وأنه الرب الخالق والمنعم الرازق، وأنه خلق البشر لتحقيق العبودية له ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣)، ويتم اختبار طاعتهم في هذه الدنيا، ويجازون على أعمالهم في اليوم الآخر، حيث يدخل المؤمنون الجنة والكافرون النار ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^(٤) ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ^(٥) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٦).

إن الدخول في الإسلام يبدأ بـ «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، وبها يعلن الإنسان إخلاصه في العبودية لله وحده، والتزامه باتباع أحكام الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ، وهكذا يدخل الإنسان مرحلة الوعي الديني..

(١) يوسف: ١٠٨.

(٢) البخاري: الصحيح ٥٨: ٤، ومسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة باب «رقم ٣٤» واللفظ له.

(٣) الذاريات: ٥٦.

(٤) التغابن: ٧.

(٥) الحديد: ٢١.

(٦) البقرة: ٣٩.

الوعي بالهدف النبيل من الوجود، والوعي بضرورة الارتقاء الروحي والمادي، والوعي بوسائل الارتقاء من الإحساس بمعاني الإيمان والتدبر والتفكير والذكر والشكر والعبادات المتنوعة من صلاة وصوم وحج، لتوثيق الصلة بالخالق، الصلاة معراج المؤمن، ومن الانتصار للحق والعدل والخير والجمال بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن تمثل القيم الإسلامية في واقع حياته، ليكون مثال «الإنسان الصالح»، ومن العطاء السخي للآخرين عن طريق «العمل الصالح»، الذي يقربه إلى الله تعالى.

إن دائرة العمل الصالح واسعة، وهو يهدف إلى الارتقاء بالحياة الروحية والمادية ومساندة قيم الحق والخير والجمال في الأرض.. وهي معاني كبيرة لا يسهل تحقيقها نسبياً، وإن تحققت في جيل فليس ثمة ما يضمن تحقيقها في جيل لاحق، فالصعود والهبوط يتعاقبان في تاريخ البشر، وتجديد الدين وإحياء السنن وتوثيق عرى الإيمان يرتبط بالدعوة الإسلامية، ومدى وعي الدعاة لمضامين الإسلام وشموليته، وقدرتهم على تمثل تعاليمه، وإقناع الآخرين بها.

إن القرآن هو أول كتاب باللغة العربية حرك وعي الإنسان قبل أربعة عشر قرناً، وفتح عقله على مكانه في الكون والحياة، وعرف بالحقوق والواجبات، التي تعمق وعيه الاجتماعي ونظرته الإنسانية، وقد كان النبي ﷺ يوضح ذلك كله بأقواله وسيرته الشخصية، ونظراً لتمثله القرآن بعمق ووعي خاصين، وتأثيره الكبير في جيله خاصة، فإن الرؤية القرآنية تحولت إلى واقع إنساني معاش، تفاعل مع الوحي الإلهي - قرآناً وسنة - وأثمر ارتقاءً عظيماً في الوعي الإنساني العام، عندما انتشر الإسلام في الزمان والمكان..

هدفت الدعوة الإسلامية إلى تخفيف معاناة الإنسان في الحياة، التي يمكن أن تتضاءل بازدياد وعيه في ظل الوحي الإلهي، في حين قد يؤدي ازدياد الوعي

إلى زيادة المعاناة عند غياب الإيمان، ففسوة الحياة تشتد عندما تفتقد المعنى، والدين هو الذي يعطيها المعنى.

وقصدت الدعوة الإسلامية إلى تحرير الإنسان من الأوهام والأساطير والخرافات والشعوذة، التي يقوم بها منتفعون يزعمون أنهم وسطاء بين الله والناس. وأحياناً اتخذ الإنسان وسطاء من الحجر والشجر والبشر يناجونهم ويسألونهم، فأعلنت الدعوة الإسلامية أنه محض الشرك، وأن لا وساطة بين الله والإنسان، وفي الحديث «اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١) مما يفتح بصيرة المؤمن على عاقبة ظلم الإنسان، ويرسي أساساً للعدل السياسي والاجتماعي.

وتحمل الدعوة الإسلامية ميزاناً دقيقاً للحقوق والواجبات حسب الشريعة، فلا يجوز التفريط بها أو التخلي عنها، فهي نفحة إلهية للبشرية، وقد اقتضى تطبيق تلك التعاليم جهاداً وبذلاً منذ نزول الوحي، حتى استقرت دولة الإسلام، فلولا الحركة الجهادية لما قضي على الشرك وطابع الحياة الجاهلية، ولما استقرت معاني العقيدة وقيم الإسلام الاجتماعية ومضامينه الخلقية في نفوس الملايين.

وحرصت الدعوة الإسلامية على بناء مجتمع العدل والقوة ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ^(٢) مما يوضح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضر، يقوم على العدل والقوة، فالكتاب والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل وتكفل استمراره. والعدل الشامل يمتد إلى المسلم والذمي والكافر، والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، والرجال والنساء، حيث تتحدد حقوق الجميع

(١) البخاري: الصحيح ٧: ١٦٨، ومسلم: الصحيح ٤: ١٧٤٠

(٢) الحديد: ٢٥.

وفق موازين العدل، دون احتكار أو استغلال أو استئثار أو ظلم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(١).

وتنطلق الدعوة الإسلامية من مبدأ المساواة بين البشر دون اعتبار للثروة والجاه ولا اللون أو العرق، «الناس بنو آدم، وآدم من تراب»^(٢). ويقتضي ذلك تحقيق تكافؤ الفرص أمام الناس، والتزام العدل المطلق بينهم، وهدم النظم الطبقية إذ لا مكان للعنجهية والصلف والكبرياء والاستعلاء على الناس، «المسلمون متكافؤ دماً وهم، ويسعى بذمتهم أدناهم»^(٣). وهذا يفسر تجاوب الأمم المختلفة مع الدعوة الإسلامية ودخولها في دين الله أفواجا. وربما من أجل ذلك كله قال الفيلسوف الألماني هيجل: «يعد المبدأ الإسلامي - أو روح التنوير في العالم الشرقي - أول مبدأ يقف في وجه البربرية»^(٤).

وتعلن الدعوة الإسلامية الشورى أساساً للنظام السياسي والاجتماعي، انطلاقاً من الآية ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، والآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، وقد بين عمر رضي الله عنه أن الحكم يخص الأمة، وأن من يسلبها هذا الأمر يكون غاصباً^(٥).

وتوازن الدعوة الإسلامية بين المطالب الروحية والدينية، وتنظر إلى عمران الأرض وزينة الحياة وطيباتها نظرة متفائلة، فلا تطالب البشر بالتبتل والحرمان والنأي عن استثمار الطاقات المتنوعة لمصالحهم ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٦)، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ

(١) النحل: ٩٠.

(٢) الترمذي: الجامع حديث رقم ٣٩٥٦، وأحمد: المسند ٢: ٣٦١.

(٣) أبو داود: السنن حديث رقم ٢٧٥١.

(٤) هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ ٢٥٠.

(٥) يعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٣٥١ بإسناد صحيح.

(٦) الأعراف: ٣٢.

اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ^(١)، فالمطلوب أن يكون العمران والاستثمار في نطاق الإحساس دون الظلم، والانحراف عن الفطرة، وتسخير القوى نحو الشر والدمار والطغيان...

وهي في دعوتها إلى العمران تربي الأتباع على الإتقان، والإتقان يقابل بمصطلحات العصر (التكنولوجيا)، والإحسان مرتبة عليا فوق الإسلام والإيمان، وفيها تتفجر الطاقات الإنسانية، وتفتح على عالم الغيب بتركيز عال من العبادة والرقابة واليقين «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

وقد أثمرت هذه الدعوة حضارة مادية رائعة في العصور الإسلامية الذهبية، شملت الفكر والعلوم والزراعة والصناعة.

وكان من مقاصد الدعوة الإسلامية حفظ النوع الإنساني واستمراره في الوجود، بتشريع الزواج، وتحصين الأسرة، وتحريم إتلاف النفس البشرية بالقتل أو الانتحار ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٣) معتبرة لتحقيق الأمان الفردي أساساً لتحقيق الأمن الجماعي.

وتفتح الدعوة الإسلامية أبواب التوبة أمام العالمين، مهما بلغت معاصيهم دون الحاجة إلى الاعتراف أمام وسيط، أو كشف مستور للآخرين: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ

(١) القصص: ٧٧.

(٢) البخاري: الصحيح ١: ١٨.

(٣) المائدة: ٣٢.

هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(١) وبذلك تم التأكيد على قيم إيجابية تحارب اليأس والقنوط والتردي والعبثية والإحساس بمأساوية الحياة، وتمحو الصور القاتمة المظلمة الموحية بالاكئاب والقلق، مثل الطيرة (التشاؤم) والخوف من المستقبل. سأل صحابي النبي ﷺ: «مَنَّا رجال يتطيرون؟ فأجابه: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم»^(٢).

وتكثر الصور المتفائلة، والمعالم المضيئة والمعاني الإيجابية المملطة للحياة، والمجملات للاجتماع البشري بإشاعة السلام والمحبة بين الناس، والاهتمام بحسن المنظر والمظهر والنظافة وطيب الرائحة.

وأكدت الدعوة الإسلامية على التكافل والتعاون بين الناس ابتداءً بصلة الأرحام وانتهاءً بالمجتمع بالحث على السخاء والكرم والإيثار ومراعاة حقوق الجيران، حيث ينخلع الناس عن أمواهم التي يحبونها تحت شعار «الصدقة برهان»^(٣). يعني أنها دليل قاطع على تذوق حلاوة الإيمان.

وأعلنت الدعوة الإسلامية حماية الملكية الفردية، وحثت على دوام تداول الأموال بالاستثمار، ومنعت تبديدها حتى من قبل صاحبها، فحجرت عليه إذا كان سفيهاً لا يدرك عواقب إتلاف الثروة، وحرمت الربا والاحتكار منعاً لانحصار المال بأيدي قليلة ﴿كَئِنْ لَا يَكُنْ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾^(٤).

وكانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر تحفز روح المغامرة الجهادية والعلمية والتجارية، وتدفع للبذل والتضحية لبناء الأمة وكيانها الحضاري.

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) مسلم: الصحيح ٣٨٢: ١ حديث رقم ٥٣٧، وأبو داود: السنن ١: ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٣) مسلم: الصحيح ١: ٢٠٣.

(٤) الحشر: ٧.

وقد اهتمت الدعوة الإسلامية بالعلم، فهو فريضة على كل مسلم، ووعدت بالأجر العظيم على طلبه، وقد وردت كلمة العلم في ٤٢٦ موضع من القرآن الكريم، وأعلت مكانة العلماء حتى اعتبرتهم ورثة الأنبياء^(١).

وأرست قيماً ثقافية تضمن استمرار التقدم العلمي. فالعلم حق للجميع، وليس حكراً لفئة معينة، مما يؤدي للارتفاع بالمستوى الثقافي لجمهور الأمة، والعلم يجب أن يقترن بالعمل والسلوك، وهو دليل توفيق الله للإنسان: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، وفقه الدين يقتضي فهم الحياة والنظر إلى أحداثها وقضاياها وفق مفاهيم الإسلام، الذي انتظم جوانب الحياة المتنوعة، فلا عجب إذا ما تفتحت بصيرة المسلم على جوانب الاجتماع والاقتصاد والحس والذوق وقيم الجمال بصورة أرحب وأعمق وأشمل، كلما ازداد بصيرة في دينه.

والعلم تترتب عليه مسؤولية دينية، فالعالم يسأل عن موقفه العلمي يوم القيامة: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: ... وعن علمه ماذا عمل فيه؟»^(٢). والعالم مسؤول عن نشر العلم وعدم كتمانها: «من سئل عن علم فكتمه أجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»^(٣).

والعلم بحر لا ساحل له، ولا يمكن للفرد الإحاطة به، لذلك لا بد من الاستمرار في طلبه دون انقطاع، وقد أثمرت هذه القيم الثقافية حركة فكرية زاهرة، حيث صار «التعلم المستمر» و«تراكم المعرفة» و«تجميع العلم»، ودراسته بصورة منظمة من أبرز خصائص الحركة الفكرية في عصور الإسلام الذهبية.

وكانت الدعوة الإسلامية تركز على مفهوم أن العقل وحرية الفكر مناط التكليف، وطالبت أتباعها بالبحث الحر عن الدليل أو البرهان، وأنكرت تقليد

(١) أبو داود: السنن ٣: ٣١٧، والترمذي: الجامع ٥: ٤٩، وابن ماجه: السنن ١: ٨١.

(٢) أبو داود: السنن ٣: ٣٢٣، وابن ماجه: السنن ١: ٩٣.

(٣) أبو داود: السنن ٣: ٣٢١، والترمذي: الجامع ٥: ٢٩.

الآخرين، فلم يظهر في الإسلام كهنوت يدعي احتكار فهم الإسلام وحق تفسير نصوصه، كما حدث في تأريخ الأديان الأخرى، بل بوسع كل مسلم أن يرجع إلى القرآن والسنة، وأن يتضلع في علومهما، ويأخذ بعد ذلك عنهما، ويناقش الآخرين في صحة الدليل وطريقة الاستدلال.

إن التأمل في المنطلقات الفكرية للدعوة الإسلامية يكشف عن مبادئ أساسية، تتمثل في تحقيق العبودية لله والكرامة والحرية والعلم والعدل والمساواة والشورى للإنسان، الذي يتجه إليه الخطاب الإسلامي في مطلق الزمان والمكان.



الفَصْلُ الثَّانِي
الفتوحات

المبحث الأول

فتوح العراق و المشرق

في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

كانت قبيلتا شيبان وسدوس - من بني بكر بن وائل - تسكنان في القسم الجنوبي من العراق، وكان المثنى بن حارثة الشيباني يتزعم قبيلة شيبان، ويغزو بها مناطق الحيرة، كما كان قطبة بن قتادة السدوسي يتزعم قبيلة سدوس، ويغزو بها أطراف الأبله التي كانت الميناء الرئيسي للعراق على الخليج العربي، ولم تكن هذه الحركات مرتبطة بالمدينة، بل كانت مستقلة، ولذلك أرسل أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالد بن الوليد وعياض بن غنم إلى العراق، ليتوليا قيادة الجيوش فيه، على أن يفتح عياض دومة الجندل، التي انتقضت على أبي بكر ثم يمضي إلى الحيرة، وأيهما دخل الحيرة قبل الآخر تولى القيادة العامة في العراق^(١).

سبق خالد إلى العراق، وضم إليه جيش المثنى، وبدأ بتنظيم الحركات العسكرية، فكانت أولى الوقائع بينه وبين الفرس في منطقة الحفير قرب الخليج العربي، وقد انتصر فيها خالد على هرمز القائد الفارسي، وتسمى المعركة بذات السلاسل، لأن الفرس اقترنوا بالسلاسل، كما تسمى غزوة كاظمة باسم القرية التي دارت قريبا^(٢).

وقد تملك الفرس في هذه المرحلة أردشير، فحشد جيشاً بقيادة قارن، فالتقى به خالد في المذار، وألحق به الهزيمة، وقتل من الفرس عدداً كبيراً^(٣).

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٣٤٧ عن سيف بن عمر التميمي، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٣٤٨ - ٣٤٩ عن سيف.

(٣) الطبري: تاريخ ٣: ٣٥١ عن سيف.

وحاول الفرس بعد موقعة المذار الاستفادة من القبائل العربية، وخاصة بكر بن وائل، فاحتشدوا في الوجة، وانضم إليهم الاندزرغز القائد الذي أرسله الملك أردشير، وتمكن خالد من هزيمتهم، فذهبت فلولهم إلى أليس^(١)، فاجتمعت العرب بقيادة مالك بن قيس والفرس بقيادة بهمن جاذويه، لكن بهمن ترك جبهة القتال إلى العاصمة بسبب مرض أردشير حيث مات فيه، وترك جابان على الفرس، وتمكن خالد في أليس من تشتيت العرب والفرس، وفر جابان وقتل مالك بن قيس^(٢).

ثم سارع خالد إلى أمغيشيا فهدمها وخربها^(٣)، وكان الفرس منشغلين بالاضطراب في البلاط عقب موت أردشير، حيث تعاقب على العرش بعده عدد من الأمراء والأميرات. وقد استفاد خالد من هذه الظروف فقصد الحيرة عاصمة العراق العربي من أمغيشيا بالسفن، وقد سد آزاذبة. حاكم الحيرة الفارسي قناطر الفرات، ليمنع سير السفن، لكن خالد أعاد فتح السداد بالقوة وحاصر الحيرة، فتحصن سكانها العرب وقاوموا، وفر آزاذبة، وبعد حصار عنيف صالح خالد سكان الحيرة على الجزية، واتخذ خالد الحيرة معسكراً لجيشه، وأرسل حملات عدة إلى أطراف الحيرة لإقرار الأمن فيها، وقد صالحه الدهاقين في المنطقة^(٤).

وبعد فتح الحيرة قصد خالد إلى الأنبار فحاصرها، وكانت محاطة بخندق، فرمى فيه الإبل ليجتاز إليها، لكن شيرزاد الحاكم الفارسي صالحه على أن يسمح له بمغادرتها^(٥). ثم قصد خالد إلى عين التمر على أطراف بادية الشام، حيث

(١) المصدر نفسه ٣: ٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٣٥٥ عن سيف، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٩٧، ٣٠٠ باختصار.

(٣) الطبري: تاريخ ٣: ٣٥٨ عن سيف.

(٤) الطبري: تاريخ ٣: ٣٥٨ - ٣٦٩ عن سيف، والبلاذري: فتوح البلدان ٢٩٧ - ٣٠٠.

(٥) الطبري: تاريخ ٣: ٣٧٣ عن سيف.

تجمعت قبائل تغلب والنمر وأياد والفرس بقيادة مهران بن بهرام جوبين، فحاصرها حتى نزلوا على حكمه، فقتل المقاتلة وغنم الأموال^(١).

أما عياض بن غنم فبقي سنة كاملة لا يقوى على خصومه من كلب وبهراء وغسان، الذين نفروا إلى دومة الجندل بعد هزيمتهم أمام خالد بن الوليد، وكان زعيم أهل الدومة أكيدر بن عبد الملك الكندي، الذي سرعان ما تخاذل عندما علم بنجدة خالد لعياض، وقيل: إنه ترك الدومة قبل المعركة، أما القبائل العربية فقاتلت المسلمين خارج الحصن، ثم فرت فتحصنت به، ثم فتح خالد الدومة عنوة، وقتل من بداخلها من المقاتلين * وكانت الدومة مفتاح بلاد الشام والعراق، لذلك حرص المسلمون على الاستيلاء عليها^(٢).

وقد استغل العرب والفرس غياب خالد عن الحيرة فثاروا فيها، فلما رجع خالد أخضعها وباغت قبائل تغلب، وأرسل القعقاع إلى حصيد حيث تجمعات الفارين من الحيرة عرباً وفرساً فهزمهم^(٣)، ولجأوا إلى بلدة الخنافس ففتحها المسلمون، كما باغت خالد قبائل هذيل في المصيخ، وبذلك أعاد سيطرة المسلمين على سائر العراق العربي^(٤). ثم قصد خالد إلى الفراض وهو تخوم العراق والشام والجزيرة، فاجتمع عليه العرب والفرس والروم فقاتلهم وانتصر عليهم^(٥)، ثم رجع إلى الحيرة حيث جاءه أمر أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن يأخذ نصف الجيش ويتجه إلى الشام لمساعدة المسلمين هناك ضد الروم، وبقي المثنى بالنصف الآخر في العراق^(٦).

(١) المصدر السابق ٣: ٣٧٦ عن سيف.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٣٧٨ عن سيف.

(٣) نفسه ٣: ٣٨٠.

(٤) نفسه ٣: ٣٨١.

(٥) نفسه ٣: ٣٨٣.

(٦) نفسه ٣: ٤٠٨، ٤١٥ - ٤١٧.

ملاحظات:

- ١ - لم يشرك الصديق رضي الله عنه أحداً من المرتدين في الفتوح، بل جردهم من السلاح، لأنه لم يأمنهم لحداثة عهدهم بالردة، وعقوبة لهم بإظهار الاستغناء عنهم، ثم لأنه لم يشأ أن يكونوا طلائع الفتح الإسلامي، فلا يعطون سكان المناطق المفتوحة المثل الصالح للجندي المسلم.
- ٢ - لم تستقر قدم الفاتحين في المناطق المفتوحة، بل كان السكان وخاصة نصارى العرب يثورون عليهم، فقد أعيد فتح الحيرة ثلاث مرات. وهذا يفسر أسباب تغير شروط الصلح مرات عديدة في مناطق السواد.
- ٣ - دارت سائر المعارك في العراق العربي^(١).

في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

بعد مغادرة خالد بن الوليد العراق إلى الشام، اضطر المثنى إلى الانسحاب من المنطقة المفتوحة إلى الصحراء لعدم تمكنه من مواجهة الفرس بقواته القليلة، ولخشيته من ثورة سكان البلاد، فترك الحيرة إلى خفّان في الصحراء.

ثم حدثت اضطرابات في البلاط الساساني، وتعاقب تسعة أمراء في أربع سنوات على العرش، وبدأ الاضطراب عندما قتل شيرويه أباه كسرى أبرويز، ثم قتل شيرويه، وتولى أمراء متعاقبون، ثم تولى شهريران بن أردشير، ثم مات فتولت أخته دخت زنان بنت كسرى، ثم خلعت وتولى سابور بن شهريران ثم قتل، وتولت أزر ميدخت بنت كسرى، ثم خلعت وتولت بوران بنت كسرى، وقد أطلقت يد رستم في شؤون الدولة والجيش^(٢).

وبدأ رستم تنظيم مقاومة ضد المسلمين، وقد استمد المثنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرسل عمر أبا عبيد بن مسعود الثقفي ومعه عشرة آلاف مقاتل،

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ٦٢، ٦٩.

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٤١٣ - ٤١٤، ٤٤٧.

ولما وصل العراق كان رستم قد استثار الدهاقين في السواد فثاروا بالمسلمين، كما أرسل ثلاثة جيوش: أحدها بقيادة جابان، والآخر بقيادة نرس، والثالث بقيادة الجالينوس، وتمكن أبو عبيد من هزيمة الجيوش الثلاثة قرب الحيرة وكسكر والسقاطية على التوالي، وأعاد احتلال السواد وصالح الدهاقين^(١).

وقد حفزت هزائم الفرس رستم فعبا جيشاً كبيراً بقيادة بهمن جاذويه ذي الحاجب، يساعده الجالينوس ومعهم الفيلة وراية كسرى «درفش كايان»، والتقى الجيشان على الفرات بقس الناطف، وقد خيّر الفرس أبا عبيد أن يعبر إليهم أو يعبروا إليه، فاختار العبور كي «لا يكونوا أجراً على الموت منا»، لكنه فقد خصائص عديدة، فقد كان وراءه الصحراء، وبعبوره أصبح النهر وراءه، وكان في صحراء فأصبح في أعشاب ومستنقعات، وفي بدء المعركة رجحت كفة المسلمين، لكن الفيلة أرعبت خيلهم، وخبطت أبا عبيد فقتلته، وانهزم المسلمون، وقام أحدهم بقطع الجسر ليمنع الهزيمة، لكنه أخطأ وزاد خسائر المسلمين التي بلغت أربعة آلاف بين قتيل وغريق، ثم أصلح الجسر وعبر المسلمون. لقد كانت الهزيمة قاسية حتى لحق بعض المسلمين بالمدينة، وبقي بعضهم بالبوادي يغلبهم الحياء^(٢).

وكان لا بد للمسلمين أن يثأروا للجسر، وبدأ الخليفة عمر رضي الله عنه يحشد الجيوش لهذا الغرض، وقد تناقل بعض المسلمين عن الذهاب إلى جبهة العراق، ورغبوا في الالتحاق بالشام، حتى أكره عمر بجيلة بقيادة جرير بن عبد الله البجلي بالالتحاق بالعراق، وعوضهم ربع خمس ما أفاء الله عليهم. وكذلك سمح عمر رضي الله عنه للمرتدين بالاشتراك بالفتوح وأمد بهم المشنى، وقد قاد المشنى جيش المسلمين، والتقى بالفرس في البويب مما يلي موضع الكوفة اليوم وعليهم

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٤٥٠ - ٤٥٣.

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٤٥٤ - ٤٥٩ عن سيف.

مهران، وقد تمكن المثنى من حصر الفرس والإيقاع بهم وقتل مهران^(١).. كما قام بتعقب الفارين، وبذلك استعاد المسلمون معنوياتهم، وغلبوا من جديد على السواد. وفي هذه المعركة اشتركت بعض القبائل العربية ونصارى النمر وتغلب إلى جانب المسلمين ضد الفرس. وفي أعقاب البويب ازداد إحساس الفرس بالخطر، فاجتمعوا على يزدجرد بن شهريار بن كسرى، ونهض يزدجرد بالأمر، فجند الكفءات وحشد القوى، وأدرك المثنى خطورة الموقف فانسحب إلى ذي قار ينتظر أمداد المدينة. وقام الفرس بتجنيد عام وتوزيع الفرق في كل أنحاء الأرض التي احتلها المسلمون، وأثاروا السكان على المسلمين، فنقضوا الصلح وثاروا.

القادسية (١٥هـ):

أما المسلمون فقد قام المثنى باستنفار القبائل العربية لقتال الفرس، وأرسل عمر رضي الله عنه الأمداد من المدينة، وأراد أن يقودها بنفسه لولا نصيحة الصحابة له بالبقاء، وتولى القيادة سعد بن أبي وقاص، ويقال: إن جيشه بلغ بمن التحق به في طريقه إلى العراق ٥٠٠ و ٢٠ مقاتل، ولما وصل إلى العراق كان المثنى قد استشهد من جراح أصابته، فضم إليه جيشه البالغ ٨٠٠٠ مقاتل، وأمر عمر رضي الله عنه أبا عبيدة بن الجراح قائد الجيش في الشام أن يمده بالجيش الذي سحبه خالد من العراق قبل اليرموك، فأعادهم وهم ٨٠٠٠ مقاتل بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وأما الفرس فبلغ عددهم في بعض الروايات ١٢٠٠٠٠ مقاتل معهم ٣٣ فيلاً، يقودهم رستم كبير القادة الفرس، وقد بدأت المفاوضات أولاً وأوضح رسل المسلمين ومنهم المغيرة بن شعبة والنعمان بن مقرن أهداف المسلمين لرستم الذي تصور أن الأمر يمكن أن يسوى بالمال، ثم دارت رحى المعركة في القادسية ثلاثة أيام هي أرماث وأغواث وعمواس، ولياليها الهدأة والسواد

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٤٦٠ - ٤٧٢ عن سيف وابن إسحاق.

والهزير وهي أشدها، وقد أفاد المسلمون من يوم الجسر، وتمكنوا من التخلص من الفيلة برمي عيونها، ففرت وقتل رستم وانهزم الفرس، وقتل منهم ألف كثيرة، وخسر المسلمون ٦٠٠٠ مقاتل. واختلف في سنة الواقعة بين ١٤ و ١٥ و ١٦ هـ، ولعل الراجح أنها سنة ١٥ هـ بعد اليرموك ودمشق وفحل^(١).

المدائن:

وانطلق المسلمون بعد القادسية إلى المدائن بعد أن سقطت أمامهم بابل، ثم بهر سير وفر يزدجرد من المدائن إلى حلوان تاركاً حامية في المدائن... وقد اقتحم المسلمون نهر دجلة بجرأة نادرة، ولم يستطع الفرس صدّهم، وسلمت الحامية على الجزية، ودخل المسلمون القصر الأبيض، الذي وعدهم الرسول ﷺ بفتحه^(٢).

جلولاء (١٦ هـ):

وبدأ يزدجرد بتنظيم المقاومة من حلوان، ويتقدم نحو المدائن، لكن سعداً وجّه هاشم بن عتبة على جيش من المسلمين، فالتقى بالفرس وهزمهم وفتح حلوان، وذلك في موقعة جلولاء التي يمثل سقوطها انهيار الخطوط الأولى للمقاومة الفارسية، وفي أعقاب جلولاء اعتنق دهاقين السواد الإسلام، فأقرهم عمر رضي الله عنه على مراكزهم ورفع عنهم الجزية^(٣).

تكريت:

وبعد جلولاء أرسل سعد بن أبي وقاص جيشاً بقيادة عبدالله بن المعتم لفتح تكريت في ٥٠٠٠ مقاتل، فقاتل فيها الروم الذين كانوا يسيطرون عليها،

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٤٧٧ - ٥٩٠.

(٢) المصدر السابق ٤: ٦ - ٢٤.

(٣) المصدر نفسه ٤: ٢٤ - ٣٤.

وسقطت بعد حصار أربعين يوماً. ثم وجه ابن المعتم ربيعي بن الأفكل العنزي إلى الموصل، فصالح أهلها وأهل نينوى على الجزية^(١).

بناء الكوفة (١٧ هـ):

وقد طلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه من سعد بن أبي وقاص أن لا يوغل في بلاد الفرس، وأن يبني مدينة للمسلمين، لأنهم استوخوا جو المدائن، ولعله خشي غلبة عادات أهلها وترفعهم على المسلمين، فبنى سعد الكوفة التي لا يفصلها عن الصحراء ماء، لتكون قاعدة الجيوش الإسلامية في العراق^(٢).

بناء البصرة (١٦ هـ أو ١٧ هـ):

وقريباً من ذلك الوقت بنى عتبة بن غزوان البصرة في منطقة الأبله، التي فتحها عتبة بن غزوان سنة ١٤ هـ، حيث وجهه عمر لغزو الجنوب حين وجه سعد بن أبي وقاص إلى القادسية^(٣). وقد فتح عتبة الأبله وهي مرفأً عظيم للسفن بعد قتال مع الفرس، ثم بنى البصرة، وهكذا أصبحت الكوفة والبصرة المنطلقين الرئيسيين للجيوش الإسلامية، التي فتحت المشرق. وهكذا أيضاً أصبح الاستقرار طابع الفتوحات في خلافة عمر رضي الله عنه.

لقد فُتح أكثر العراق عنوة، وانتقض مرات عديدة، حتى إن عهود الفتح وشروط الصلح تغيرت مرات عديدة، ويترتب على الفتح عنوة استملاك المسلمين للأرض، لكنهم دعوا المغلوبين للبقاء فيها على أن يدفعوا الخراج، وأفاد هذا الإجراء في عدم تحول الفاتحين إلى فلاحين، وفي ربط الفلاحين القدامى بأرضهم وولائهم لبلدهم، وساعد ذلك على ازدهار الزراعة في السواد، وما

(١) الطبري: تاريخ ٤: ٣٥ - ٣٧.

(٢) المصدر السابق ٤: ٤٠ - ٤٨.

(٣) المصدر نفسه ٣: ٥٩٠ - ٥٩٥.

كان بوسع الفاتحين استثمار الأرض لنقص الخبرة، أما موقف السكان فقد قاوم العرب الفاتحين مقاومة عنيفة وخاصة نصارى بكر بن وائل، أما الفلاحون فقد ساعدوا الفاتحين الذين أبقوا الأرض بأيديهم، لكن الجند من أهل السواد قاوموا بعنف، فهم يرتبطون بالدولة، وأما الدهاقين فكانوا مع الغالب، ولما رجحت كفة المسلمين أسلموا وتولوا أعمالهم السابقة على الفتح. أما إسلام السكان فقد استجابت العامة للدين السمع والدهاقين للحفاظ على مصالحهم، وأسلمت بعض القبائل العربية مثل ربيعة، وحافظت بكر بن وائل على النصرانية، وأسلم بعض الفرس، واشتركوا في القادسية مع المسلمين، لكن عددهم كان محدوداً^(١).

ونتيجة عدم تعقب المسلمين لفلول الفرس في بلاد إيران حسب خطة عمر رضي الله عنه، تمكن بعض قادتهم كالهرمزان وملكهم يزدجرد من إعادة تنظيم الجيش، وتصوروا أن المسلمين خافوهم فلم يتعقبوهم، وبدأ التجمع الفارسي في مكانين، نهاوند ويتولى يزدجرد أمر حشد الجيوش فيها، والأحواز ويتولى الهرمزان الذي كان قد فرّ من القادسية أمر الفرس فيها.

ونتيجة قرب الأحواز من البصرة، بدأت تحرشات الفرس بالمسلمين هناك، فلنرجع قليلاً إلى الورا لتبين ظروف البصرة وعلاقتها بالأحواز. وكان عتبة قد مات فولأها عمر رضي الله عنه المغيرة بن شعبة، الذي كان قد تمكن من قهر سكان الأحواز وصالحهم على الجزية، ثم عزل عمر رضي الله عنه المغيرة على إثر شغب بعض أهل البصرة عليه واتهامهم له بالزنا، ولم تثبت التهمة، لكن عمر عيّن أبا موسى الأشعري على البصرة، وفي طريق أبي موسى إلى البصرة ثار الفرس بالأحواز ورفضوا دفع الجزية، وزاد في طمع الفرس فشل المغامرة التي قام بها العلاء ابن الحضرمي، حيث تقدم بالمسلمين من البحرين بالسفن إلى إقليم فارس،

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ١٠٠ - ١٠٥.

متجهاً إلى اصطخر عاصمة الإقليم، فقطع عليه الفرس طريق الرجعة، وأنقذت حاميات البصرة والكوفة العلاء بن الحضرمي وعزل عن البحرين.

فتح الأحواز:

ولما اطلع أبو موسى على تحرشات الفرس وطمعهم دفع قواته إلى مدينة الأحواز، ففتحها بعد أن كانت قد فتحت مناذر ونهر تيري، وقد فر الهرمزان من الأحواز إلى رامهرمز، وبدأت الحشود تتجمع من فارس حوله بتحريض من يز دجرد، فطلب عمر رضي الله عنه من سعد بن أبي وقاص أن يوجه النعمان بن مقرن من الكوفة إلى رامهرمز^(١).

فتح رامهرمز:

كما طلب من أبي موسى الأشعري أن يوجه سهيل بن عدي من البصرة إلى رامهرمز، وقد تمكن النعمان من فتح رامهرمز قبل وصول سهيل^(٢).

فتح تستر:

وفرَّ الهرمزان إلى تستر، ولحقه النعمان وسهيل، فحاصرا تستر، ولكثرة جيوش الهرمزان وحصونه تستر لم يتمكن المسلمون من فتحها إلا بعد وصول أمداد كثيرة من البصرة بقيادة أبي موسى الأشعري، ومن الكوفة بقيادة عمار بن ياسر واليها، ودار قتال عنيف خارج تستر، التي كانت عاصمة خوزستان وأكثر مدنها منعة، ثم اضطر الفرس إلى الاعتصام بحصونها، وقد دلَّ رجل من أهل تستر المسلمين على مدخل مائي إلى المدينة، فدخل منه مئتان وأربعون مقاتلاً في الليل وفتحوا أبواب المدينة، ودخلها المسلمون، فاعتصم الهرمزان بقلعته، ثم سلم على أن يحكم فيه عمر رضي الله عنه، وكفت المدينة عن المقاومة^(٣).

(١) الطبري: تاريخ ٤: ٧٢ - ٧٦.

(٢) المصدر السابق ٤: ٨٣.

(٣) الطبري: تاريخ ٤: ٧٧، ٨٣.

فتح السوس و جندی سابور:

ثم اتجه المسلمون إلى السوس، فحاصروها حتى نفذ قوتها وصالحتهم، وأسلم سياه الأسواري بشرط أن يلحق هو وجيشه بإشراف العطاء، وصالحت جندی سابور المسلمين، وبذلك تم خضوع إقليم فارس للمسلمين^(١).

نهاوند (٢١ هـ):

وأما يزدجرد فاستمر يحشد الجيوش في نهاوند من مختلف المقاطعات بقيادة الفيرزان، حتى قيل: إن جيشه بلغ ١٥٠,٠٠٠ مقاتل، وتغيرت وجهة نظر الخليفة عمر رضي الله عنه في منع الانسحاب في بلاد إيران بعد أن شرح له الأحنف بن قيس الموقف، وأن الفرس سيستمرون بالمقاومة مادام يزدجرد حيّاً، وهمّ عمر أن يتوجه إلى العراق لقيادة الجيش بنفسه، لولا نصيحة الصحابة له بالبقاء، فعين النعمان بن مقرن على الجيش وبعده حذيفة بن اليمان، وقيل: إن جيش المسلمين بلغ ٣٠,٠٠٠ مقاتل، وكانت نهاوند حصينة، وكان الفرس يخرجون منها فيقاتلون ثم يحتمون بحصونها، فلم يتمكن منهم المسلمون حتى استدرجهم بعيداً عنها، ثم قاتلوهم وهزموهم وقتل الفيرزان، واستشهد النعمان، وفتح المسلمون نهاوند، وتسمى فتح الفتوح، فلم تقم للفرس بعدها قائمة. وفي أعقابها صالحت همذان ثم الدينور ثم السيروان ثم الصيمرة ثم ماه...^(٢).

وتتمثل خطة عمر رضي الله عنه بعد نهاوند بالانسحاب السريع في بلاد إيران، كي لا يجتمع للفرس فل، لذلك عقد بنفسه سبعة ألوية، فجعل لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس، ولواء أردشير وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي، ولواء اصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي، ولواء درابجرد إلى سارية بن زنيم

(١) المصدر السابق ٤: ٨٩ - ٩٤.

(٢) الطبري: تاريخ ٤: ١١٤ - ١٣٩، ١٤٢ - ١٤٣.

الكناني، ولواء كرمان إلى سهيل بن عدي، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو، ولواء مكران إلى الحكم بن عمرو التغلبي.

فتح أصبهان:

وجه عمر عبدالله بن عبدالله بن عتبان إلى أصبهان، وبعد قتال عنيف خارج المدينة صالحت أصبهان على الجزية. وتوضح الروايات التي يسوقها أبو الشيخ الأنصاري أن بعض أصبهان فتح صلحاً وبعضها فتح عنوة، ومما فتح صلحاً مدينة جي أصبهان وشقها، ومما فتح عنوة شق التيمرة من أصبهان، ورستاق الشيخ، ورستاق بوحوار، ورستاق جرم قاشان^(١).

إعادة فتح همدان:

ثم انتقضت همدان، فأعاد فتحها صلحاً نعيم بن مقرن، واجتمعت جيوش المقاطعات الشمالية من الديلم وأهل الري وأذربيجان بقيادة اسفنديار الرازي أخي رستم قائد القادسية، فهزمهم نعيم بن مقرن في واج رود^(٢).

فتح الري:

لكنها عادت فاجتمعت في الري بقيادة ملك الري سياوخش، والري عاصمة الشمال الحصينة، وجاءتهم الأمداد من أهل دناوند وطبرستان وقومس وجرجان، فإن سقوط الري بيد المسلمين يجعل الخطر مباشراً على هذه المناطق، وكذلك لأهمية الري الدينية، حيث فيها معابد النار الكثيرة، وقد لقي المسلمون مقاومة عنيفة انتهت بفتح الري عنوة، ومع ذلك فقد أجراه نعيم صلحاً، ولعل خطورة الوضع وعنف العدو في هذه المناطق جعله يفكر في تهدئة أهل الري.

وبسقوط الري صالحت قومس المسلمين، وكذلك فعلت دناوند، ولم يبق من بلاد الفرس أمام المسلمين سوى جرجان وطبرستان وأذربيجان، وبذلك

(١) الطبري: تاريخ ٤: ١٣٩ - ١٤١، وأبو الشيخ: طبقات ١٨٩.

(٢) الطبري: تاريخ ٤: ١٤٦ - ١٥٠.

يصلون إلى شواطئ قزوين، وقد كاتب سويد بن مقرن ملوك هذه المقاطعات، فصالحه ملكا طبرستان وجرجان، وتقدم عتبة بن فرقد وبكر بن عبدالله في بلاد أذربيجان، ولقيا اسفنديار فهزماه وأسراه، فصالحهما على الجزية، كما دان للمسلمين شهريراز أمير الباب، وبذلك وصل المسلمون إلى أقصى بلاد الفرس، واتصلوا بديار الترك من الشمال^(١).

أما في الجنوب من بلاد إيران فقد تقدم المسلمون من البحرين ومن البصرة لغزو ولاية فارس، ففتح عثمان بن أبي العاص توج بمعاونة مجاشع بن مسعود الذي كان على جيش البصرة^(٢).

فتح إقليم فارس:

ثم سار مجاشع إلى سابور وأردشير ففتحهما بعد قتال، وسار عثمان بن أبي العاص إلى اصطخر عاصمة الإقليم ذات الأهمية السياسية والدينية، ودافع عنها الهربز، ودخلها المسلمون بالقوة، ثم صالحوا الهربز على الجزية، وقد انتقضت بعد ذلك مرتين وأعيد فتحها، ويذكر البلاذري أن أبا موسى الأشعري قدم من البصرة، واشترك في فتوح إقليم فارس مع عثمان بن أبي العاص، ففتح أرجان وشيراز وسينيز صلحاً، وفتح عثمان درابجرد صلحاً، ويخالفه الطبري، فيذكر أن سارية بن زعيم فتح بسا ودرابجرد^(٣).

فتح كرمان و مكران:

وكذلك فتح سهيل بن عدي كرمان بالقوة، كما فتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران بالقوة، وكان يزددجرد في كرمان، ففر إلى مرو خراسان...^(٤).

(١) الطبري: تأريخ: ٤: ١٥٠ - ١٦٠.

(٢) الطبري: تأريخ: ٤: ١٧٤.

(٣) المصدر السابق: ٤: ١٧٥ - ١٧٩.

(٤) المصدر نفسه: ٤: ١٨٠ - ١٨١.

فتح سجستان:

وتمكن عاصم بن عمرو من فتح سجستان بعد حصار عاصمتها زرنج على الجزية^(١).

فتح خراسان:

وتمكن الأحنف بن قيس من التوغل في خراسان الإقليم الشمالي الشرقي من بلاد إيران، ففتح هراة عنوة ثم صالح أهلها، وأرسل القوات إلى نيسابور وسرخس، وسار بنفسه إلى مرو، حيث يقيم يزدجرد الذي فر منها إلى مرو الروذ، ثم منها إلى بلخ، وتبعه الأحنف فسقطت بلخ وفر يزدجرد إلى سمرقند لائذاً بخاقان الترك، وجمع خاقان جيشاً من فرغانة والصغد، وجاءت أوامر عمر إلى الأحنف أن لا يتقدم في بلاد الترك، فقد اتسعت الفتوح، ولا يؤمن انتقاض الفرس في البلاد المفتوحة، مما يهدد خطوط رجعة المسلمين. وقد تقدم خاقان بجيوش الترك لحرب الأحنف، لكنه عرف أن المسلمين لن يتقدموا في بلاده فرجع عن قتالهم. أما يزدجرد فقد فقد أمله بتراجع خاقان، وكان قد تقدم مع خاقان إلى مرو، فلما انسحب خاقان حاول أخذ خزائنه من مرو والالتحاق بخاقان، فرفض سكان المدينة ذلك، فلما أصر ثاروا به وقتلوه^(٢).

وهكذا تم فتح بلاد إيران في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقام المسلمون المسالحي في شتى أرجائها متوقعين انتقاض الفرس في هذه الديار، لقد كانت فتوح المشرق عنيقة اقتضت من المسلمين تضحيات جسيمة بسبب اختلاف الدم، فسكان إيران فرس لا تربطهم بالعرب لغة ولا جنس ولا ثقافة، وكان الشعور القومي عند الإيرانيين يذكى التاريخ الطويل والثقافة المتأصلة، كما أن القتال كان يدور

(١) المصدر نفسه.

(٢) الطبري: تأريخ ٤: ١٦٦ - ١٧٣.

في صميم الوطن الإيراني، ويشترك رجال الدين المجوس في تأليب السكان على المقاومة، يضاف إلى ذلك بعد هذه المناطق عن مراكز الجيش في البصرة والكوفة، وطبيعة الأرض الجبلية التي تمكن السكان من المقاومة، ولذلك فقد انتقضت معظم هذه المراكز، وأعيد فتحها في خلافة عمر أو في خلافة عثمان رضي الله عنه^(١).

في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه:

انتقضت بعض الولايات الإيرانية على المسلمين، فأعادوا فتحها في خلافة عثمان رضي الله عنه، ففي سنة ٣١ هـ انتقضت خراسان، فتقدم إليها عبدالله بن عامر بجيش من البصرة، وأعاد فتح مدنها مرو ونيسابور ونسا وهراة وبوشنج وباذغيس ومرو والشاهجان. ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان، فاجتمع عليه أهل مرو الروذ والجوزجان والطارقان والفارياب والصغانيان، ففتح هذه البلاد بعضها صلحاً وبعضها عنوة، وحاول فتح بلخ فلم يتمكن، ثم عبر نهر جيحون فصالحه أهل بلاد ما وراء النهر، ثم استخلف عثمان قيس بن الهيثم بدل الأحنف، فتوغل في طخارستان وفتح مدنها، وكذلك فتح سعيد بن العاص بلاد طبرستان، وصالحه ملك جرجان، وثار أذربيجان فغزاها الوليد بن عقبة وأعادها إلى الطاعة، وكذلك تم فتح أرمينية في خلافته^(٢).

في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

تأثرت فتوح المشرق في أواخر حكم عثمان بما كان من فتن واضطراب في المدينة، فحدث هدوء نسبي في هذه الجبهات الشرقية، بل إن بعض المدن نقضت صلحها مع المسلمين في أواخر خلافة عثمان مثل بلخ وهراة، ولم تمكن الفتن الداخلية في خلافة علي من متابعة الفتح في المشرق^(٣).

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ٢٢٠ - ٢٢٥.

(٢) الطبري: تاريخ ٤: ٢٤٦ - ٢٤٧، ٢٦٩ - ٢٧١، ٢٨٦ - ٢٨٧، ٢٩٣ - ٣٠٣، ٣٠٩ - ٣١٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٥٠٥.

المبحث الثاني

فتوح الشام ومصر والمغرب

• فتوح الشام في خلافة الصديق (رضي الله عنه):

كان النبي ﷺ قد لفت أنظار المسلمين إلى فتح الشام منذ مؤتة سنة ٨ هـ ثم تبوك سنة ٩ هـ ثم حملة أسامة سنة ١١ هـ، التي كتب لها أن تتأخر إلى خلافة الصديق (رضي الله عنه). ثم بدأ الصديق (رضي الله عنه) بتوجيه الحملات إلى الشام في سنة ١٣ هـ بعد أن رجع من الحج، فوجه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء، ليتخذها معسكراً يستنفر الناس إليها. ثم توغل خالد في بلاد الشام وأمدّه أبو بكر بالوليد بن عقبة ثم بعكرمة بن أبي جهل، وقد تمكن القائد الرومي باهان من استدراج خالد، وهو يتظاهر بالتراجع إلى دمشق حتى طوقه وقاتله في موقعة مرج الصفر، وفر خالد بن سعيد والوليد بن عقبة، وتراجع عكرمة بالجيش، حيث انضم إلى الجيوش التي وجهها أبو بكر إلى الشام، وقد حدد أبو بكر لقادة هذه الجيوش وجهتهم، فيتجه أبو عبيدة إلى حمص، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن، وعمر بن العاص إلى فلسطين، ولم تكن الجيوش تحت قيادة واحدة^(١).

الصدّات الأولى:

وقد اصطدمت مع الروم في بعض جهات الشام، حيث التقى يزيد بن أبي سفيان بالروم بقيادة سرجيوس وانتصر عليه في وادي عربة، كما التقى عمرو ابن العاص وشرحبيل بن حسنة بأرطوبون (أريطيون) في أجنادين بفلسطين، واضطراه إلى التراجع إلى القدس^(٢).

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٣٨٧ - ٣٩٤.

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٤٠٦، ٤١٧، ٤١٨ عن ابن إسحاق، ٦٠٥. والبلاذري: فتوح البلدان ١٣٥ - ١٣٦.

ولكن المسلمين أخذوا يواجهون عقبات كبيرة تمثلت في التفوق العددي الهائل للروم، حيث حشدوا جيشاً كبيراً بقيادة تيودريك أخي هرقل، اتخذ من منطقة على اليرموك معسكراً له، لذلك اقترح عمرو بن العاص تجميع الجيوش الإسلامية في اليرموك فتم ذلك.

اليرموك (في الطبري سنة ١٣هـ):

ووجه أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد مع نصف الجيش الذي كان في العراق لمساعدة المسلمين في الشام، وقد قطع خالد الصحراء بسرعة خارقة، واتصل بجيوش المسلمين في اليرموك بعد أن فتح في طريقه إليهم بصرى وبعض الواحات التي مر بها. وقد اجتمعت جيوش المسلمين تحت قيادة خالد بن الوليد ثم دارت رحى معركة هائلة، وقد استبسل المسلمون واستشهد عكرمة ابن أبي جهل، وقاوم الروم بعنف ثم هرب بعضهم، ومعظمهم هوى في وادي الواقصة، فكان قتلهم ألفاً عديدة. وكان جيش المسلمين يضم ألفاً من الصحابة بينهم مئة بدري^(١). وقد غادر هرقل على إثر الموقعة مدينة أنطاكية، وودع سوريا الوداع الأخير، وفتحت الطريق أمام المسلمين للانسياح في بلاد الشام، وفي أعقاب اليرموك توفي أبو بكر رضي الله عنه^(٢)، وتولى الخلافة عمر رضي الله عنه، وقيل: إن ذلك كان عقب حصار دمشق^(٣)، بل هناك رواية أخرى مخالفة هي أن اليرموك حدثت عقب فتح دمشق، ومعنى ذلك أنها كانت في خلافة عمر رضي الله عنه.

• في خلافة عمر رضي الله عنه:

عزل خالد:

بدأ عمر خلافته بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة في الشام، وولاها أبا عبيدة عامر بن الجراح، ويرجح البعض السبب إلى موقف خالد من مالك بن

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١: ٥٢٩ (ط. المنجد).

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٣٩٤ - ٤٠٨.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١٤٤.

نويرة، أو إلى عداء شخصي منذ الجاهلية بين الاثنين، أو إلى كراهية عمر لمجازفة خالد بالمسلمين في المعارك، والصواب أن عمر رضي الله عنه يمتاز برغبته في الإشراف على الولاية والقادة، وكان يخطط حتى للمعارك التي تدور في جبهات العراق والشام، وتروي المصادر تفاصيل ذلك، وخالد امتاز بطبيعته التي تدعو إلى الاستقلال والتصرف الحر، فكان لا بد من عزله لتحقيق الانسجام بين الخليفة وقيادة الجيش، وكذلك ليس بعيداً أنه عزله كي لا يفتتن به الناس، فيحسبون أن النصر لا يتحقق إلا بوجوده.

فتح دمشق (في الطبري أوائل سنة ١٤هـ):

واستشار أبو عبيدة الخليفة: هل يتجه إلى دمشق أم إلى فحل بالأردن؟ فأشار بالاتجاه إلى دمشق، فحاصرها المسلمون ستة أشهر، ثم فتح خالد الباب الشرقي عنوة، وفتح أبو عبيدة باب الجابية صلحاً، وأجرى أبو عبيدة الصلح مع دمشق. وقد استقر المسلمون داخل مدينة دمشق أكثر من ضواحيها وملحقاتها الإدارية^(١).

ثم اتجه المسلمون بقيادة شرحبيل إلى فحل، حيث التقوا بالروم هناك وهزموهم، لذلك صالحهم أهل طبرية وبيسان وأذرعات وعمان وجرش ومآب وبصرى على مثل صلح أهل دمشق، (يقاسمهم المسلمون الأموال والمنازل، وعلى جزية مقدارها دينار واحد سنوياً على كل فرد)^(٢).

حمص وحماة واللاذقية وقنسرين وحلب:

وتمكن المسلمون بعد فتح دمشق وفحل من بسط نفوذهم على سوريا والجزيرة وفلسطين والأردن، فقد اتجه أبو عبيدة إلى حمص وحاصرها، ثم فتحها صلحاً على إثر زلزال وقع فيها. وقد صالحت حماة على مثل صلح حمص.

(١) ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة ص ٣٩٣، برغم أن الجدول يخص توزيع العلماء وحدهم، ولكن الشريحة الاجتماعية تصلح للقياس عليها، فإن العلماء إنما يعيشون وسط الجمهور الذي يوجهونه.

(٢) الطبري: تأريخ ٣: ٤٣٤، ٤٣٧ - ٤٤٤، والبلاذري: فتوح البلدان ١٤٤ - ١٤٧.

ثم اتجه أبو عبيدة إلى اللاذقية فحاصرها، وأطال سكانها الحصار لإنقاذ أنطاكية، لكنه تمكن من فتحها بالقوة.

ثم اتجه خالد إلى قنسرين قرب حلب ففتحها عنوة، وطلب سكانها الصلح، فرفض خالد، لكن أبا عبيدة أقرهم على الصلح، ومع ذلك ثارت عندما تركها المسلمون لفتح حلب، فأعادوا فتحها وتركوا فيها حامية.

وكذلك أرسل أبو عبيدة عياض بن غنم لفتح حلب صلحاً بعد أن حاصرها^(١).

أنطاكية:

وبقيت أنطاكية التي تعد عاصمة الإمبراطورية في الشرق، وقد تخلى عنها هرقل إلى الرها، فحاصرها أبو عبيدة وفتحها صلحاً، ثم ثارت فأعاد عياض بن غنم فتحها وترك فيها حامية.

وفي الوقت الذي عمل أبو عبيدة وخالد بن الوليد وعياض بن غنم على فتح سوريا والجزيرة، كان عمرو بن العاص يتقدم في أرض فلسطين، فعلى إثر موقعة أجنادين (١٣ هـ) اعتصم أرطبون بحصون بيت المقدس، فاتجه المسلمون إلى فتح مدن الساحل ففتحوا رفح وغزة وسبسطية ونابلس واللد وعمواس وبيت جبرين ويافا، بعضها عنوة وبعضها صلحاً.

بيت المقدس:

ثم اتجه عمرو بن العاص إلى بيت المقدس فحاصرها طويلاً، ولما أدرك أهل القدس قوة الحصار وانقطاع الإمداد عنهم لاستيلاء المسلمين على مدن الساحل رغبوا في الصلح، واشترط سفرونيوس بطريق المدينة أن يتولى الصلح الخليفة

(١) الطبري: تاريخ ٤: ٥٠-٥٦، والبلاذري: فتوح البلدان ١٥٦، ١٥٧، ١٦٢، ١٧٢، ١٧٤-١٧٥.

عمر رضي الله عنه بنفسه ليكون أوكد، فقدم عمر بنفسه إلى الجابية، وكتب كتاب الصلح للقدس، وسلمت مفاتيحها إليه... أما أرتبون قائد حامية القدس فانسحب إلى مصر^(١).

وهكذا تم فتح بلاد الشام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه «وقد غادر البيزنطيون ولحق بهم أتباعهم من أهل البلاد... وكان عدد أفراد الجاليات العربية يتجاوز كثيراً عدد الجيش الفاتح، فعدد جيش الفتح كما تقول المصادر كان يبلغ من ٢٤,٠٠٠ إلى ٢٧,٠٠٠ محارب، ثم ازداد إلى ٤٠,٠٠٠ في نهاية عهد الخلفاء الراشدين، وإلى ٦٠,٠٠٠ أيام معاوية الأول، تضاف إليهم عائلاتهم. وهذا العدد يماثل عدد أفراد قبيلة واحدة من تلك التي استوطنت هذه المنطقة قبل الإسلام، كقبيلة غسان التي شكلت دولة في حوران في القرن الخامس الميلادي^(٢)، حيث يذكر البلاذري أن الأمير الغساني جبلة بن الأيهم ترك الشام بعد الفتح مع ٣٠,٠٠٠ من رجاله^(٣). ويلاحظ أن المؤرخين اقتضبوا أخبار فتح الشام وفصلوا فتوح العراق، ولكن هناك تفاصيل عن اليرموك وفتح دمشق والقدس، أما موقف عرب الشام من الفتح والإسلام، ففي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقدم إليه وفد منهم لبياعه على الإسلام، وإن كان أهل جرباء وأذرح ودومة الجندل قد صالحوه في غزوة تبوك. وقد وقفت كثير من القبائل العربية مثل بهراء وكتب وسليم وتنوخ ولخم وجذام وغسان إلى جانب الروم، وقاتلت ضد المسلمين، كما أن بعض العرب من لخم وجذام ساندوا المسلمين فيما بعد في اليرموك لكنهم لما رأوا جد القتال فروا، لكن نصف جيش الروم كان عربياً بقيادة جبلة بن الأيهم الغساني.

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٦٠٧ - ٦١٢.

(٢) ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية ص ٥٨.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١٦١.

وقد قاوم نصارى الشام الجيوش الإسلامية لأسباب دينية، فلما رأوا انتصار المسلمين جنحوا إلى مصالحتهم. ويرى نولدكة وتريمنكهام أن قيام القبائل المنتصرة بمقاومة الفتح الإسلامي ما كانت نابعة عن التزام ديني بقدر ما كانت المصالح تقتضي مثل هذا الموقف، فلما زالت هذه المصالح ورفض الروم دفع المبالغ المقررة لتلك القبائل التي كانت تحمي مداخل الصحراء، حتى بدأت تغير من موقفها مع المسلمين^(١).

أما الروم فقاتلوا بعنف في ميادين عديدة، وأطالوا القتال، وحسبوا حركة الفتح غزواً ينتهي بانسحاب العرب بعد إحرازهم على الغنائم، ونسوا أن العرب تغيروا، وأصبحت لهم مثل وقيم ومبادئ دونها كنوز الأرض كلها. وأنهم عندما قدموا ألوف الشهداء على أرض الشام ابتغوا نشر الرسالة والتمكين لها، وليس نهب البلاد المفتوحة، وهذا سر استمرار وجودهم هناك^(٢).

فتح مصر:

كانت دوافع فتح مصر عند المسلمين قوية، فهناك العقيدة التي يريدون التمكين لها في كل مكان، ومصر تتصل بفلسطين، فمن الطبيعي بعد فتح فلسطين أن يتجه المسلمون إلى مصر، وقد شطر المسلمون الإمبراطورية البيزنطية إلى شطرين، لا يصل بينهما سوى البحر، وذلك باستيلائهم على الشام، وفي مصر وشمال أفريقية جيوش ومسالح رومية، ولبيزنطة أسطول قوي في البحر، ولن يأمن المسلمون في الشام ومصر تحت النفوذ الرومي، ومصر غنية، وهي مصدر لتموين القسطنطينية، فإذا احتلها المسلمون ضعف نفوذ بيزنطية كثيراً، وأمن المسلمون في الشام والحجاز، حيث يسهل اتصال الروم بالحجاز عن طريق مصر.

(١) د. محمد عبدالقادر خريسات: دور العرب المنتصرة في الفتوحات ص ٢، ضمن بحوث المؤتمر الدولي الرابع لتأريخ بلاد الشام - 1985 م. Trimingham. christianity among the arabs in pre

. 1979 - islamic time long man London and New york , P. 56

(٢) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ٤٤ - ٥٥.

العريش:

وقد استأذن عمرو بن العاص عمر بن الخطاب في فتح مصر، واتجه بجيشه إلى العريش واحتلها دون مقاومة، ثم سار إلى الفرما، وقاومه الروم شهراً أو شهرين، ثم تمكن من احتلالها، واتجه إلى بلبس^(١). شمال شرق القاهرة فاحتلها، واصطدم بعد ذلك بأرطبون وهزمه.

حصن بابليون:

وتقدم إلى حصن بابليون، حيث تعتصم قوات الروم بقيادة ثيودورس و رئاسة المقوقس، الذي عينه الروم بطريقاً على الأسكندرية ووالياً على مصر، وعسكر المسلمون في عين شمس (هيلوبوليس)، وجاءهم مدد الخليفة بقيادة الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت، فتقدموا إلى حصن بابليون وحاصروه، وطال الحصار لمناعته، وكان الروم يخرجون منه فيقاتلون ويعودون، ثم غلبهم المسلمون خارجه، وفر ثيودورس إلى الأسكندرية، واحتفى المقوقس بالحصون، وبعد حصار سبعة أشهر فافوض المسلمين على الصلح على الجزية للقبط والخيار للروم، وخلال حصار بابليون تمكن عمرو بن العاص من الاستيلاء على الفيوم وجنوب الدلتا، كما استولى على أم دين إحدى مسالح الروم المهمة.

وبعد سقوط حصن بابليون فتح الطريق أمام المسلمين للاستيلاء على مصر السفلى، حيث لم يلقوا مقاومة عنيفة، كما اتجهوا نحو الأسكندرية في الشمال، والأسكندرية حصينة كما أن موقعها البحري يمكن الروم من إيصال الأمداد إليها بحراً، وقد لقي الجيش الإسلامي في طريقه إليها مقاومة من الروم حتى وصل إليها، ودافع الروم عنها وضربوا المسلمين بالمجانيق، وطال حصارها،

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ١١٨ - ١٢٠، وبتلر: فتح العرب لمصر ١٩١.

وكان الإمبراطور هرقل قد عزل المقوقس عن مصر، ونفاه على إثر مصالحته المسلمين في بابلين، ومات هرقل فرجع المقوقس إلى ولايته على مصر، فرأى الإسكندرية محاصرة، فصالح المسلمين عليها، على الجزية لمن شاء البقاء، ولا يمنع من يريد الالتحاق بالروم. وهكذا سيطر المسلمون على الإسكندرية، وبدأوا بإنشاء الفسطاط، وحفر قناة بين النيل والبحر الأحمر، ثم اتجه عمرو بن العاص نحو الغرب، ففتح برقة صلحا سنة ٢١ هـ، وفتح طرابلس عنوة سنة ٢٢ هـ.

ويمكن أن نلاحظ أن موقف الروم في مصر يتميز بالمقاومة العنيفة، لأن المسلمين يسلبونهم سلطاتهم، ومنهم من سالم رغبة في الاستفادة من المسلمين، كالمقوقس بعد أن نفّض يده من بيزنطة.

أما القبط فقد ساعدوا المسلمين بإصلاح الطرق وإقامة الجسور وإمدادهم بالمؤونة، وكان اضطهاد البيزنطيين لهم دينياً وإجحافهم لهم بالضرائب، وصورة الحرية الدينية التي أتاحها المسلمون لنصارى الشام تجعلهم يرحبون بالمسلمين^(١).

• في خلافة عثمان رضي الله عنه:

إعادة فتح الأسكندرية:

عزل عثمان رضي الله عنه عمرو بن العاص عن مصر وولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٧ هـ، فثارت الإسكندرية على المسلمين، وأرسل الإمبراطور قسطنطين أسطولاً حربياً بقيادة منويل الخصي الأرمني، فاحتل الإسكندرية وتقدم في الأرض المصرية، فأعاد عثمان عمرو بن العاص على قيادة الجيش، فتمكن من طرد الروم واحتلال الإسكندرية ثانية وهدم أسوارها^(٢).

(١) الطبري: تاريخ ٤: ١٠٤، وشكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ١٣٧ - ١٤٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢٥٧ - ٢٦٣.

السودان:

وقد توجه عقبة بن نافع الفهري إلى بلاد النوبة (السودان)، لكنه لم يتمكن من التوغل فيها، ثم صالحهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وتبادل معهم الهدايا. أفريقية:

وقد أرسل عبدالله بن سعد بن أبي سرح يستأذن عثمان بغزو أفريقية (تونس)، فأرسل عثمان جيشاً من المدينة فيه أعيان الصحابة، وتولى قيادته ابن أبي سرح أولاً، ثم ولي عليه الزبير بن العوام، فتمكن من إحراز النصر على جرجير^(١) ملك أفريقية، وأحرز غنائم وعاد، فلم تكن غزوته فتحاً منظماً^(٢). وكان البربر بأفريقية والمغرب تحت ملك الفرنجة، ويدينون بالنصرانية^(٣).

ذات الصواري:

وقد اهتم المسلمون ببناء الأسطول البحري، مستفيدين من خبرة سكان الإسكندرية، وتمكن الأسطول الإسلامي من إحراز نصر على أسطول الروم في موقعة ذات الصواري في البحر المتوسط على مقربة من الإسكندرية سنة ٣٤ هـ. وقد استولى المسلمون على بعض سفن الروم فأضافوها إلى أسطولهم^(٤).

الجيش ونظام القتال:

لم يظهر الجيش النظامي في عصر الخلافة الراشدة بالصفة التي نجدها في الدولة العباسية، بل كانت الأمة كلها مقاتلة حين تدعى إلى الجهاد، حيث

(١) هو جرجوريوس القائد من الإفرنج الذين غلبوا على إفريقية بعد انحسار نفوذ الروم، وقد اتخذ من سبيلة عاصمة له لمناعتها بدلاً من قرطاجنة، وكان في البدء نائباً عن بيزنطة، ثم استقل عنها (حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٩٦ هامش رقم ٢، والزواوي: تأريخ الفتح العربي في ليبيا ٢٤، والسلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١: ٧٥).

(٢) الطبري: تأريخ ٤: ٢٥٣ - ٢٥٦، والبلاذري: فتوح ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٣) سعد زغلول: تأريخ المغرب ١ - ١٢٦.

(٤) الطبري: تأريخ ٤: ٢٨٨، ٢٩٠ - ٢٩٢.

كان كل قادر على حمل السلاح ومسجل في ديوان العطاء يهب للانخراط في الحملة العسكرية^(١). لذلك لم تكن التدريبات اليومية تحت إشراف الدولة، وإنما اعتمدت جيوش الفتح على المتطوعين، الذين كانوا يتدربون بأنفسهم على السباحة والرماية والمبارزة والفروسية بصورة مستمرة، استعداداً للجهاد مما وفر للدولة أعداداً كبيرة من الرجال القادرين على القتال العارفين بأساليبه وفنونه في ذلك العصر.

«لقد أرسى الرسول القائد ﷺ القواعد العسكرية الإسلامية، ووضع تعاليمها النظرية والتطبيقية، وحذا الخلفاء الراشدون حذوه في تطبيق هذه التعاليم، ولذلك استطاعوا تحقيق أكبر الانتصارات على أقوى جيوش فارس والروم، وفتحوا البلدان في وقت قياسي قصير»^(٢).

وكانت القبيلة هي الوحدة العسكرية في ميدان القتال، كما كانت أساساً للتنظيم الاجتماعي والإداري في الأمصار^(٣). وبرغم أن الروابط القبلية ظلت فاعلة في علاقات القبائل ببعضها وبال الدولة، وكانت الدولة تحسب لها حساباً، إلا أن تغلغل الإسلام في المجتمع وقوة العقيدة الإسلامية في النفوس أدى إلى إضعاف الروح القبلية شيئاً فشيئاً، فظهرت معايير جديدة وروابط جديدة على أساس المساواة والتقوى بصرف النظر عن الأصل، كما أن ظهور الفرق العديدة التي كانت تجمع أناساً من أوساط مختلفة وقبائل متباينة ساعد على إيجاد روابط فكرية وسياسية ودينية على حساب الروابط القبلية القديمة^(٤).

(١) فاروق عمر فوزي: النظم العسكرية، نشأة الجيش النظامي في الإسلام ٢: ٢٢٩. (وقائع ندوة النظم الإسلامية، أبو ظبي ١٤٠٥ هـ).

(٢) المرجع السابق ٢: ٢٣٥.

(٣) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ٣٨ - ٤٠.

(٤) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ١٣٧، وفاروق عمر فوزي: النظم العسكرية ٢: ٢٣٩.

وكذلك فإن استقرار - العرب في الأمصار أدى إلى امتزاج القبائل وتداخلها اجتماعياً بالزواج واقتصادياً بوحدة مصالح المصير، وكانت الروابط الاجتماعية والاقتصادية الجديدة تقوى على مر الزمن على حساب الروابط القبلية.

وكان الجيش عربياً في البدء، ثم استسلمت أعداد من قوات الفرس والروم، ودخلت في الإسلام، ورغبت في الالتحاق بالقوات الإسلامية.

وقد عاملتهم الدولة الإسلامية بمرونة، فألحقتهم بقواتها مع احتفاظهم باستقلال وحداتهم وفرقهم، وسمح لهم - إذا رغبوا - بالتحالف والارتباط بالقبائل العربية، كما أدخلوا ديوان العطاء، ومن هؤلاء «الحمراء» من الروم، و«الأبناء» من أهل صنعاء، و«الديلمة» و«القيقانية» و«الأساورة» من الفرس^(١).

وقد عرف الجيش الإسلامي عدة رتب عسكرية، تتمثل في أمير الجيش ونائبه وأمراء الكراديس وأمراء التعبئة والنقباء والعرفاء^(٢)، وكان الجيش يرفع لواءً أبيض ورايةً سوداء^(٣) كما كان عليه الأمر في عهد النبوة^(٤). وكان المقاتلون فرساناً ومشاة، وكانت الدولة حريصة على تربية الخيل لأغراض الجهاد، كما كانت تحثُّ الناس على تربيتها، وتقيم لها السباقات، وتحدد لها الحمى. ويعطى الفارس من الغنيمة سهمان وللراجل سهم واحد^(٥).

وكانت التعبئة العربية تعتمد على نظام الصفوف ونظام الكراديس ونظام الخميس، فكان الجيش يقسم إلى خمسة أقسام: الميمنة، والميسرة - ويطلق عليها

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٦٦ - ٣٧٩، وابن عبدالحكم: فتوح مصر ١٢٩، وصالح العلي: التنظيمات ٥٩، وفاروق عمر: النظم العسكرية ٢: ٢٤٢.

(٢) محمد فرج: المدرسة العسكرية ٤٢٥، وعبدالعزیز السلومي: ديوان الجند ٢٩٤.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١٣٢ - ١٣٣، والطبري: تأريخ ٤: ٥١٤.

(٤) ابن حجر: فتح الباري ٦: ١٢٦. وتسمى الراية «العقاب».

(٥) عبدالعزیز السلومي: ديوان الجند ٣٤٣ - ٣٤٦.

الجناحان -، والقلب، والساقة، والمؤخرة. وكل قسم يضم عدة كراديس، ويتألف كل كردوس من ألف مقاتل، وله قائده وحاشيته وراياته. وبين كل كردوس وآخر فسحة من الأرض مناسبة تسمح لها بحرية الحركة والقتال. وكانت الدولة تمون الجيش بما يلزمه من الطعام والسلاح والخيول والجمال^(١).



(١) عبدالعزيز السلومي: ديوان الجند ٣٦٢ - ٣٨٠.

البَّائِبُ السَّائِسُ

الفتن الداخلية

إِلْفَضْلِكُ الْأَوَّلِ

الرَّدَّة

تمهيد

انتشار الإسلام خارج المدينة^(١)

لم يقتصر انتشار الإسلام على أهل المدينة، فقبل قيام الدولة فيها قام بعض المسلمين من خارج مكة بتبليغ الدعوة إلى قبائلهم، كما فعل أبو ذر الغفاري مع قبيلته غفار، والطفيل بن عمرو الدوسي مع قبيلة دوس من أزد اليمن.

ولما قامت دولة الإسلام بالمدينة اهتمت بإرسال الدعاة إلى البوادي لدعوة القبائل برغم الأخطار التي كان تحديق بالوفود، كما حدث في الرجيع وبئر معونة، كما أن الرسائل الدعوية التي وجهها النبي ﷺ في العام السادس بعد الحديبية إلى الملوك والأمراء شملت عدداً من حكام المناطق العربية في البحرين وبصرى.

وكانت «أول جمعة جمعت - بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ - في مسجد عبدالقيس بجواثي من البحرين»^(٢).

وقد دخلت مكة في الإسلام عام ٨ هـ بعد فتحها، وأسلم أهل الطائف عام ٩ هـ، وقد شكل محور المدينة - مكة - الطائف مركز الثقل الإسلامي في حروب الردة. وكان يضم الأنصار والمهاجرين وبقية قريش وثقيف ومزينة وغفار وجهينة وبلي وأشجع وأسلم وكعب، وفي نجد ثبت على الإسلام طوائف من بني سليم وطيء وهذيل وقيم - ثبت منها على الإسلام في حركة الردة عدد من بطونها، هم عوف والأبناء والرباب وبهوى، وارتد بنو حنظلة ومقاعس والبطون^(٣) - وعبس وذبيان وقضاعة وكلب وأسد وغطفان^(٤) وهوازن وعامر^(٥)، وهذه الطوائف وقفت ضد المرتدين، وتعرضت للقتل أو الأذى.

(١) راجع صالح العلي: الدولة في عهد الرسول ﷺ، المجلد الثاني منه، ومهدي رزق الله أحمد: الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجمعة باب ١١ (فتح الباري ٢: ٣٧٩).

(٣) الطبري: تأريخ: ٢٦٨، ٢٦٩.

(٤) الكلاعي: حروب الردة ٤١، ٤٢، ٤٩، ٥١، ٦٧، ٦٩. والطبري: تأريخ: ٢٤٢، ٢٤٣.

وابن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح ١: ٧.

(٥) الطبري: تأريخ: ٦٤.

وهكذا انقسمت القبائل على نفسها بسبب الولاء للإسلام والارتداد عنه. كما امتد الإسلام في شمال شبه الجزيرة العربية فأسلم بنو شيبان وبنو عذرة في عصر السيرة^(١).

وأرسل النبي ﷺ الأمراء والدعاة إلى اليمن مثل معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب، ثم أرسل أبا موسى الأشعري فكان على الأشعرين^(٢) بزييد ورمع وعدن والساحل. وقد واجهوا الوثنية في معظم قبائل اليمن، كما واجهوا النصرانية التي تدين بها بنو الحارث بن كعب، واليهودية التي يدين بها حمير وكثير من كندة^(٣). وقد أثمرت جهودهم، فأسلم ملوك حمير، شرحبيل والحارث ابني عبد كلال ونعيم بن عبد كلال قيل ذي رعين^(٤).

وأسلم باذان حاكم صنعاء من قبل الفرس، وأسلم معه الأبناء^(٥)، وأرسلت اليمن وفودها عام ٩ هـ، منهم وفد كندة، ووفد الأشعرين، ووفد همدان، ووفد دوس^(٦)، مما يدل على انتشار الإسلام في اليمن، وقد كان لثبات قبائل ذي مران وذي الكلاع وذي ظليم وبجيلة وزبيد والنخع وجعفي والأبناء والسكون والسكاسك على الإسلام أثره في إحباط ردة الأسود. وكان في القبائل المرتدة مثل بني عقيل بن ربيعة وعك وخثعم طوائف من المسلمين ثبتت على الإسلام،

(١) ابن أعثم: كتاب الفتوح ٤٥ وابن حجر في الإصابة ٣: ٤٣٨.

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٨: ٦١).

(٣) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٤٩١.

(٤) ابن سعد الطبقات ١: ٢٦٥، ٢٨٢، ٣٥٦ وابن هشام السيرة النبوية ٢: ٥٨٨ - ٥٩٠، والبلاذري فتوح البلدان ٩٥.

(٥) الطبري تأريخ ٢: ٦٥٥ والبيهقي دلائل النبوة ٢: ٤٥٢.

(٦) أحمد: المسند ٣: ١٠٥ بإسناد صحيح، و ١٥٥ بإسناد فيه ضعف من جهة يحيى الغافقي، و ٢١١، ٢١٢ حديثين بمتن واحد، تفرد بهما مسلم بن هيصم العبدي مقبول، فيحتاج إلى متابعة، والبخاري: الصحيح (فتح الباري ٨: ٩٦ - ١٠٠)، والبيهقي: السنن الكبرى ٢: ٣٦٩ بإسناد قال البيهقي: إنه على شرط البخاري، وليس كما قال، فإن فيه أبا عبيدة بن أبي السفر صدوق يهيم، وليس من رجال البخاري ولا مثلهم.

ووقفت ضد الأسود العنسي، بل إن قبيلة مذحج التي ينتسب الأسود إليها ثبت عدد كبير من رجالها على الإسلام، وحاربوا الأسود، لكن جهال القبيلة كانوا معه^(١).

أما في حضرموت فقد انتشر الإسلام في طوائف من قبيلة كندة، إلا أن حركة الردة وجدت أنصاراً كثيرين لها في أوساط هذه القبيلة، مما يدل على الانقسام داخل كندة^(٢). ولكن بقيت قبائل نجران على نصرانيتها^(٣). وخضعت للدولة الإسلامية، وحافظت على علاقاتها معها خلال أحداث ردة الأسود العنسي^(٤)، وكان عمرو بن حزم والياً على نجران.

وانتشر الإسلام في اليمامة، وقد ثبت الكثيرون من المسلمين أمام حركة الردة التي قادها مسيلمة، وكان في بني حنيفة - قبيلة مسيلمة - عدد كبير من المسلمين، وقد قاوموا مسيلمة بقيادة ثمامة بن أثال الحنفي^(٥)، وقد انتشر الإسلام في عمان والبحرين في بني جديد وبني ناجية وبني عبد القيس وكعب ابن ربيعة^(٦)، ولم ينتشر الإسلام في قبيلة ربيعة بنطاق واسع، يكشف عن ذلك مسارعته إلى الردة^(٧)، وانتشر الإسلام في أوساط قبائل مهرة وخاصة

(١) ابن سعد: الطبقات ٥: ٥٢٥ - ٥٢٦، والطبري: تاريخ ٣: ٢٢٩، ٢٣٠، ٣٢٧، والكلاعي: حروب الردة ٩٠، ٢١٦، ٢٢٠.

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٣٣٩ - ٣٤٢، والكلاعي: حروب الردة ٢٢٣، ٢٢٦ - ٢٢٩، وابن أعثم: الفتوح ١: ٥٧.

(٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٨: ١٠١).

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ٤: ٥٩٤، وخليفة بن خياط: تاريخ ٩٤.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٥: ٥٥٠ - ٥٥١، والكلاعي: حروب الردة ١١٦، ١١٧، والطبري: تاريخ ٣: ٢٧٢.

(٦) خليفة: تاريخ ١١٦، والطبري: تاريخ ٣: ٣١٥ - ٣١٦، والكلاعي: حروب الردة ١٩٤، ٢٠٨ - ٢١٠، وابن أعثم: الفتوح ١: ٤٥، ٤٧، وابن كثير: البداية والنهاية ٦: ٣٧٢، وابن حجر: الإصابة ١: ٤٢٣ - ٤٢٤ و ٢: ١٠٣.

(٧) الكلاعي: حروب الردة ٢٩٦.

أهل النجد، وأهل رياض الروضة، وأهل الساحل، وأهل الجزائر، وأهل المر واللبان، وأهل جيروت، وظهور الشحر والصبرات وينعب وذات الخيم، وبعض بني محارب^(١).

الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ

حركات الردة

يعد تأريخ الطبري أهم مصادر حركة الردة، فمجموع الروايات التي أوردها عن حركة الردة يبلغ ١٠٤ رواية، معظمها من طريق سيف بن عمر التميمي (٧٣ رواية)، يليه ابن إسحاق (١٤ رواية). ثم أبو مخنف (٥ روايات)، ثم هشام الكلبي (٤ روايات)، ثم المدائني (٣ روايات)^(٢). وهذه الأرقام قد تؤدي إلى لبس حول حقيقة اهتمام الإخباريين المذكورين بأحداث الردة، فقد تكون رواية الطبري عنهم بصورة محدودة ترجع إلى فقدان مؤلفاتهم مبكراً، أو عدم وقوفه عليها، أو عدم وثوقه بها، وقد سمت المصادر لأبي مخنف كتاب الردة، وهشام الكلبي كتاب مسيلمة الكذاب وسجاح وللواقدي كتاب الردة، وللمدائني كتاب الردة^(٣).

وعلى أي حال، فإن المصادر اللاحقة أمدتنا بمعلومات واسعة، مصدرها هؤلاء الإخباريون أنفسهم. حيث خصص الكلاعي^(٤) (ت ٦٣٤ هـ) قسماً

(١) الطبري: تأريخ ٣: ٣١٧، ٣٢٧.

(٢) عبدالعزيز محمد نور ولي: حركة الردة في اليمن وحضر موت وعمان في خلافة أبي بكر الصديق ص ١٠.

(٣) عبدالعزيز محمد نور ولي: حركة الردة ١١٦ - ١١٩.

(٤) أبو الربيع سليمان بن موسى من أئمة الحديث في عصره (الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣: ١٣٤).

كبيراً من كتابه «الاكتفا في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء» لحروب الردة^(١). وهو ينقل عن ابن إسحاق وله تأريخ الخلفاء، والواقدي وله كتاب الردة، وهما مفقودان، ويحتمل أن نقله عنهما بواسطة شيخه ابن حبيش^(٢) (ت ٥٨٤ هـ)، الذي اعتمد عليهما كثيراً في كتابه «الغزوات الضامنة الكاملة».

وتزداد أهمية كتابي ابن حبيش والكلاعي بسبب إيرادهما روايات يعقوب الزهري ووثيمة، والأخير عرف بكتابه عن الردة وهو مفقود^(٣). ويورد خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) (٤٢ رواية) تتعلق بالردة، معظمها من طريق ابن إسحاق (١٩ رواية)، والمدائني (١٦ رواية)، ومعظم الروايات تتعلق بردة بني حنيفة. ولا بد من ذكر مصدر آخر مبكر هو فتوح البلدان للبلاذري (ت ٢٧٥ هـ)، حيث نقل عن الإخباريين (٨ روايات)، واستعمل عبارة «قالوا» في بقية الروايات (١١ رواية).

إن الردة عن الإسلام في عصر الرسالة حركة واسعة جرت في أوساط القبائل العربية الكبيرة، وهي قبيلة أسد وتزعمهم طليحة بن خويلد الأسدي، وبنو حنيفة وتزعمهم مسيلمة بن حبيب، وقبائل عنس ومراد وسعد العشيرة - وكلهم من مذحج - وتزعمهم الأسود العنسي. وتنفرد ردة بني أسد بقرها الجغرافي من عاصمة الإسلام «المدينة»، مما يشكل خطراً كبيراً على الدولة الناشئة. أما ردة بني حنيفة في اليمامة وردة مذحج وديارها منتشرة في شمال شرق وجنوب شرق ووسط وغرب اليمن، فتبدو خطورتها بسبب الكثافة السكانية، حيث يمكن تقديم الألوف العديدة من المقاتلين بالإضافة إلى الإمكانيات الاقتصادية في المنطقتين، بسبب التناج الزراعي الواسع، فضلاً عن النشاط التجاري والصناعي.

(١) نشره د. أحمد غنيم.

(٢) عبدالرحمن بن محمد بن حبيش الأندلسي، له كتاب المغازي (الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١: ١١٨).

(٣) جمع المستشرق الألماني ولهم هونرباخ ونشرت مبيضة - ١٩٥١ م.

وترجع عوامل الردة إلى عدم تغلغل الإيمان في القلوب، لتأخر إسلامهم وبسبب قصر الزمن الذي تم فيه تبليغ الدعوة، وطبيعة الأعراب المتسمة بالجفاء مع ضعف المستوى الثقافي مما جر إلى ضعف فقه تعاليم الدين، وخاصة بالنسبة للزكاة التي اعتبرها البعض ضريبة مهينة، واستثقلوا الصلاة والعبادات الأخرى، كما أن العصبية القبلية مازالت عميقة في تلك البلاد النائية ووسط نجد، حيث ترى القبائل أنها أضخم عدداً وعدداً من قريش، ومن ثم فهي أولى بالزعامة، وعلى الأقل لم تكن ترضى بالخضوع لحكم قريش. وقد ظهر زعماء طموحون تطلعوا إلى القيادة مقلدين الرسول ﷺ في أسلوب العمل والدعوة، ولم ينتبهوا إلى الفروق الكبيرة بين النبوة الصادقة وانتحالها لأغراض شخصية. ومن هنا كان ادعاء النبوة من قبل زعماء الحركات الانشقاقية.

ولا تقدم كتب الحديث النبوي معلومات مفصلة عن حركة الردة، بل تقتصر على إثبات وقوع الردة، وامتناع بعض القبائل عن دفع الزكاة، وما دار من نقاش بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حول قتال مانعي الزكاة، قال عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله؟». فقال أبو بكر: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها». قال عمر: «فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرع صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق»^(١). وذكر وقوع ردة مسيلمة وردة الأسود العنسي، وإخبار النبي ﷺ بظهور ثلاثين كذاباً من مدعي النبوة

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٢: ٢٧٥)، ومسلم: الصحيح حديث رقم ٢٠، ومالك: الموطأ ١: ٢٦٩، وأبو داود: السنن ٢: ١٩٨، والترمذي: السنن ٥: ٣، والنسائي: السنن ٥: ١٤.

منهم الأسود ومسيلمة^(١)، وقدم مسيلمة المدينة في بشر كثير من قومه^(٢) واشترطه حتى يسلم أن يكون الأمر له بعد الرسول ﷺ، وإجابة الرسول ﷺ له وفي يده قطعة جريد: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها، ولن تعدوا أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك^(٣) الله، وإني لأراك الذي أريت فيك مارأيت^(٤)».

وحديث رؤيا الرسول ﷺ: «بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأوحى إليّ في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان، فكان أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة»^(٥). وقتل مسيلمة على يد وحشي الذي يروي الخبر: «فخرج مسيلمة الكذاب، قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلّي أقتله فأكافئ به حمزة، قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائم في ثلثة جدار، كأنه جمل أورق نائر الرأس، قال: فرميت به حربتي، فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه. قال: ووثب رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته». قال ابن عمر: «فقالت جارية على ظهر بيت: وا أمير المؤمنين، قتله العبد الأسود»^(٦). وذكر أنس عدد شهداء الأنصار باليمامة وأنهم سبعون^(٧).

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٦: ٦١٦) ويبدو أنه قال ذلك بعد أن كثر الكلام عن مسيلمة بالمدينة (أحمد: المسند ٥: ٤٦).

(٢) ذكر الواقدي أنهم سبعة عشر نفساً (ابن حجر: فتح الباري ٨: ٩٠).
(٣) يعقرنك: يهلكك.

(٤) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٦: ٦٢٧، ٨: ٨٩، ٩٢ و ١٢: ٤٢٠ و ١٣: ٤٤٢). ومسلم: الصحيح ٤: ١٧٨٠ - ١٧٨١. والترمذي: الجامع ٤: ٥٤٢. وأحمد: المسند ١: ٢٦٣ و ٣: ٣٤٥ و ٦: ٣٤٤.

(٥) المصادر السابقة.

(٦) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٣٦٨)، وأحمد: المسند ٣: ٥٠١، ويذكر ابن أبي شيبة أن عبدالله بن زيد الأنصاري هو الذي قتل مسيلمة (المصنف ١٢: ٥٤٧).

(٧) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٣٧٤).

ووصف أبو رجاء العطاردي التميمي أحوال قومه الدينية، وأنهم كانوا يعبدون الحجر، فإذا وجدوا أحسن منه ألقوه، وقد يصنعونه من تراب ولبن، ثم يطوفون به، وأنهم ينزعون الحديد من السلاح في شهر رجب إشارة إلى ترك القتال في الأشهر الحُرُم^(١). وأن قومه لما بلغهم ظهور الإسلام التحقوا بمسيلمة وهو معهم^(٢).

وتذكر رواية أن عبدالله بن مسعود في إمارته على الكوفة أول خلافة عثمان رضي الله عنه استتاب أتباعاً لمسيلمة من بني حنيفة، كانوا لا يزالون على إيمانهم به، وأنه قتل منهم ابن النواحة فقط، وكان رسولا لمسيلمة في عهد النبوة، وامتنع النبي ﷺ عن قتله «لأن الرسل لا تقتل»، فلما ظفر به عبدالله بن مسعود هذه المرة قتله^(٣). وكانوا ثمانين رجلاً، ومعهم مصحف فيه قراءة مسيلمة^(٤). وخبر هزيمة بني أسد أمام خالد بن الوليد يوم بزاخة^(٥).

وتشير روايات عديدة إلى بطولات ثابت بن قيس بن شماس يوم اليمامة، والبراء بن عازب قاتل الطفيل محكم اليمامة، «وكان عظيماً جسيماً». وأن شعار المسلمين كان: «يا أصحاب سورة البقرة»، وصيام بعض المقاتلين المسلمين

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٨: ٩٠).

(٢) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٨: ٩٠).

(٣) أبو داود: السنن ٣: ٨٤ (ط. محيي الدين عبد الحميد)، والخبر فيه عن عنة أبي إسحاق السبيعي، وهو يخالف رواية مسند أحمد، لأن الذي اطلع على حال أتباع مسيلمة هو حارثة بن مضرب فأبلغ عنهم وليس ابن معيز كما هو في رواية أحمد، وفي سند أبي داود محمد بن كثير فإن كان الثقفى فهو صدوق كثير الغلط، وإن كان العبدى فهو ثقة، وأبو داود يروي عن الاثنين، وهما يرويان عن الثوري.. وأحمد: المسند ١: ٣٩١، ٣٩٦، ٤٠٤، ٤٠٦ و ٤٨٨: ٣ والحديث عند الإمام أحمد من طريق عبدالله بن معيز وهو تابعي مجهول الحال. وقد ذكر الحاكم النيسابوري بإسناد صحيح مسلسل بأبناء وأحفاد ابن مسعود (المستدرک ٣: ٥٣) والطحاوي: شرح معاني الآثار ٣: ٢١١.

(٤) الحاكم: المستدرک ٣: ٥٣ بإسناد صحيح.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنف ١٢: ٥٥.

خلال المعركة، وإجهاز الزبير بن العوام على بعض القتلى ممن بهم رمق. وسجود أبي بكر رضي الله عنه شكراً لله عند فتح اليمامة^(١). ومجيء بني أسد وغطفان يسألون أبا بكر الصلح، فخيرهم إما حرب مجلية وإما سلم مخزية ومبيناً لهم أن ذلك يعني: «تدون قتلاتنا ولا ندي قتلاكُم، وتشهدون على قتلاكُم أنهم في النار، وتردون إلينا من أخذتم منا، ولا نرد إليكم ما أخذنا منكم، وننزع منكم الحلقة والكراع - أي السلاح والخيل - وتتركون تتبعون أذئاب الإبل، حتى يري الله خليفة رسول الله والمؤمنين رأياً يعذرونكم عليه. فقال عمر: أما ما قلت فكما قلت، لكن قتلاتنا قتلوا في الله، أجورهم على الله لا دية لهم»^(٢). وذكر ردة بني سليم، وجمع خالد بن الوليد لناس منهم في حظيرة حرقها عليهم بالنار، واقتراح عمر عزله، ورفض أبي بكر: والله لا أشيم سيفاً سلَّه الله على عدوه.. وأمره فمضى من وجهه ذلك إلى مسيلمة...^(٣).

مراكز المرتدين

اليمن:

كانت اليمن تابعة اسمياً للإمبراطورية الساسانية، وكان قد أصبح للساسانيين نفوذ في اليمن منذ أن استعان بهم سيف بن ذي يزن لطرده الأحباش، فلما توفي سيف أصبح قائد الحامية الفارسية أميراً على اليمن، وتزوج الفرس من أهل اليمن وسمي أولادهم بالأبناء. ولكن نفوذ الحاكم الفارسي كان محصوراً بصنعاء وما حولها. في حين يتقسم بقية البلاد الأذواء والأمراء المحليون ورؤساء العشائر، وهم في نزاع مستمر، وخاصة القبائل الكبيرة أزد شنوءة (بنو الحارث

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ١٢: ٥٤٧ - ٥٥٢.

(٢) سعيد بن منصور: السنن ٢: ٣٣٣ وبعضه في صحيح البخاري (فتح الباري ١٢: ٢٠٦)، وفيه إبراهيم بن بشار الرمادي حافظ له أوهام (التقريب ١٥٥).

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف ١٢: ٥٥٠.

والنخع وبجيلة وختعم وعك والأشاعرة)، وتسكن عند الساحل، ومذحج وهمدان، وتسكن الهضبة في الداخل.

وكان خروج الأسود العنسي - على الصحيح - قبل حجة الوداع في العام العاشر^(١)، وكانت أول ردة في الإسلام، ودامت أربعة أشهر^(٢) • وقد فصل سيف بن عمر أخبارها، معتمداً على شهود عيان، مثل فيروز الديلمي وجشيش الديلمي. وينتسب الأسود إلى عنس من مذحج، التي تعد أكبر القبائل اليمنية، وكان من كهف خبان قرب نجران^(٣)، وعرف بذي الخمار وبرحم اليمن، وكان كاهناً، وادعى النبوة، وأيدته بعض قبائل مذحج، واحتل نجران ثم صنعاء، حيث قتل واليها شهر بن باذام، وتظاهر زعماء الأبناء بالانضمام إليه.

وقد اضطر معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري وأتباعهما إلى الانسحاب إلى حضر موت، كما أخرج أهل نجران عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص حيث عادا إلى المدينة. وأخرج قيس بن المكشوح أحد قادة قبيلة مراد عامل المسلمين فروة بن مسيك، وانضم قيس بن المكشوح إلى الأسود العنسي، كما انضم إليه عمرو بن معديكرب الزبيدي أحد زعماء مذحج. وانسحب من بقي على الإسلام من أهل اليمن مع الولاة المسلمين.

وتكمن قوة الأسود في ضخامة جسمه وقوته وشجاعته، واستخدم الكهانة والسحر، والخطابة البليغة «كان الأسود كاهناً شعباداً، وكان يريهم الأعاجيب، ويسبي قلوب من سمع منطقه^(٤)»، كما استخدم الأموال للتأثير على الناس. ومثل هذه الصفات تجعله مشهوراً في قومه، ويبدو أن انتشار الإسلام كان يضعف مركزه، لأن الإسلام يحرم الكهانة، ويمنع الناس من استشارة الكهان.

(١) البخاري: الصحيح، كتاب المغازي باب ٧٠، ومسلم: الصحيح حديث رقم ٢٢٧٢.

(٢) الطبري: تاريخ ٣: ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٣) ابن حبيش: المغازي ٤٠، والكلاعي: حروب الردة ٢١٣.

(٤) الطبري: تاريخ ٣: ١٨٥.

وقد أثار الأسود موضوع أخذ الزكاة من اليمن، فكتب إلى العمال المسلمين في مناطق اليمن «أيها المستوردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه»^(١). وقد طلب النبي ﷺ من المسلمين المجتمعين في نجران وحضر موت أن يقاوموا الأسود، وقد أفاد معاذ بن جبل من الانشقاق في حركة الأسود، حيث إن الأبناء لم يكونوا مخلصين له، وكذلك قيس ابن المكشوح فتمكنوا من قتله في قصره، وإعلان العودة إلى الإسلام^(٢).

ردة اليمامة:

تقع اليمامة في شرقي الجزيرة العربية، وهي واد خصب تتوافر فيه المياه الغزيرة، وتزرع فيه الحنطة والشعير والذرة والنخيل، وتقوم فيه القرى حيث يستقر فيها بعض السكان، الذين ينتمي معظمهم إلى بني حنيفة، وبعضهم ينتمي إلى بني بكر أو إلى بني تميم، وخاصة شمال اليمامة، وقد قامت فيها صناعة السيوف والنصال.

وكان في قطر مركز مطرنة للمبشرين النصارى النساطرة، الذين أقصاهم البيزنطيون، فاحتتموا بالساسانيين ومن فارس مدوا دعايتهم إلى اليمامة^(٣). وقد دخلت بنو حنيفة في الإسلام، وقدم وفدها إلى النبي ﷺ في المدينة في العام التاسع للهجرة ومنهم مسيلمة بن حبيب، وقد أعلن مسيلمة نبوته في حياة الرسول ﷺ، ولعله فعل ذلك بعد عودته من الوفد، وكان قد تعاضم نفوذه بعد وفاة هودبة بن علي زعيم اليمامة عقب فتح مكة^(٤).

(١) الطبري: تأريخ ٣: ٢٢٩.

(٢) عبدالعزيز نور ولي: حركة الردة ١٨٢ - ٢٠٧.

(٣) إحسان صدقي العمدة: حركة مسيلمة الحنفي ص ٣١ - ٣٢ (بحث في حوليات كلية الآداب،

جامعة الكويت، الحولية العاشرة - ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨ م).

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ١: ١٠٥.

و ادعى أنه يوحى إليه، واتخذ له محراباً ومؤذناً اسمه حجير، وجعل الصلاة ثلاثة أوقات في اليوم في الصباح والظهر والعشاء^(١) وحدد النسل بابن واحد، ويروي الجاحظ أن مسيلمة كان قبل ادعاء النبوة يدور في أسواق العرب يتعلم الحيل والنيرنجات واختيارات النجوم والمتنبئين، حتى أحكم حيل السدنة والحواة وأصحاب الزجر والحظ ومذهب الكاهن العياف والساحر وصاحب الجن الذي يزعم أن معه تابعه^(٢). وقد نقلت المصادر عن مسيلمة ما ادعاه من آيات عارض بها القرآن، وأسلوبها ينم عن ركافة، ولعلها من وضع الإخباريين، لذلك من الصعب اعتمادها لمعرفة مبادئه العقدية^(٣). وقد التف حوله أكثر بني حنيفة، فمنهم من تبعه جهلاً وتصديقاً وهم العوام، ومنهم من تبعه عصبية وهم الخاصة، (ولكن كذاب ريعة أحب إلينا من صادق مضر).

وتعاضم أمره بعد قدوم الرّجال بن عنفة من المدينة إلى اليمامة، وكان الرّجال قد تعلم القرآن وتفقه بالدين، فلما رأى بني حنيفة يتابعون مسيلمة انسلخ من الإسلام، وأظهر تصديقه لمسيلمة، فكانت فتنته للناس أعظم من فتنة مسيلمة.

وراسل مسيلمة النبي ﷺ في أواخر العام العاشر بعد حجة الوداع قائلاً: «إني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض»^(٤)، ولما توفي الرسول ﷺ زاد نفوذ مسيلمة، وتحالف مع سجاح التميمية، وقيل: إنه تزوجها، لكن هذا التحالف لم يدم طويلاً، حيث انسحبت سجاح بقواتها من اليمامة بعد أخذ نصف خراجها^(٥).

(١) البلاذري: فتوح البلدان ١: ١١٨، وأبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢١: ٣٧، وابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية ٧٤.

(٢) الجاحظ: كتاب الحيوان ٤: ٣٦٩، ٣٧٠.

(٣) انظر عنها إحسان صدقي العمدة: حركة مسيلمة الحنفي ٣٦ - ٤٠.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ٦٠٠، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١: ٢٧٣. ويقصد بنصف الأرض أي نصف خراج اليمامة (إحسان صدقي العمدة: حركة مسيلمة الحنفي ٤٨).

(٥) الطبري: تأريخ ٣: ٢٧٢.

وقد أدرك أبو بكر الصديق رضي الله عنه خطر ردة بني حنيفة لقوتهم وكثرتهم ورخائهم واجتماعهم على مسيلمة.

ردة طليحة الأسدي:

كانت قبيلة غطفان التي تسكن شرقي خيبر تسيطر على شمال الحجاز بتحالفها مع قبيلة طيء ويهود خيبر، فلما سقطت خيبر سنة ٧ هـ بيد الرسول ﷺ، وأخذ الرسول ﷺ يوجه الحملات إلى الشمال، ضعف نفوذ غطفان، وحاول طليحة بن خويلد الأسدي أن يسيطر على شمال شبه الجزيرة عن طريق المحالفات بين قبيلة أسد وطيء وفزارة (وهي أهم فروع غطفان)، ثم ادعى النبوة في أواخر حياة الرسول ﷺ وأن ملكاً يدعى ذو النون يأتيه بالوحي، وروت التواريخ بعض الآيات ذات الأسلوب الركيك التي كان يقرأها. وقد سعى إلى مفاوضة الرسول ﷺ، وكان انشغال الرسول ﷺ عنه سبباً في تعاضم نفوذه، فلما كانت خلافة الصديق رضي الله عنه اجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة، وأرسلت وفداً إلى المدينة يطلب من الصديق أن يعفيهم من الزكاة، لكنه رفض وقال: «لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه»^(١) ولعله أدرك أن مطالب الأعراب لن تقف عند حد، كما أنه ليس بوسعه إعفاؤهم من أحد أركان الإسلام. وقد اطلع الوفد على ضعف القوة العسكرية في المدينة عقب خروج حملة أسامة، لذلك تجرأت هذه القبائل على غزو المدينة.

انتشار الردة:

أدت وفاة الرسول ﷺ إلى تهديد وحدة الدولة الإسلامية الناشئة، حيث توسعت حركة الردة في أنحاء الدولة ماعدا الحجاز، وكان أخطرها حركة مسيلمة الحنفي، لكن بعدها عن المدينة وقرب حركات الردة الأخرى التي

(١) الطبري: تأريخ ٣: ٢٤٤.

ابتدأت بوصول خبر وفاة النبي ﷺ إلى البوادي، فارتدت جموع غفيرة من بني أسد وغطفان وتميم والبحرين وعمان وحضر موت، كما تجددت الردة في اليمن.. وكانت وقفة الصديق رضي الله عنه أمام حركات الردة تتسم بالحزم وعدم التفريط بمصلحة العقيدة والدولة، فلم يتأخر في حشد الجيوش، ولم يقبل المساومة في أحكام الإسلام، ومحاولات بعض القبائل التخلص من دفع الزكاة. وكان عمر رضي الله عنه يحاول أن يقنعه بالترفق في معاملة مانعي الزكاة ليفرغ لأصحاب الردة الشاملة، ممن عادوا إلى عبادة الأوثان، أو اتبعوا أدعياء النبوة فرفض أبو بكر رضي الله عنه وجهة نظره بشدة، وأوضح للصحابة رضوان الله عليهم: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً - أي معزة - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»^(١). وكان أن انشرت صدور الصحابة رضوان الله عليهم للقتال، وعرفوا أنه الحق.

وهذا الوضوح في فهم ارتباط الأحكام الشرعية ببعضها، ورفض تعطيل أي حكم منها كان مهماً لقتال مانعي الزكاة بصورة خاصة، حيث تنقذ شبهة بقائهم على الإسلام، ومن ثم حصانة دمهم بالشهادة، وهذا ما عاجله الصديق رضي الله عنه بالبيان والحجة. ولو خضع لمساومات الأعراب فربما كانوا سيطالبونه بإسقاط أحكام والتزامات شرعية أخرى.. ولو أجابهم لأحسوا بضعفه وزاد طمعهم فيه..

وقد وصفت عائشة رضي الله عنها وضع الدولة وبناتها من الصحابة «كأنهم معزى في حش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة»، وهو تصوير دقيق لحالة الخطر القصوى لإحاطة الأعداء بهم من كل جانب، ووصفت أبا بكر رضي الله عنه وهو ممسك بزمام

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٢: ٢٧٥)، ومسلم: الصحيح ١: ٥١.

القيادة.. واضح الرؤية قوي العزيمة شديد المضاء صائب الرأي: «فوالله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بحظها وسانها»^(١).

ومن المؤسف أن ينفرد الإخباريون برسم صورة أحداث الردة في أرجاء الجزيرة دون مشاركة مهمة من المحدثين، مما يفقدنا القدرة على نقد أسانيد الروايات.. وتظهر مصادر المعلومات المحلية والقبلية..

والصورة التي نقدمها تبين أن حركات الردة كانت مختلفة في تصوراتها العقدية، فمنها ما كان استمراراً للحركات التي ظهرت في العام العاشر من العصر النبوي مثل ردة بني حنيفة - أحد فروع بكر بن وائل - في اليمامة بزعامة المتنبئ مسيلمة، ومنها ما كان مرتبطاً بأدعياء نبوة جدد كما هو شأن ردة بني أسد وفزارة المرتبطين بالمتنبئ طليحة بن خويلد الأسدي. وردة بني يربوع من تميم بزعامة المتنبئ سجاح، في حين التف آخرون منهم حول مالك بن نويرة، وكان قد امتنع عن دفع الزكاة لأبي بكر. وتحالف بنو عطار التميميون مع مسيلمة باليمامة..

وانقسمت على نفسها قبيلة سليم العدنانية في عالية نجد قرب خيبر، فمنهم من حافظ على إسلامه، ومنهم من ارتد، ويبدو أن قرب ديارها من المدينة ومشاركة الكثير من رجالها في فتوح مكة وحنين والطائف أدى إلى ثبات فروع منها أمام المرتدين الآخرين من رجالها.

وتحالفت فزارة - من فروع غطفان العدنانية - بنجد بزعامة عيينة بن حصن الفزاري مع طليحة الأسدي.

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ١٤: ٥٧٢ بإسناد صحيح، وابن كثير: البداية والنهاية ٦: ٣٠٩ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. وانظر الهيثمي: مجمع الزوائد ٩: ٥٠ عن الطبراني في الأوسط والصغير، وابن حجر: المطالب العالية ٤: ٣٩٠٦، وابن هشام: السيرة النبوية ٤: ٦٦٥، وخليفة: التاريخ ١٠٢. والألفاظ مختلفة ومؤداها واحد.

وارتدت فروع أخرى من بني بكر بن وائل بالبحرين بزعامه الحطم بن ضبيعة، وثبتت قبيلة عبد القيس على الإسلام بزعامه الجارود بن المعلى العبدي، لكن الغلبة في البحرين كانت للمرتدين قبل وصول القوات الإسلامية من المدينة.

وانقسمت الأزدي في عمان ودبا بين زعماء القبيلة، فمنهم من بقي على الإسلام بقيادة جيفر وعباد ابني الجلندي، ومنهم من اتبع المتنبئ ذي التاج لقيط بن مالك الأزدي، الذي غلب على عمان وطرد جيفر وعباد إلى الجبال والساحل.

وأما قبائل حضر موت وهم قبائل كندة والسكاسك والسكون، فقد حافظ بعضها على ولائه للإسلام، وبايع الوالي زياد بن لبيد البياضي، في حين التف البعض الآخر منهم حول الأشعث بن قيس الكندي، الذي امتنع عن دفع الزكاة. ولم تستقر الاضطرابات في حضر موت، إلا بعد قدوم الجيوش الإسلامية إليها.

وبرغم أن حركة الأسود العنسي تم القضاء عليها في عصر السيرة، إلا أن وفاة الرسول ﷺ أدت إلى انقسام خطير بين قبائلها.. فمنهم من التف حول الوالي فيروز - من الأبناء - ومنهم من خرج على سلطة الوالي مثل قيس بن عبد يغوث المكشوح، الطامح إلى الزعامة، الذي استعان بفلول حركة الأسود العنسي.

وهكذا توسعت حركات الردة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه في شمال الجزيرة وشرقها وجنوبها، حتى كادت أن تقضي على الدولة الإسلامية الفتية.

الملحق الثاني

القضاء على الردة

اعتمد أبو بكر رضي الله عنه على أهل المدينة ومكة والطائف وما حولها من قبائل في تجهيز الجيوش للقضاء على المرتدين، فضلاً عن مساندة من بقي على الإسلام في مراكز الردة.

ولاتوجد إشارة إلى أن أحداً من أهل المدينة فكر بالردة، وكذلك ثبت أهل مكة، وربما همّ بعضهم بالردة، فاختمى عتاب بن أسيد بن أبي العاص - عامل مكة - ووقف سهيل بن عمرو موقفاً مشرفاً، كان له أثره في تثبيت الناس على الإسلام، حيث خاطبهم بقوله: «إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه».

كذلك ثبت أهل الطائف على الإسلام، وربما همّ بعضهم بالردة، فخطب فيهم عثمان بن أبي العاص - عامل الطائف - فقال: «يا أبناء ثقيف كنتم آخر من أسلم، فلا تكونوا أول من ارتد».

ولعل الصلات الوثيقة بين مكة والطائف جعلت ثقيفاً تخلد إلى الهدوء، كما فعلت مكة.

إن سكان المدن الثلاثة نالوا حظاً من التربية الإسلامية والتوجيهات النبوية أكثر من سواهم، وتعرفوا على تعاليم الإسلام عن كثب، وتفقهوا فيه، لذلك كان سكان محور (المدينة - مكة - الطائف) هم القائمون على أمر الإسلام وحرب المرتدين، وساعدهم في ذلك من ثبت على دينه من المسلمين في مناطق الردة نفسها.

وكان أول صدام مع المرتدين في خلافة الصديق رضي الله عنه مع قبائل فزارة وأسد، التي استغلت غياب حملة أسامة عن المدينة، وحاولت غزو المدينة، وقد نظم أبو بكر رضي الله عنه حراسة المدينة، وألزم المسلمين بحضور الصلاة في المسجد النبوي استعداداً للطوارئ، ثم خرج بالمسلمين إلى ذي القصة (على بريد من المدينة من ناحية نجد) حيث صدَّ أول هجوم قامت به عبس وذبيان على المدينة بعد أكثر من شهر من خروج أسامة عن المدينة.

وبعد أيام قدم أسامة فاستخلفه أبو بكر رضي الله عنه على المدينة، وخرج لملاقاة عبس وذبيان بالربذة فهزمهم، ولما استراح جند أسامة عقد أبو بكر رضي الله عنه أحد عشر لواءً لقتال المرتدين، وأمر عليها الأمراء، وهم:

- ١ - خالد بن الوليد^(١)، ووجهه إلى طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد ثم إلى مالك بن نويرة في تميم.
- ٢ - عكرمة بن أبي جهل، إلى مسيلمة بن حبيب الكذاب في اليمامة، ففشل في مهمته، فأمره بالتوجه إلى عمان.
- ٣ - المهاجر بن أبي أمية، على اليمن للقضاء على قيس بن عبد يغوث (المكشوح)، ثم إلى حضرموت للقضاء على ردة كندة بقيادة الأشعث بن قيس.
- ٤ - خالد بن سعيد بن العاص، إلى مشارف الشام.
- ٥ - عمرو بن العاص، إلى قضاة.
- ٦ - حذيفة بن اليمان الغلفاني، إلى دبا.
- ٧ - عرفة بن هرة، إلى مهرة.
- ٨ - شرحبيل بن حسنة، لمساعدة عكرمة.

(١) حديث: «نعمي رسول الله ﷺ أهل مؤتة على المنبر، ثم قال: فأخذ الراية خالد بن الوليد وهو سيف من سيوف الله». أخرجه الحاكم: ٣: ٢٩٨ وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: لم يسمع أيوب - وهو السخيتاني - من أنس - وهو ابن مالك الصحابي - لكنه رآه.

٩ - طريفة بن حاجر، إلى بني سليم.

١٠ - سويد بن مقرن، إلى تهامة اليمن.

١١ - العلاء بن الحضرمي، إلى البحرين^(١).

وأرسل أبو بكر رضي الله عنه الرسائل إلى سائر المرتدين، فسبقت الرسل الجيوش، وتضمنت الرسائل تذكيراً ونصحاً وترهيباً، وأن الأمان لمن أجاب ورجع إلى دينه.

القضاء على ردة طليحة الأسدي:

اجتمعت عبس وذبيان بعد هزيمتها في ذي القصة إلى طليحة بالبزاحة والتحق به رجال من طيء، فلما وجه الصديق رضي الله عنه خالد بن الوليد للقضاء على طليحة قام عدي بن حاتم الطائي بمحاولة ناجحة، فأقنع طيء بالعودة إلى الإسلام والانضمام إلى خالد مما أضعف طليحة، وكان عيينة بن حصن الفزاري يقود جيش طليحة، ومعه (٧٠٠) من فزارة، فلما التقى خالد بن الوليد بجيش أسد وفزارة وحمل القتال، أيقن عيينة بكذب طليحة، فانسحب مع فزارة من المعركة... وفر طليحة إلى الشام، حيث عاد فأسلم وحسن إسلامه.

القضاء على مالك بن نويرة:

بعد قضاء خالد بن الوليد على ردة بني أسد اتجه إلى ديار تميم، ولما علم مالك بن نويرة بقدوم المسلمين طلب من قومه التفرق إلى دورهم، إذ لا قبل لهم - وكانوا في تنازع وانقسام - بالمسلمين، فدخل المسلمون ديار تميم، وأسرُوا مالك بن نويرة فجادله خالد بن الوليد، ولما تبين له أنه مرتد عن دفع الزكاة أمر بقتله فقتل، وقد تزوج خالد من ليلى زوجة مالك بعد انقضاء عدتها.

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٢٤٩ من رواية سيف.

وقد لفقت روايات في كتب التاريخ والأدب تشير إلى أن خالداً قتل مالكاً وهو على الإسلام، أو أن قتل مالك كان عن سوء فهم، لقول خالد: «أدفعوا أسراكم». وهي في لغة القوم تعني القتل فقتلوا، ولم يقصد خالد ذلك. وقد كره أبو بكر رضي الله عنه زواج خالد من ليلي، وكانت العرب تكره الزواج في الحروب^(١).

القضاء على ردة مسيلمة الكذاب:

بعد قضاء خالد على ردة بني تميم اتجه إلى اليمامة للقضاء على ردة بني حنيفة، وكان عكرمة بن أبي جهل قد اندحر أمام بني حنيفة، فأمره أبو بكر رضي الله عنه أن يتجه إلى عمان، وكذلك فشل شرحبيل بن حسنة في حربهم، ثم انضم إلى خالد، وجمع مسيلمة أربعين ألفاً من قومه^(٢)، وتقدم بهم لمواجهة خالد ابن الوليد، فكانت موقعة عقرباء العنيفة، التي أبدى فيها المهاجرون والأنصار بسالة منقطعة النظير، وأبدى بنو حنيفة مقاومة وجراً شهد بها خالد بن الوليد، وكان جيش المسلمين نحو ١١,٠٠٠ مقاتل^(٣)، فيهم ألفان وخمس مئة من المهاجرين والأنصار^(٤) وبقيتهم من أهل البوادي ممن ثبتوا على إسلامهم.

وفي بداية اللقاء تراجع المسلمون أمام قوة أعدائهم وكثرتهم، حتى وصلوا رحالهم، فصرخ شجعانهم وقادتهم بهم، وطلب الأنصار من خالد بن الوليد أن يمتاز الناس فتقاتل كل قبيلة على حدة، فأجابهم إلى ذلك فقاتل المهاجرون في جبهة، وقاتل الأنصار في جبهة، وقاتلت كل قبيلة في جبهة، ليتبين القوي من الضعيف، ويعرف من أين يؤتى المسلمون. فتنافس الجميع في القتال، وتمكنوا أن يصدوا بني حنيفة إلى حديقة الموت، ثم اقتحموها عليهم، وقتلوا مسيلمة

(١) راجه صادق إبراهيم عرجون: خالد بن الوليد.

(٢) تبالغ الروايات في تقدير عدد جيش مسيلمة، فقد ذكر ابن كثير مرة أنهم قريب من مئة ألف أو يزيدون، كما ذكر أنهم أربعون ألفاً (البداية والنهاية ٦: ٢٦٨).

(٣) يذكر ابن كثير أنهم كانوا أحد عشر ألفاً (البداية والنهاية ٦: ٢٦٨).

(٤) الديار بكري: تاريخ الخميس ٢: ١٦٠.

والرَّجَال بن عنفوة ومحكم اليمامة، وهم زعماء بني حنيفة. وقد أسفرت المعركة عن استشهاد عدد كبير من المسلمين، قدرتهم الروايات مابين ١٤٥٠^(١) إلى ١٧٠٠ شهيد^(٢)، وثمة روايات ذكرت أنهم ١٢٠٠ شهيد^(٣)، فيهم ثلاثون أو خمسون من حملة القرآن^(٤)، مما اعتبر حافزاً لجمع القرآن في خلافة أبي بكر.

أما قتلى بني حنيفة فقد بلغت بهم بعض الروايات ١٠,٠٠٠ قتيل^(٥)، بينما أوصلتهم روايات أخرى إلى ٢١,٠٠٠ قتيل^(٦). وما زالت آثار قبور الشهداء من الصحابة ظاهرة على مقربة من بلدة الجبيلة القريبة من حديقة الموت^(٧).

وقد انتهت المعركة بالصلح بعد أن كادت بنو حنيفة أن تفنى، وبعد أن أنهكت الحرب قوات المسلمين، وأتت على صفوة من خيارهم، وأثخنت بالجراح بقيتهم، وعقد خالد الصلح مع مجاعة بن مرارة الحنفي - وكان قد أسره قبل المعركة - على أن يعود بنو حنيفة إلى الإسلام، ويسلمون حصونهم ونصف أموالهم وسلاحهم ونصف السبي (أو ربعة) وبعض مزارعهم^(٨).

(١) خليفة بن خياط: التاريخ ١١١.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١: ١١١.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١: ١١١، والطبري: تاريخ ٣: ٢٩٦، وابن أعثم: كتاب الفتوح ١: ٤٠، ٤٤، والكلاعي: الاكتفا ١٧٦، والديار بكري: تاريخ الخميس ٢: ٢٢٠ في حين ينفرد

برواية أخرى تذكر أنهم ١٨٠٠ شهيد.

(٤) خليفة: التاريخ ١١١.

(٥) الطبري: تاريخ ٣: ٢٩٤، وابن كثير: البداية والنهاية ٦: ٣٢٥، والديار بكري: تاريخ الخميس ٢: ٢٢٠.

(٦) الطبري: تاريخ ٣: ٢٩٧، وابن كثير: البداية والنهاية ٦: ٣٢٥. وانظر الجدول الذي عمله إحسان صدقي العمد في بحثه: حركة مسيلمة الحنفي ص ٦٧ - ٦٨.

(٧) الكلاعي: الاكتفا (حروب الردة) ص ١٨٠ حيث نقل الكلاعي عن كتاب يعقوب الزهري أنهم أكثر من سبعة آلاف، منهم سبع مئة من صلب بني حنيفة، وإحسان العمد: حركة مسيلمة الحنفي ٧١.

(٨) الزركلي: الأعلام ٨: ١٢٥ وإحسان صدقي العمد: حركة مسيلمة الحنفي ٦٢.

وقد استعرض أحد الباحثين المعاصرين آراء بعض المستشرقين وتقويمهم لحركة مسيلمة، ثم قال: «وقد يتفق الباحث مع كثير من آراء الباحثين السابقين عن طبيعة حركة مسيلمة، من حيث كونها حركة لبست مسوح الدين، وادعت النبوة لتحقيق أغراضها في الاستقلال، في ظل فراغ، سياسي كان يخيم على الجزيرة العربية، وتعزيز المكانة القبلية لبني حنيفة ومنافستهم لقريش، وعدم قبولهم الخضوع والتبعية للمدينة، وتطلعاتهم إلى إقامة كيان قوي مماثل لكيان المدينة، يحافظ على مصالحهم السياسية والزراعية والتجارية، لكن حركة مسيلمة تظل مع ذلك حركة مصطنعة ضحلة الفكر والعقيدة، وبخاصة إذا ما قورنت بالإسلام وسمو مبادئه وشمول عقيدته وشريعته، التي تخطت كثيراً القبيلة والإقليمية والقومية، وجاوزتها إلى الإنسانية العالمية، وبذلك هزمت تلك الحركة وأمثالها بالفكر والعقيدة، قبل أن تهزم في ميادين الجهاد والاستشهاد، فكانت أقرب ما تكون بذلك إلى حركة رد فعل متسرع ومفتعل ضد حركة إسلامية صادقة وأصيلة»^(١).

القضاء على ردة البحرين:

كان بنو بكر وبنو عبد القيس من قبائل ربيعة يقيمون بالبحرين، وكان ملكهم المنذر بن ساوى أسلم على يد العلاء بن الحضرمي في سنة ٩ هـ، ومات المنذر في الشهر الذي مات فيه النبي ﷺ فارتد أهل البحرين عن الإسلام إلا بنو عبد القيس، تمكن سيدهم الجارود من إقناعهم بالثبات على الإسلام، وتزعم الردة الحطيم بن ضبيعة وحاصر الجارود في جواثى، وبينما هم محاصرون قدم العلاء بن الحضرمي إلى البحرين على رأس جيش واتصل بالجارود، ومكث يقاتل الحطيم شهراً دون التحام فاصل، وعرف المسلمون أن المرتدين سكروا

(١) إحسان صدقي العمدة: حركة مسيلمة الحنفي ٧٨.

في إحدى الليالي فهاجموهم وقضوا عليهم، وقتل الحطم وفر بعض المرتدين إلى جزيرة دارين المواجهة للبحرين على الشراع، فاقتحم المسلمون الماء بخيولهم إلى الجزيرة، وقتلوا بقية المرتدين، وغنموا غنائم عظيمة، وعادوا إلى البحرين.

القضاء على ردة عمان ومهرة:

كانت عمان على عهد النبي ﷺ خاضعة لفارس، ثم أسلم جيفر أميرها، وأرسل إليه النبي ﷺ عمرو بن العاص يعلمهم الدين، فاتفقا على قسمة أموال الزكاة بين فقراء البلاد، فلما توفي الرسول ﷺ ارتد أهل عمان بقيادة ذي التاج لقيط بن مالك الأزدي، وادعى النبوة، ففر جيفر إلى الجبال.

وقد أشارت رواية إلى تدمير أهل عمان من الزكاة، فقد قال قرة بن هيرة لعمر بن العاص منصرفه من عمان: «يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم»^(١).

وأرسل أبو بكر رضي الله عنه عرفة بن هزيمة البارقي إلى مهرة، وحذيفة بن محصن الغلفاني إلى عمان، ثم أتبعهما عكرمة بعد هزيمة بني حنيفة له، وجعل القيادة لعكرمة على عرفة وحذيفة، وقد تمكن عكرمة من القضاء على لقيط الأزدي وإعادة عمان إلى حظيرة الإسلام بالتعاون مع جيفر ومع بني عبد القيس التي أمدته من البحرين. ثم اتجه عكرمة إلى مهرة حيث ارتد أهلها أيضاً، فلما وصلهم وجدهم منقسمين فانضم إليه بعضهم، وقتل بعضهم الآخر فغلبهم، وسار نحو حضرموت واليمن للتعاون مع المهاجر بن أبي أمية في القضاء على الردة هناك^(٢).

(١) الطبري: تأريخ ٣: ٢٥٩.

(٢) يوجد اختلاف كبير في تفاصيل الأحداث بين روايتي سيف بن عمر عند الطبري (الطبري: تأريخ ٣: ٣١٤-٣١٦) ورواية الواقدي عند الكلاعي (الكلاعي: الاكتفا ٢٠٨-٢١١)، و٢١٧). وكلتا الروايتين واهية السند، واختلاف المتن بينهما كبير.

القضاء على ردة اليمن:

ما إن علم أهل اليمن بوفاة الرسول ﷺ حتى ارتد قيس بن عبد يغوث عن الإسلام، وقتل داذويه، وكاتب أتباع الأسود، واستعان بهم، وسيطر على صنعاء، وطرده الأبناء منها، كذلك ارتد عمرو بن معديكرب في نجران. وعين أبو بكر رضي الله عنه فيروز والياً على اليمن، فاستعان بأخواله خولان، وساعدته قبائل عك وعقيل، فتمكن من طرد قيس من صنعاء. واتحد قيس مع عمرو بن معديكرب، واستمرت الاضطرابات حتى قدم عكرمة بن أبي جهل من عمان والمهاجر بن أبي أمية من المدينة، وقاما بتطهير اليمن من المرتدين، وتمكنا من توثيق عمرو بن معديكرب وقيس بن عبد يغوث، وإرسالهما إلى أبي بكر رضي الله عنه، حيث استتابهما وعفا عنهما.

وهكذا انتهت أحداث الردة الثانية باليمن^(١)، وقد تمثلت فيها الصراعات القبلية، والطموحات الشخصية، ولعل مما أثار القبائل أن الأبناء - حكام اليمن - ليست أصولهم عربية.

القضاء على ردة حضرموت:

منع بنو عمرو بن معاوية بقيادة الملوك الأربعة الزكاة، واعتصموا بمحاجرهم، وخرج من بقي على الإسلام منهم إلى عامل المسلمين زياد بن ليلى البياضي، الذي واجه المرتدين، وتمكن من قتل الملوك الأربعة، وأمدّه أبو بكر رضي الله عنه بالمهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل لمواجهة كندة بزعامة الأشعث بن قيس، وقد تمكن المسلمون بعد معارك طويلة من هزيمة كندة،

(١) الطبري: تاريخ ٣: ٣٢٠، ٣٢٩ عن سيف، وانظر ملخصاً لها عند الكلاعي. حروب الردة ٢٢٨، وانظر روايات مخالفة في الإصابة لابن حجر ١: ٢٥.

وإرسال الأشعث إلى المدينة حيث رجع إلى الإسلام^(١). وذكرت روايات ضعيفة أن أبا بكر رضي الله عنه زوّجه من أخته أم فروة^(٢).

وقد نتج عن حركة الردة والقضاء عليها إعادة وحدة الدولة الإسلامية، وتجريد البدو من سلاحهم وخيلهم خلال خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ولا شك أنها أكسبت المسلمين المزيد من الخبرات القتالية والمعرفة بجغرافية الجزيرة العربية مما أفادهم في حشد الجيوش في حركة الفتح الإسلامي.

(١) الطبري: تأريخ ٣: ٣٣٤ - ٣٣٩ والكلاعي: حروب الردة ٢٢٥ - ٣٤١.
(٢) الطبراني: المعجم الكبير ١: ٢٣٧ والكلاعي: حروب الردة ٢٣٨، والطبري: تأريخ ٣: ٣٣٩ والمزي: تهذيب الكمال ٣: ٢٩٠.

إِفْطِيكَ الثَّانِي

فتنة مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه

فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه

تعد فتنة مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه من أخطر الأحداث التي مرت بها الدولة الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة، وقد تركت من الاختلاف والانقسام في صفوف الأمة ما كاد يؤدي بها، وقد أعقبتها فتن داخلية أخرى، تتصل بها وتتفرع عنها، وهي موقعة الجمل وصفين والنهروان، كما استمرت آثارها متمثلة في أحزاب المعارضة للدولة الأموية، وهما الخوارج والشيعة. كما استمر الحزبان في التأثير على الحياة السياسية خلال العصر العباسي الأول خاصة، بل يمكن أن نعد الانقسامات الكبرى الناجمة عن الفتنة مؤثرة في الأمة حتى الوقت الحاضر.

ومثل هذه الفتنة لا بد أن تختلف فيها الآراء وتتلاعب في نقل أخبارها الأهواء، وقد شحنت مصادرنا التاريخية بألوف الروايات المتعارضة، وهي تمثل الاتجاهات المختلفة السائدة وقت الرواية، ثم في عصر التدوين.

ومن هنا تظهر أهمية نقد الروايات، والتعرف على اتجاهات الرواة، والظروف التي أحاطت بشاهد العيان الذي يرتقي إليه الإسناد مع فحص المتن، ومعرفة سلامتها من العلل مثل التناقض والاضطراب، وتقديم كتب علم الرجال المعلومات الأولية عن الرواة، كما يقدم مصطلح الحديث منهج التعامل النقدي مع المعلومات الأولية تلك، ومع الرواية سنداً ومتناً.

وتقدم الروايات الصحيحة والحسنة - لذاتها ولغيرها - صورة مغايرة إلى حد كبير للصورة التي يُقدمها الإخباريون من خلال مانقلته عنهم المصادر التاريخية، وإن كانت تلتقي معها في بعض التفاصيل أحياناً.

فما هي معالم الأحداث من خلال الروايات الصحيحة والحسنة؟

لماذا نقم المعارضون على عثمان رضي الله عنه؟

يبدو أن المعارضة كانت تتذرع بأسباب دينية وسياسية واقتصادية، فمما أثاروه من القضايا الدينية قضية تدوين المصحف، واعتماد النسخة المدونة، وإحراق ما سواها من النسخ، ولا يرد ذلك على لسان المعارضة، ولكن توحى به الرواية الآتية:

قال سويد بن غفلة - مخضرم من كبار التابعين (ت ٨٠ هـ) وعمره ١٣٠ سنة - : والله لا أحدثكم إلا شيئاً سمعته من علي بن أبي طالب، سمعته يقول: يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل إلا عن ملأ منا جميعاً، فقال: ما تقولون في هذه القراءة، فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفراً؟

قلنا: فما ترى؟

قال: نرى أن نجتمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف.

قلنا: فنعم ما رأيت.

قال - يعني علي رضي الله عنه - : فقليل: أي الناس أفصح؟ وأي الناس أقرأ؟

قالوا: أفصح الناس سعيد بن العاص، وأقرأهم زيد بن ثابت.

فقال: ليكتب أحدهما، ويملي الآخر. ففعلا، وجمع الناس على مصحف.

قال علي: والله لو وُلِّيتُ لفعلت مثل الذي فعل ^(١).

وقد عهد عثمان اعتماد النسخة الموحدة من المصحف إلى أربعة من الصحابة

هم: زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن

(١) ابن أبي داود: المصاحف ٢٨ - ٢٩ بإسناد صحيح، وابن عساكر: تأريخ دمشق، ترجمة عثمان ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩ (ابن حجر: فتح الباري ٩: ١٨).

الحارث بن هشام، وقال لهم: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم». ففعلوا، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق^(١). وإذا تأملنا في النص فإنه يدل على وجود معارضة لاعتماد نسخة واحدة من المصحف، وإحراق ما سواها، منعاً لاختلاف القراءات والزيادة والنقص في كتاب الله تعالى.

ويبدو أن المعارضة أثارت هذه القضية، وأن علياً رضي الله عنه دافع عن موقف عثمان رضي الله عنه مبيناً أنه فعله عن إجماع من الصحابة، وليس لدى المعارضة علماء كبار يدركون مغزى هذا العمل العظيم، بل ربما أدرك بعضهم فائدة ذلك، ولكن الغضب والحقد أعمى بصيرته، فاستغل القضية ضد الخليفة، وليس العامة بقادرين على تمييز الأمور وتمحيص الدعاية، بل هم يتبعون كل ناعق، وكلام علي رضي الله عنه يدل على أن المعارضة غلت في دعايتها، وقلبت الحق باطلاً، والمعروف منكراً.

ويُستشف من الرواية أنه كان يتكلم في ظروف الفتنة قبل توليه الخلافة. ويحتمل أنه تكلم بذلك بعد وقوع الفتنة ومقتل الخليفة وتوليه الأمر، وأراد أنه لو ولي قبل إنفاذ الجمع لجمعه.

ومن المسائل التي أثارت ضد عثمان رضي الله عنه بعد مقتله وتبناها الخوارج: عدم شهوده بدرأً، وعدم ثباته يوم أحد وعدم اشتراكه في بيعة الرضوان، فقد سأل أحد الخوارج - قيل: إنه العلاء بن عرار - عبد الله بن عمر رضي الله عنه في المسجد الحرام بمكة عن مواقف عثمان هذه، فبين له ابن عمر ذلك معللاً بأن عدم شهود عثمان بدرأً كان بأمر النبي ﷺ لمرض زوجته رقية، وأنه وعده: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدرأً»

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٩: ٩، ١١).

وسهمه»^(١). وأما فراره مع الفارين يوم أحد فقد عفا الله عنهم جميعاً^(٢) وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلأن النبي ﷺ أرسله من الحديبية إلى مكة رسولاً، ووقعت البيعة بسبب حجز قريش له، وضرب النبي ﷺ بيده وقال: «هذه لعثمان»^(٣). وبذلك قطع ابن عمر على الخارجي سبيل التلبس على الناس بأمور لا يعلمون حقيقتها.

ومن المحتمل أن المعارضة استغلت هذه القضايا في دعايتها ضد الخليفة، وأنها استمرت تثيرها بعد مقتله، ولكن ليس ثمة ما يقطع بذلك.

ومن القضايا التي أثرت ضد الخليفة: أنه أتم الصلاة بمنى أو آخر خلافته خلافاً لسنة النبي ﷺ وعمل أبي بكر وعمر^(٤)، وكان عثمان يتأول ذلك، ويرى أن له حكم المقيم، كذلك كانت عائشة رضي الله عنها تتم الصلاة بمنى^(٥)، بل إن عبد الله بن مسعود فعل ذلك وهو لا يراه صحيحاً - فقهيّاً - لأنه لم يشأ أن يخالف فعل عثمان - وهو الخليفة الشرعي^(٦) وكان ابن عمر إذا صلى مع الإمام صلى أربعاً، وإذا صلاها وحده صلى ركعتين^(٧).

وقد أثار وفد مصر عندما استقبلهم عثمان بالمدينة حمايته الحمى، فوضح لهم أن عمر حماه قبله لإبل الصدقة، وأنه زاد فيه لما زادت إبل الصدقة^(٨).

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٥٤، ٣٦٣).

(٢) إشارة إلى الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران ١٥٥).

(٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٩: ٩، ١١).

(٤) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٢: ٥٦٣ و ٣: ٥٠٩).

(٥) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٢: ٥٦٩)، ومسلم: الصحيح ١: ٤٧٨.

(٦) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٢: ٥٦٣)، ومسلم: الصحيح ١: ٤٨٣.

(٧) مالك: الموطأ ١٤٩، ومسلم: الصحيح ١: ٤٨٢.

(٨) خليفة بن خياط: التاريخ ١٦٨ - ١٦٩ بإسناد حسن، ينتهي إلى شاهد عيان، هو أبو سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري مختلف في صحبته، لكنه أدرك خلافة أبي بكر، وشهد مقتل عثمان

وورد في كلام لعائشة رضي الله عنها مع الثائرين ما يحدد أهم الانتقادات التي وجهوها إلى سياسة عثمان رضي الله عنه، قالت: «اسمعوا نحدثكم عما جئتمونا له، إنكم عتبتُم على عثمان في ثلاث خلال: في إمارة الفتى، وموضع الغمامة - تريد الحمى - وضربه بالسوط والعصا. حتى إذا مصتموه - تريد غسلتموه - موص الثوب بالصابون عددتم عليه الفقر الثلاث، حرمة البلد، وحرمة الخلافة، وحرمة الشهر الحرام، وإن كان عثمان لأحسنهم فرجاً وأوصلهم للرحم»^(١).

وقد أوضح محمد بن سيرين (٣٣ - ١١٠ هـ) أن عثمان بعث إلى المعارضين علي بن أبي طالب ورجلاً معه، فاصطلحوا على خمس: أن المنفي يقلب، والمحروم يُعطى، ويوفر الفيء، ويعدل في القسم، ويُستعمل ذو الأمانة والقوة. كتبوا ذلك في كتاب، وأن يرد ابن عامر على البصرة، وأبو موسى الأشعري على الكوفة^(٢).

وهذه الروايات تكشف عن شعارات المعارضة المعلنة، وترجع الدراسات الحديثة الفتنة إلى عوامل اقتصادية واجتماعية، فيشرون إلى تدفق الأموال في المجتمع الإسلامي نتيجة الفتوح، وظهور بؤادر الترف في المجتمع، وحدوث تفاوت كبير في مستوى المعيشة نتيجة التباين في توزيع الثروة، وإلى توقف الفتوح في النصف الثاني من خلافة

(مسلم: الكنى ١٢١، وابن حجر: الإصابة ٤: ٩٩).

(١) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٤٥٢ من زيادات ابنه عبدالله، بإسناد فيه عبدالله بن عمير، ربما دلس وكلامه في التقريب متأخر عن كلامه في «تعريف أهل التقديس» فينسخه، وقد عُمر فمات عن ثلاث ومئة، فوهنت ذاكرته دون أن يبلغ حد الاختلاط (الذهبي ميزان الاعتدال)، ومسعر بن كدام الراوي عنه كوفي قديم الطلب، والأغلب أنه روى عنه قبل اختلاطه، وقد تابعه هشيم عن عبدالله الملك وهو مدلس وقد عنعن (أحمد: فضائل الصحابة ١: ٤٥٥). والرواية تاريخية - ولو رددناها وأمثالها يضيع التاريخ...

(٢) خليفة: التاريخ ١٦٩ - ١٧٠ بإسناد إلى ابن سيرين صحيح، ولكنه منقطع ضعيف لأن ابن سيرين لم يدرك الأحداث، ويعتضد برواية أبي سعيد مولى أبي أسيد (ابن عساكر: تاريخ دمشق - ترجمة عثمان - ٣٢٨ وهو أيضاً مرسل ابن سيرين).

عثمان رضي الله عنه، مما جعل الناس في الأمصار يحسون بالفراغ، وينغمسون في الفتن والشغب على الحكام.

وأما كتب الأخبار والتأريخ فتعطي ابن سبأ دوراً كبيراً في الأحداث، وخلاصة الصورة التي يقدمها سيف بن عمر وآخرون نقلت عنهم كتب التأريخ، وخاصة تأريخ الطبري: أن ابن سبأ يهودي من صنعاء أسلم في خلافة عثمان، وقام ببث الدعاية ضده في الحجاز والعراق والشام ومصر، وأن الولاة كانوا إذا أحسوا به طردوه إلى بلد آخر...

وأنه أثار أبا ذر ضد معاوية، زاعماً أن معاوية يقول: إن المال مال الله، وأقنعه أنه يريد بذلك احتجاز المال ومنعه عن الرعية، لذلك طلب أبو ذر من معاوية أن يقول: إن المال مال المسلمين، فوافقه معاوية ترضية له، ولكن أبا ذر استمر يعلن آراءه في سياسة المال والإنفاق، وأن فضول أموال الأغنياء يجب أن تُرد على الفقراء، وإلا فإنها كنز حرام، فشكاه معاوية إلى عثمان فطلبه عثمان. وتذكر الروايات التاريخية أن ابن سبأ أثار تدمير عمار بن ياسر في مصر ضد عثمان، وأنه كان ذا عقلية ذكية، فاستطاع أن ينظم دعاية واسعة ضد الخليفة عثمان وعمال الأمصار، فتبادل أشياعه الرسائل التي يوضحون فيها تدميرهم وشكاواهم من عمال عثمان، وقد كانت هذه الرسائل تقرأ في الأمصار المختلفة، فتثير الفتن، وينشأ عند العامة تصور للسوء والفوضى والظلم الذي انحدرت إليه الدولة، وأن ابن سبأ كان وراء الوفود المصرية والعراقية التي قدمت المدينة وحاصرت دار عثمان وقتلته.

ويرى البعض أن ما أورده الطبري عن أثر ابن سبأ في الفتنة لا يصمد للنقد التاريخي، لتفرد سيف بن عمر بمعظم الأخبار، وهو متروك عند المحدثين. ولكن ينبغي الانتباه إلى أن سيف بن عمر عمدة في التأريخ، وإن كان متروكاً

إذا روى أحاديث نبوية، وأن رواياته ينبغي أن تحظى بالنقد التاريخي مثل بقية الإخباريين، ويمكن أن نقبل فكرة وقوع المبالغة في أثر ابن سبأ في أحداث الفتنة، مما يجعلنا نتلمس عواملها في الأوضاع العامة مع ملاحظة التطور الذي أصاب المجتمع الإسلامي نتيجة الانسياح في الهلال الخصيب.

خبر الراكب الذي تعرض للوفد المصري:

كان الوفد المصري قد ناقش عثمان رضي الله عنه في الأمور التي أخذوها عليه، ثم «أخذوا ميثاقه، وكتبوا عليه شرطاً، وأخذ عليهم ألا يشقُّوا عصاً، ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم، ثم رجعوا راضين. فبينما هم بالطريق إذا راکب يتعرض لهم ويفارقهم، ثم يرجع إليهم ثم يفارقهم».

قالوا: ما لك؟

قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر.

ففتشوه، فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه، إلى عامل مصر: أن يُصلَّبَهم، أو يقتلهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم. فأقبلوا حتى قدموا المدينة، فأتوا علياً فقالوا: ألم تر إلى عدو الله، كتب فينا بكذا وكذا، وإن الله قد أحل دمه فقم معنا إليه.

قال: والله لا أقوم معكم.

قالوا: فلم كتبت إلينا؟

قال: والله ما كتبت إليكم كتاباً.

فنظر بعضهم إلى بعض، وخرج علي من المدينة.

فانطلقوا إلى عثمان، فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا.

فقال: إنها اثنتان، أن تقيموا رجلين من المسلمين، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو: ما كتبت ولا أملت ولا علمت. وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل، ويُنقش الخاتم على الخاتم.

قالوا: قد أحلَّ الله دمك، ونقضت العهد والميثاق، وحصلوه في القصر^(١). كان عثمان رضي الله عنه يترقب وقوع الفتنة، حيث أخبره النبي ﷺ بفتنة تقع له، وأنه يستشهد فيها^(٢)، وكان يخرج على المعارضين يحاجبهم بالقرآن والسنة، ويذكرهم بمواقفه في خدمة الإسلام والمسلمين: «إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في قيود فضعوها»^(٣).

«لما حصر عثمان أشرف عليهم فوق داره، ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن حراء حين انتفض قال رسول الله ﷺ: «أثبت حراء، فليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد؟ قالوا: نعم. قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟» والناس مجهدون معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم. ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن بئر رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بئس، فابتعتها فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا:

(١) خليفة: التاريخ ١٦٨ - ١٦٩ بإسناد حسن، ورواه البزار وصححه إسناده الهيثمي: مجمع الزوائد ٧: ٢٢٨ - ٢٢٩، وانظر روايته الآخرين عن معتمر عند محمد عبد الله الغبان: فتنة مقتل عثمان بن عفان، الملحق ص ١٠٦ - ١٠٧ وأحال على الهيثمي: كشف الأستار عن زوائد البزار ٤: ٩٠ - ٩١، وابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٢١٥ - ٢٢٠، والطبري: تاريخ ٤: ٣٥٤ - ٣٥٦، وابن عساکر: تاريخ دمشق - ترجمة عثمان - ٣٢٧، وأبي نعيم الأصبهاني: الإمامة ٣٤٧، وابن حجر: المطالب العالية ٤: ٢٨٣ - ٢٨٦ نقلاً عن إسحاق بن راهويه في مسنده، والمحب الطبري: الرياض النضرة ٣: ٦٠ وعزاه إلى أبي حاتم الرازي.

(٢) أحمد: المسند ١: ٣٣٤، ٣٧٧، والترمذي: السنن (تحفة الأحوذى ٥: ٦٣١، ١٠: ٢٠٩) وابن ماجه: السنن ١: ٤٢، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٦٦ - ٦٧، وابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٢٠٢، والحميدي: المسند ١: ١٣٠.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ٦٩ - ٧٠ بإسناد صحيح، وابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٢٢٤ بإسناد صحيح.

نعم. وأشياء عددها^(١). فانتشد له رجال^(٢) وكان يخص بمناشدته الصحابة^(٣)، ويلاحظ أن مخاطبته للثائرين كانت تُحدث أثراً مؤقتاً حتى انتشر النهي عنه بينهم مرة، «وجعل الناس يقولون: مهلاً عن أمير المؤمنين»^(٤). «وقام الأشتر فقال: لعله لقد مكر به وبكم. قال - يعني أبا أسيد وهو شاهد عيان - : فوطئه الناس حتى لقد لقي كذا وكذا - يعني من الأذى والشدة - . قال: فرأيت أنه أشرف عليهم مرة أخرى، فوعظهم وذكرهم، فلم تأخذ فيهم الموعظة، وكان الناس تأخذ فيهم الموعظة أول ما يسمعونها فإذا أعيدت عليهم لم تأخذ فيهم، ثم إنه فتح الباب ووضع المصحف بين يديه»^(٥).

وفي إحدى خطبه وهو يشير إلى صحبته ومكانته اعترضه أعين ابن امرأة الفرزدق بقوله: «يانعثل إنك قد بدلت». وقال عثمان بعد أن عُرِفَ به: «بل أنت أيها العبد» و«وثب الناس على أعين» و«جعل رجل من بني ليث يزعمهم عنه حتى أدخله الدار»^(٦).

وكان حريصاً على إقامة المسلمين صلاتهم بالمسجد النبوي، مع أنه حُرِمَ من الخروج للصلاة فيه، قال له عبيد الله بن عدي بن الخيار: إنك إمام عامة، ونزل بك ما نرى، ويصلي لنا إمام فتنة وتحرّج؟ فقال عثمان: الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم^(٧).

(١) الترمذي: السنن ٥: ٦٢٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأحمد: المسند ١: ٣٤٠ - ٣٤١ بإسناد حسن.

(٢) أحمد: المسند ١: ٣٤٠ - ٣٤١ بإسناد حسن، ط. أحمد شاكر.

(٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٥: ٤٠٦ - ٤٠٧) معلقاً.

(٤) خليفة: التاريخ ١٧٢ بإسناد حسن، وأبو سعيد شاهد عيان مختلف في صحبته، والطبري: تأريخ ٤: ٣٨٣.

(٥) الطبري: تأريخ ٤: ٣٨٣ بإسناد حسن.

(٦) أحمد: المسند ١: ٣٧٨ ط. أحمد شاكر وحسنه، لكن شاهد العيان عباد بن زاهر أبا الرواع ممن يعتبر بحديثه ولا يبلغ مرتبة صدوق، ولكن الخبر تاريخي فيتساهل فيه، وسامع شعبة بن الحجاج من سماك بن حرب قديم فلا يضر اختلاط الأخير (ابن الكيال: الكواكب النيرات ٢٣٧ - ٢٤١).

(٧) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٢: ١٨٨).

ثبت أن عثمان اتخذ موقفاً واضحاً وحاسماً يتمثل في عدم المقاومة، وأنه ألزم به الصحابة، قال عبدالله بن عامر بن ربيعة - شاهد عيان ولد سنة ٦ هـ - : كنت مع عثمان في الدار، فقال: «أعزُّم على كل من رأى أنَّ عليه سمعاً وطاعةً إلا كفَّ يده وسلاحه»^(١)، وقد خرج من الدار على إثر أمر عثمان لهم بوضع أسلحتهم، ولزوم دورهم كل من الحسن والحسين وعبدالله بن عمر، وأصر على البقاء في الدار عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم^(٢). وكان عثمان رضي الله عنه قد أمّر عبدالله بن الزبير على الدار، وأمر بطاعته، فلما طلب منه ابن الزبير أن يقاتل الخارجين «لقد أحل الله لك قتالهم». فقال عثمان: «لا والله لا أقاتلهم أبداً»^(٣). وكان في الدار عصابة، قال ابن الزبير: «ينصر الله بأقل منهم»^(٤).

«ومن أراد القتال دفاعاً عن عثمان الصحابي أبو هريرة - وكان متقلداً سيفه -^(٥)، لكن عثمان لم يأذن له قاتلاً: يا أبا هريرة أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي؟ قال: قلت لا. قال: فإنك والله إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قُتل الناس جميعاً. قال أبو هريرة: فرجعت ولم أقاتل»^(٦).

وحكى أبو حبيبة مولى عروة أنه دخل على عثمان في يوم صائف، وهو محصور ليلبغه رسالة الزبير بن العوام إليه، وفيها يعلن طاعته ونصرته والتزام

(١) خليفة: التأريخ ١٧٣، وابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٢٠٤، وابن سعد: الطبقات ٣: ٧٠ كلهم بأسانيد صحيحة.

(٢) خليفة: التأريخ ١٧٤ بإسناد صحيح إلى ابن سيرين، لكن ابن سيرين لم يشهد الحادثة.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ٧٥ بإسناد صحيح.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ٧٠ بإسناد صحيح، وخليفة: التأريخ ١٧٣ بإسناد صحيح.

(٥) خليفة: التأريخ ١٧٣ وإسناده صحيح، وسعيد من أثبت الناس في قتادة، ورواية كهمل عن سعيد قبل اختلاطه (البخاري - فتح الباري ٧: ٤٢).

(٦) ابن سعد: الطبقات ٣: ٧٠ بإسناد صحيح، والأعمش مدلس ولكن ثبتت روايته عن أبي صالح، كما في الصحيحين (المزي: تحفة الأشراف ٩: ٣٧٦ - ٣٨٤، وابن حجر: هدي الساري ١٢).

بنو عمرو بن عوف من الأنصار بنجدته، ورأى أبو حبيبة عدداً من الصحابة في الدار، وهم الحسن بن علي وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وأن الناس كلهم عثمان أن يأذن لهم بالجهاد، فقال: «أعزم على من كانت لي عليه طاعة ألا يقاتل»^(١). واستأذن الحسن بن علي عثمان في القتال فمنعه^(٢).

ومن نصحه بالكف عن القتال الصحابي عبد الله بن سلام، وقد سأل عثمان عن رأيه في الموقف من الثائرين، فأجابه: «الكف الكف، فإنه أبلغ لك في الحجة»^(٣).

وتعتضد روايتان ضعيفتان لبيان اقتراح تقدم به إلى عثمان المغيرة بن شعبة يرى فيه أن يخرج عثمان إلى مكة للخلاص من المعارضين، وأن عثمان رفض الفكرة^(٤).

وهكذا كانت الاقتراحات والمداولات تتم في ظروف صعبة تضغط فيها المعارضة بشدة على الدار وأهله.

رفض عثمان رضي الله عنه التنازل عن الخلافة، ويدل حديث صحيح ترويه عائشة رضي الله عنها على أن النبي ﷺ قال لعثمان: «يا عثمان إن الله مقمصك قميصاً فإن أراذك المنافقون على أن تخلعه فلا تخلعه لهم ولا كرامة»^(٥).

(١) ابن عساکر: تاریخ دمشق - ترجمة عثمان - ٢٧٤ نقلاً عن مصعب بن عبد الله الزبيري، وإسناد مصعب حسن، وأحال المحقق على حديث مصعب في الظاهرية (مجلد ١١٧ ورقة ١٥١ ب).

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف ١٠: ٢٢٤ بإسناد حسن إن صحَّ سماع أبي قلابة من الحسن.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ٧١ بإسناد حسن.

(٤) أحمد: المسند ١: ٣٦٩ ط. أحمد شاكر وضعفه بالانقطاع، لأن محمد بن عبد الملك بن مروان لم يسمع المغيرة (الهيثمي: مجمع الزوائد ٧: ٣٢٩)، والمسند ١: ٣٦١ بإسناد ضعيف أيضاً لأن ابن أبيزى لم يدرك عثمان.

(٥) أحمد: المسند ٦: ٨٦-٨٧، ١٤٩، وفصائل الصحابة ١: ٥٠٠ رقم ٨١٦ بإسناد صحيح، والترمذي: السنن رقم ٣٧٨٩ وقال: حسن غريب، وابن ماجه: السنن ١: ٤١ رقم ١١٢، وابن حبان كما في الإحسان لابن بلبان ٥٣٩ رقم ٢١٩٦.

وكان المغيرة بن الأخنس قد أشار عليه بالخلع، لئلا يقتله الخارجون عليه، وقد سأل عثمانُ عبدالله بن عمر عن رأي المغيرة^(١)، فنصحه بأن لا يخلع نفسه من الخلافة.

«قال له ابن عمر: إذا خلعتها أمخلد أنت في الدنيا؟

قال: لا.

قال: فان لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟

قال: لا.

قال: فهل يملكون لك جنة أو ناراً؟

قال: لا.

قال: فلا أرى لك أن تخلع قميصاً قمصكه الله، فتكون سنة كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم قتلوه»^(٢).

وتتضافر روايات ضعيفة للدلالة على أن عثمان - وهو محصور في الدار - بعث إلى علي يطلبه، وأن عليّاً استجاب لأمره، لكنه لم يتمكن من الوصول إلى الدار التي كان المعارضون يطوقونها، وأن آل علي حبسوه عن دخولها خشية عليه من القتل، فحل عمامته السوداء التي كان يرتديها، ورمى بها إلى رسول عثمان، ثم خرج حتى انتهى إلى أحجار الزيت في سوق المدينة، فأتاه خبر قتل عثمان، فأعلن براءته ممن قتله أو مالا عليه^(٣).

(١) ابن سعد: الطبقات ٣: ٦٦ بإسناد صحيح رجاله رجال الشيخين.

(٢) خليفة: التأريخ ١٧٠ بإسناد حسن، كهمس صدوق، وروايته عن سعيد بن أبي عروبة قديمة قبل اختلاط سعيد (الكلاباذي: رجال البخاري ٢: ٤٨٥، ٨٧٥، وابن منجويه: رجال مسلم ١: ٢٤٥، وابن حجر: تعريف أهل التقديس ٦٣).

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٠٩ بسند منقطع، وابن سعد: الطبقات ٣: ٦٨ - ٦٩ بسند منقطع، وسند آخر منقطع مع تدليس حبيب بن أبي ثابت. (انظر محمد عبدالله الغبان: فتنة مقتل عثمان - الملحق - ١٤٦).

لم يألُ الخليفة جهداً في محاوره الثوار لإقناعهم بخطأ موقفهم، سواء بذكر مكانته وخدماته في الإسلام، أو ببيان خطورة قتله على وحدة الأمة: «يا أيها الناس لا تقتلوني واستتيبوني، فوالله لئن قتلتموني لاتصلون جميعاً أبداً، ولا تجاهدون عدوّاً جميعاً أبداً، ولتختلفنّ حتى تصيروا هكذا - وشبّك بين أصابعه -»، وكان يخاطبهم من كوة في الجدار^(١)، إذ لم يكن يأمن الخروج إليهم.

وكان عثمان رضي الله عنه يتابع تحركات المعارضين، ويسمع ما يقولون، قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف الأنصاري: «كنت مع عثمان في الدار - وهو محصور - وكنا ندخل مدخلا إذا دخلناه سمعنا كلام من على البلاط - وهو موضع أمام الباب الشرقي للمسجد النبوي بينه وبين دار عثمان -^(٢)، فدخل عثمان يوماً لحاجة، فخرج منتعماً لونه، فقال: إنهم ليتوعدوني بالقتل آنفاً. فقلنا: يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين. قال: ولم يقتلوني، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلاث، رجل كفر بعد إيمانه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس، فوالله ما زنت في جاهلية ولا في إسلام قط. ولا تمنيت أن لي بديني بدلاً منذ هداني الله. ولا قتلت نفساً. فقيم يقتلونني؟»^(٣).

وبين عبدالله بن عمر أن عثمان أشرف على المعارضين، وحذّثهم بهذا المعنى^(٤).

(١) ابن سعد: الطبقات ٣: ٧١ بإسناد حسن، وابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٠٣ بإسناد حسن، وابن الأعرابي: المعجم ق ١٢٥ أ، وخليفة: التاريخ ١٧١ مختصراً وسقط منه (أبو ليلى).

(٢) راجع عن البلاط السهمودي: وفاء الوفا ٣: ٧٣٤.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ٦٧ بإسناد صحيح، وأحمد: المسند ١: ٣٤٨، ٣٦٣، ٣٧٩، ٣٨٠ ط. أحمد شاكر وصحح إسناده.

(٤) أحمد: المسند ١: ٣٥٥ بإسناد صحيح.

وتتضافر روايات ضعيفة لتؤكد أن عثمان أصبح صائماً يوم استشهاده، وأنه أخبر برؤيته النبي ﷺ في المنام يدعوهُ للإفطار عنده^(١).

قال أبو سعيد مولى أبي أسيد - وهو شاهد عيان - : «فتتح عثمان الباب، ووضع المصحف بين يديه، فدخل عليه رجل، فقال: بيني وبينك كتاب الله. فخرج وتركه. ثم دخل عليه آخر، فقال: بيني وبينك كتاب الله. فأهوى إليه بالسيف فاتقاه بيده، فقطعها، فلا أدري أباها أم قطعها ولم بينها. فقال - يعني عثمان - : أما والله إنها لأولُ كفٍّ خطَّت المصحف»^(٢).

وقد انتضح دمه على المصحف الذي كان يقرأ فيه فوق الآية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣).

وتتضافر الروايات المتعددة في إثبات موقف محمد بن أبي بكر الصديق مع المعارضين لعثمان، وأنه دخل على عثمان يوم مقتله، فأخذ بلحيته، وأن عثمان ذكره بمكانه من أبيه، فخرج دون أن يشترك في قتله^(٤).

وقد دافع بعض الشباب عن عثمان، قال كنانة مولى صفية - وهو شاهد عيان - : «شهدت مقتل عثمان، فأخرج من الدار أمامي أربعة من شبان قريش ملطخين بالدم، محمولين، كانوا يدرأون عن عثمان رضي الله عنه، الحسن بن علي وعبدالله ابن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم»^(٥).

(١) الهيثمي: المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي ق ١٦٣ أ، وفي إسناده أبو جعفر الرازي صدوق سيء الحفظ، وابن سعد: الطبقات ٣: ٧٤ - ٧٥ بإسناد منقطع، لأن نافعاً لم يرو عن عثمان، وأحمد: المسند ١: ٣٨٨ - ٣٨٩ تحقيق أحمد شاكر، وصحح إسناده، لكنه ضعيف، لأن مسلماً أباً سعيد انفرد ابن حبان بتوثيقه.

(٢) خليفة: التأريخ ١٧٤ بإسناد حسن، وقارن بالطبري: تأريخ ٤: ٣٣٣ - ٣٣٤ من مرسل الحسن البصري.

(٣) أحمد: فضائل الصحابة ١: ٤٧٠ - ٤٧٣ بإسناد صحيح.

(٤) خليفة: التأريخ ١٧٤ من مرسل الحسن البصري نقلاً عن أسد بن موسى بإسناد حسن، وابن عبد البر: الاستيعاب ٣: ٣٤٩.

(٥) ابن عبد البر: الاستيعاب (مع الإصابة) ٣: ٧٨ بإسناد حسن.

ولكن المقاومة لم تكن عنيفة، فقد انصرف الكثير من المدافعين عن الدار بسبب أوامر عثمان، التي تقضي بالكف عن القتال، بل وتأمرهم بالخروج من الدار ولزوم بيوتهم... لقد اختار حقن دمائهم وفداء أرواحهم بدمه وروحه.

ثبتت الروايات الصحيحة أن الذي باشر قتل عثمان رضي الله عنه رجل من بني سدوس، خنقه قبل أن يضرب بالسيف^(١)، والرواية تنتهي إلى شاهد عيان مختلف في صحبته، لكنه شهد الحادثة^(٢)، قال كنانة مولى صفية: «رأيتُ قاتل عثمان، رجلاً أسود من أهل مصر، وهو في الدار رافعاً يديه، يقول: أنا قاتل نعثل»^(٣). «يقال له جبلة: أي الرجل الأسود»^(٤).

قال عبدالله بن شقيق - معاصر للأحداث - يروي عن عثمان: «أول من ضرب عثمان رومان الياني بصولجان»^(٥).

موقف الأنصار:

حدثت الفتنة في المدينة، وهي دار المهاجرين والأنصار، فكان لا بد أن يظهر للأنصار موقف مما يدور في مدينتهم من أحداث خطيرة تهدد الخليفة، وتتضافر روايات عدة لتقوي معارضة زيد بن ثابت على عثمان: «هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصار الله مرتين. فقال: لا حاجة لي في ذلك، كُفُّوا»^(٦).

(١) خليفة: التأريخ ١٧٤ - ١٧٥ بإسناد صحيح، وقارن الطبري: تأريخ ٤: ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) الذهبي: التجريد ٢: ١٧٣، وابن حجر: الإصابة ٤: ٩٩.

(٣) علي بن الجعد: المسند ٢: ٩٥٨ - ٩٥٩ بإسناد حسن.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٨٣ - ٨٤ بإسناد حسن، والمحجب الطبري: الرياض النضرة ٣: ٧١.

(٥) خليفة: التأريخ ١٧٥ بإسناد صحيح، وانظر روايته عن عثمان في ابن منجويه: رجال صحيح مسلم ١: ٣٦. والصولجان: المحجن.

(٦) خليفة: التأريخ ١٧٣ عن قتادة، وابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٢٠٥، وابن سعد: الطبقات ٣: ٧٠ والأخيران عن ابن سيرين وفيه انقطاع بين ابن سيرين وزيد، ويعتضد الطريقان إلى الحسن.

وقد ذكر محمد بن سيرين أن عدد الأنصار الذين كانوا مع زيد بن ثابت هو ثلاث مئة^(١). كما ذكر أن عدد من كان مع عثمان يومئذ في الدار سبع مئة^(٢). «لو يدعهم لضربوهم - إن شاء الله - حتى يخرجوهم من أقطارها». ولكن هذه الأرقام لم تثبت من طرق صحيحة، ولكنها محتملة، وتدل على موقف الأنصار في ذلك الوقت العصيب.

وتظهر الروايات المعتمدة أن بني عمرو بن عوف من الأنصار واعدوا الزبير بن العوام أن يأتروا بأمره في نجدة الخليفة عثمان^(٣).

وقد عرض حارثة بن النعمان على عثمان وهو محصور استعداد الأنصار للقتال ذوداً عنه^(٤)، ودخل الدار معه أبو أمامة بن سهل بن حنيف الأنصاري^(٥).

مواقف الصحابة في الفتنة

صفية أم المؤمنين:

قال كنانة مولى صفية: «كنت أقودُ بصفية، لترد عن عثمان، فلقيها الأشتر فضرب وجهه بغلته حتى (مالت)، فقالت: ردوني، ولا يفضحني هذا

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق - ترجمة عثمان - ٤٠٠، وهو مرسل محمد بن سيرين ولم يدرك زيد ابن ثابت.

(٢) ابن سعد: الطبقات ٣: ٧١ بإسناد صحيح إلى ابن سيرين، لكن ابن سيرين ولد سنة ٣٣ هـ لستين بقتاً من خلافة عثمان، ويبدو أن ابن سيرين نقل الخبر عن سليط بن سليط دون الرقم سبع مئة، وذلك في رواية خليفة ١٧٣ وفي إسناد خليفة سعيد بن عبد الرحمن لم يترجموا له، فهو مجهول.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق - ترجمة عثمان - ٣٧٤ نقلاً عن مصعب بن عبد الله الزبيري، وإسناد مصعب حسن لذاته.

(٤) البخاري: التاريخ الصغير ١: ١٠١ بإسناد صحيح.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٣: ٦٧ بإسناد صحيح.

الكلب»^(١). ولما أخفقت في الوصول إلى دار عثمان، وضعت خشباً بين سطح منزلها وسطح منزل عثمان - وكانت جاره - لنقل الطعام والشراب^(٢).

الزبير بن العوام:

بعث أبو حبيبة مولى عروة إلى عثمان وهو محصور يقرئه السلام ويقول: «إني على طاعتي لم أبدل ولم أنكث، فإن شئت دخلت الدار معك، وكنت رجلاً من القوم، وإن شئت أقمْتُ، فإن بني عمرو بن عوف وعدوني أن يصبخوا على بابي، ثم يمضون على ما أمرهم به» فطلب منه عثمان البقاء في مكانه «عسى الله أن يدفع بك عني»^(٣).

أبو ذر الغفاري:

توحي الدراسات الحديثة أن لأبي ذر رضي الله عنه وآرائه في سياسة المال والإنفاق أثراً كبيراً في أحداث الفتنة، وتعتمد على روايات واهية تفيد وقوع العداوة والبغضاء بينه وبين عثمان رضي الله عنه، وأن معاوية بن أبي سفيان اشتكى أبا ذر إلى عثمان، فأمر بإنفاذه إلى المدينة، ثم نفاه إلى الربذة، فماذا تقول الروايات الصحيحة؟

حكى أبو ذر رضي الله عنه اختلافه في الشام مع معاوية في تفسير الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب. فقلت: نزلت فينا وفيهم. فكان بيني وبينه في ذلك، وكتب إلى عثمان رضي الله عنه يشكوني، فكتب إلي عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها. فكثر علي الناس،

(١) البخاري: التاريخ الكبير ٧: ٢٣٧، وأحمد: المسند ٢: ٩٥٩، وابن سعد: الطبقات ٨: ١٢٨ بإسناد صحيح إلى كنانة، وهو شاهد عيان وثقه ابن حبان (الثقات ٥: ٣٣٩) والعجلي: الثقات ٢: ٢٢٩)، ويرى ابن حجر أنه مقبول (التقريب).

(٢) علي بن الجعد: المسند ٢: ٩٥٩ بإسناد صحيح.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق - ترجمة عثمان - ٣٧٤ نقلاً عن مصعب بن عبد الله الزبيري، وإسناد مصعب حسن.

حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرتُ ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئت تنحيت فكنت قريباً. فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمروا عليّ حبشياً لسمعتُ وأطعتُ^(١).

وقابل أبو ذر عثمان بعد عودته من الشام في رهط من غفار، منهم عبدالله ابن الصامت الغفاري، وبيّن له التزامه بطاعته «أخفتني، فوالله لو أمرتني أن أتعلق بعروة قتب حتى أموت لفعلتُ»^(٢). واستأذنه في الإقامة بالربذة، واعتذر عن عدم قبول أخذ إبل الصدقة التي عرضها عليه، ليصيب من لبنها «دونكم معاشر قريش دنياكم، فاعذموها، لا حاجة لنا فيها»^(٣).

ويوضح عبدالله بن الصامت الغفاري ظروف ذلك اللقاء:

قال أبو ذر لعثمان وهو يرفع عمامته عن رأسه: إني والله يا أمير المؤمنين ما أنا منهم - يعني من الخوارج - ولو أمرتني أن أعصّ على عرقوبي قتب لعضضت عليهما، حتى يأتيني الموت وأنا عاض عليهما.

قال عثمان: صدقت يا أبا ذر، إنما أرسلنا إليك خير، لتجاورنا بالمدينة.

قال أبو ذر: لا حاجة لي في ذاك، ائذن لي في الربذة.

قال: نعم^(٤).

لذلك كان محمد بن سيرين والحسن البصري ينكرون أن يكون عثمان قد أخرج أبا ذر إلى الربذة^(٥).

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٣: ٢٧١)، وابن سعد: الطبقات ٤: ٢٢٦ بإسناد صحيح، لأن سماع هشيم من حصين في اختلاط الأخير (ابن حجر: تهذيب التهذيب ١١: ٦١) وقد صرح هشيم بالتحديث.

(٢) عبدالرزاق: المصنف ١١: ٣٣٢ بإسناد صحيح.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٤: ٢٣٢ بإسناد صحيح، وعمر بن شبة: تأريخ المدينة ١٠٣٥ - ١٠٣٦.

(٤) عمر بن شبة: تأريخ المدينة ١٠٣٦ - ١٠٣٧ بإسناد حسن.

(٥) المصدر السابق ١٠٣٧.

وقالت أم ذر - زوجه -: والله ما سير عثمان أبا ذر، ولكن رسول الله ﷺ قال: «إذا بلغ البنيان سلعاً فأخرج منها» فلما بلغ البنيان سلعاً وجاوز خرج أبو ذر إلى الشام^(١).

وأما بالنسبة لرأي أبي ذر في سياسة المال وفهمه لآية الإنفاق، فلم يتغير بعد قدومه المدينة على عثمان، فقد دخل عليه وهو يقسم مال عبدالرحمن بن عوف بين ورثته وعنده كعب الأحبار، فسأله عثمان أمام أبي ذر: يا أبا إسحاق، ماتقول في رجل جمع هذا المال فكان يتصدق منه، ويحمل في السبيل، ويصل الرحم؟ فقال كعب الأحبار: إني لأرجو له خيراً فغضب أبو ذر، ورفع عليه العصا وقال: ما يدريك يا ابن اليهودية ليؤذن صاحب هذا المال يوم القيامة أن لو كان عقارب تلسع السويداء من قلبه^(٢).

وكان أبو ذر رضي الله عنه يعلن أن فضول أموال الأغنياء ينبغي أن توزع على الفقراء، وإلا فإنها كنز حرام، وهو اجتهد خاص لم يتابعه عليه الخليفة عثمان ولا بقية الصحابة.

أسامة بن زيد:

لما قيل لأسامة بن زيد أن يكلم عثمان رضي الله عنه في أحداث الفتنة، أجاب بأنه يكلمه في السر دون أن يفتح باب الفتنة^(٣).

الحسن بن علي بن أبي طالب:

لم يزل مع عثمان - وهو محصور - حتى عزم عليه ليخرج^(٤)، وكان قد خرج خلال المناوشات، فحمل من الدار^(٥).

(١) الحاكم: المستدرک ٣: ٣٤٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وانظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ٦٣/٢.

(٢) عمر بن شبة: تأريخ المدينة ١٠٣٦ - ١٠٣٧ بإسناد حسن.

(٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٦: ٣٣١، ١٣: ٤٨).

(٤) ابن عساکر: تأريخ دمشق - ترجمة عثمان - ٣٩٥، ٣٩٦.

(٥) البخاري: التأريخ الكبير ٧: ٢٣٧.

عبدالرحمن بن عوف:

قال سعد بن إبراهيم الزهري: «رأيت عبدالرحمن بن عوف بمنى مخلوقاً رأسه يبيكي، يقول: ما كنت أخشى أن أبقي حتى يقتل عثمان»^(١).

زيد بن ثابت:

«وكان يبيكي على عثمان يوم الدار»^(٢).

عبدالله بن عمر:

دخل دار عثمان رضي الله عنه للدفاع عنه، فأمره عثمان بعدم القتال، وبالإجارة بين الناس، وكان معه رجال من قومه بني عدي (ابن سراقه وابن مطيع) فغادروا الدار قبل مقتل الخليفة^(٣). وقد لبس ابن عمر درعه مرتين يوم الدار^(٤)، وتقلد سيفه حتى عزم عليه عثمان أن يخرج مخافة أن يُقتل^(٥).

تعليقات على مقتل الخليفة

آراء الصحابة وتوقعاتهم لنتائج مقتل عثمان رضي الله عنه

علي بن أبي طالب:

«والله ما قتلت عثمان، ولا أمرتُ بقتله، ولكن غلبتُ»^(٦) «وإن كنت لقتله لكارهاً»^(٧).

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٤٢ بإسناد صحيح. وفي طبعة علي شيري (٢/٣٩).

(٢) ابن سعد: الطبقات ٣: ٨١ بإسناد حسن.

(٣) خليفة: التأريخ ١٧٣ بإسناد صحيح.

(٤) خليفة: التأريخ ١٧٣ بإسناد حسن.

(٥) المصدر السابق بإسناد حسن. وفي طبعة علي شيري (٢/٣٩).

(٦) مسلم: الصحيح ٣: ١١٦٠.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٠٨، وانظر أقوالاً مماثلة في ابن عساكر: تأريخ دمشق - ترجمة عثمان - ٤٦٤.

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل:

قال في مسجد الكوفة: «لو أن أحداً أرفضّ للذي صنعتُم بعثان لكان محقّقاً أن يرفضّ»^(١).

أبو موسى الأشعري:

«إن قتل هذا - يعني عثمان - لو كان هدى لاحتلبت به العرب لبناءً، ولكنه ضلال، فاحتلبوا دماً»^(٢).

سمرة بن جندب:

«إن الإسلام كان في حصن حصين، وإنهم ثلموا في الإسلام ثلماً بقتلهم عثمان، وإنهم شرطوا شرطة، وإنهم لن يسدوا ثلمتهم إلى يوم القيامة، وإن أهل المدينة كانت فيهم الخلافة فأخرجوها ولم تعد فيهم»^(٣).

عائشة رضي الله عنها:

قال طلق بن خشاف: «قتل عثمان فتفرقنا في أصحاب النبي ﷺ نسألهم عن قتله، فسمعتُ عائشة قالت: قُتل مظلوماً، لعن الله قتلته»^(٤).

(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ١٧٦، ١٧٨ و ١٢: ٣١٥).

(٢) البخاري: التاريخ الكبير ١: ٣٦٩، وابن عساكر: تاريخ دمشق - ترجمة عثمان - ٤٨٩ - ٤٩٠، وإسناد البخاري فيه سعيد بن أبي عروبة اختلط بأخرة، ورواية ابن أبي عدي بعد اختلاطه (ابن الكيال: الكواكب النيرات ١٩٩) وفيه إسماعيل بن عمر إن لم يوثقه إلا ابن حبان، وأما إسناد ابن عساكر ففيه انقطاع، لأن قتادة لم يسمع أبا موسى الأشعري، ويقوى الطريقان ببعضهما إلى الحسن لغيره.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق - ترجمة عثمان - ٤٩٣ بإسناد حسن، ولا تضره كثرة إرسال وتدليس الحسن البصري، فقد ثبت سماعه عن سمرة (البخاري: الصحيح - فتح الباري ٩: ٥٩٠، ومحمد عبدالله سنينور: فتنة مقتل عثمان، الملحق ص ٧٦ - ٧٧).

(٤) البخاري: التاريخ الكبير ٤: ٣٥٨ بإسناد حسن.

وحكى مسروق بن الأجدع (ت ٦٣ هـ) عن عائشة قالت حين قتل عثمان: «تركتموه كالثوب النقي من الدنس، ثم قربتموه تذبحونه كما يذبح الكبش. فقال لها مسروق: هذا عملك أنت كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج إليه. فقالت عائشة: لا والذي آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون، ما كتبت إليهم بسوداء في بيضاء حتى جلستُ مجلسي هذا». قال الأعمش: فكان يرون أنه كتب على لسانها^(١).

وقد أوضحت عائشة عليها السلام موقفها من إرهابات الفتنة، فقالت: «كان القوم يختلفون إليَّ في عيب عثمان، ولا أرى إلا أنها معاتبه، فأما دمه فأعود بالله من دمه، والله لوددت أني أعيش برضاء صالح - أي مسلوخة الجلد - وإني لم أذكر عثمان قط» فذكرت كلاماً فضّلت عثمان على علي^(٢).

وكانت كلما ذكرت عثمان بكّت حتى لبيتل خمارها، وتقول: ماتمنيّت لعثمان شيئاً إلا أصابني، حتى إنني لو تمنيتُ أن يُقتل قُلتُ^(٣).

وأما عن تقويمها للمعارضين لعثمان، فيظهر من قولها لعبيد الله بن عدي ابن الخيار القرشي - من أبطال المسلمين - : «يا عبيد الله بن عدي لا يغرنك أحد بعد الذي تعلم، فوالله ما احتقرتُ أعمال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى نجم النفر الذين طعنوا على عثمان، فقالوا له قولاً لا يحسن مثله، وقرأوا قراءة لا يحسن مثلها، وصلوا صلاة لا يصلي مثلها، فلما تدبرْتُ الصنيع إذا هم والله ما يقاربون

(١) خليفة: التاريخ ١٧٦ بإسناد صحيحه ابن كثير (البداية والنهاية ٧: ٢٠٤)، وعن عنة الأعمش هنا لا تضر، وابن سعد: الطبقات ٣: ٨٢، وابن شبة: تاريخ المدينة ١٢٢٥، وابن عساكر: تاريخ دمشق - ترجمة عثمان - ٤٩٦. وقارن برواية ابن شبة: تاريخ المدينة ١٢٢٤ - ١٢٢٥ وفي سنده أم الحجاج العوفية مجهولة.

(٢) أحمد: مسائل الإمام أحمد، برواية إسحاق بن إبراهيم بن هانئ ٢: ١٧١ رقم ١٩٤٢، والخلال: كتاب السنة ٣٨٥ عن الإمام أحمد وإسناده صحيح.

(٣) أبو نعيم: الإمامة والرد على الرافضة ٣٣٠ بإسناد صحيح، وقارن مع البخاري: خلق أفعال العباد ٢٥ بإسناد صحيح.

أصحاب رسول الله ﷺ فإذا أعجبك حسن قول امرء فقل: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾^(١).

وهكذا أوضحت أن المعارضين برغم عباداتهم التي دونها عبادة الصحابة مما يجعل الناس ينجشون بهم، ويتهاونون في التعامل معهم.

بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة:

أصاب المسلمون بلاء عظيم بسبب مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه، إذ كان المسلمون قد مروا بانتقال السلطة سلماً بعد وفاة النبي ﷺ وبعد وفاة الصديق رضي الله عنه، لكنهم الآن أمام تجربة جديدة تمثلت باستخدام العنف في تغيير السلطة، ونجم عن ذلك مقتل الخليفة، وبقاء المنصب شاغراً، وسعى المعارضون إلى بيعة واحد من كبار الصحابة لملأ الفراغ في السلطة، فعرضوها على طلحة بن عبيد الله^(٢)، وعبدالله ابن عمر حتى هددوه بالقتل^(٣)، لكن أحداً لم يكن ليقبل منهم السلطة في ظروف الفتنة، لأنهم لا يمثلون الأمة، بل يمثلها كبار الصحابة في المدينة، وهم الذين يقبل الناس في أنحاء الدولة اختيارهم، وقد أدرك المعارضون ذلك^(٤) بعد فشل محاولاتهم. واشتد ذهول الناس، وتعدى الذهول عامتهم إلى قادتهم، يقول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: «ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسي، وجأؤوني للبيعة، فقلت: والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال له رسول الله ﷺ: ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة، وإني لأستحي من الله أن أبايع

(١) البخاري: خلق أفعال العباد ٢٥ بإسناد صحيح، وعبدالرزاق: المصنف ١١: ٤٤٧.

(٢) أحمد: فضائل الصحابة ٢: ٥٧٣ - ٥٧٤.

(٣) أحمد: فضائل الصحابة ٢: ٨٩٥ رقم ١٧٠٢، وابن سعد: الطبقات ٤: ١٥١ بإسناد صحيح، والحسن البصري شهد أحداث الفتنة بالمدينة وعمره أربع عشرة سنة (ابن حجر: تهذيب التهذيب ٢: ٢٦٦ - ٢٦٧).

(٤) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٢: ١٤٤ - ١٤٥)، وأحمد: المسند ١: ٣٢٣، والبلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٣٥ ب.

وعثمان قتيل على الأرض لم يدفن بعد، فانصرفوا. فلما دُفِنَ رجَعَ الناس فسألوني البيعة، فقلت: اللهم إني مشفق مما أقدم عليه، ثم جاءت عزيمة فبايعتُ. فلقد قالوا: يا أمير المؤمنين. فكأنما صدع قلبي، وقلت: اللهم خذ مني لعثمان حتى ترضى^(١).

بهذه الروح المرفهة الحزينة المليئة بالصفاء والوفاء لمعاني الأخوة وذكريات الرفقة استقبل علي بيعته بالخلافة، وقد استجاب لطلب الناس الملح، لينهي مرحلة مضطربة بسبب الفراغ في السلطة، وقد اشترط أن لا تكون بيعته سرّاً «فأخرجُ إلى المسجد فمن شاء أن يبايعني بايعني»، فخرج إلى المسجد وبايعه الناس^(٢).

وقد بين كل من طلحة بن عبيد الله التيمي، والزبير بن العوام - وهما من العشرة المبشرة بالجنة - أنهما بايعا مكرهين تحت التهديد من قتلة عثمان^(٣)، ولم يكونا راضيين عن الطريقة التي تمت بها بعيداً عن أهل الشورى، وفي ظروف يسود فيها العنف والاختلاف.

وجنح عبدالله بن عمر^(٤) إلى اعتزال الأحداث، وكذلك أسامة ابن زيد، وقال لعلّي: «لو كنت في شقّ الأسد لأحييتُ أن أكون معك فيه، ولكن هذا أمر لم أره»^(٥)، ومحمد بن مسلمة^(٦)، وسعد

(١) الحاكم: المستدرك ٣: ٩٥ وصححه على شرطها، ووافقه الذهبي. وله متابعة ضعيفة لدى الحاكم ٣: ١٠٣ بسند فيه الكدومي وهو ضعيف.

(٢) أحمد: فضائل الصحابة ٢: ٥٧٣ بإسناد حسن، والحاكم: المستدرك ٣: ٩٥ بإسناد حسن، وأبو نعيم: الإمامة ٣٢٩.

(٣) ابن أبي شيبه: المصنف ١١: ١٠٧ و ١٥: ٢٦١ بإسناد صحيح، والبلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٥٣٧ ب.

(٤) ابن أبي شيبه: المصنف ١١: ١٣٣ و ١٥: ٨١ بإسناد صحيح.

(٥) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٣: ٦١)، وابن سعد: الطبقات ٤: ٧١.

(٦) أحمد: المسند ٤: ٢٢٥ من زوائد عبدالله و ٣: ٤٩٣، والبخاري: التأريخ الصغير ١: ١٠٥، وابن ماجه: السنن ٢: ١٣١٠ رقم ٣٩٦٢ وتعتمد طريقته إلى الصحيح (الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣: ٣٦٩ رقم ١٣٨٠).

ابن أبي وقاص^(١)، وأهبان بن صيفي وقال لعلي: «إن خليلي وابن عمك ﷺ أمرني إذا كان قتال بين المسلمين أن أتخذ سيفاً من خشب»^(٢)، وعبدالله ابن سعد بن أبي سرح^(٣) وآخرون^(٤) فلم يبايعوا لأحد بالخلافة. لكن جمهور الصحابة من المهاجرين والأنصار بايعوا علياً، وتبعهم الناس.

وكانتبيعة علي بعد سبعة أيام من مقتل عثمان. وقد ثبتت أبا موسى الأشعري على ولاية الكوفة، فأخذ له البيعة من معظم أهلها^(٥).

وعزل علي والي مكة خالد بن العاص المخزومي، وعيّن بدله أبا قتادة الأنصاري مدة شهرين ثم عزله، وعيّن قثم بن العباس^(٦)، ويبدو أن الرأي العام بمكة كان غاضباً لعثمان، وتساعد الغضب لكثرة النازحين من المدينة إلى مكة على إثر سيطرة الثوار على المدينة^(٧).

وأرسل عثمان بن حنيف الأنصاري إلى البصرة والياً عليها بدلاً من عبدالله ابن عامر بن كريز واليها لعثمان، وكان قد ترك البصرة متجهاً إلى مكة. وقد انقسمت البصرة على الوالي الجديد، فمنهم من بايع، ومنهم من اعتزل، ومنهم من رفض البيعة حتى يُقتل قتلة عثمان، وهؤلاء الآخرون التفوا حول طلحة والزبير وعائشة حين قدم الثلاثة إلى البصرة^(٨).

(١) الحاكم: المستدرک ٣: ١١٥ دون إسناد.

(٢) أحمد: المسند ٥: ٦٩ و ٦: ٣٩٣، والطبراني: المعجم الكبير ١: ٢٧١ بإسناد حسن.

(٣) البخاري: التاريخ الكبير ٥: ٢٩.

(٤) عبد الرزاق: المصنف ١١: ٣٥٧، وأحمد: المسند (كما في الفتح الرباني للساعاتي ٢٣: ١٣٩)،

وابن عبد البر: الاستيعاب ١: ١٦، ٧٧.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٣٦ ب.

(٦) خليفة بن خياط: التاريخ ١٧٨، ٢٠١.

(٧) عبد الحميد علي ناصر: خلافة علي ١١٥ - ١١٧.

(٨) ابن سعد: الطبقات ٦: ٣٣٣.

وأما الشام فلم يبايع واليها معاوية بن أبي سفيان مطالباً بالقصاص من القتلة، لكنه لم يمد المعارضين بالبصرة.

وأما مصر فكان واليها عبدالله بن سعد بن أبي سرح قد تركها متجهاً إلى عسقلان، فاستولى عليها محمد بن أبي حذيفة مدة عام كامل، وواجه معارضة عثمانية تطالب بالقصاص من قتلة عثمان، فلما قتل بعد العام ولَّى عليٌّ عليها قيس ابن سعد بن عبادة الأنصاري، حيث تمكن من أخذ البيعة لعلي وهادن العثمانية^(١).

وأرسل علي عبيد الله بن العباس والياً على اليمن، فأخذ له البيعة من أكثر أهلها، وبقيت جماعات تطالب بالقصاص من قتلة عثمان، وعقب الصحابي ثمامة بن عدي والي صنعاء لعثمان على الأحداث بقوله، وهو يبكي بكاءً شديداً: «اليوم انتزعت خلافة النبوة من أمة محمد ﷺ، وصارت ملكاً وجبرية، من أخذ شيئاً غلب عليه»^(٢).

وكانت أخطر قضية تواجه الخليفة الجديد، هي مقاضاة قتلة عثمان، وإنفاذ القصاص فيهم، وكان ابن عباس قد نبّه علياً إلى خطورة الموقف قبل توليه الخلافة: «إن الناس سيلزموك دم عثمان»^(٣). فقد كانت المأساة الدامية تملأ النفوس بالحزن والندم على عدم بذل الوسع في الذود عن الخليفة، وإن كان ذلك يعني عدم التقيد بأوامر عثمان بالكف عن القتال.

وكان طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم قادة المطالبين بإنفاذ القصاص بقتلة عثمان، مشترطين ذلك للدخول في طاعة علي الخليفة الجديد..

(١) عبدالرزاق: المصنف ٢: ٤٥٨ بسند صحيح إلى الزهري، ثم هو من مراسيله، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٢٥٤، والبخاري: التاريخ الكبير ٥: ٢٩، والكندي: ولاة مصر ٢١.

(٢) عبدالرزاق: المصنف ١١: ٤٤٧، وابن سعد: الطبقات ٣: ٨٠ بسند صحيح، والبخاري: التاريخ الكبير ٢: ١٧٦.

(٣) عبدالرزاق: المصنف ١١: ٤٤٨ بإسناد صحيح، والذهبي: تاريخ الإسلام (٦١ - ٨٠ هـ) ص ٥٩.

وكان طلحة بن عبيد الله التيمي يحس بالتفريط وبالتهاون مع الثوار ومجاملتهم فيندم ويرغب في التكفير عن ذلك كله «كان في أمر عثمان ما لا أرى كفارته، إلا أن يُسفك دمي في طلب دمه»^(١) «كنا قد داهنّا في أمر عثمان، فلا نجد بدءاً من المبالغة»^(٢) - يعني بالمداينة: اللين مع الثوار. وبالمبالغة: التشدد في المطالبة بالقصاص - . ويبدو أن هذا الشعور كان يملك الكثيرين، بحيث شكلوا تياراً معارضاً قوياً يعادل في كثرة أتباعه وقوة دوافعه وعزمه على تحقيق أهدافه التيار المؤيد لخلافة علي، وهذا ما تكشف عنه الملاحم العظيمة في الجمل وصفين.

وكان علي بين تيارين قويين، فالمشاركون والمعرضون على قتل عثمان منهم حكيم بن جبلة العبدى زعيم الثوار البصريين، ومنهم عبدالرحمن بن عديس البلوي وكنانة بن بشر من زعماء الثوار المصريين، ومنهم مالك الأشتر النخعي من زعماء الثوار الكوفيين، ومنهم محمد بن أبي حذيفة الذي غلب على مصر، ومحمد بن أبي بكر، وكلهم لهم اختلاط بجيشه وتأثير على قبائلهم، وبعضهم ترك المدينة إلى الأمصار عقببيعة علي، فلم يكن قادراً على إنفاذ القصاص مع اختلاف الناس عليه^(٣).

وكان التيار الآخر ممثلاً بطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين، وكانوا يضغطون بقوة لإنفاذ القصاص بقتلة عثمان، ويرون أن علياً قد تخلّى عن القصاص^(٤). ولم يعذروه في سياسته التي تميل إلى إماتة الفتنة وتخطيها بعدم إيقاع القصاص، حتى يستتب له الأمر، ويدخل في بيعته الناس جميعاً، كما

(١) الحاكم: المستدرک ٣: ٣٧١ - ٣٧٢ وقال الذهبي: سنده جيد.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف ١١: ١٤٢ بسند صحيح.

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة ٤: ٤٠٧.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف ١١: ١١٨ بسند صحيح (ابن حجر: فتح الباري ١٣: ٣٤، ٥٧).

أنه صرح بأنه لا يعلم القتلة بأعيانهم: «والله لوددت أن بني أمية رضوا لنفلناهم خمسين رجلاً من بني هاشم يحلفون: ماقتلنا عثمان، ولا نعلم له قاتلاً»^(١). ولما مضت أربعة أشهر على بيعة علي دون أن ينفذ القصاص خرج طلحة والزبير إلى مكة^(٢)، ومنها جمعوا مؤيديهم الذين بلغ عددهم سبع مئة رجل^(٣)، وانطلقوا إلى البصرة مستهدفين القبض على القتلة من أهلها، وإنفاذ القصاص فيها، وقد بلغ عددهم عند وصولهم البصرة ثلاثة آلاف رجل، وذلك لالتحاق الناس بهم في الطريق إليها، وقد أنفق عبدالله بن عامر بن كريز ويعلى بن أمية أموالاً كثيرة في تجهيز هذا الجيش بمكة، حيث قدم يعلى بن أمية وحده أربع مئة بعير^(٤). وكان معظم أهل البصرة يؤيدون إيقاع القصاص بالقتلة، فكانوا مهئين نفسياً للانضمام إلى طلحة والزبير وعائشة عند قدومهم إليهم.

وكان الحزن يخيم على قلوب قادة المعارضة، فبرغم أن مطالبتهم بإنفاذ الحكم الشرعي يقوي موقفهم ويشعل حماسهم، إلا أن غموض المستقبل وما قد ينطوي عليه من ضياع الوحدة بين المسلمين وسفك دمائهم يبعث فيهم إحساساً أليماً، وأحياناً تردداً واضحاً.. لكنهم مضوا إلى أقدارهم بنفوس مثقلة بالهموم.

قال علقمة بن وقاص - شاهد عيان ثقة ثبت - : «ورأيت - يريد طلحة ابن عبيد الله - وأحب المجالس إليه أخلاها، وهو ضارب بلحيته على زوره، فقلت له: يا أبا محمد، إني أراك وأحب المجالس إليك أخلاها، وأنت ضارب

(١) سعيد بن منصور: السنن ٢: ٣٣٥ - ٣٣٦ رقم ٢٩٤٢ بإسناد صحيح.

(٢) الطبري: تاريخ ٤: ٤٣٩ بسند صحيح إلى الزهري، ثم هو مرسل لأن الزهري (ت ١١٤ هـ) لم يشهد الأحداث.

(٣) حدد الزهري عدد الجيش قبل خروجه من مكة بسبع مئة رجل، وقبل دخوله البصرة بثلاثة آلاف رجل (عبدالرزاق: المصنف ٥: ٤٥٦، والطبري: تاريخ ٤: ٤٥٢ من مرسل الزهري، والبلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٣٨ ب من مرسل صالح بن كيسان) ويعتضد الخبران المرسلان.

(٤) عبدالرزاق: المصنف ٥: ٤٥٦ من مرسل الزهري.

بلحيتك على زورك، إن تكره هذا اليوم فدعه، فليس يكرهك عليه أحد. قال: يا علقمة بن وقاص لا تلمني، كنا يوماً واحدةً على من سوانا، فأصبحنا اليوم جبلين يزحف أحدهما إلى صاحبه^(١).

وماذا عن القائد الآخر الزبير بن العوام؟

قال مطرف بن عبدالله بن الشخير - شاهد عيان ثقة فاضل - : «قلنا للزبير: يا أبا عبدالله، ماجاء بكم؟ ضيعتم الخليفة حتى قُتل، ثم جئتم تطلبون بدمه!». قال الزبير: إنا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(٢) لم نكن نحسب أنا أهلها، حتى وقعت منا حيث وقعت»^(٣).

وماذا عن عائشة ؓ؟

قال قيس بن أبي حازم البجلي - شاهد عيان ثقة - : «لما أقبلت عائشة بلغت مياه بني عامر ليلاً نبحت الكلاب. قالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوآب. قالت: ما أظنني إلا أني راجعة. إن رسول الله ﷺ قال لنا: «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوآب؟!». فقال لها الزبير: ترجعين!! عسى الله ﷻ أن يصلح بك بين الناس»^(٤).

(١) الحاكم: المستدرک ٣: ٣٧١-٣٧٢ وقال الذهبي: سنده جيد. والطبري: تأريخ ٤: ٤٥٣، ٤٧٦.

(٢) الأنفال: ٢٥.

(٣) أحمد: المسند ٣: ٩ (ط. أحمد شاكر) بإسناد حسن، وابن أبي خيثمة: التأريخ الكبير ٥٠: ٧٧ بمثل إسناد أحمد، وانظر البزار: كشف الأستار ٤: ٩١ رقم ٣٢٦٦ من طريق مطرف أيضاً، وابن أبي شيبه: المصنف ١١: ١١٥ عن الحسن البصري و ١٥: ٢٧٧، والطبري: تأريخ ٩: ٢١٨ ويعتضد الخبر إلى مرتبة الصحيح.

(٤) أحمد: المسند ٦: ٥٢، ٩٧ بإسناد صحيح، وقد جمعت بين المتنين والحاكم: المستدرک ٣: ١٢٠ وقال الألباني: إسناده صحيح جداً، صححه خمسة من كبار أئمة الحديث هم: ابن حبان، والحاكم، والذهبي، وابن كثير، وابن حجر (سلسلة الأحاديث الصحيحة ١: ٧٦٧ رقم ٤٧٤).

وهذا النص يكشف عن أمور مهمة، منها ما هو من أعلام النبوة، حيث أخبر الرسول ﷺ بأمر غيبي فوق كفاً أخبر، ومنها تردد عائشة رضي الله عنها في المضي إلى البصرة، ومنها أن المعارضين كانوا يرغبون في الإصلاح بين الناس مع تصميمهم على إنفاذ القصاص بقتلة عثمان. وقد دخلوا البصرة فانضم إليهم معظم سكانها، لكن البعض منهم اختاروا اعتزال الجميع، فقد حيرهم الأمر وهالهم الموقف، فلنستمع إلى أحدهم وهو الأحنف بن قيس التميمي من زعماء تميم وحكام العرب - وقد طلب منه الزبير بن العوام الانضمام إليهم - : «فأتاني أفضع أمر أتاني قط، فقلت: إن خذلاني هؤلاء، ومعهم أم المؤمنين، وحواري رسول الله ﷺ لشديد، وإن قتالي رجلاً ابن عم رسول الله ﷺ، وقد أمروني ببيعته لشديد»^(١). وهكذا اعتزل مع ستة آلاف من قومه الذين أطاعوه، وانخرط بقيتهم - وهم كثير - مع طلحة والزبير وعائشة^(٢).



(١) ابن أبي شيبه: المصنف ١١: ١١٨، والطبري: تاريخ ٤: ٤٩٧ - ٤٩٩، وابن حجر: فتح الباري ١٣: ٣٤ من طريق الطبري وقال: سند صحيح.
(٢) ابن سعد: الطبقات ٣: ١١٠ - ١١١.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

موقعة الجمل

موقعة الجمل

وصل المعارضون إلى البصرة، ففوجئ الناس بهم وارتاعوا وتعجبوا، قال كليب بن شهاب - شاهد عيان تابعي صدوق - : «لما قُتل عثمان رضي الله عنه أتانا الخبر ونحن راجعون من غزاتنا.. فانتهينا إلى البصرة، فلم نلبث إلا قليلا حتى قيل: هذا طلحة والزبير، معهما أم المؤمنين، فراع ذلك الناس وتعجبوا، فإذا هم يزعمون للناس أنهم إنما خرجوا غضباً لعثمان وتوبة مما صنعوا من خذلانه، وإن أم المؤمنين تقول: غضبنا لكم على عثمان في ثلاث: إمارة الفتى، وموقع الغمامة، وضربة السوط والعصا. فما أنصفنا إن لم نغضب له عليكم في ثلاث جررتوها إليه: حرمة الشهر، والبلد، والدم. فقال الناس: أفلم تبايعوا علياً، وتدخلوا في أمره؟ فقالوا: دخلنا والله - السيف - في أعناقنا»^(١).

وقد غلب المعارضون على البصرة دون أن يتمكن عثمان بن حنيف واليها علي من مقاومتهم، لأن قبائل البصرة انضم معظمها إليهم، وقد ألقى القبض على الوالي، ثم أطلق سراحه ليلتحق بعلي.. واتجه المعارضون إلى بيت المال ودار الرزق، فاعترضهم حكيم بن جبلة العبدى أحد الثوار المشاركين في حصار الدار بالمدينة، ومعه سبع مئة من قومه، وجرت معركة قُتل فيها حكيم بن جبلة، وسبعون من قومه كانوا قد شاركوا في حصار دار عثمان رضي الله عنه بالمدينة^(٢).

وسيطر المعارضون بقيادة الزبير بن العوام على البصرة^(٣)، وقوي موقفهم باستيلائهم على بيت المال، وفيه الذهب والفضة^(٤).

(١) الطبري: تاريخ ٤: ٤٩٠ بإسناد حسن.

(٢) الطبري: تاريخ ٤: ٤٦٩ من مرسل الزهري بسند صحيح إليه.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٣٩ ب بسند حسن.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٨٠ بإسناد صحيح.

أدرك علي عليه السلام خطورة الموقف، وما يمكن أن يجر إليه الخلاف من تمزيق الدولة الإسلامية، فعزم على إعادة المعارضين إلى الطاعة، واستنفر أهل المدينة للخروج معه، فاجتمع معه نحو سبع مئة رجل^(١)، وتناقل عنه عدد من كبار الصحابة منهم، سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر وأبو مسعود الأنصاري ومحمد بن مسلمة الأنصاري وعبدالله بن سلام وأسامة بن زيد وأهبان بن صيفي.. إذ رأوا أنها أحداث فتنة ينبغي عدم الخوض فيها. وقد اختص النبي ﷺ بعضهم بالتحذير من المشاركة في الفتن الداخلية، فاعتذروا لعل بذلك.

وقد حاول عبدالله بن سلام أن يثني علياً عن عزمه على الخروج من المدينة إلى العراق «لا تأت العراق، وعليك بمنبر رسول الله ﷺ فالزمه.. فوالله لئن تركته لا تراه أبداً». فقال رجال من حول علي: دعنا فلنقتله. فأجابهم: إن عبدالله ابن سلام منا رجل صالح^(٢).

وقد خرج علي من المدينة متجهاً إلى العراق، وقد عسكر في الربرة^(٣)، حيث أضيف إلى جنده مئتا رجل^(٤)، فبلغوا تسع مئة رجل.

وقد حاول الحسن بن علي ثني أبيه عن الذهاب إلى العراق وهو يبكي، لما أصاب المسلمين من الفرقة والاختلاف، لكن علياً رفض ذلك، وأصر على إعادة المعارضين له إلى الطاعة محتجاً ببيعتهم له بالمدينة^(٥).

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٤٥ ب بسند حسن.

(٢) ابن حجر: المطالب العالية (المسندة) ق ٦٣٠ - ٦٣١ نقلاً عن ابن إسحاق بن راهويه.

(٣) الربرة: قرية تقع شرق المدينة على بعد ٢٠٤ كيلومتر عنها، وعلى الإبل مسافة ثلاثة أيام ونصف اليوم للإبل السريعة (علي نائب العمري: النبذة في ترجمة أبي ذر وتاريخ الربرة ص ٢٦٩).

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٤٥ ب.

(٥) ابن أبي شبة: المصنف ١٥: ٩٩ - ١٠٠ بإسناد حسن و ٢٧٤، والبخاري: التاريخ الكبير ١: ٦٧، والحاكم: المستدرک ٣: ١١٥، والذهبي: تاريخ الإسلام (الخلفاء الراشدون) ٤٨٧.

وقد أرسل علي من الربذة رسولين لاستنفار الكوفيين، وهما محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن جعفر، فأخفقا في مهمتهما، لأن أبا موسى الأشعري والي الكوفة لعلي التزم موقف اعتزال الفتنة، وحذر الناس من المشاركة فيها^(١)، فأرسل علي رسولا ثالثا هو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، فأخفق في التأثير فيهم^(٢). فاتجه علي إلى ذي قار - قرب الكوفة - وعسكر بها^(٣)، ومنها أرسل عبدالله بن عباس، وأتبعه ابنه الحسن وعمار بن ياسر لاستنفار الكوفيين، كما عزل أبا موسى الأشعري عن الكوفة وولى عليها قرظة بن كعب^(٤).

ولم يتأثر عمار بن ياسر بملامة أبي موسى الأشعري وأبي مسعود الأنصاري له لتسرع في الأمر، بل صعد يوم الجمعة إلى المنبر وخاطب الناس قائلا: «أما والله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي»^(٥).

وهكذا شهد لعائشة عليها السلام بالجنة، وبصّر الناس بأن هذا امتحان لهم من الله، ليعلم إن كانوا يتبعون عواطفهم، أم ينقادون للحق فيتبعون علياً، وهو الخليفة الشرعي الواجب الطاعة...

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ١٢ بإسناد حسن، وأبو داود: السنن (مع شرح الخطابي) ٤: ٥٧ بإسناد حسن، والترمذي: السنن - نسخة تحفة الأحوذى - ٦: ٤٤٦ حديث رقم ٢٣٠٠ وقال: حسن غريب. والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤: ١٥٢٤ وقال: إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات رجال البخاري.

(٢) الطبري: تاريخ ٤: ٤٧٧ وفيه محمد بن أبي ليلى سيء الحفظ، وابن حجر: فتح الباري ١٣: ٥٨.

(٣) الطبري: تاريخ ٤: ٤٥٢ بسند صحيح إلى الزهري مرسلاً.

(٤) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٣: ٥٣ و ١٣: ٥٨) نقلاً عن ابن أبي شيبة وصحح الحافظ سنده.

(٥) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١٣: ٥٣ - ٥٤)، وابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٨٧، وخليفة: التاريخ ١٨٤، والطبراني: المعجم الأوسط ١: ٣٢٢، والذهبي: تاريخ الإسلام ٢: ١٤٩ (ط. القدسي)، وابن حجر: فتح الباري ١٣: ٥٨ - ٥٩.

وبعد هذا الاستنفار التحق ما بين الستة آلاف إلى السبعة آلاف رجل بجيش علي بن أبي طالب، كما التحق به ألفان من أهل البصرة من عبد القيس قبيلة حكيم بن جبلة، كما التحقت به قبائل أخرى، حتى بلغ جيشه نحو اثني عشر ألف رجل منهم ثمان مئة من الأنصار، وأربع مئة ممن شهد بيعة الرضوان^(١).

عسكر علي بالزاوية أياماً، وطلب من الأحنف بن قيس أن يكف الناس عن الالتحاق بالزبير - وكان الأحنف ممن بايع علياً بالمدينة - ، وأن يفني بوعده لطلحة بأن يعتزل القتال^(٢).

كانت المواجهة بين علي من ناحية والزبير وأصحابه من ناحية أخرى قرب قصر عبيد الله، وجرت محاولات لمنع القتال، قام بها المعتزلون للقتال «خرج كعب ابن سور ناشراً مصحفه، يُذكر هؤلاء، ويذكر هؤلاء، حتى أتاه سهم فقتله»^(٣).

وكذلك فإن الصحابي عمران بن الحصين أرسل إلى بني عدي رسولاً ينصحهم باعتزال الفريقين: «إني لكم ناصح، ويحلف بالله لئن يكون عبداً حبشياً مجدعاً، يرعى أعزاً في رأس جبل حتى يدركه الموت، أحب إليه من أن يرمي في أحد من الفريقين بسهم أخطأ أو أصاب فأمسكوا». فأجابوا رسوله: «دعنا منك أيها الغلام، فإننا والله لاندع ثقل رسول الله ﷺ لشيء أبداً»^(٤).

وكان الناس يحددون موقفهم من الصراع بسؤال كبار الصحابة أحياناً، وقد تأتي الفتوى ضد مصلحة المفتي، فقد سأل مالك بقبيلة ربيعة الزبير عن

(١) عبد الرزاق: المصنف ٥: ٤٥٦ - ٤٥٧، والطبري: تاريخ ٤: ٥٠٨ كلاهما بإسناد صحيح إلى الزهري. وخليفة بن خياط: التاريخ ١٨٤ من مرسل سعيد بن جبير، والبلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٤٥ ب بسند حسن وتعضد الطرق.

(٢) الداني: الفتن ١٩٤ ب - ١٩٥ أ، والطبري: تاريخ ٤: ٥٠٠ - ٥٠١.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٧: ٩٢ وصححه ابن حجر (فتح الباري ١٣: ٣٤).

(٤) ابن سعد: الطبقات ٤: ٢٨٧ - ٢٨٨ بإسناد حسن، والطبراني: المعجم الكبير ١٨: ١٠٥، والطبري: تاريخ ٤: ٥٢ وتعضد هذه الطرق إلى الصحيح لغيره.

موقفهم: «مع من تكون العبيد؟ قال: مع مواليتهم. قلنا: فإن موالينا مع علي. قال: فكأنما ألقمناه حجراً»^(١).

وقبل نشوب القتال بثلاثة أيام نصبت خيمة بين المعسكرين، التقى فيها علي وطلحة والزبير في محاولة لإيجاد حل سلمي للموقف^(٢)، كما أرسل علي عبدالله بن عباس إلى طلحة والزبير يسألهم: «هل أحدث ما يوجد السخط على خلافتي، كحيف في حكم، أو استئثار بفيء؟ أو في كذا؟ فقال الزبير: ولا في واحدة منها»^(٣).

وقد أخفق الطرفان في التوصل إلى حل خلال الأيام الثلاثة، وعرض رجل على الزبير أن يغتال علياً بعد التظاهر بالالتحاق به، فرفض الزبير ذاكراً حديث: «لا يفتك مؤمن».

وفي اليوم الرابع حدث الالتحام بين الجيشين، وتؤكد رواية صحيحة أن جيش الزبير وطلحة هو الذي بدأ القتال، وأن علياً أصدر أمره بالقتال بعد صلاة الظهر، واستمر القتال ساعات «فما غربت الشمس وحول الجمل عين تطرف ممن كان يذب عنه»^(٤). ويتضح الموقف المأساوي أكثر فأكثر، فيشك الزبير وهو القائد الأول بشرعية الموقف، ويلاحظ عظم المصائب واختلاف الناس، فينصرف عن الميدان دون أن يقاتل^(٥)، ولحق به عمير بن جرموز وآخران إلى سفوان فاغتالوه^(٦). وهكذا انتهت حياة القائد الأول، وتبعه القائد الثاني طلحة

(١) الداني: الفتن ١٦ ب وفي إسناده أبو كنانة شاهد عيان مجهول الحال (البخاري: التاريخ الكبير ٨: ٦٥).

(٢) أحمد: فضائل الصحابة ٢: ٥٩٦ بسند حسن، وابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٢٦٧.

(٣) المصدرين السابقين.

(٤) ابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٢٨٦ - ٢٨٧ بإسناد صحيح (ابن حجر: فتح الباري ١٣: ٥٧).

(٥) الحاكم: المستدرک ٣: ٣٦٦ بإسناد حسن، وانظر الذهبي: تاريخ الإسلام (الخلفاء الراشدون) ٥٠٥.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٣: ١١٠ بإسناد صحيح (ابن حجر: الإصابة ١: ٥٢٦)، وخليفة: التاريخ ١٨٦، وابن أبي عاصم: الأحاد والمثاني ١: ١٦٠.

ابن عبيد الله فقد رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله، فدفن على شط الكلاء^(١).
وأثخن الجراح عبدالله بن الزبير فأخذ من وسط القتلى، وبه بضع وأربعون
طعنة وضربة^(٢).

«وقد قتل بشر كثير حول عائشة يومئذ، سبعون كلهم قد جمع القرآن، ومن
لم يجمع القرآن أكثر»^(٣).

قال أبو رجاء عمران بن ملحان العطاردي - شاهد عيان - : «لقد رأيت
الجمال يومئذ كأنه قنفذ من النبل، ورجل أخذ بالخطام وهو يقول:
نحن بنو ضبة أصحاب الجمل
ننازل الموت إذا الموت نزل
والموت أحلى عندنا من العسل

نبغي ابن عفان بأطراف الأسل^(٤)

وكانت عائشة على جمل أحمر في هودج أحمر^(٥)، وقد تكلمت في المريد لاعنة
قتلة عثمان، فلما سمع علي ذلك لعن قتلة عثمان^(٦). وكان مؤيدوها «يهتفون بقتلة
عثمان» فلما نقل ذلك لعلي قال: «اللهم أحلل بقتلة عثمان خزيًا»^(٧).

(١) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٢٣ بإسناد صحيح، وخليفة: التأريخ ١٨٦، وابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٥٩، والحاكم: المستدرک ٣: ٣٧٠.

(٢) ابن عساکر: تأريخ دمشق - ترجمة عبدالله بن الزبير - ص ٤٢٧ نقلاً عن يحيى بن معين بإسناد صحيح.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤: ٢٨٧ - ٢٨٨ بإسناد صحيح لغيره، وأبو نعام: توبع (الطبراني: المعجم الكبير ١٨: ١٠٥)، وروايته عن حميد بن هلال في صحيح مسلم (شرح النووي) ٢: ٨ فلا يضر اختلاطه.

(٤) خليفة: التأريخ ١٩٠ بإسناد حسن.

(٥) الطبري: تأريخ ٤: ٥٣٢ - ٥٣٣ بإسناد فيه مقبول، فيحتاج إلى متابعة، لكن الرواية مما يتساهل فيه.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٦٨ بإسناد صحيح.

(٧) المصدر السابق ١٥: ٢٧٧ بإسناد صحيح.

وارتفعت أصوات الدعاء في المعسكرين.. يقول الحارث بن سويد الكوفي - شاهد عيان ثقة ثبت - : «لقد رأيتنا يوم الجمل، وإن رماحنا ورماحهم لمتشاجرة، ولو شاءت الرجال لمشت عليه، يقولون: الله أكبر، سبحان الله، الله أكبر. وترتفع أصوات تؤكد سلامة موقف المقاتلين دينياً «ليس فيها شك» - أي لا يشكون في شرعية قتالهم للطائفة الأخرى - و«ليتني لم أشهد» - موقف الندم للشعور بأنها فتنة والشك في شرعية القتال - و«ما سرنى أني لم أشهد» - مؤكداً على وضوح الرؤية الشرعية في القتال إلى جانب علي - ^(١). ويتساقط القتلى من الجانبين «قتل يوم الجمل عشرون ألفاً» ^(٢) - والرقم لا يخلو من مبالغة، ولكنه يعبر عن عمق الشعور بمرارة الحادثة - ، «قتل ألفان وخمس مئة من الأزد، وثمان مئة من بني ضبة» - وبني ضبة من تميم - والراويان من بني تميم أحدهما ثقة والآخر صدوق ناصبي ^(٣)، لكن رواية الطبري عن أحدهما تذكر «قتل علي يوم الجمل ألفين وخمس مئة، ألف وثلث مئة وخمسون من الأزد، وثمان مئة من بني ضبة وثلث مئة وخمسون من سائر الناس» ^(٤).

وهكذا فقد جيش المعارضين قاداته.. واشتد القتال حول جمل عائشة عليها السلام، فأمر عبدالله بن بديل بعقر الجمل لينتهي القتال، ثم نزل مع أخيها محمد بن أبي بكر الصديق فاحتملا الهودج، حتى وضعاه بين يدي علي، فأمر به فأدخل في منزل - خباء - عبدالله بن بديل ^(٥).

(١) خليفة: التاريخ ١٩٨ بإسناد صحيح.

(٢) خليفة: التاريخ ١٨٦ بإسنادين ضعيفين: أحدهما فيه انقطاع، والآخر فيه مجاهيل.

(٣) خليفة: التاريخ ١٨٦ مرسلاً، والطبري: تاريخ ٤: ٥٤٥ بإسناد حسن.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ١٤٥، والطبري: تاريخ ٤: ٥٤٥.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٨٤ - ٢٨٥ بإسناد صحيح (ابن حجر: فتح الباري ١٣: ٥٧).

«فلم ينشب أهل البصرة أن انهزموا، فصرخ صارخ لعلي: لا يقتل مُدبر، ولا يدفف على جريح، ومن أغلق باب داره فهو آمن، ومن طرح السلاح فهو آمن»^(١).

أدرك الطرفان خسارتهم، وحلت مراجعة النفس محل الغضب، وفتت الندم قلوبهم... وذابت نفوسهم حسرة على ما حدث، حيث التقى المسلمان بسيفيهما في فتنة داخلية اتضحت معالمها، ولم يتمكنوا من تجنبها، فمضوا لا يغالبون أقدارهم حتى انجلت عن صرعى من خيرة المسلمين من الطرفين، دون إنجاز لصالح دنياهم أو دينهم... بل إن الألم والندم تملكا القادة خلال القتال، قال الحسن ابن علي يصور الحالة النفسية لعلي عليه السلام: «لقد رأيته حين اشتد القتال يلوذُ بي، ويقول: يا حسن لو ددتُ أني مت قبل هذا بعشرين حجة - أو سنة»^(٢).

ولما رأى علي محمد بن طلحة بن عبيد الله قتيلاً قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، أما والله لقد كان شاباً صالحاً» ثم قعد كئيباً حزيناً^(٣).

وقد زاره عمران بن طلحة بن عبيد الله بعد سنين، فرحب به علي قائلاً: «إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾»^(٤). وأعاد إليه أراضيه قائلاً: «أما إنا لم نقبض أرضكم هذه السنين ونحن نريد أن

(١) سعيد بن منصور: السنن ٢: ٣٣٧-٣٣٨ بإسناد حسن، وأحمد: المسند ١: ١٠٢، وابن أبي عاصم: السنة ٢: ٦١٠، وأحمد: فضائل الصحابة ٢: ٧٣٧، والطبراني: المعجم الكبير ١: ٨٣، وابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٢٦٧.

(٢) ابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٢٨٨ بإسناد صحيح، وعبد الله بن أحمد: السنة ٢: ٥٦٦، ونعيم ابن حماد: الفتن ١: ١٩ ب، والطبراني: المعجم الكبير ١: ٧٢ حديث رقم ٢٠٣.

(٣) الحاكم: المستدرک ٣: ١٠٣-١٠٤، ٣٧٥ بإسناد حسن لغيره، ونعيم بن حماد: الفتن ١: ١٨١ بإسناد صحيح.

(٤) الحجر ٤٧.

نأخذها، إنما أخذناها مخافة أن ينتهبها الناس»^(١). وكثيراً ما ردّد هذه الآية وأظهر محبته لطلحة والزبير برغم اختلافهما معه^(٢).

وأما الابن الثالث لطلحة فقد بايع عليّاً بعد الجمل مباشرة، ورجع إلى أهله وماله، واطمأن المعارضون فدخلوا إلى علي وباعوه^(٣). وهكذا كان علي باراً بأخيه الذي خاصمه وقاتله متأولاً.

وأما نظرتة للزبير بن العوام فقد عقب علي مقتله بقوله: «بشر قاتل ابن صفية بالنار»^(٤).

ولم تكن الحسرة على ما حدث تحتص بعلي رضي الله عنه، فهذه عائشة رضي الله عنها تقول: «وددت أني كنت غصناً رطباً ولم أسر مسيري هذا»^(٥). وتقول: «وددت أني كنت قد ثكلت عشرة مثل الحارث بن هشام، وأنّي لم أسر مسيري مع ابن الزبير»^(٦)، وتقول: إنه كان قدراً^(٧). وكانت تترحم على قتلى الطرفين إذا ذكروا، وقد ترحمت على طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وزيد بن صوحان، والأخير كان في صف علي، فقال خالد بن الواثمة: يرحمك الله تترحمين عليهم وقد قتل

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٢٢٤، والبلاذري: أنساب الأشراف ١٣: ٨٥ ب - ٨٦ أ، والطبري: تفسير ١٤: ٣٧، والحاكم: المستدرک ٣: ٣٧٦ وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أحمد: فضائل الصحابة ٢: ٦١٨ بإسناد صحيح.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٧٦، وأبو العرب: المحن ٣٥٠.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٠٥، والطيالسي: المسند ٢٤، وأحمد: المسند ١: ١٠٢، وفضائل الصحابة ٢: ٧٣٧، وابن أبي عاصم: السنة ٢: ٧٣٧ بإسناد حسن مداره على أبي عاصم ابن بهدلة صدوق له أوهام.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٨١ بإسناد صحيح.

(٦) الحاكم: المستدرک ٣: ١١٩ بإسناد حسن، والهيثمي: مجمع الزوائد ٧: ٢٣٨ وفي سنده أبو معشر نجيب ضعيف.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٨١، والبلاذري: أنساب الأشراف ٢: ١٤٦ وإسناده حسن، لأن رواية أحمد بن يونس عن أبي بكر بن عياش في صحيح البخاري (فتح الباري ١٣: ٤٧٣).

بعضهم بعضاً، والله لا يجمعهم الله في الجنة أبداً!! قالت: أو لا تدري أن رحمة الله واسعة، وهو على كل شيء قدير. فقال خالد: فكانت أفضل مني^(١).

ولا تقدم الفتن حتى غنائم الحرب، قسم علي يوم الجمل في العسكر ما أجلب عليه المعارضون من سلاح أو كراع^(٢)، ودفع لكل مقاتل خمس مئة درهم^(٣) وليس ثمة شيء آخر.. إذ «إن علياً لم يسب يوم الجمل ولم يُخمس، قالوا: يا أمير المؤمنين ألا تُخمس أموالهم؟ فقال: هذه عائشة تستأمرونها!! قالوا: ما هو إلا هذا ما هو إلا هذا»^(٤).

وتعتضد روايات عدة لبيان رأي علي في حكم الشرع فيما حدث من فتنه وقتال: «سئل علي رضي الله عنه عن أهل الجمل فقال: إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم، وقد فاءوا وقد قبلنا منهم»^(٥).

وكانت أحكام البغاة التفصيلية بحاجة إلى تجلية، وقد جلاها علي بعقليته الفقهية العميقة، وروحه المتشعبة بفهم مقاصد الإسلام وأهدافه العليا. «قال عمار لعلي يوم الجمل: ما ترى في سبي الذرية؟ فقال: إنما قاتلنا من قاتلنا - أي أنه استجاز القتال دفاعاً عن النفس، لأن خصومه شرعوا في قتاله - قال عمار: لو قلت غير هذا لخالفناك»^(٦).

(١) البيهقي: السنن الكبرى ٨: ١٧٤ بإسناد حسن وساق له طرقاً أخرى.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٦٣ بإسناد ضعيف، ٢٨١ بإسناد حسن.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٦٣ بإسناد حسن.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٥٧ بإسناد صحيح، والبيهقي: السنن الكبرى ٨: ١٨٢.

(٥) البيهقي: السنن الكبرى ٨: ١٨٢ بسند فيه العطاردي ضعيف في غير سماعه لسيرة ابن إسحاق، وابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٥٦ - ٢٥٧ مرسل أبي البخري و ١٥: ٢٥٨، ٢٧٧ مرسل محمد الباقر.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٦٩ - ٢٧٠ بإسناد حسن، والبيهقي: السنن الكبرى ٨: ١٨١ - ١٨٢.

ويحكي الحافظ الزهري إجماع الصحابة على حصانة أموال وأعراض الخارجين على الحاكم بتأويل.. «أما بعد، فإن الفتنة الأولى ثارت وأصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد بدرًا كثير. فاجتمع رأيهم على أن لا يقيموا على أحد حدًا في فرج استحلوه بتأويل القرآن، ولا قصاص في قتل أصابوه على تأويل القرآن، ولا يرد ما أصابوه على تأويل القرآن، إلا أن يوجد بعينه فيرد على صاحبه»^(١).

وتتضافر روايات تؤكد أن النبي ﷺ أخبر عليًا بما سيكون بينه وبين عائشة، وأوصاه بها خيرًا، فكانت أحداث الفتنة من أعلام النبوة التي تحققت في جيل الصحابة رضوان الله عليهم^(٢).



(١) ابن أبي شيبة: المصنف ١٠: ١٢٠ - ١٢١ بإسناد صحيح إلى الزهري.
 (٢) الهيثمي: كشف الأستار ٤: ٩٣ - ٩٤ نقلًا عن البزار، وأحمد: المسند ٦: ٣٩٣ من زوائد ابنه عبدالله، والطبراني: المعجم الكبير ١: ٣١٤ رقم ٩٩٥ ومداره على الفضيل بن سليمان وهو صدوق له خطأ كثير (التقريب ٢٩١٢) ولكن ابن حجر حسن سند عبدالله والبزار (فتح الباري ١٣: ٥٥) وله شاهد حسنه ابن عساكر (مناقب أمهات المؤمنين ٧١ رقم ١١).

إِفْطِيحُ الْإِسْلَامِ

معركة صفين

معركة صفين

لم يمكث علي بعد موقعة الجمل بالبصرة طويلاً، فما إن أعطى أهلها بيعتهم واستقام له الأمر فيها، حتى اتجه بجيشه نحو الكوفة، حيث يلقي تأييداً قوياً من أهلها في مواجهة معاوية بن أبي سفيان بالشام، الذي أصر على معاقبة قتلة عثمان قبل إعطاء البيعة لعلي، ويتضح موقفه وهو يحاور القراء من رجاله، مما توضحه الرواية الآتية: «جاء أبو مسلم الخولاني وناس معه إلى معاوية، فقالوا له: أنت تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال معاوية: لا والله إني لأعلم أن علياً أفضل مني، وإنه لأحق بالأمر مني، ولكن أستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنا ابن عمه، وإنما أطلب بدم عثمان، فأتوه فقولوا له فليدفع إلي قتلة عثمان وأسلم له^(١)، فأتوا علياً فكلموه بذلك، فلم يدفعهم إليه^(٢). وكان معاوية يؤكد على هذا المعنى «ما قاتلت علياً إلا في أمر عثمان»^(٣).

وقد رأى معاوية أنه ولي دم عثمان، لأنه صار رأس بني أمية مكانه، والأحاديث النبوية تدل على أن عثمان يُقتل مظلوماً، بل تذكر أن النبي ﷺ أوصاه بأن لا يخلع نفسه من الخلافة، ووصف الثائرين عليه بالمنافقين^(٤). وشهد الصحابي كعب بن مرة البهزي أمام معسكر معاوية أن النبي ﷺ قال عن عثمان ابن عفان: «لتخرجن فتنة من تحت قدمي هذا - أو من بين رجلي هذا - ، هذا

(١) يعني أنه يبايعه بالخلافة.

(٢) ابن عساکر: تاريخ دمشق ١٦: ٣٥٦ ب، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣: ١٤٠، وابن حجر: (فتح الباري ١٣: ٨٦) وحسن ابن حجر إسناده يحيى بن سليمان الجعفي - أحد شيوخ البخاري - في كتاب صفين، والكتاب مفقود شأن العديد من المصنفات عن صفين مثل كتاب صفين لعبدالله بن أحمد بن حنبل، وكتاب صفين لابن ديزيل (أبو إسحاق إبراهيم بن الحسين ابن ديزيل وثقه الذهبي في تذكرة الحفاظ ٢: ٦٠٨).

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف ١١: ٩٢ بإسناد حسن.

(٤) أحمد: المسند ٦: ٧٥، ٨٦، ٨٧، ١٤٩، والترمذي: السنن تحفة الأحوذي ١٠: ٢٠٠، وابن ماجة: السنن ١: ٤١، ١١٢، ١١٣. وصححه الألباني (صحيح ابن ماجة ١: ٢٥).

ومن اتبعه يومئذ على الهدى»، وإذا كان المدافعون عن عثمان كانوا على الهدى خلافاً للثائرين عليه الذين سيكونون أصحاب ضلالة، فإن الموقف في نظر معسكر معاوية ينسحب عليهم ليصبحوا أصحاب الهدى، ويصبح خصمهم على ضلالة، وهكذا استحلوا القتال متأولين، ولم يتبين خطأهم إلا فيما بعد مقتل عمار بن ياسر في صفين، ومقتل المخدج في النهروان.. فالذين استندوا إلى نصوص شرعية في تحديد مواقفهم كانوا يواجهون تحديات التفسير والتأويل للنصوص، وكانت أحداث الفتن تؤثر في نضوج الرأي الشرعي، وتمنع استنارة البصيرة.

وقد وقف عدد من فقهاء الصحابة خارج الصراع، مثل سعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة الأنصاري وعبد الله بن عمر وآخرين رضي الله عنهم جميعاً.

وجهاز علي رضي الله عنه جيشاً كبيراً قُدِّرته الروايات ما بين خمسين ألفاً ومئة وخمسين ألفاً^(١)، في حين قدرت جيش معاوية بستين ألفاً أو سبعين ألفاً أو مئة وعشرين ألفاً^(٢)، وإذا كان ديوان الجند في أول خلافة علي يضم مئة ألف مقاتل من البصريين والكوفيين^(٣)، فإن جيش علي ينبغي أن يبلغ أكثر من خمسين ألف مقاتل، ولكن الإخباريين يشيرون إلى تخلف أزد البصرة^(٤)، كما أن الأشرع ضعف حماسه للقتال، بل ثبط قومه عندما نصحهم بالتبصر في الأمر، قال عمير

(١) خليفة: التأريخ ١٩٣ بسند حسن.

(٢) قدرت الروايات الضعيفة عدد الجيش بسبعين ألفاً، وتسعين ألفاً، ومئة ألف، ومئة وعشرة آلاف، ومئة وعشرين ألفاً، ومئة وخمسين ألفاً (الذهبي: دول الإسلام ١: ٢٨ دون سند، وخليفة: التأريخ ١٩٣ بسند فيه مجاهيل، وابن كثير: البداية والنهاية ٧: ٢٦٠، وابن دحية: أعلام النصر ١٤ دون سند، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتأريخ ٣: ١١٣ بسند منقطع، وابن كثير: البداية والنهاية ٧: ٢٦٠ وراجع عن دراسة الروايات عبد الحميد علي ناصر: خلافة علي، الملحق رقم ١٧٢).

(٣) صالح العلي: امتداد العرب في صدر الإسلام ٢٥، ٢٦.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ق ٥١ أعن أبي مخنف وغيره، وأبو مخنف أزد متعاطف بقوة مع علي، فلا يمكن أن يعتمد التقليل من مشاركة قبيلته في صفين دون حق.

ابن سعيد النخعي الكوفي (ت ١٠٧ هـ): «لما رجع علي من الجمل وتبهاً لصفين، اجتمعت النخع حتى دخلوا على الأشر، فقال: هل في البيت إلا نخعي؟ فقالوا: لا. فقال: إن هذه الأمة عمدت إلى خيرها فقتلته، وسرنا إلى أهل البصرة، قوم لنا عليهم بيعة، فنصرنا عليهم بنكثهم، وإنكم تسرون غداً إلى أهل الشام، قوم ليس لكم عليهم بيعة، فلينظر كل امرئ منكم أين يضع سيفه»^(١). وهذه النصيحة المثقلة بالورع تدل على غضب الأشر لعدم حصوله على ما كان يتوقعه من إمارة البصرة التي تولّاها ابن عباس^(٢)، ولا تعبر عن تغير دائم في موقفه من مواجهة معاوية والشاميين، فقد كان من مثيري الفتنة ضد عثمان. وإنما يطالب معاوية برأسه ورؤوس أمثاله من الذين تمالؤوا على قتل عثمان.

وبالمقابل فقد اشترك الأحنف بن قيس التميمي وعشيرته في جيش علي، وكان معترلاً لحرب الجمل بإذن من علي رضي الله عنه^(٣).

وقد تجمع جيش علي بالنخيلة غرب الكوفة، وقد ضم عدداً من الصحابة البدرين وأصحاب بيعة الرضوان^(٤)، ويذكر الإخباري عوانة بن الحكم أن علياً بعث من النخيلة اثني عشر ألف مقاتل باتجاه الموصل، ثم اجتاز إلى المدائن فأرسل منها ثلاثة آلاف مقاتل^(٥)، ثم مضى علي بجيشه من المدائن إلى محاذة الموصل نينوى^(٦)، ثم عبر الفرات قرب الرقة، حيث نزل على صفين، وكانت

(١) ابن أبي شبة: المصنف ١١: ١١٢ و ١٥: ٢٦٥، والحاكم: المستدرک ٣: ١٠٧ بسند حسن.

(٢) الطبري: تاريخ ٤: ٤٩٠ بسند حسن.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ٥١ أ عن أبي مخنف وغيره.

(٤) بالغ ابن دحية في تقدير أعدادهم حتى ذكر أنهم سبع مئة من أصحاب الشجرة، وذلك لبيان أن الحق مع علي، ولكن ترجيح موقف علي واضح لا يحتاج إلى هذه المبالغات (عبد الحميد علي ناصر: خلافة علي ١٨٨ - ١٨٩).

(٥) الطبري: تاريخ ٤: ٥٦٥ بإسناد منقطع.

(٦) أحمد: المسند ١: ٨٥، وأبو يعلى الموصلي: المسند ١: ٢٩٨.

مدن الجزيرة مثل الرقة وقرقيسياء وعانات وهيت موالية لمعاوية، ومعظمهم من بني الأرقم، وهو حي عظيم من كندة، وقد شهدوا صفين مع معاوية^(١).

وكان الجيش الشامي قد عسكر في صفين واستولى على المياه، ومنع جيش العراق منها، فقام الأشعث بن قيس - بأمر علي - بتخليص المياه من أيدي الشاميين^(٢) وكان ذلك في بداية شهر ذي الحجة سنة ٣٦ هـ، ثم استمر القتال بشكل كتائب محدودة العدد طيلة الشهر والأسبوع الأول من محرم ٣٧ هـ دون أن يلتحم الجيشان، وكان الأمل في الصلح يحدو الجميع، ويرى الإخباريون أن عدد الوقعات بين الطرفين تزيد على السبعين^(٣).

ثم في يوم الأربعاء اللاحق بدأ الالتحام بين الجيشين، وكان قادة جيش علي رضي الله عنه هم: علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس، وعمار بن ياسر، ومحمد ابن الحنفية، وهاشم بن عتبة، والمرقال، والأشعث بن قيس. أما قادة جيش معاوية رضي الله عنه فهم: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وذو الكلاع الحميري، وحبيب بن مسلمة الفهري، والمخارق بن الصباح الكلاعي^(٤)، وعبدالله بن عمرو بن العاص^(٥).

وقد وصف أبو العالية الرياحي - شاهد عيان ثقة (ت ٩٠ هـ) - المعركة بقوله: «لما كان زمن علي عليه السلام ومعاوية، وإني لشاب القتال أحب إلي من الطعام

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق عبدالعزيز السلومي (أطروحة دكتوراه بجامعة أم القرى، وهي قطعة ساقطة من المطبوع) ٢: ٦٣٨ - ٦٤٠ دون سند. والبلاذري: أنساب الأشراف ٥١ أ، وابن حجر: الإصابة ١: ٢٥٩ - ٢٦٠، وصالح العلي: امتداد العرب في صدر الإسلام ٩٨ - ٩٩، وعبد الحميد علي ناصر: خلافة علي ١٨٩ - ١٩٠.

(٢) ابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٢٩٤، وخليفة: التأريخ ١٩٣ بسند حسن.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٣: ٨٦ نقلاً عن تأريخ ابن أبي خيثمة، وأما المصدر المتقدم في ذكر الخبر فهو نصر بن مزاحم (صفين ٢٠٢).

(٤) خليفة: التأريخ ١٩٣ بسند حسن إلى شاهد عيان.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٤: ٢٦٦ بسند صحيح.

الطيب، فتجهزت بجهاز حسن حتى أتيتهم، فإذا صفان لا يرى طرفاهما، إذا كبر هؤلاء كبر هؤلاء، وإذا هلّل هؤلاء هلّل هؤلاء. قال: فراجعت نفسي، فقلت: أي الفريقين أنزلهُ كافراً، وأي الفريقين أنزلهُ مؤمناً؟ فما أمسيتُ حتى رجعت وتركتهم»^(١).

ولم ينفرد أبو العالية الرياحي بالتردد والشك ثم التوقف عن القتال، فهذا عبدالله بن عمرو بن العاص يُصرح بحقيقة مشاعره، وهو يقف إلى جوار أبيه بيده الراية، ويتقدم في الجيش الشامي منزلة أو منزلتين: «مالي ولصفين!! مالي وقاتل المسلمين!! لوددتُ أني متُّ قبله بعشر سنين أما والله على ذلك ما ضربتُ بسيف، ولا طعنتُ برمح، ولا رميتُ بسهم»^(٢). وعبدالله بن عمرو بن العاص عالم محدث، وتعتوره الشكوك - في صحة موقفه من الفتنة دون أن يحسم الأمر مع نفسه أولاً ثم في الميدان، فقد أرغمه أبوه على الاشتراك مع الجيش الشامي، مذكراً إياه بحديث: «أطع أباك مادام حياً» فاشتراط أن يقف معهم ولا يقاتل^(٣)، فهل نسي أن الطاعة بالمعروف؟^(٤)... يا الله كيف كانت حالة عامة الجند الإسلامي!! قاتل الله الفتن، تدع الحليم حيراناً.

لم يكن الطرفان يكفران بعضهما، لكن بعض الجند المتحمس في جيش علي رضي الله عنه كان يلعن ويكفر الشاميين، فلا يلقي من قاداته إلا النهر والتوضيح، «قال رجل يوم صفين: اللهم العن أهل الشام. فقال علي رضي الله عنه: لا تسب أهل الشام جمعاً غفيراً، فإن بها الأبدال، فإن بها الأبدال، فإن بها الأبدال»^(٥).

(١) ابن سعد: الطبقات ٧: ١١٤ بإسناد فيه يحيى بن خليف السعدي، حديثه عن الثوري منكر وليس هذا عنه (ابن عدي: الكامل ٧: ٢٧٠٠ - ٢٧٠١).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤: ٢٦٦ - ٢٦٧ بإسناد صحيح.

(٣) أحمد: المسند - بتحقيق أحمد شاكر - ١١: ١٣٨ - ١٣٩ بسند صحيح.

(٤) مسلم: الصحيح - بشرح النووي - ١٢: ٢٢٧.

(٥) عبدالرزاق: المصنف ١١: ٢٤٩ بإسناد صحيح.

وقال زياد بن الحارث الصدائي - صحابي شاهد عيان - : «كنت إلى جنب عمار بن ياسر بصفين، وركبتي تمس ركبته. فقال رجل: كفر أهل الشام. فقال عمار: لا تقولوا ذلك، نبينا ونبههم واحد، وقبلتنا وقبلتهم واحدة، ولكنهم قوم مفتونون جاروا عن الحق، فحق علينا أن نقاتلهم حتى يرجعوا إليه»^(١).

ولم تكن بين الجيشين أحقاد، بل كان كل طرف ينافح عما يعتقد حقا، فلا غرابة إذا قال شاهد عيان هو عبدالرحمن السلمي: «شهدنا صفين مع علي... فكنا إذا توادعنا»^(٢) دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء»^(٣). ولا غرابة إذا ما صرح عبدالله بن عمرو بن العاص أمام معاوية، ورجلان يختصمان في قتل عمار بن ياسر، كل واحد يزعم أنه قتله: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية» ويستغرب معاوية من هذا التصريح، فيقول: فما بالك معنا؟ قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: أطع أباك مادام حيًّا ولا تعصه، فأنا معكم ولست أقاتل»^(٤).

وهكذا تتجلى الصراحة في الحق وتتخطى المعوقات من المجاملات والمواربات. فقد كان الحديث الذي رواه عبدالله بن عمرو بن العاص من أقوى الحجج على أن الحق مع علي، وأن معاوية بغى عليه لكن معاوية تأول الحديث: «لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال: قُتل عمار، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية. فقام عمرو يرجع فزعاً حتى دخل على معاوية. فقال له معاوية: ما شأنك؟ فقال: قُتل عمار. فقال

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٩٠ وله شواهد في المصنف ١٥: ٢٩٠ أيضاً، وابن عساكر: تاريخ دمشق (تحقيق المنجد) ١: ٣٣٢، ٣٣٣ ويعتضد بشواهد إلى الحسن لغيره.

(٢) الموادعة بين الجيشين تقتضي وقف القتال لمدة محدودة لدفن القتلى أو لسبب يقتنع به الطرفان.

(٣) الهيثمي: مجمع الزوائد ٧: ٢٤٠ - ٢٤١ وقال: رواه الطبراني وأحمد باختصار، وأبو يعلى بنحو الطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات.

(٤) أحمد: المسند ١١: ١٣٨ - ١٣٩ وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

له معاوية: قُتل عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية. فقال له معاوية: دحضت في قولك أنحن قتلناه؟ إنما قتله علي وأصحابه، جاءوا به حتى ألغوه تحت رماحنا»^(١).

وقد أنقذ معاوية بتأويله للنص معنويات الجند الشامي، كما أنقذ معنويات قائده عمرو بن العاص الذي تبنى هذا التأويل بعد أن كان قد تملكته الرهبة، بل مضى يتأول حديثاً آخر كان يرويه: «إن قاتله وسالبه في النار. فقيل له: هو ذا أنت تقاتله؟ فقال: إنما قال قاتله وسالبه»^(٢). أي إن النص مخصص بالقاتل الفعلي وحده.

وإذا نفع التأويل في إقناع الشاميين، فإن مقتل عمار أذكى حماسة العراقيين فقد بان لهم بمقتله أن علياً محق، وأن معاوية باغ، وما في ذلك من دلائل النبوة^(٣). ويبدو أن النصر لاح لهم بعد قتال شديد دام ثلاثة أيام بلياليها^(٤). وقد التزم كل من الطرفين بأحكام قتال البغاة، قال أبو أمامة - وهو صحابي شاهد عيان - : «شهدت صفين، فكانوا لا يجهزون على جريح، ولا يطلبون مولياً ولا يسلبون قتيلاً»^(٥).

وقال أبو فاختة (ت ٩٠ هـ) - شاهد عيان ثقة - : «حدثني جاري قال: أتيت علياً بأسير يوم صفين، فقال لي: أرسله، لا أقتله صبراً، إني أخاف الله رب العالمين، أفيك خير؟ بايع. وقال للذي جاء به: لك سلبه»^(٦).

(١) عبدالرزاق: المصنف ١١: ٢٤٠ بإسناد صحيح. وحديث: «تقتله الفئة الباغية» متواتر (السيوطي: الخصائص الكبرى، ط. المراس ٢: ٤٩٦، وانظر الحديث في صحيح البخاري - فتح الباري ١: ٥٤ و ٦: ٣٠ - وصحيح مسلم ٤: ٢٢٣٥ - ٢٢٣٦)، وراجع حول تواتر الحديث عبدالحميد علي ناصر: خلافة علي ٢١٢ - ٢١٩. وقد اشتهر بعد مقتل عمار بن ياسر. (٢) أحمد: المسند (الفتح الرباني) ٢٣: ١٤٣ بسند صحيح. وابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٢٦٠ (بسند صحيح).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٧: ٢٦٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٧: ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٧: ٤١١، والحاكم: المستدرک ٢: ١٥٥ وصححه الألباني (إرواء الغليل ٨: ١١٤).

(٦) عبدالرزاق: المصنف ١٠: ١٢٤ بإسناد صحيح، وسعيد بن منصور: السنن ٢: ٣٣٩.

وقدّر محمد بن سيرين (تابعي كبير ت ١١٠ هـ) عدد القتلى في صفين «بسبعين ألفاً، فما قدروا على عدّهم إلا بالقصب، وضعوا على كل إنسان قصبه، ثم عدّوا القصب»^(١).

وكذلك قدرهم شاهد عيان هو عبدالرحمن بن أبزى «افترقوا على سبعين ألف قتيل، خمسة وأربعين ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرين ألفاً من أهل العراق، ويقال على ستين ألفاً»^(٢).

وسئل علي رضي الله عنه عن قتلى يوم صفين، فقال: «قتلنا وقتلهم في الجنة، ويصير الأمر إلى وإلى معاوية»^(٣). أي أنه يرى نفسه ومعاوية مسؤولين عما حدث، وهما يحاسبان على ذلك^(٤).

ويصف شاهد عيان هو الصحابي سالم بن عبيد الأشجعي موقف علي رضي الله عنه فيقول: «رأيت عليّاً بعد صفين، وهو آخذ بيدي، ونحن نمشي في القتلى، فجعل عليٌّ يستغفر لهم حتى بلغ أهل الشام، فقلت له: يا أمير المؤمنين، إنا في أصحاب معاوية؟! فقال علي: إنها الحساب علي وعلى معاوية»^(٥).

وقد طحنت المعركة ألوفاً من الجانبين، وكلّ الباقيون من القتال، وهنا تفتق ذهن عمرو بن العاص عن فكرة التحكيم، التي أنقذت الجيش الشامي من

(١) ابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٢٩٥ بإسناد حسن لكنه من مرسل ابن سيرين. وخليفة: التأريخ ١٩٤ مختصراً.

(٢) خليفة: التأريخ ١٩٤ بإسناد ضعيف بسبب تدليس يزيد بن عبدالرحمن، وضعف عبدالله بن عبدالرحمن بن أبزى فهو مقبول، ويحتاج إلى متابعة. ولبعض الرواية شاهد عند خليفة: التأريخ ١٩٤ وهو تقديرهم بسبعين ألفاً.

(٣) ابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٣٠٣ بإسناد حسن، والطبراني: المعجم الكبير ١٩: ٣٠٧، وسعيد ابن منصور: السنن ٢: ٣٤٤ - ٣٤٥ من طريق آخر فهو شاهد له.

(٤) ابن عساكر: تأريخ دمشق نقلاً عن كتاب صفين لابن ديزيل، وإسناد ابن ديزيل حسن، وابن العديم: بنية الطلب في تأريخ حلب ١: ق وفي المطبوع (١/ ٧٥).

(٥) المصادر السابقة.

الهزيمة، فأرسل معاوية رجلاً يحمل المصحف إلى عليٍّ ويقول له: بيننا وبينكم كتاب الله، فقال علي: أنا أولى بذلك بيننا كتاب الله. ويبدو أن معظم الجند العراقي جنحوا إلى التحكيم، لكن كثيراً من القراء أنكروا عليه قبوله بالتحكيم، وقالوا: لا حكم إلا لله. فقال علي: كلمة حق أريد بها باطل^(١).

وقد انشق المحتجون من القراء واعتزلوا جيش علي، محتجين بأنه محاسبه من إمرة المؤمنين^(٢). وقد مثل أبو موسى الأشعري عليّاً، ومثل عمرو ابن العاص معاوية في اجتماع الحكّمين بدومة الجندل، وحضر الاجتماع جمع من الصحابة، فيهم عبدالله بن عمر، وحاول عمرو بن العاص استمالة إلى صف معاوية، قائلاً: «إنا قد رأينا أن نبايعك، فهل لك أن نعطيك مالاً وتدعها لمن هو أحرص عليها منك؟ فوثب ابن عمر مغضباً، فاخذ ابن الزبير بثوبه فجلس، وقال: ويحك يا عمرو!! بعت آخرتك بدنياك، إني والله لا أعطي عليها مالاً، ولا أقبل عليها مالاً، ولا أقبلها إلا عن رضى جميع الناس^(٣). فقال عمرو: إنما قلت أجربك^(٤). وكان ابن عمر قد صرح مراراً أنه لا يقبل الخلافة إلا عن إجماع المسلمين^(٥)، ومعنى ذلك عملياً أنه لا يريد أن يتولاها.

وقد اختبره عمرو بن العاص مرة، فقال له: «يا أبا عبد الرحمن، ما يمنعك أن تخرج فنبايحك، وأنت صاحب رسول الله ﷺ، وابن أمير المؤمنين، وأنت أحق الناس بهذا الأمر؟ فأجابه ابن عمر: لو لم يبق إلا ثلاثة أعلاج بهجر لم يكن لي فيها حاجة». وهنا يعرض عليه عمرو بن العاص البيعة لمعاوية: «هل لك أن

(١) ابن حجر: فتح الباري ٨: ٥٨٧.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ق ٦٠ بإسناد حسن، وأبو نعيم: حلية الأولياء ١: ٢٩٣ - ٢٩٤ بإسناد صحيح، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣: ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) المصادر السابقة.

(٤) أبو نعيم: حلية الأولياء ١: ٢٩٣ - ٢٩٤ بإسناد صحيح.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤: ١٥١ بإسناد حسن.

تبايع لمن قد كاد الناس أن يجتمعوا عليه، ويكتب لك من الأرضين والأموال ما لا تحتاج أنت ولا ولدك إلى ما بعده؟ فقال ابن عمر: ويحك، إن ديني ليس بديناركم ولا درهمكم، وإني أرجو أن أخرج من الدنيا ويدي بيضاء نقية»^(١).

وبرغم اعتزال ابن عمر الفتنة، إلا أنه كان يصرح بأن الحق مع علي، فيقول: «ما آسى على شيء، كما آسى أني لم أقاتل مع علي رضي الله عنه»^(٢).

أما الشخصية الأخرى التي عُجم عودها في أحداث التحكيم، فهو الصحابي أبو موسى الأشعري، يقول شاهد عيان هو مسروق بن الأجدع (ت ٦٢ هـ): «كنت مع أبي موسى أيام الحكمين، وفسطاطي إلى جانب فسطاطه، فأصبح الناس ذات يوم قد لحقوا بمعاوية من الليل، فلما أصبح أبو موسى رفع رفر فسطاطه، فقال: يا مسروق بن الأجدع • قلت: لبيك أبا موسى. قال: إن الإمرة ما أوتمر فيها، وإن الملك ما غلب عليه بالسيف»^(٣).

وقد حاول معاوية استمالة أبي موسى - في ظروف التحكيم أو عقبها - إلى جانبه دون جدوى، قال أبو موسى الأشعري: «كتب إليَّ معاوية: سلام عليك، أما بعد، فإن عمرو بن العاص قد بايعني على الذي قد بايعني عليه، وأقسم بالله لئن بايعتني على ما بايعني عليه لأبعثن ابنك: أحدهما على البصرة، والآخر على الكوفة، ولا يغلق دونك باب، ولا تقضى دونك حاجة، وإني كتبت إليك بخط يدي فاكتب إليَّ بخط يدك. فقال أبو موسى لابنه أبي بردة: يا بني إنما تعلمتُ

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤: ١٦٤، وابن عساكر: تاريخ دمشق (ترجمة عبدالله بن عمر) ١٤٥ - ١٤٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣: ٢٢٨، ويقوى بشواهد إلى الصحيح لغيره.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب ١: ٧٧، والحاكم: المستدرک ٣: ١١٧ وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. والهيثمي: مجمع الزوائد ٧: ٢٤٢ وقال: رواه الطبراني بأسانيد وأحدها رجاله رجال الصحيح.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٤: ١١٣ بإسناد صحيح.

المعجم الخط بعد وفاة رسول الله ﷺ. قال: وكتبت إليك مثل العقارب. أما بعد فإنك كتبت إليّ في جسيم أمر أمة محمد ﷺ، لا حاجة لي فيما عرضت عليّ»^(١).

وقد حاولت الروايات الإخبارية الضعيفة أن تعطي صورة محرفة عن أبي موسى الأشعري، وأنه اختير للتحكيم من قبل الجند العراقي، وفرض على الخليفة علي رضي الله عنه، وأنه أظهر وهنا غفلة خلال التحكيم، وأن عمرو بن العاص استغل بمكره الموقف، ولكن الصحيح أن علياً كان راضياً عن اختيار أبي موسى الأشعري «قال الأحنف بن قيس لعلي حين أراد أن يحكم أبا موسى: إنك تبعث رجلاً من أهل القرى رقيق... فابعثني مكانه آخذ لك بالوثيقة، وأضعك من الأمر بحيث أنت. فقال له ابن عباس: دعنا يا أحنف منك، فإننا أعلم بأمرنا منك»^(٢).

ولا يخفى أن أبا موسى الأشعري أرسخ في الإسلام وأسبق، وأفقه وأورع، حتى لو سلمنا بأن الأحنف أكثر دهاء وأوسع حيلة. كما أن اعتزال أبي موسى لأحداث الفتنة أقدر على ضبط النفس والتحكم في الأقوال والأفعال من الأحنف، الذي يمثل خصماً لدوداً للشاميين. ولعل من عوامل اختيار أبي موسى للتحكيم مهارته في القضاء، وممارسته الطويلة في هذا الميدان في عهد النبوة وخلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم^(٣).

(١) ابن سعد: الطبقات ٤: ١١١-١١٢ بإسناد صحيح. وابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٤١-٥٤٢ ترجمة أبي موسى الأشعري. والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢: ٣٩٦، وتاريخ الإسلام ٤١-٦٠ هـ ص ١٤٥.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ١٥٧ بإسناد حسن، وراويته عن الأحنف هو محمد بن أبي يعقوب سيد بني تميم ثقة، ويحكم مكانته فإنه يستطيع التحقق من صحة المعلومات

(٣) عبد الحميد علي ناصر: خلافة علي ٢٦١-٢٦٢.

ولا يرجع فشل التحكيم إلى شخصية أبي موسى، بل إلى صعوبة حل الخلاف وإصرار الطرفين على مواقفهما السابقة، وعدم حيافة المحكمين على قوة محايدة تنفذ القرار. ومما يوضح سلامة التحكيم وحياده نص الوثيقة التي أقرها، بما في ذلك التسامح في رفض عمرو بن العاص صيغة أول وثيقة التحكيم التي تشير إلى إمرة علي للمؤمنين، لأن الشاميين لم يبايعوه على ذلك^(١). ولا يت نص وثيقة التحكيم في القضية، بل يوضح الإطار العام الذي يحكم المباحثات، ويوضح الهدف منها، وهو الإصلاح بين الأمة، وعدم ردها إلى الفرقة والحرب، ويحدد زمناً لانتهائها، كما يحدد مكان التحكيم، وأنه متوسط بين الكوفة والشام والحجاز، واشترط رضا الطرفين عمن يحضر المباحثات، أما الشهود فيختار كل طرف شهوده، وتلتزم الأمة بنصرة قرارات التحكيم، كما يلتزم بذلك الشهود^(٢).

وقد بقيت هذه الوثيقة محفوظة، حيث اطلع عليها أبو إسحاق الشيباني (محدث ثقة ت ١٤١ هـ)، ووصفها بقوله: «صحيفة صفراء، عليها خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها، وهما ختما علي ومعاوية ونقشهما - محمد رسول الله -»^(٣).

وقد اجتمع الحكماء في دومة الجندل، ولم يتوصلا إلى اتفاق، وكان معاوية حاضراً اجتماع الدومة، ولم يحضر علي، ولعل لتحركات الخوارج أثراً في ذلك، فخطب معاوية في الناس قائلاً: «من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فلنحن أحق به ومن أبيه. قال ابن عمر: فحللتُ حبوتي، وهممت أن

(١) أبو عبيد: الأموال ١٥٨ - ١٥٩ بسند حسن، وعبدالرزاق: المصنف ١٠: ١٥٧، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ١: ٥٢٢، والنسائي: خصائص أمير المؤمنين علي ١٩٥.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ق ٥٨ أ.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ٣٠ بسند حسن. وانظر محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية ٥٣٨ - ٥٤٤ حيث يمكن ملاحظة الاختلاف بين رواية البلاذري وأبي مخنف والجاحظ وإسماعيل التيمي.

أقول: أحق بهذا الأمر من قاتلك وأباك على الإسلام. فخشيتُ أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدماء، ويُحمل عني غير ذلك، فذكرتُ ما أعد الله في الجنان»^(١). فبقيت الأوضاع على حالها، علي خليفة المسلمين، ومعاوية أمير الشام، ولم يبايع معاوية بالخلافة إلا بعد استشهاد علي على يد الخوارج، وكانت بيعته في بيت المقدس في شهر رمضان سنة ٤٠ هـ، بعد وصول خبر استشهاد علي عليه السلام^(٢).



(١) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٤٠٣). وعبدالرزاق: المصنف ٥: ٤٦٥، وابن سعد: الطبقات ٧: ٤٠٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٨: ١٣١.

الفصل الخامس

موقعة النهروان

موقعة النهروان

كان عدد القراء الذين اعترضوا على التحكيم في صفين أربعة آلاف، فهم أقلية في جيش علي، الذي كان يزيد على خمسين ألف مقاتل قبل اشتباك الجيشين. وقد ضرب عروة بن حدير التميمي (وهو عروة بن أدية) عجز دابة الأشعث ابن قيس بالسيف، عندما كان الأشعث يقرأ وثيقة الهدنة، التي تم وقف القتال بموجبها، وقد اعتذر بنو تميم للأشعث وقومه اليمانية عن فعل عروة، وكان عروة يقول: «أتحكمون في أمر الله الرجال، لا حكم إلا لله»^(١). وهذه المقولة صارت شعار الحركة الخارجية، ولذلك سموها بالمحكمة كما سموها بالخوارج لخروجهم على الخليفة الشرعي علي عليه السلام، كما سموها بالحرورية نسبة إلى قرية حرواء قرب الكوفة، حيث انشقوا عن جيش علي العائد إلى الكوفة.

ويبدو أنهم واصلوا نشاطهم الدعوي في جيش علي بعد حادثة التحكيم، حيث بلغ عددهم حين إعلان الانشقاق ثمانية آلاف^(٢) ثم بضعة عشر ألفاً^(٣). بل أوصلتهم بعض الروايات إلى أربعة وعشرين ألفاً^(٤). ويبدو أن الرقم الأخير متأخر عن مرحلة الانشقاق، ويدل على سريان الدعوة الخارجية وحيازتها لأعداد جديدة... كما نظموا أنفسهم بزعامة عبدالله بن الكواء وشبث بن ربعي^(٥)، وعينوا أميراً للصلاة وآخر للقتال. وهذا التطور الأخير جعل ابن

(١) الطبري: التاريخ ٥: ٥٥، والمبرد: الكامل (أخبار الخوارج) ١٦.

(٢) أحمد: المسند - بتحقيق أحمد شاكر - ٢: ٦٥٦ وصححه، ١: ٨٦-٨٧ وصححه ابن كثير (البداية والنهاية ٧: ٢٨٠-٢٨١)، وأبو يعلى: المسند ١: ٣٦٧-٣٧٠ قال الهيثمي: إن رجال أبي يعلى ثقات (مجمع الزوائد) ٦: ٢٣٥-٢٣٧، والحاكم: المستدرک ٢: ١٥٢-١٥٤ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) المصادر نفسها.

(٤) عبدالرزاق: المصنف ١٠: ١٥٧-١٦٠ بإسناد حسن، والطبراني: المعجم الكبير ١٠: ٣١٢-٣١٤.

(٥) خليفة: التاريخ ١٩٢ بسند صحيح، وابن عساكر: تاريخ دمشق (ترجمة عبدالله بن أبي أوفى) ٣٩٥، ٣٩٨ من مرسل الزهري.

عباس يستأذن علياً في محاورتهم في إحدى اجتماعاتهم الضخمة في حروراء، وقد وصلهم في نصف النهار ووصفهم بقوله: «دخلت على قوم لم أر قوماً قط أشد اجتهاداً منهم، أيديهم كأنها ثفن الإبل، ووجوههم معلمة من آثار السجود»، وكان رجلاً جميلاً جهيراً، فرحبوا به، ثم حاججهم في الشبهات التي علقت بأذهانهم، نتيجة تفسيرهم للقرآن دون بصيرة، موضحاً لهم أن التحكيم نص عليه القرآن^(١) وأن محو لقب أمير المؤمنين من نص وثيقة الهدنة له سابقة من السنة في حادثة الحديبية، وأن قتال علي لمخالفه دون أن يستحل أموالهم وأعراضهم هو الحكم الشرعي الصحيح، فرجع منهم ألفان بعد أن تبين لهم الحق^(٢). وأبرز من رجع زعيمان منهم هما عبدالله بن الكواء وشبث بن ربعي^(٣). ولم يكن فيهم أحد من الصحابة رضوان الله عليهم.

وأعقب هذا الحوار خروج علي بنفسه إلى حروراء، ومحاورته الخوارج، حيث فهموا خطأ أنه يعلن توبته ويعود عن التحكيم، وهكذا وقعوا مرة أخرى في سوء الفهم، فرجعوا إلى الكوفة على ظنهم الخاطيء، فأقاموا يومين، فلما اتضح لهم في خطبة عن يوم الجمعة أنه لم يرجع على التحكيم والكفر!! خرجوا من المسجد وعلي يعلن أسفاً موقفه منهم: «لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء، ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى

(١) قوله تعالى في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (النساء ٣٥). وقوله تعالى في جزاء المحرم إذا صاد: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعِدًّا فَعِزًّا يُقْتَلُ بِهِ ذَوْ عَدَلٍ مِنْكُمْ﴾ (المائدة ٩٥). وقد أوضح ابن عباس أن صلاح ذات البين وحقن الدماء بين المسلمين أولى بالتحكيم من هاتين الصورتين، صلح المرأة مع زوجها، وحكم صيد المحرم لأربب أو ما يشبهه...
(٢) عبدالرزاق: المصنف ١٠: ١٥٧ - ١٦٠ بإسناد حسن، وأحمد: المسند ١: ٣٢٤، والنسائي: خصائص علي ١٩٥ - ٢٠٠.

(٣) ابن أبي شيبه: المصنف ١٥: ٣١٧ - ٣١٩، وأبو يعلى: المسند ١: ٣٦٤، والألباني: إرواء الغليل ٨: ١١١ وصححه.

تقاتلوننا»^(١). لكنهم لم يقبلوا منه، وأخذوا يصيحون في أنحاء المسجد: «لا حكم إلا لله»^(٢). وحاول زعماءهم أن يثنوا علياً عن إرسال أبي موسى الأشعري إلى التحكيم، وأن يقودهم لقتال أهل الشام، فأبى عليهم نقض العهد مع الشاميين: «فارقنا القوم فلا يجوز نقضه»^(٣).

وقد جرت محاورات أخرى من قبل الصحابة والتابعين مع الخوارج، مما أدى إلى تقليص أعدادهم إلى أربعة آلاف فقط^(٤). إلا أنهم اجتمعوا في دار عبدالله بن وهب الراسبي، وأرادوا مبايعة أحد زعمائهم أميراً، فلم يقبلها أحد منهم، ثم قبلها عبدالله بن وهب الراسبي قائلاً: «والله لا أخذها رغبة في الدنيا، ولا أتركها جزعاً من الموت». وبذلك نكثوا بيعتهم لعلي، وذلك في العاشر من شوال^(٥) سنة ٣٧ هـ، ونقضوا مبدأ «الخلافة في قريش»، فصار من مقولاتهم جواز خلافة غير القرشي.

وقد خرج عبدالله بن وهب الراسبي الأزدي بأتباعه إلى النهروان خفية، لئلا يصدهم أحد واجتمعوا هناك، وبرغم هذا التحدي فلم يقرر علي عليه السلام مناجزتهم وإعادتهم إلى الطاعة بالقوة، بل اكتفى بتوضيح خطئهم وتنفيذ آرائهم. ولما فشل الحكمان وافترقا دون اتفاق لم يرجع الخوارج إلى صف علي، برغم أنه أعد جيشه لمواجهة أهل الشام وعسكر بالنخيلة قرب

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣٢٧-٣٢٨، والطبراني: الأوسط (مجمع الزوائد ٦: ٢٤٢-٢٤٣)،

والطبري: تاريخ ٥: ٧٤، والبيهقي: السنن الكبرى ٨: ١٨٤ ويتقوى بمجموع طرقه إلى الحسن.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣١٢-٣١٣ وصحح الألباني سنده (إرواء الغليل ٨: ١١٨ -

١١٩) وقارن برواية الطبري: التاريخ ٥: ٧٣-٧٤.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ق ١٦٣ أ- ١٦٤ أ، مدار الرواية على مجالد بن سعيد ليس

بالقوي لكنه يصلح للمتابعات.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٩١-٩٣ بإسناد حسن، والطبري: التاريخ ٥: ٩١-٩٣،

والبيهقي: السنن الكبرى ٨: ١٧٩.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف ٢: ق ١٦٣ أ- ١٦٤ أ بإسناد فيه مجالد بن سعيد ليس بالقوي.

الكوفة، وقدرت روايات ضعيفة عدد هذا الجيش بشمانية وستين ألفاً ومئتي رجل (٢٠٠، ٦٨ رجل)، وفي هذه المدة قتل الخوارج عبدالله بن خباب بن الأرت ومعه أم ولده^(١)، كما قتلوا آخرين^(٢)، فقد صاروا يكفرون من خالفهم ويستبيحون دمه وماله^(٣). فسار إليهم علي عليه السلام بجيشه في محرم عام ٣٨ هـ، وعسكر على الضفة الغربية لنهر النهروان، والخوارج شرقيه^(٤)، وقد التحق بهم خوارج البصرة، وهم ثلاث مئة أو خمس مئة رجل عليهم مسعر بن فدكي التميمي^(٥).

ونظراً لأن مناطق نشاط الخوارج التي تعرضت لضياح الأمن وقطع الطرق ضمن مسؤولية علي عليه السلام، فقد طلب من الخوارج تسليم القتلة لإقامة الحد عليهم، فأجابوه: كلنا قتلناه^(٦). وبذلك استحل علي قتلهم، وبين لجنده أجر مقاتلتهم، معتمداً على حديث: «يخرج قوم من أمتي يقرأون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية». ثم قال علي معقباً: «لو يعلم الجيش الذي يصيبونهم ما قُضيَ لهم على لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم لا تكلموا عن العمل»، ثم ذكر لهم العلامات التي تنطبق على الخوارج مثل وجود المخدج فيهم «له عضد وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الشدي، عليه شعيرات بيض. فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتركون هؤلاء يخلفونكم في

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣١٠-٣١١ بسند صحيح وفي طبعة الحوت (٧/ ٥٥٥).

والطبراني. المعجم الكبير ٤: ٦٨، والطبري: التأريخ ٥: ٨١.

(٢) الطبري: التأريخ ٥: ٨٢.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ١٢: ٢٨٤.

(٤) الخطيب: تأريخ بغداد ١: ٢٠٥-٢٠٦.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف ٦٣ ب بسند فيه مجهول، الطبري: تأريخ ٥: ٨٠ عن أبي مخنف.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣٠٨-٣٠٩ بسند صحيح.

ذراريكم وأموالكم، والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس، فسيروا على اسم الله»^(١).

وقد أرسل علي إليهم الرسل يدعونهم، فقتلوا رسوله، وعبروا إليه النهر^(٢)، فأمر بقتالهم. يقول شاهد عيان ثقة هو زيد بن وهب الجهني: «لما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبي، فقال لهم: ألقوا الرماح وسلوا السيوف من جفونها، فإني أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء»^(٣). واشتبك الجيشان في معركة خاطفة وغير متكافئة، انتهت بالإجهاز على الخوارج برغم ما أبدوه من جلد وشجاعة.. فقد أفناهم جيش علي الكبير دون أن يصيبوا منه إلا بضعة عشر رجلاً^(٤). ولم يعيش من جيش الخوارج إلا الجرحى ومن فر، وهم عدد يسير^(٥).

واهتم على التفتيش عن المخدح ذي الشدية حتى وقف عليه^(٦)، فكان شاهداً على صحة موقف علي، وآية على ضلال الخوارج.

وقد عامل علي عليه السلام الخوارج معاملة البغاة، فلم يكفرهم، ومنع جنده من تعقيب فاريهم، والإجهاز على جريحهم، ولم يسبهم^(٧) ولم يغنم أموالهم^(٨).

(١) مسلم: الصحيح ٢: ٧٤٨-٧٤٩، وعبدالرزاق: المصنف ١٠: ١٤٧-١٤٩.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣٢٥-٣٢٧ بسند حسن.

(٣) مسلم: الصحيح ٢: ٧٤٨، وابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣١٧ بإسناد صحيح، وأحمد: المسند ٣: ٤٨٥ بإسناد صحيح، وأبو داود: السنن ٤: ٢٤٤.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣١١، وخليفة: التاريخ ١٩٧ بسند حسن، والنسائي: خصائص علي ١٩٠ بسند حسن، ويعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ ٣: ٣١٥.

(٥) عبد الحميد علي ناصر: خلافة علي ٣٢٩.

(٦) ابن أبي عاصم: السنة ٢: ٤٤٢-٤٤٣ بإسناد صحيح، وابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣٢٥-٣٢٧، والطبري: التاريخ ٥: ٩١-٩٢، والطحاوي: تهذيب الآثار ٤: ٢٣٦-٢٣٨.

(٧) البيهقي: السنن ٨: ١٨٢ بسند صحيح.

(٨) عبدالرزاق: المصنف ١٠: ١٢٢-١٢٣، وابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣٣٢، وسعيد بن منصور: السنن ٢: ٣٣٩، والبيهقي: السنن الكبرى ٨: ١٨٣.

وسئل عنهم: أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا. فقليل: منافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل: فمن هم؟ قال: قوم بغوا علينا فقاتلناهم. وفي رواية: قوم بغوا علينا فنصرنا عليهم. وفي رواية: قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا^(١). وهكذا صرح بأنهم مؤمنون ليسوا كفاراً ولا منافقين^(٢). ونصح الأمة في التعامل معهم بقوله: «إن خالفوا إماماً عادلاً فقاتلوهم، وإن خالفوا إماماً جائراً فلا تقاتلوهم، فإن لهم مقالاً»^(٣).

ومما يلقي الضوء على صفات الخوارج ومستوى جدلهم وحفظهم للقرآن وقدرتهم على استحضار الشواهد منه، أنه لما رجع ابن عباس إلى البصرة بعد فشل التحكيم جادله خوارج البصرة - وهم العباد أصحاب البرانس والسواري - بشدة واتهموه بالكفر «كفرت وأشرت ونددت»، فقال لهم: «انظروا أخصمكم وأجدلكم وأعلمكم بحجتكم فليتكلم»، فاختاروا عباد التغلبي، «فقام فقال: قال الله كذا، وقال الله كذا، كأنما ينزع بحاجته من القرآن في سورة واحدة»، وتتضح قدرة الرجل على استحضار الأدلة المفرقة في القرآن، وكأنها في موضع واحد شهادة ابن عباس له: «إني أراك قارئاً للقرآن عالماً بما قد فصلت ووصلت». ثم واجه ابن عباس الخوارج بأخطائهم: «هل علمتم أن أهل الشام سألوا القضية - أي وقف القتال برفع المصاحف والدعوة إلى التحكيم - فكرهناها وأبينها، فلما أصابتكم الجروح وعضكم الأمل ومُنعمت ماء الفرات أنشأتم تطلبونها؟! ولقد أخبرني معاوية أنه أتى بفرس.. ليهرب عليه، ثم أتاه منكم آتٍ، فقال: إني تركتُ أهل العراق يمجون مثل الناس ليلة

(١) عبد الرزاق: المصنف ١٠: ١٥٠، وابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣٣٢ بسند صحيح، والبيهقي: السنن الكبرى ٨: ١٧٤.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة ٥: ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣٢٠، وابن حجر: فتح الباري ١٢: ٣٠١.

النفر بمكة»، وهكذا أشار إلى أن اختلافهم وشقاقهم أضعف موقف علي، وكان سبباً في قبول التحكيم. وقد فند ابن عباس مقولاتهم^(١).

ولا شك أن وقعة النهروان تركت جراحاً أليمة في الكوفة العلوية الاتجاه والبصرة العثمانية معاً، حيث ينتمي معظم الخوارج إلى قبائل المدينتين، وقد نعى البعض على علي رضي الله عنه دماء أهل النهروان، ووقعت بينهم وبين علي معارك صغيرة^(٢).

وتعدى الوهن أقارب الخوارج إلى جملة الجيش الذي يحمل ذكريات صفين الأليمة، وقد تجددت الذكريات في حرب الخوارج بالنهروان.. فلم يجد علي فيهم النشاط لقتال معاوية. بينما أفاد معاوية من هذه الظروف التي أحاطت بخصمه، فمد نفوذه إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص وبالتعاون مع العثمانية فيها مما أضاف إليه قوة بشرية واقتصادية، كما راسل وجوه القادة في العراق محاولاً استمالتهم.

وأمام الوهن والشقاق وضعف الطاعة في جيش علي لم يتمكن من القيام بأي حملة ضد القوات الشامية، وتبين خطبه الأخيرة مدى ما عاناه من الملل والألم، إذ كان يقول: «اللهم إني قد سئمتهم وسئمونني، ومللتهم وملئوني، فأرحني منهم وأرحهم مني، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم. ووضع يده على لحيته»^(٣). فكانت هذه الإشارة بأن ثمة من يسعى لقتله أول إعلان عما بلغه من محاولة عبدالرحمن بن ملجم المرادي قتله^(٤)، وكان قد حذر من التآمر لقتله «جاء

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٢٩٩ - ٣٠١ بإسناد حسن.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف ١٥: ٣٣١، وابن عساكر: تأريخ دمشق ٩: ق ١٦٧.

(٣) عبدالرزاق: المصنف ١٠: ١٥٤ بإسناد صحيح، وله متابعات عند ابن عباس: الطبقات الكبرى ٣: ٣٤، وشواهد عند ابن أبي عاصم: الأحاد والمثاني ١: ١٣٧ بإسناد حسن.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٣٣.

رجل من مراد إلى علي - وهو يصلي في المسجد - فقال: احترس، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك»^(١).

ولما طعنه ابن ملجم في صلاة الفجر صبيحة إحدى وعشرين من رمضان^(٢)، لم يمت حتى أوصى بقاتله خيراً: «إنه أسير، فأحسنوا نُزْلَهُ، وأكرموا مِثْواه، فإن بقيتُ قتلْتُ أو عفوتُ، وإن متُّ فاقتلوه قتلتي، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين»^(٣).

وبعد اغتيال الخوارج له، تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية، لينتهي مرحلة الصراع، وعودة الأمة إلى الجماعة بعد أن مرت بتجارب جديدة قاسية، تركت أثراً عميقاً في المخيلة الجماعة لأجيالها المتلاحقة حتى الوقت الحاضر.



(١) المصدر السابق ٣: ٣٤ بإسناد صحيح.

(٢) البخاري: التاريخ الصغير ١: ٩٩ - ١٠٠ بإسناد فيه حريث بن مخش، انفرد ابن حبان بتوثيقه.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣: ٣٥، وأحمد: فضائل الصحابة ٢: ٥٦٠، والحاكم: المستدرک ٣: ١٤٤، ويقوى بطرقه إلى الحسن لغيره.

المصادر والمراجع

المصادر

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦هـ).
- النهاية في غريب الحديث، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، نشر دار الفكر، بيروت.
- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ).
- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت - ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م).
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).
- المسند، ط. بيروت بالأوفست عن الطبعة الميمنية، مصر - ١٣١٣هـ).
- وكذلك ط. أحمد محمد شاكر في القسم الذي حققه.
- والمسند، وبهامشه كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ط. المكتب الإسلامي
- فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، ط ١، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى - ١٤٠٣هـ). وطبعة بدار العلم للطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية.
- الزهد، دار الريان للتراث، ط ١، القاهرة - ١٤٠٨هـ.
- العلل ومعرفة الرجال، تحقيق طلعت قوج بيكيت، وإسماعيل جراح أوغلي، أنقرة - ١٩٦٣ م.

- مسائل الإمام أحمد، برواية إسحاق بن إبراهيم بن هانئ.
- الأزدي: محمد بن عبد الله البصري (ق ٢).
- فتوح الشام، بعناية عبد المنعم عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة - ١٩٧٠ م.
- الأزرقى: أبو الوليد محمد بن عبد الله.
- تاريخ مكة، تحقيق رشدي الصالح ملمس، ط ٣، ط. دار الأندلس، بيروت - ١٣٨٩ هـ.
- إسحاق بن راهويه (ت ٢٣٨ هـ).
- المسند، ط ١، تحقيق عبد الغفور البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة - ١٤١٠ هـ.
- ابن إسحاق: محمد (ت ١٥١ هـ).
- السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار، نشر دار الفكر - ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م).
- السيرة، تحقيق محمد حميد الله، نشر معهد الدراسات والأبحاث للتعريب - ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).
- ابن أعثم الكوفي: أبو محمد أحمد بن أعثم الأزدي (ت ٣١٤ هـ). - الفتوح، نشر دار الفكر العلمية، بيروت - ١٤٠٦ هـ.
- ابن الأعرابي: أحمد بن محمد بن زياد بن بشر الأعرابي (ت ٣٤٠ هـ).
- المعجم مخطوط، وقد حقق أحمد ميرين قطعة منه نال بها درجة الدكتوراه من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ).
- الصحيح الجامع المسند من أقوال وأفعال الرسول ﷺ، حاشية السندي، ط. دار إحياء الكتب العربية، مصر.
- والصحيح (نسخة فتح الباري)، نشر المكتبة السلفية بالقاهرة. وأحياناً ط. محمد علي صبيح، مصر (دون تاريخ).
- التأريخ الكبير، تحقيق المعلمي اليافى، نشر حيدر آباد الدكن، الهند. وأحياناً ط. دار الكتب العلمية، بيروت.
- التأريخ الصغير، تحقيق محمد إبراهيم زايد، ط. دار المعرفة، بيروت ١٤٠٦ هـ.

- الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت وط ٣، ط. دار البشائر الإسلامية - ١٤٠٩ هـ.
- خلق أفعال العباد، تحقيق عبدالرحمن عميرة، ط ٢، نشر دار عكاظ، جدة.
- ابن بدران: عبدالقادر (ت ١٣٤٦ هـ).
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، نشر دار المسيرة، بيروت - ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).
- البزار: أحمد بن عمرو (ت ٢٩٢ هـ).
- المسند، وهو البحر الزخار، تحقيق محفوظ الرحمن الأعظمي، ط ١، مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م).
- بقي بن مخلد:
- عدد ما لكل واحد من الصحابة من الحديث، تحقيق أكرم العمري، بيروت - ١٤٠٥ هـ.
- البكري (ت ٤٨٧ هـ).
- معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، نشر عالم الكتب بيروت (دون تاريخ).
- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ).
- أنساب الأشراف، القسم الثاني، جزء ١ و ٢ تحقيق محمد باقر المحمودي، بيروت - ١٩٧٤ م و ١٩٧٧ م. والقسم الرابع، ج ١، تحقيق إحسان عباس، بيروت - ١٩٧٩ م.
- القسم الرابع، ج ٢، تحقيق م. شلوسنغار، القدس - ١٩٣٨ م.
- والقسم الخامس، تحقيق س. غويتاين، القدس - ١٩٣٦ م.
- والجزء الأول، ط ١، مطبعة دار المعارف، مصر - ١٩٥٩ م.
- وقسم الشيخين (أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وولدهما)، تحقيق إحسان صدقي العماد، مؤسسة الشراع الغربي، الكويت - ١٩٨٩ م.
- فتوح البلدان، ط. القاهرة - ١٩٣٢ م. وأحيانا نشر مكتبة النهضة العربية (دون تاريخ) وأحيانا ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان - ١٤٠٣ هـ.
- البوصيري: الحافظ أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن عمر الكفاني (ت ٨٤٠ هـ).
- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، مخطوطة مصورة بمكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

- البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ).
- السنن الكبرى، ١٠ مجلدات، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند - ١٣٤٤هـ.
- والسنن الكبرى، وبذيله الجوهر النقي، دار المعرفة، بيروت.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت. ودار الريان للتراث، ط ١، القاهرة - ١٤٠٨هـ.
- الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ).
- السنن، تحقيق أحمد شاكر وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر - ١٣٩٨هـ. وأحيانا نسخة تحفة الأحوذى للمباركفوري، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، ط ٢، المكتبة السلفية، المدينة المنورة - ١٣٦٨هـ (١٩٦٣ م).
- الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبدالباقي وإبراهيم عطوة عوض، القاهرة - ١٩٦٢ م (١٣٨١هـ) وط ٣، دار الفكر - ١٣٩٨هـ.
- مختصر الشئائل المحمدية، المكتبة الإسلامية، عمان - ١٤٠٥هـ.
- ابن تيمية الحراني: أحمد بن عبدالحليم (ت ٧٢٨هـ).
- منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض - ١٤٠٦هـ.
- الفتاوى، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدي وابنه، نشر دار الإفتاء، الرياض.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق أبو عبدالله علي بن محمد المغربي، دار الأرقم، الكويت - ١٤٠٦هـ.
- الجاحظ: أبو عمرو عثمان بن بحر (ت ٢٥٥هـ).
- كتاب الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، مصر - ١٣٦٤هـ.
- ابن الجارود: أبو محمد عبدالله (ت ٣٠٧هـ).
- المتقى من السنن المسندة عن الرسول ﷺ، علق عليه عبدالله عمر البارودي، ط ١، دار الجنات ومؤسسة الكتب الثقافية - ١٤٠٨هـ.

- ابن الجزري: شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ).
- غاية النهاية في طبقات القراء، بعناية برجستراسر، مطبعة السعادة، مصر - ١٣٥١ - ١٣٦٤هـ (١٩٣٨ - ١٩٤٥ م).
- الجهشيارى: أبو عبدالله محمد بن أسيد بن عبدالله (ت ٣٣١هـ).
- الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، مصر - ١٩٣٨ م. وط ٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر - ١٤٠١هـ (١٩٨١ م).
- ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ):
- نواسخ القرآن، تحقيق محمد أشرف علي الملياري، نشر المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - ١٤٠٤هـ.
- مناقب عمر بن الخطاب
- الحاكم: محمد بن عبدالله النيسابوري (ت ٤٠٥هـ).
- المستدرک علی الصحیحین فی الحدیث، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند - ١٣٤١هـ).
- والمستدرک، وفي ذيله تلخيص المستدرک للحافظ الذهبي، ط. دار الفكر، بيروت - ١٣٩٨هـ.
- ابن حبان البستي: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي (ت ٣٥٤هـ).
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت -
- الثقات، ط. مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند - ١٤٠٠هـ.
- ابن حبيب: محمد بن حبيب السكري البغدادي (ت ٢٤٥هـ).
- المحبر، ط. حيدر آباد الدكن - الهند.
- ابن حبيش: أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت ٥٨٤هـ).
- الغزوات الضامنة الكافلة (مخطوطة)، وقد حقق طلال بن سعود الدعجاني قطعة من أولها نال بها الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - ١٤١٢هـ.

- ابن الجعد: أبو الحسن علي الجوهري (ت ٢٣٠ هـ) -
- المسند تحقيق عبدالمهدي عبدالقادر، مجلدان، ط ١، نشر مكتبة الفلاح، الكويت - ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م).
- ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ).
- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي البجاوي، نشر دار النهضة، مصر.
- والإصابة في تمييز الصحابة، وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ط ١، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، نشر دار صادر - ١٣٢٨ هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط. المكتبة السلفية، القاهرة.
- تهذيب التهذيب، ط ١، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٨٧ - ١٣٩٦ هـ.
- تقريب التهذيب، تحقيق محمد عوامة، نشر دار الرشيد، حلب - ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م).
- لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- المطالب العالية، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المطبعة العصرية، ط ١، الكويت - ١٣٩٣ هـ. ودار المعرفة، بيروت، لبنان.
- النكت على ابن الصلاح، تحقيق د. ربيع بن هادي المدخلي، نشر المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - ١٤٠٣ هـ.
- تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، نشر بعناية عبدالله هاشم اليمني، نشر دار المعرفة، بيروت.
- هدي الساري مقدمة فتح الباري، المطبعة السلفية، القاهرة.
- تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، ط ١، تحقيق عاصم القريوتي مكتبة المنار، الأردن.
- ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ).
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط ٢، دار المعرفة، بيروت - ١٣٩٥ هـ.

- المحلى، نشر مكتبة الجمهورية العربية، مصر - ١٣٨٧ هـ.
- جمهرة أنساب العرب، ط ١، تحقيق عبدالسلام هارون، نشر دار المعارف بمصر.
- حماد بن إسحاق (ت ٢٦٧ هـ).
- تركة النبي ﷺ، ط ١، تحقيق أكرم العمري، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٤ هـ.
- ابن خرداذية: أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت ٣٠٠ هـ).
- المسالك والممالك، ط. مكتبة المثنى، بغداد.
- الخزاعي: أبو الحسن علي بن محمد التلمساني (ت ٧٨٩ هـ).
- تخريج الدلالات السمعية، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة - ١٤٠١ هـ.
- ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت ٣١١ هـ).
- الصحيح، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي ومراجعة محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.
- الخطابي: أبو سليمان حمد بن محمد البستي (ت ٣٨٨ هـ).
- معالم السنن شرح سنن أبي داود، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر مكتبة السنة المحمدية، القاهرة.
- الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ). - تأريخ بغداد، ط ١، مطبعة السعادة، مصر - ١٣٤٩ هـ (١٩٣١ م). كذلك ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- تقييد العلم، تحقيق د. يوسف العش، دمشق - ١٩٤٩ م.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق د. محمود الطحان، نشر مكتبة المعارف الرياض - ١٤٠٣ هـ.
- الرحلة في طلب الحديث، ضمن مجموعة رسائل في علوم الحديث، تحقيق صبحي البدري السامرائي، ط ١، مطابع المجد، القاهرة - ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م).
- الكفاية في علم الرواية، ط. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند - ١٣٥٧ هـ.

- الخلال: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون (ت ٣١١هـ).
- السنة، تحقيق عطية الزهراني، نشر دار الراية، الرياض - ١٤١٠هـ (١٩٨٩ م).
- ابن خلدون: عبدالرحمن (ت ٨٠٨هـ).
- المقدمة، نشر دار الفكر، بيروت - ١٩٨١ م.
- خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العصفري (ت ٢٤٠هـ):
- التأريخ، تحقيق أكرم العمري، النجف - ١٩٦٨ م. وكذلك ط ٢، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض - ١٤٠٥هـ.
- الطبقات، تحقيق أكرم العمري، مطبعة العاني، بغداد - ١٩٦٧ م.
- ابن أبي خيثمة: أحمد بن زهير (ت ٢٧٩هـ).
- التأريخ الكبير، مخطوطة مكتبة القرويين ح ل ٤٠N: ٢٤٤ وهو السفر الثالث. وقطعة المكتبة المحمودية بالمدينة وهي الجزء الخمسون.
- الدارقطني: علي بن عمر (ت ٣٨٥هـ).
- السنن، نشر عالم الكتب، بيروت - ١٤٠٦هـ). وكذلك دار المحاسن للطباعة، القاهرة.
- الدارمي: أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن (ت ٢٥٥هـ).
- السنن، ط ١، تحقيق مصطفى البغا، دار القلم، دمشق - ١٤١٢هـ (١٩٩١ م).
- وأحيانا بعناية محمد أحمد دهمان، نشر دار إحياء السنة النبوية ١٣٤٦هـ (١٩٣٠ م). وأحيانا دار الكتب العلمية.
- الداني: أبو عمرو عثمان بن سعيد (ت ٤٤٤هـ).
- الفتن، أطروحة دكتوراه مقدمة للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ).
- السنن، تحقيق الدعاس، دار الحديث، حمص. وأحيانا مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر - ١٣٧١هـ. وكذلك دار إحياء التراث العربي، بيروت. وأحيانا مع شرح الخطابي، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة.
- ابن أبي داود: أبو بكر عبدالله بن أبي داود السجستاني (ت ٣١٦هـ).

- كتاب المصاحف، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م).
- ابن دحية: أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي (ت ٦٣٣ هـ).
- علم النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين مخطوطة.
- ابن أبي الدنيا: عبدالله بن محمد بن عبيد القرشي (ت ٢٨٢ هـ).
- الإشراف في منازل الأشراف، تحقيق نجم عبدالرحمن خلف، ط ١، مكتبة الرشد، الرياض - ١٤١١ هـ.
- الديار بكري: حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٦٦ هـ).
- تأريخ خميس، نشر مؤسسة شعبان، بيروت.
- الدينوري: أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ).
- الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، القاهرة - ١٣٨٠ هـ.
- الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ).
- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت (١٩٨١ - ١٩٨٥ م).
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- تأريخ الإسلام - عهد الخلفاء الراشدين - ، تحقيق عبدالسلام تدمري، نشر دار الكتاب الحديث، بيروت - ١٤٠٧ هـ.
- تذكرة الحفاظ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند - ١٩٥٥ م.
- دول الإسلام، نشر دائرة المعارف العثمانية، ط ٢، حيدر آباد الدكن، الهند - ١٣٦٤ هـ.
- تجريد أسماء الصحابة، مجلدان، نشر دار المعرفة، بيروت.
- الرامهرمزي: الحسن بن عبدالرحمن (ت ٣٦٠ هـ).
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، تحقيق محمد عجاج الخطيب، نشر دار الفكر، ط ١، بيروت.

- ابن رجب الحنبلي: أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد (ت ٧٩٥هـ).
- الاستخراج لأحكام الخراج، دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٥هـ.
- ابن رشد: محمد بن أحمد (ت ٥٩٥هـ).
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، جزآن، مطبعة محمد صبيح، القاهرة.
- أبو زرعة النصري الدمشقي: عبدالرحمن بن عمرو (ت ٢٨١هـ).
- التأريخ، جزآن، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، نشر مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٨٠ م.
- الزركشي: محمد بن عبدالله (ت ٧٩٤هـ).
- البحر المحيط في أصول الفقه، تحقيق عبدالقادر عبدالله العاني، ط ٢، نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الكويت - ١٤١٣ هـ (١٩٩٢ م).
- الزركلي: خير الدين.
- الأعلام، ط ٥، نشر دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٨٠ م.
- ابن زنجويه: حميد بن زنجويه (ت ٢٥١هـ).
- الأموال، تحقيق شاكر ذيب فياض، ط ١، نشر مركز الملك فيصل للبحوث، الرياض - ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م).
- ابن سحنون: محمد.
- آداب المعلمين، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، ومراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، (دون تأريخ ومحل طبع).
- السرخسي: شمس الدين.
- المبسوط، ط ٢، نشر دار المعرفة، بيروت.
- ابن سعد: محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ).
- الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت - ١٩٧٤ - ١٩٧٧ م.
- والطبقات تحقيق السلومي قطعة ساقطة من المطبوع، أطروحة قدمت إلى جامعة أم القرى بمكة لنيل درجة الدكتوراه.

- سعيد بن منصور (ت ٢٢٧هـ).
- السنن، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥هـ.
- السمناني: علي بن محمد بن أحمد الحنفي (ت ٤٩٩هـ).
- روضة القضاة وطريق النجاة، مطبعة أسعد، بغداد - ١٣٨٩هـ (١٩٧٠ م).
- السمهودي: علي بن أحمد (ت ٩١١هـ).
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، مجلدان، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط ٣، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٣٩٧هـ (١٩٧٧ م).
- السهيلي: عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ).
- الروض الأنف، تحقيق عبدالرحمن الوكيل، نشر دار الكتب الحديثة، القاهرة.
- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ).
- تأريخ الخلفاء، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر - ١٣٧١هـ (١٩٥٢ م).
- الإتيقان في علوم القرآن، نشر مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، مطبعة المعاهد، القاهرة - ١٣٥١هـ.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، نشر محمد أمين دمج، بيروت.
- الشافعي: محمد بن إدريس.
- الأم، ط. بولاق، القاهرة - ١٣٢٥هـ.
- الشوكاني: محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٠هـ).
- نيل الأوطار، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد ومصطفى محمد الهواري، نشر مكتبة الكليات الأزهرية - ١٣٩٨هـ (١٩٧٨ م).
- ابن أبي شيبه: أبو بكر عبدالله بن محمد (ت ٢٣٥هـ).
- المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق عبد الخالق الأفغاني، نشر الدار السلفية - ١٣٩٩هـ (١٩٧٩ م). وكذلك دار التاج، بيروت - ١٤٠٩هـ.
- أبو الشيخ الأنصاري: عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان (ت ٣٦٩هـ).

- طبقات المحدثين بأصبهان، تحقيق عبدالغفور عبدالحق حسين البلوشي، نشر مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت - ١٤١٢ هـ (١٩٩٢ م).
- الشيرازي: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف.
- المهذب في فقه الإمام الشافعي، جزءان، القاهرة - ١٣٤٣ هـ.
- الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٦ هـ).
- أدب الكتاب، تحقيق محمد بهجت الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة - ١٣٤١ هـ.
- ابن طباطبا: محمد بن علي.
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت.
- الطبراني: سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠ هـ).
- المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي، ط ١، نشر وزارة الأوقاف العراقية، بغداد. وأحياناً ط ٢.
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ).
- تأريخ الأمم والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٩ م. وأحياناً ط ليدن، وقد ميزت ذلك بالهامشية. وكذلك ط. دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٧ هـ.
- جامع البيان في تفسير آي القرآن، المعروف بتفسير الطبري، مصطفى البابي الحلبي، مصر - ١٣٨٨ هـ.
- الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحنفي (ت ٣٢١ هـ).
- شرح معاني الآثار، مطبعة الأنوار المحمدية، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة - ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨ م).
- تهذيب الآثار
- ابن أبي عاصم: أحمد بن عمرو بن أبي عاصم (ت ٢٨٧ هـ).
- الأحاد والمثاني، تحقيق باسم الجوابرة، ط ١، دار الراية، الرياض - ١٤١١ هـ (١٩٩١ م).
- السنة، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، ط ١، بيروت - ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م).

- ابن عبد البر القرطبي: أبو عمر يوسف (ت ٤٦٣هـ).
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة دون تأريخ.
- جامع بيان العلم وفضله، المطبعة المنيرية، مصر (دون تأريخ).
- ابن عبد الحكم المصري: أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧هـ).
- فتوح مصر وأخبارها، ط. ليدن. وكذلك ط. بريل، لندن - ١٩٣٠ م.
- عبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ)
- المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط ١، دار القلم، بيروت - ١٣٩٠هـ). و ط ٢، ط. المجلس العلمي - ١٤٠٣هـ).
- التفسير، تحقيق مصطفى مسلم محمد، نشر مكتبة الرشد، ط ١، الرياض - ١٤١٠هـ (١٩٨٩ م).
- عبدالله بن أحمد بن حنبل (ت ٢٩٠هـ).
- كتاب السنة، تحقيق محمد سعيد القحطاني، ط ١، نشر دار ابن القيم، الدمام - ١٤٠٦هـ.
- أبو عبيد: القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ).
- الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، ط ١، مصر - ١٣٨٨هـ (١٩٦٨ م).
- و دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٦هـ.
- العجلي: أحمد بن عبدالله بن صالح (ت ٢٦١هـ).
- الثقات، ترتيب علي بن أبي بكر الهيثمي، بعناية عبدالمعطي قلعجي، ط ١، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٥هـ (١٩٨٤ م).
- ابن عدي: أبو أحمد عبدالله (ت ٣٦٥هـ).
- الكامل في ضعفاء الرجال، ط ١، نشر دار الفكر، بيروت - ١٤٠٥هـ.
- ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة.
- بغية الطلب في تاريخ حلب (مخطوطة) وقد صدر أخيراً بعناية سهيل زكار، نشر دار الفكر، بيروت.

- أبو العرب التميمي: محمد بن أحمد بن تميم.
- المحن، تحقيق يحيى الجبوري، ط ٢، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت - ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م).
- ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١ هـ).
- تأريخ دمشق (مخطوطة الظاهرية).
- تأريخ مدينة دمشق، طبع المجمع العلمي العربي بدمشق.
- مناقب أمهات المؤمنين (مخطوطة).
- العلائي: خليل بن كيكليدي ٧٦١ هـ.
- إجمال الإصابة في أقوال الصحابة، تحقيق محمد سليمان الأشقر، ط ١، نشر مركز المخطوطات و التراث، الكويت - ١٤٠٧ هـ.
- ابن العماد: عبدالحى بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر المكتبة التجارية، بيروت.
- عمر بن شبة (ت ٢٦٢ هـ):
- تأريخ المدينة، تحقيق فهم محمد شلتوت، نشر السيد حبيب محمود أحمد، المدينة المنورة، بدون تأريخ.
- أبو عوانة الإسفراييني: يعقوب بن إسحاق (ت ٣١٦).
- المسند، ط. دار المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند.
- العيني: بدر الدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ)
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ط ١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.
- الفاكهي: أبو عبدالله محمد بن إسحاق.
- تأريخ مكة، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، ط ١، مكتبة النهضة، مكة المكرمة - ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م).
- ابن الفراء الحنبلي: أبو يعلى محمد بن حسين (ت ٤٥٨ هـ).

- الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٣ هـ.
- أبو الفرج الأصفهاني: -
الأغاني، ط ١، مطبعة دار الكتب المصرية.
- ابن فرحون المالكي ٧٩٩ هـ:
- تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكماء، جزءان، القاهرة - ١٣٠٢ هـ.
- ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ).
- تأويل مختلف الحديث، ط ١، مطبعة كردستان العلمية، مصر - ١٣٢٦ هـ.
- المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، نشر دار المعرفة - بيروت.
- عيون الأخبار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
- قدامة بن جعفر:
- الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الحرية، بغداد - ١٩٨١ م.
- ابن قدامة المقدسي: عبدالرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد (ت ٦٢٠ هـ).
- الشرح الكبير على المغني، حاشية المغني، بعناية جماعة من العلماء، دار الكتاب العربي ١٤٠٣ هـ.
- المغني، نشر المكتبة الحديثة، الرياض.
- القرطبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ).
- الجامع لأحكام القرآن، ط ٣، دار إحياء التراث العربي - ١٣٨٧ هـ.
- القلقشندي:
- صبح الأعشى، مصر ١٣٣١ - ١٣٣٨ هـ).
- ابن القيم: محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت ٧٥١ هـ)
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ٤ مجلدات، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة - ١٣٧٤ هـ (١٩٥٥ م).

- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، القاهرة - ١٣١٧هـ.
- الكتاني: عبدالحكي بن عبدالكبير بن محمد الحسني
- التراتيب الإدارية، ط ١، مجلدان نشر دار الكتب العلمية، بيروت دون تأريخ
- ابن كثير: إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ)
- البداية والنهاية، ١٤ جزءاً، ط ١، مطبعة السعادة، القاهرة - ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م).
- مسند الفاروق أطروحة دكتوراه، تحقيق مطر أحمد الزهراني جامعة أم القرى - ١٤٠٩ هـ.
- تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار التراث، القاهرة.
- الكلاباذي: أبو نصر أحمد بن محمد (ت ٣٩٨ هـ)
- رجال صحيح البخاري، تحقيق عبدالله الليثي، ط ١، نشر دار المعرفة، بيروت - ١٤٠٧ هـ.
- الكلاعي: أبو الربيع سليمان بن موسى (ت ٦٣٤ هـ)
- الاكتفا في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء (حروب الردة) نشر أحمد غنيم، ط ٢، نشر دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة - ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م).
- الكندي: محمد بن يوسف
- الولاة و القضاة، بيروت - ١٩٠٨ م.
- ابن الكيال: أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٩ هـ).
- الكواكب النيرات، تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي، مركز البحث العلمي للتراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة. ودار المأمون للتراث، دمشق، وبيروت - ١٤٠١ هـ.
- ابن ماجه: أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ).
- السنن، ط. محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر - ١٩٥٣ م.
- مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ).
- الموطأ برواية يحيى الليثي، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- الموطأ برواية الشيباني، تحقيق سيد أحمد صقر، القاهرة.

- الموطأ بشرح السيوطي
- المدونة الكبرى، مطبعة السعادة، القاهرة - ١٣٢٣هـ.
- الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ).
- الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن المبارك المروزي: عبدالله (ت ١٨١هـ).
- الزهد، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد النحوي (ت ٢٨٥هـ).
- الكامل في اللغة والأدب، نشر مؤسسة المعارف، بيروت.
- المتقي الهندي: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري (ت ٩٧٥هـ).
- كنز العمال، ١٦ مجلداً، تحقيق بكرى حياني وصفوت السقا، نشر مؤسسة الرسالة. وأحياناً نشر دار اللواء، الرياض - ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م).
- ابن المحب الطبري: أبو جعفر أحمد (ت ٦٩٤هـ).
- الرياض النضرة في مناقب العشرة، ط ١، نشر دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٥هـ.
- محمد بن يحيى الأشعري المالكي (ت ٧٤١هـ).
- التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان،
- المزي: جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن (ت ٧٤٢هـ).
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق بشار عواد معروف، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت.
- تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، نشر دار القيمة، بومباي - ١٣٨٤هـ.
- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسن بن علي (ت ٣٤٦هـ).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط ٤، القاهرة - ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م).
- مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ).

- الصحيح، ٥ مجلدات، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١، نشر دار إحياء الكتب العربية، مصر (١٣٧٤ - ١٣٧٥ هـ)، ونشر دار إحياء التراث العربي، بيروت. وأحياناً بشرح النووي
- التمييز، ملحق بكتاب منهج النقد عند المحدثين، تأليف محمد مصطفى الأعظمي، ط ٣، مكتبة الكوثر، المملكة العربية السعودية - ١٤١٠ هـ).
- مصعب الزيري: مصعب بن عبدالله بن مصعب (ت ٢٣٦ هـ).
- نسب قریش، تحقيق ليفي بروفنسال، نشر دار المعارف، مصر.
- المقرئزي: تقي الدين أحمد (ت ٨٤٥ هـ).
- إمتاع الأسماع، تحقيق محمود شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة - ١٩٤١ م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخط المقرئزي، مصر - ١٣٢٧ هـ.
- ابن منجويه: أحمد بن علي الأصبهاني (ت ٤٢٨ هـ).
- رجال صحيح مسلم، تحقيق عبدالله الليثي، ط ١، نشر دار الباز، مكة المكرمة ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م).
- موسى بن عقبة (ت ١٤١ هـ).
- المغازي، جمع وتحقيق محمد الباقر شيش، رسالة ماجستير بإشراف أكرم العمري قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- ابن النديم: محمد بن إسحاق (ت ٣٨٥ هـ).
- الفهرست، نشر مكتبة خياط، بيروت.
- النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣ هـ).
- السنن، ط ١، دار الفكر، بيروت - ١٣٤٨ هـ. وكذلك بشرح السيوطي وحاشية السندي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.

- خصائص علي، تحقيق أحمد ميرين البلوشي، نشر مكتبة المعلى، الكويت - ١٤٠٦هـ.
- كتاب الوفاة، تحقيق محمد زغلول، نشر مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
- فضائل الصحابة، نشر دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت - ١٤٠٥هـ.
- نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢هـ).
- صفين، تحقيق عبدالسلام هارون، ط ٢، القاهرة.
- نعيم بن حماد (ت ٢٢٨هـ).
- الفتن، مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٢٠٧، وقد صدر أخيراً بتحقيق سمير ابن أمين الزهيري، نشر مكتبة التوحيد، القاهرة - ١٤١٢هـ (١٩٩١ م).
- أبو نعيم: أحمد بن عبدالله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ).
- معرفة الصحابة، تحقيق محمد راضي حاج عثمان، ط ١، مكتبة الدار، المدينة المنورة - ١٤٠٨هـ.
- تأريخ أصبهان، مجلدان، نشر الدار العلمية، دلهي، الهند - ١٩٨٥ م.
- حلية الأولياء، ١٠ مجلدات، مطبعة السعادة، مصر - ١٣٥٧هـ.
- الإمامة والرد على الرافضة، تحقيق علي محمد فقيهي، ط ١، نشر مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة - ١٤٠٧هـ.
- النووي: أبو زكريا محيي الدين بن شرف (ت ٦٧٦هـ).
- تهذيب الأسماء واللغات، ٣ مجلدات، نشر إدارة المطبعة المنيرية، القاهرة.
- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ).
- نهاية الأرب في فنون الأدب، ط ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة - ١٣٤٦هـ.
- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨هـ).
- السيرة النبوية، ط. السقا ورفاقه، مصر - ١٣٧٥هـ). وأحياناً ط. محمد محيي الدين عبد الحميد.
- كتاب التيجان في ملوك حمير، حيدر آباد الدكن، الهند - ١٣٤٧هـ.

- هشام الكلبي:
- جهرة النسب، تحقيق ناجي حسن، ط ١، نشر عالم الكتب، بيروت - ١٤٠٧ (١٩٨٦ م).
- أبو هلال العسكري: أبو هلال بن عبدالله بن سهل (ت ٣٩٥ هـ).
- الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، نشر أسعد الحسيني، مطبعة دار الأمل، طنجة.
- ابن الهمام الحنفي: كمال الدين (ت ٨٦١ هـ).
- فتح القدير شرح الهداية، بولاق - ١٣١٨ هـ.
- الهيثمي: علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧ هـ).
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط ٣، دار الكتاب العربي بيروت - ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢ م).
- موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، تحقيق محمد عبدالرزاق حمزة، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.
- بغية الباحث في زوائد مسند الحارث، تحقيق حسين الباكري، نشر مركز خدمة السنة والسيرة بالجامعة الإسلامية.
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي، مخطوطة مصورة بمكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقد حقق قطعة منها نايف الدعيس لنيل الدكتوراه من الجامعة الإسلامية، ثم أصدرها كاملة في مجلدين سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤١٣ هـ (١٩٩٣ م).
- كشف الأستار عن زوائد البزار، ط ١، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٣٩٩ هـ.
- الواقدي: محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ).
- المغازي، ط. مارسدن جونز، بيروت.
- وكيع: محمد بن خلف.

- أخبار القضاة، القاهرة - ١٩٥٠ م.
- ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي (ت ٦٢٦هـ).
- معجم البلدان، دار صادر، بيروت - ١٤٠٤هـ.
- يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ).
- الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط ٢، دار التراث، القاهرة.
- يعقوب بن سفيان الفسوي (ت ٢٧٧هـ).
- المعرفة والتاريخ، ٤ مجلدات، تحقيق أكرم العمري، نشر مكتبة الدار، المدينة المنورة - ١٤١٠هـ.
- اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب إسحاق (ت ٢٨٤هـ).
- التاريخ، بيروت - ١٩٦٠ م.
- أبو يعلى الموصلي: أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت ٣٠٧هـ).
- المسند، تحقيق حسين سليم أسد، ط ١، دار المأمون للتراث - ١٤٠٤هـ).
- أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ).
- الخراج، ط ٥، المطبعة السلفية، القاهرة - ١٣٩٦هـ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



المراجع الحديثة

- ادوين رايشاور:
 - اليابانيون، ترجمة ليلي الجيالي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت - ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م).
- آرنولد توينبي:
 - تأريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، نشر الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت - ١٩٨١ م.
 - مختصر دراسة التأريخ، ط ١، ترجمة فؤاد محمد شبل، نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة - ١٩٦٠ م.
- إحسان صدقي العمدة: حركة مسيلمة الخنفي، حوليات كلية الآداب، الحولية العاشرة، الكويت - ١٤٠٩ هـ (١٩٨٨ م).
- أكرم العمري:
 - بحوث في تأريخ السنة المشرفة، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٩٧٥ م.
 - دراسات تاريخية، نشر المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - ١٤٠٣ هـ.
 - المجتمع المدني، نشر المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - ١٤٠٣ هـ.
 - السيرة النبوية الصحيحة، مجلدان، بيروت - ١٤١٤ هـ.
- الأكوغ: إسماعيل بن علي:
 - البلدان اليانية عند ياقوت الحموي، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٨ هـ.
- الباز العريني:
 - الدولة البيزنطية، نشر دار النهضة العربية، بيروت - ١٩٨٢ م.

- بتلر: ألفريد. ج:
- فتح العرب لمصر، عزَّبه محمد فريد أبو حديد، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥١ هـ (١٩٣٣ م).
- البلادي: عاتق بن غيث:
- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ط ١، دار مكة للنشر، مكة - ١٤٠٢ هـ.
- بين مكة وحضرموت، ط ١، نشر دار مكة، مكة - ١٤٠٢ هـ.
- جمال محمد صادق القاضي:
- فتوح الشام من كتاب الاكتفا، رسالة ماجستير قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- جوزيف نسيم يوسف:
- تأريخ الدولة البيزنطية، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية - ١٩٨٤ م.
- أبو الحسن الندوي:
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، نشر الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، الكويت - ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م).
- سعدي مهدي الهاشمي:
- ابن سبأ حقيقة لا خيال، نشر مكتبة الدار، المدينة المنورة.
- سعيد عبدالفتاح عاشور:
- أوروبا العصور الوسطى، مجلدان، ط ٨، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة - ١٩٨١ م.
- سليمان عبد الله السويكت:
- منهج المسعودي في كتابة التاريخ، ط ١، الرياض - ١٤٠٧ هـ (١٩٨٦ م).
- سليم النعيمي:

- ظهور الخوارج، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج ١٥، ١٩٦٧ م.
- سيد معظم حسين:
- مناشدة لإقامة جامعة إسلامية حديثة (حل الازدواجية) ضمن كتاب: التعليم الإسلامي، أهدافه ومقاصده.
- شاكر مصطفى: - التأريخ العربي والمؤرخون، ط ٢، مجلدان، نشر دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٧٩ م.
- شكري فيصل:
- حركة الفتح الإسلامي، ط ٦، نشر دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٨٢ م.
- شمس الله محمد صديق:
- منهج ابن كثير وموارده، أطروحة دكتوراه قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- صالح أحمد العلي:
- دراسات في تطور الحركة الفكرية، ط ١، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م).
- خطط البصرة - دراسة أحوالها العمرانية والمالية - ، ط. المجمع العلمي العراقي - ١٤٠٦ هـ.
- الدولة في عهد الرسول ﷺ، ط ١، نشر المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٨ م.
- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط ٢، دار الطليعة، بيروت - ١٩٦٩ م.
- امتداد العرب في صدر الإسلام، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م).
- تأريخ العلماء وفهارس المصنفات في المصادر العربية (بحث في مجلة المجمع العلمي العراقي)، المجلد ٣٤، ج ١.
- صبحي محمصاني:

- تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء، ط ١، نشر دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٨٤ م.

• طه حسين:

- الفتنة الكبرى، القاهرة ١٩٥٣ م.

• ظافر القاسمي:

- نظام الحكم في الشريعة والتأريخ الإسلامي (السلطة القضائية)، ط ١، نشر دار النفائس، بيروت - ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م).

• عبدالحميد علي ناصر فقيه:

- خلافة علي بن أبي طالب - دراسة نقدية للروايات - ، رسالة ماجستير بإشراف أكرم العمري قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤١٣ هـ.

• عبدالسلام محسن آل عيسى:

- النواحي المالية في خلافة عمر بن الخطاب - دراسة نقدية للأسانيد بأشراف أكرم ضياء العمري، نالت درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

• عبدالعزيز إبراهيم العمري:

- الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، الرياض.

• عبدالعزيز البيتي:

- ابن أعثم الكوفي، منهجه وموارده عن خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رسالة ماجستير قدمت للجامعة الإسلامية بإشراف أكرم ضياء العمري.

• عبدالعزيز الدوري:

- مقدمة في تأريخ صدر الإسلام، بيروت - ١٩٦٠ م.

- نشأة علم التأريخ عند العرب، ط ١، المطبعة الكاثوليكية، بيروت - ١٩٦٠ م.

- نظام الضرائب في صدر الإسلام، بحث في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق،

مجلد ٤٩، ج ٢ سنة ١٩٧٤ م.

- الجزيرة العربية في عصر الخلفاء الراشدين (نظرة شاملة)، ضمن بحوث ندوة الجزيرة العربية، ج ١، نشر جامعة الملك سعود، الرياض - ١٤٠٤ هـ.
- عبدالعزيز سليمان المقبل:
- خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه - دراسة نقدية للروايات باستثناء حروب الردة - رسالة ماجستير بإشراف أكرم ضياء العمري قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- عبدالعزيز عبدالله السلومي
- ديوان الجند، نشر مكتبة الطالب الجامعي، مكة - ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م).
- عبدالعزيز محمد نور ولي:
- حركة الردة في اليمن وحضرموت وعمان، رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- عبدالقديم زلوم:
- الأموال في دولة الخلافة، ط ١، ط. دار العلم للملايين - ١٤٠٣ هـ.
- عبدالكريم زيدان:
- الوجيز في أصوله الفقه، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٩٨٧ م.
- علي ثائب العمري؟
- النبذة في ترجمة أبي ذر وتاريخ الربذة، ط ١، الرياض - ١٤٠٧ هـ.
- غالي محمد الأمين الشنقيطي:
- الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين، ط. دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة. وط ٣، مؤسسة علوم القرآن، دمشق - ١٤١١ هـ).
- فؤاد سزكين:
- تأريخ التراث العربي، مجلدان، ترجمة د. فهمي أبو الفضل، ود. محمود فهمي حجازي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٧ م.

- كريستنسن: آرثر
- إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت - ١٩٨٢ م.
- ماسينيون:
- خطط الكوفة وشرح خريطتها، ط ١، تعريب تقي محمد الصعبي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، مطبعة العزى، النجف - ١٣٩٩ هـ).
- محمد الأمين محمد محمود أحمد مولود الجكني الشنقيطي:
- السيرة النبوية في فتح الباري، أطروحة دكتوراه من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- محمد الأمين بن المختار الشنقيطي:
- مذكرة أصول الفقه، نشر المكتبة السلفية، المدينة المنورة - (دون تأريخ).
- محمد حميد الله:
- مجموعة الوثائق السياسية، ط ٥، دار النفائس، بيروت - ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م).
- محمد سعيد رمضان البوطي:
- الشورى في عهد الخلفاء الراشدين بحث ضمن كتاب: الشورى في الإسلام نشر المجمع الملكي الأردني - ١٩٨٩ م.
- محمد صامل السلمي:
- منهج كتابة التاريخ الإسلامي، نشر دار طيبة، الرياض - ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م).
- محمد ضياء الدين الرئيس:
- الخراج و النظم المالية للدولة الإسلامية، ط ٤، ط. دار الأنصار، القاهرة - ١٩٧٧ م.
- محمد عبدالقادر خريسات:
- دور العرب المنتصرة في الفتوحات (ضمن بحوث المؤتمر الدولي الرابع لتأريخ بلاد الشام).

- محمد عبدالله الغبان:
- فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، رسالة ماجستير بإشراف أكرم العمري، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - ١٤١٠ هـ.
- محمد محمد علي العواجي:
- خلافة عثمان بن عفان، رسالة ماجستير بإشراف أكرم العمري بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- محمد مصطفى الأعظمي:
- دراسات في الحديث النبوي، نشر جامعة الرياض، د. د. ت.
- محمد ناصر الدين الألباني:
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، نشر المكتب الإسلامي، بيروت - المجلدة الأولى سنة ١٩٧٢ م، والرابعة ١٩٨٣ م.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ط. المكتب الإسلامي - ١٤٠٧ هـ.
- صحيح سنن أبي داود، ط ١، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج - ١٤٠٩ هـ.
- صحيح سنن الترمذي، ط ١، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج - ١٤٠٩ هـ.
- ضعيف سنن أبي داود، ط. المكتب الإسلامي - ١٤١٢ هـ.
- صحيح سنن النسائي
- صحيح سنن ابن ماجه، ط ١، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج - ١٤٠٨ هـ.
- محمد النقيب العطاس:
- التعليم الإسلامي، أهدافه ومقاصده (بالانكليزية)، ترجمة د. عبد الحميد الحريبي، نشر مؤسسة عكاظ وجامعة الملك عبدالعزيز، جدة - ١٩٨٤ م.

- مصطفى محمد مسعد:
- التنظيم الإداري في الجزيرة العربية في عصر الخلفاء الراشدين، بحث ضمن ندوة دراسات تأريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث، الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، نشر جامعة الملك سعود، الرياض - ١٤٠٤ هـ (١٩٨٣ م).
- ملكة أبيض:
- التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة، نشر دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٨٠ م.
- مناع القطان:
- النظام القضائي في العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة (ضمن وقائع ندوة النظم الإسلامية، أبو ظبي ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م).
- مهدي رزق الله أحمد:
- الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة، بحث منشور في مجلة كلية الآداب بجامعة الملك سعود
- ناصر الدين الأسد:
- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، مصر - ١٩٥٦ م.
- ناصر بن عقيل الطريفي:
- القضاء في خلافة عمر بن الخطاب، ط ١، دار المدني - ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م).
- نالينو. ك:
- علم الفلك تأريخه عند العرب في القرون الوسطى، روما - ١٩١١ م.
- هشام جعيط:
- الفتنة، دار الطليعة، بيروت - ١٩٩٢ م.
- همام سعيد:

- عرض الأحاديث النبوية المتعلقة بالشورى ودراستها (بحث ضمن - كتاب: الشورى في الإسلام ص ٨٥ - ٩٨) نشر المجمع الملكي الأردني - ١٩٨٩ م.
- هيجل: ج. ف. ف.
- محاضرات في فلسفة التاريخ، ج ١، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام، نشر دار الثقافة، القاهرة - ١٩٨٠ م.
- ول ديورانت:
- قصة الحضارة، ٤٢ مجلدة، نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ١٩٧٨ - ١٩٨٦ م.
- ولز: ه. ج (ت ١٩٤٦ م)
- موجز تاريخ الإنسانية، ٤ مجلدات، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر، القاهرة - ١٩٦٧ م.
- يحيى إبراهيم اليحيى:
- الروايات التاريخية في فتح الباري - الخلافة الراشدة والدولة الأموية - جمع ودراسة، أطروحة دكتوراه قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - (١٤١١هـ).



المؤلف

السيرة الذاتية:

- من مواليد الموصل شمال العراق سنة ١٩٤٢ م.
- متخرج من كلية التربية عام ١٣٨٤ هـ (١٩٦٣ م).
- حصل على الماجستير في التأريخ الإسلامي من كلية الآداب بجامعة بغداد عام ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م)، وكانت رسالته (بحوث في تأريخ السنة المشرفة) مع تحقيق (طبقات خليفة بن خياط).
- حصل على الدكتوراه في التأريخ الإسلامي من جامعة عين شمس بالقاهرة عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) في أطروحته (موارد الخطيب البغدادي في تأريخ بغداد).
- بدأ التدريس بكلية الآداب بجامعة بغداد منذ سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) إلى سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) حيث أعيرت خدماته للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- عمل بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة رئيساً لقسم الدراسات العليا ما بين سنة ١٣٩٧ - ١٤٠٣ هـ.
- عمل رئيساً للمجلس العلمي بالجامعة الإسلامية خلال المدة ١٣٩٨ - ١٤٠٣ هـ.
- عمل أستاذاً للتأريخ الإسلامي في قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية حيث أشرف على عشرات الرسائل للماجستير والدكتوراه، ثم عمل أستاذاً في قسم التأريخ بكلية الدعوة وأصول الدين إلى تأريخ ٢ - ٨ - ١٤١٥ هـ.

• يعمل حالياً في قسم الشؤون العلمية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة المنورة، وعضواً في مجلس مركز خدمة السنة والسيرة النبوية منذ تأسيسه، وعضواً في المجلس العلمي بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة المنورة.

• أشرف على عشرات الرسائل الجامعية للماجستير والدكتوراه خلال السنوات العشرين الماضية في الجامعات العربية، وخاصة الجامعات السعودية، كما ناقش عدداً كبيراً منها في تخصصات الحديث النبوي، والتأريخ الإسلامي، والتربية الإسلامية.

مؤلفاته:

١ - السيرة النبوية الصحيحة، محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة، مجلدان، ط ٢، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة - ١٤١٤ هـ) وقد ترجم معظمه، ونشر باللغتين التركية MARYLAND و الانكليزية IS-

TANBUL 1988. U.S.A 1991

٢ - بحوث في تأريخ السنة المشرفة، طبع خمس مرات في بغداد وبيروت والمدينة المنورة في سنة ١٩٦٧ م، ١٩٧٢ م، ١٩٧٥ م، ١٩٨٤ م، والطبعتان الأولى والثانية بتعزيد من جامعة بغداد. والطبعة الأخيرة مطورة، وتقع في ٥٠٠ صفحة.

٣ - موارد الخطيب في تأريخ بغداد، طبع بدمشق سنة ١٩٧٥ م وبيروت ١٩٨٤ م، والطبعة الأولى بتعزيد من جامعة بغداد.

٤ - دراسات تأريخية، نشر المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - ١٩٨٣ م.

٥ - التراث والمعاصرة، طبعتان، نشر رئاسة الشؤون الدينية، قطر ١٤٠٥ كما طبع باللغة التركية ISTANBUL 1991.

- ٦ - الإسلام و الوعي الحضاري، بيروت - ١٤٠٨ هـ.
 - ٧ - تراث الترمذي العلمي، نشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة - ١٤١٣ هـ.
 - ٨ - مجتمع المدينة في عصر النبوة، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ١٤١٥ هـ.
 - ٩ - مناهج البحث وتحقيق التراث، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤١٥ هـ، ويقع في ٣٦٠ صفحة، وهو تطوير لكتابه «تعليقة في مناهج البحث وتحقيق المخطوطات»، نشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة - ١٤١٤ هـ.
 - ١٠ - قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، نشر في جزئين ضمن سلسلة كتاب الأمة - قطر - ١٤١٤ هـ.
 - ١١ - التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، نشر من قبل مركز خدمة السنة بجامعة قطر.
 - ١٢ - عصر الخلافة الراشدة: محاولة لتطبيق قواعد النقد عند المحدثين على الرواية التاريخية، نشر مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة - ١٤١٤ هـ.
 - عصر السيرة النبوية، ضمن مرجع في تاريخ العرب، من إعداد المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، ولم يطبع بعد (٤٠٠ صفحة).
 - ١٣ - من فقه السيرة النبوية العطرة، نشر النادي الأدبي بمكة المكرمة تحت الطبع
 - ١٤ - الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عصر السيرة النبوية! (تحت الطبع).
- التحقيقات:**
- ١٥ - تأريخ خليفة بن خياط، ٣ طبعات، العراق - ١٩٦٧ م، بتعزيد من المجمع العلمي العراقي، ودمشق - ١٩٧٧ م، والرياض - ١٩٨٤ م.
 - ١٦ - طبقات خليفة بن خياط، طبعتان، الأولى ببغداد - ١٩٦٧ م بتعزيد من جامعة بغداد، والثانية بالرياض - ١٩٨٣ م.

١٧ - المعرفة والتأريخ، ليعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧ هـ)، ٣ طبعات الأولى ببغداد - ١٩٧٤ م من قبل وزارة الأوقاف العراقية، والثانية نشر مؤسسة الرسالة ببيروت - ١٩٧٦ م، والثالثة نشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة - ١٩٨٨ م.

١٨ - أزواج النبي، لابن زبالة، نشر المجمع العلمي بالجامعة الإسلامية ١٩٨٢ م.
١٩ - بقي بن مخلد القرطبي ومقدمة مسنده عدد ما لكل واحد من الصحابة من الحديث، بيروت - ١٩٨٤ م.

٢٠ - مسند خليفة بن خياط، بيروت - ١٩٨٥ م.

٢١ - تركة النبي، لحمد بن إسماعيل، بيروت - ١٩٨٣ م.

البحوث:

٢٢ - منهج المحدثين في النقد مقارنا بالميثودولوجيا الغربية، مجلة السنة، جامعة قطر - ١٤١٢ هـ.

٢٣ - الخطيب البغدادي: سيرته الذاتية، بيئته الحضارية، إنتاجه الفكري واهتماماته التربوية، ضمن كتاب «من أعلام التربية العربية الإسلامية»، مجلد ٢، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج - ١٤٠٩ هـ (١٩٨٨ م).

٢٤ - موقعة عين جالوت، نشر مجلة الشرطة ١٩٦٨ م.

٢٥ - القراءة المجدولة وأثرها.

٢٦ - الاستشراق، نشر مجلة مركز السنة والسيرة، جامعة قطر ١٤١٥ هـ.

